رحالة غربيون في بلادنا

عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب الجزيزة وشمالها

مع ضميمة لها صلة بالرحلات

بقلم
حمد الجاسر

رحالة غربيون في بلادنا
حمد الجاسر

ردمك ٦-٨-٠٦٠-٩٠٦٠ - ٩٩٦٠

مرامر للطباعة الإلكترونية
هاتف 4783582 فاكس 4779883

رحالة غربيون في بلادنا

عرض موجز لرحلات بعض الغربيين
في قلب الجزيزة وشمالها



مع ضميمة لها صلة بالرحلات

بقلم
حمد الجاسر

© دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجاسر، حمد

رحالة غربيون من بلادنا: عرض موجز لرحلات بعض الغربيين في قلب.... الرياض.

... ص، ... سم

ردمك ٦ - ٨ - ٩٠٦٠ - ٩٩٦٠

١- الرحالة الغربيون. ٢- الجزيرة العربية - وصف رحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥،٣٠٠١٠٤ ٩٩٦٠/٢٢٨٨

رقم الإيداع: ١٧/٢٢٨٨

ردمك: ٦ - ٨ - ٩٠٦٠ - ٩٩٦٠

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

قرأت عددًا من رحلات الغربيين في شمال الجزيرة ووسطها، وبعض مؤلفاتهم المتصلة بالسكان مما عُرِّب في الفترة الأخيرة، وقد رغب بعضُ الإخوة أن أعرض بَعْضَ ما قرأته منها، فقد يستفيد منه من لم يتمكن من اقتناء تلك المؤلفات، فكان أن آستجبت لتلك الرغبة بنشر ذالك مُجَزَّأً، ثم رأيت أن أقدم مانشر مجموعًا لكي يطلع عليه من لم يقرأه، فقد لا يخلو من فائدة.

وهنا أمور جديرة بالانتباه:

الأمر الأول: أنني لم أقرأ أصول تلك المؤلفات التي كتبت بها أول ماكتبت، والإخوة الذين عربوها - مع اعترافي بفضلهم، وإدراكي لمكانتهم العلمية - لايُداخلني الشك في أنهم حرصوا على تقديم ماعربوه مطابقًا لأصله أداءً للأمانة العلمية، التي تقضي بإيراد النصوص على ماهي عليه، وماتؤديه من معان دون تغيير أو نقص أو تحوير.

الأمر الثاني: أن الأفهام تتفاوت، والأفكار تختلف بين المؤلف والمعرب، ولهذا فما قدمته للقارئ أثناء عرضي لما قرأت هو ما اتضح لي من كلام المعرب، دون التَّثبت من مطابقته لأصله، وعليه - وحده - تقع تبعته.

ولا أكتم القارئ أن بعض الإخوة لفت نظري إلى وقوع خلل في بعض ماقرأ في كثير من المعربات، ومنها على سبيل المثال (رحلة سادلير) إلَّا أن مافيها لا يؤثر من حيث المعنى تأثيرًا يبعده عن المقصود منه، أو يخل به بصفة عامة.

الأمر الثالث: أنني لا أحسن اللغة الأصلية لتلك الكتب أو الرحلات، ومن هنا يبدو عملي ناقصًا، إذْ أَوْلَى وَأَوَّل ما ينبغي أن يسير عليه من يتصدَّى لإفادة القارئ الثقة التامة بالمعلومات التي يقدمها، وهذا مالم أستطعه فيما سَأُقَدِّمُهُ للقراء في عملي هذا، وإذن فإنه قد يفيد بعض المتطلعين إلى معرفة شيء مما تحويه تلك المؤلفات على وجه الإجمال، دون تعمق في التفصيل.

والله الموفق،

مواد لتاريخ الوهابيين

للرحالة جوهان لودفيج بوركهارت – ترجمة: د. عبدالله الصالح العثيمين – جامعة الملك سعود

حديث المرء عن نفسه مما لا يستساغ دائمًا، غير أن حقيقة قد يراد بها الاعتذار، وهي أنني شديد النسيان بدرجة توقعني بالحرج في بعض الأحيان، فقد يكرمني أحد الإخوان بتقديم بعض مؤلفاته في ظروف لا أتمكن خلالها من الاستفادة مما قدم لي، بل قد لا أقابل صنيعه بما هو جدير به من تقدير، إما لتأثر صحتي، وما أكثر هذا في الآونة الأخيرة، أو لانشغالي بعمل يفوت وقته بتأخيره، وقد تتاح لي مناسبة ذات صلة بما قدم بعد فترة طويلة من الوقت، كما حدث عندما بعث لي أحد الإخوة (الظفيريين) مؤلفًا مُعَرَّبًا عن قبيلته، تأليف مستشرق إنجليزي معاصر، مما حفزني لإملاء موضوع ذي صلة بدراسات بعض من عرفت من (المستشرقين) عن بلادنا وسكانها من مختلف الجوانب، مما اطلع المعنيون بهذا من القراء عليه، وها أنا أواصل الحديث بما كنت أود أن ذالك كان في وقته الملائم وماذا يغني الاعتذار الآن!!

من المعروف أن أبواب المدينتين الكريمتين مكة والمدينة منذ القدم كانت مفتحة للقاصدين من مسلمين، أو متظاهرين بالإسلام للحج أو لغيره، من مختلف المقاصد والرغبات.

وفي العصور الأخيرة أصبح من الميسور وصول الرحالة المغامرين الذين يستسهلون كل صعب لتحقيق مآربهم، وقد يجدون من بعض ذوي النفوذ من يحقق لهم ما يطمحون إليه، رغم كونهم ممن يحظر دخوله تلك البقاع المطهرة، كما حدث لـ (فارتيما) الإيطالي[١] الذي يعد من أقدم من زار مكة، مع أحد

(١) المنجد: صلاح الدين في «مجلة الدراسات الإسلامية» – إسلام آباد – م: ٢٠ ص ٨٩/ ٩٣ شوال ١٤٠٥هـ.

الضباط المكلفين بحماية حجاج الشام في أول القرن السادس عشر[١] وكما جرى لكثيرين غيره بوسائل مختلفة، منها التحايل باسم الإسلام.

وتقول مؤلفة كتاب «اكتشاف جزيرة العرب»[٢]: وفي الفترة الواقعة بين عام ١٦٠٤ وعام ١٧٣٩م ترك لنا أربعة من مشاهير الحجاج – تقصد الغربيين – ذكريات عن رحلاتهم – ثم ذكرتهم – مما لا يعني الباحث هنا سوى إدراك أن السبيل كما ممهدًا قبل الرحالة الذي سينحصر الحديث عنه (بوركهارت).

ولا تفوت الإشارة إلى ذكر رحالة معاصر لـ (بركهارت) يعد ماكتب في رحلته توطئة وتمهيدًا لمن جاء بعده، هو (دومنغوباديا) الأسباني، الذي تسمى بـ (الحاج علي بك العباسي) وقدم مكة سنة ١٢١٧ (١٨٠٦م) قبل (بوركهارت) بثماني سنوات، وشاهد موكب الإمام سعود بن عبدالعزيز، ووصفه وصفًا شيقًا، وأورد تفصيلًا عن الدولة السعودية في ذالك العهد، وعن حقيقة الدعوة الإصلاحية، فيها إنصاف وتحرٍّ[٣] للحقيقة، مما لا يستبعد أن يكون (بوركهارت) تأثر به.

لقد أتاحت الظروف لـ (بوركهارت) زيارة المدينتين الكريمتين، مكة والمدينة والإقامة فيهما، وفي جدة والطائف وينبع، والتجول في تلك البقاع خلال فترة من الزمن تبلغ عشرة شهور، من منتصف شهر تموز ١٨١٤م حتى منتصف شهر (أيار) ١٨١٥، وسجل مشاهداته، ومختلف ما عَنَّ له من أفكار عن أحوال هذه البلاد وطباع سكانها وطرق تعايشهم، وجميع أنماط حياتهم، من اجتماعية، واقتصادية، وثقافية وسياسية، وقدم ذالك كله في مؤلفين

(١) نفس المصدر حيث يروي المنجد أن (فارتيما) سافر مع الحجاج من دمشق في ٨ إبريل سنة ١٦٠٣.

(٢) «اكتشاف جزيرة العرب» ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه ص ١٠١.

حافلين، بما يهم المهتمين بالدراسات التاريخية العامة، مما قد يعد من المصادر الأساسية لتلك الدراسات خلال تلك الفترة.

والغريب في أمر هذا المستشرق - أو أمر الناس حوله - أنه رغم أدائه فريضة الحج وإكمال شعائره، واختيار اسم يدل على إسلامه، في أحرج فترة من فترات إحساسه بالانتقال من هذه الحياة إلى الدار الآخرة، هو (الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبدالله بُرْكهَرْت اللوزاني)، فقد كان يُنْظَرُ إلى هذا الجانب من حياته نظرة شك وارتياب.

ولندع هذا الأمر إلى علام الغيوب، فقد قَدِم الرجل على ما قدَّم **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**.

هذا المستشرق الرحالة يُعْرَف باسم (جون لويس بوركهارت) أو (يوهن لودفيك بوركهارت) (Johann Ludwig Burckhart)[1] والخلاف في الاسم راجع لأصله، فقد كان سويسريًا، ولد في (لوزان) في شهر المحرم سنة ١١٩٩هـ (١٧٨٤م) وتوفي في (القاهرة) في ذي الحجة سنة ١٢٧٢هـ (يوليو سنة ١٨١٥م).

وقد لايعني الباحث هنا من تاريخ حياة هذا الرجل إلا ما يتصل منها بما كتب عن هذه البلاد فقط، وكيف استطاع التجول بين أرجائها خلال تلك الفترة العصيبة، التي شهدت أعنف عراك بين القوى الغاشمة، التي غزت البلاد، وأهلها أنصار الدعوة الإصلاحية وبين أعدائهم، وماهو موقفه من حوادث ذالك العهد؟ وماهي نظرته إلى تلك الدعوة؟ هذا هو ما فصله فيما خلف من مؤلفات.

لقد غادر (بوركهارت) بلاده إلى (ألمانيا) وتلقى تعليمه في (لايبزك) ثم في (جامعة توبنجن)، وتطلع أن يصبح من رواد المعرفة المعروفين، فانتقل إلى

(١) «الاعلام» للزركلي ٩/ ٣٤٠ الطبعة الثانية.

(بريطانيا) وهناك قام بالتدريس في جامعتي (لندن) و (كمبردج)، وتجنس بالجنسية الإنجليزية، وقويت صلاته بالجمعيات التي تعنى بمختلف الدراسات، من اجتماعية، وجغرافية وغيرها، ومن بينها (الجمعية الإفريقية)، التي دأبت على بعث الرواد للتغلغل في وسط (قارة إفريقية) لمعرفة بعض مجاهلها، ولكن الأوبئة والأمراض كانت تقضي على من تبعثهم لارتياد تلك المجاهل.

وكان (بوركهارت) قد اتصل بأحد أعضاء هذه الجمعية البارزين، وبذالك استطاع الحصول على موافقتها لمساعدته برحلة إلى (تمبكتو)، لمرافقة قافلة حجاج هذه البلاد عند عودتهم من مكة، ومن هنا اتجه وهو في (بريطانيا) لدراسة اللغة العربية، وغيرها من العلوم التي تهيىء له القيام بتلك الرحلة.

وفي الخامسة والعشرين من عمره غادر (بريطانيا) إلى جزيرة (مالطة) بمظهر طبيب هندي يدعى إبراهيم، ومن (مالطة) قدم الشام، فأقام بمدينة (حلب) وتنقل في نواحيها سنتين، اتقن خلالهما اللغة العربية ومبادئ الدين الإسلامي، وتجول مع القبائل الرحل كقبيلة (عَنَزة)، ومن ثَمَّ بدأ بتسجيل مشاهداته أثناء تجواله في بلادالشام، حتى بلغ (البتراء) وكتب عنها وصفًا كان الباحثون من علماء الآثار يتطلعون إليه، ومن الشام اتجه إلى (القاهرة)، وهو في الثامنة والعشرين من عمره، فكان ممن عرف في هذه المدينة طبيب أرمني يدعى (بوصيري) وهو الطبيب الخاص لمحمد علي باشا حاكم مصر، واستطاع أن يتصل بهذا الحاكم، وأن يحظى منه بمكانة، سهلت ما يعترضه من صعوبات إبَّان رحلاته. وقد تجول في الصعيد حتى بلغ بلاد النوبة، فقرر السفر مع قافلة حجاجهم إلى مكة المكرمة، فتزود برسائل من حاكم مصر باسم الشيخ إبراهيم بن عبدالله الشامي فأبحر من (سواكن) في أول يوليو سنة ١٨١٤م - مما سيأتي تفصيله -.

ولقد كان مما عني به المهتمون بالدراسات التاريخية في بلادنا من مؤلفات

(بركهارت) هما كتاباه «رحلات في بلاد العرب» (Travels In Arabia) و«ملاحظات عن البدو والوهابيين» (Notes on Beduins and Wahabys) فاتجه ثلاثة من أساتذة (جامعة الملك سعود) لِتعريبهما، فقام أولًا الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بترجمة القسم الثاني من الكتاب الثاني بعنوان «مواد لتاريخ الوهابيين» نشر عام – ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) – وتولى الدكتوران عبدالعزيز بن صالح الهِلَابِي وعبدالرحمن عبدالله الشيخ تعريب الكتاب الأول عام – ١٤١٣هـ (١٩٩٢م).

وقد أبان الدكتور عبدالله العثيمين السبب الذي حمله على الاقتصار على تعريب ذالك والبدء به – فقال في المقدمة – بأنه اكتفى – موقتًا على الأقل – لأنه أكثر التصاقًا بتاريخ الدولة السعودية.

ومعروف أن الدكتور عبدالله يعد من أبرز المتخصصين بهذا التاريخ بيننا، بدون مواربة أو مجاملة – فيما أعلم –.

والمؤلفات عن تاريخ الدعوة الإصلاحية التي قام بها الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وآزره على نشرها ونصرها (آل سعود)، من الكثرة بمكان، وأوثقها ماكان من تأليف علمائها ومناصريها، إلا أن هاؤلاء عنوا بأهم جوانبها – وهو إيضاح حقيقتها – أكثر من الاتجاه إلى إبراز الجوانب التاريخية، ولهذا فإن في بعض ماكتبه الآخرون ما قد يضيف جديدًا، أو يفصل مجملًا، أو يوضح ماقد يحتاج إلى إيضاح، من القضايا التاريخية، مما لا يُسْتغنَى عنه، وتتجلى قيمة كتاب (بركهارت) في عدة أمور:

الأمر الأول: أن (بركهارت) يعد من أقدم من كتب من المؤرخين، إذ هو معاصر لأولهم الشيخ حسين بن غنام (١١١٥/ ١٢٢٥هـ)[١] و (بركهارت) ولد سنة

(١) «العرب» س ٢٢ ص ٢٠٥.

١١٩٩ وتوفي سنة ١٢٣٢هـ بعد ابن غنام بسبع سنوات، ولم يطلع على تاريخه.

الأمر الثاني: أن (بركهارت) مع كونه غريبًا عن تلك الدعوة والقائمين بها، عاش فترة من الزمن بين أعدائها، وكان قوي الصلة برأسهم في عهده محمد علي باشا صاحب مصر إبَّان قيامه بحربهم، ومع ذالك فقد كان موقفه – فيما كتب – موقف المنصف المحايد كما وصفه الدكتور عبدالله العثيمين إذ قال: كان محايدًا لدرجة كبيرة في حديثه. عن أنصار الدعوة، وفيما أورده عنهم الكثير من المعلومات المفيدة للمهتمين بتاريخهم[١].

ومع أن (بركهارت) نفسه أوضح أن ما تلقاه من معلومات – مع قلتها – كانت متناقضة، وغير صحيحة، ولكنه جمعها من أوثق ما وصل إليه، وقد أبدى أسفه على أن أبواب الحجاز – خلال إقامته – كانت موصدة أمام النجديين، بسبب حربهم مع محمد علي، وهاؤلاء أقدر من غيرهم على إعطاء تفصيلات دقيقة وصادقة.

ويضاف إلى هذا أن نظرته العامة إلى الدعوة الإصلاحية نظرة صحيحة، إذ يقول: لم تكن مبادئ محمد بن عبدالوهاب مبادئ ديانة جديدة، بل كانت جهوده موجهة فقط لإصلاح المفاسد التي تفشت بين المسلمين ونشر العقيدة الصافية[٢].

ويضيف في موضع آخر قائلًا: ومبادئ الوهابيين الأساسية كما سيتضح فيما بعد تتفق مع تلك التي تدرس في المناطق الأخرى من الأمبراطورية الإسلامية، فالقرآن والسنة لديهم المصدران الأساسيان، المشتملان على الأحكام، وآراء المفسرين الأجلاء للقرآن محترمة[٣].

الأمر الثالث: أن المعرب الكريم يعد أبرز المعنيين في هذا العهد بهذا الجانب من تاريخ أمتنا وبلادنا، دراسة، وتأليفًا، وسعة اطلاع، ومعرفة بما ألف فيه، وأقدرهم على تقديم ما يقوم بتعريبه، في أوضح صورة وأكثرها مطابقة لأصله، وأحرصهم على تدارك ما يتطلب ذالك عن فهم وإدراك بدقة وتقصٍ

(١) «مواد لتاريخ الوهابيين» ص ٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٣. (٣) المصدر السابق ص ١٨.

تَامِّين، كما يتضح من عمله في هذا الكتاب، مما سيدركه القارئ.

ولعل في اختيار عنوان الكتاب ما يلفت النظر إلى أن ما يحويه، هو مواد من ذالك التاريخ، أما إطلاق كلمة (الوهابيين) على أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقد أوضح الدكتور عبدالله أن ذالك الاسم هو الشائع في محيطه، وقد أبقي في الترجمة العربية تمشيًا مع النص، لا استحسانًا له، أو موافقة على صحة إطلاقه.

ويقع هذا الكتاب في ٢١٢ من الصفحات تضم الموضوعات الآتية:

١ – مقدمة عن الدعوة. ٢ – شخصية سعود وأسرته.
٣ – الحكومة الوهابية. ٤ – إدارة العدل.
٥ – مصادر الدخل. ٦ – الشؤون العسكرية.
٧ – حرب شريف مكة وباشا بغداد مع الوهابيين.
٨ – المرحلة الأولى من حروب محمد علي في الحجاز.
٩ – المرحلة الثانية من حروب محمد علي في الحجاز.
١٩ – تغير الظروف لصالح محمد علي. ١١ – بداية انتصارات محمد علي.
١٢ – نتائج انتصارات محمد علي الأولى.
١٣ – الصلح بين طوسون وعبدالله بن سعود.

وقد ألحق بالكتاب رسالتان إحداهما من محمد علي إلى أهل المدينة بتاريخ صفر سنة ١٢٣٠هـ يخبرهم بانتصاره في وقعة (بسل).

والأخرى من عبدالله بن سعود إلى طوسون حين توجه من المدينة للقصيم.

والرسالتان معربتان عن الإنجليزية والأصل العربي كان لدى (بركهارت) ولعل من الممكن العثور عليه بين مجموعة أوراقه التي أوصى بها إلى (جامعة كمبردج)[1].

---

(١) «الاعلام» ٩/ ٣٥٠.

(٢) انظر مثلًا الحديث عن (غالية البقمية) ص ١٤١ – وعنها انظر مجلة «العرب» س ١٥ ص ٢٦٣ و س ٢٥ ص ٨١ – ٨٤.

«رحلات في شبه جزيرة العرب»

[تأليف: جون لويس بوركهارت – ترجمة الدكتورين: عبدالعزيز بن صالح الهلابي وعبدالرحمن عبدالله الشيخ]

قد يصح القول بأنه لا يمكن التصديق بأن (بركهارت) لم يطلع على كتاب (استيزن)[1] عن القبائل العربية في صحراء الشام الذي طبع سنة ١٨١٠م، ولم يَحْذُ حذوه بكتابه «ملاحظات عن البدو» بحيث أدَّى الكتابان نتيجة واحدة، فملاحظات أحدهما ليست سوى توسيع بحث للآخر كما ترى (جاكلين بيرين)[2] فهذا مما لا يمكن الجزم به إلَّا بعد الاطلاع على الكتابين معربين، وهذا مالم يتم حتى الآن، وهو ما يؤمل أن يتصدى أحد أساتيذ التاريخ في جامعة الملك سعود، الذين كان لهم الفضل الأول في تعريب مؤلفين لـ(بركهارت) ومؤلف (موزل) عن قبيلة (الرولة)، وكتاب (بركهارت) مع سابقه يبدو من الملاحظات التي أوردتها صاحبة كتاب «اكتشاف جزيرة العرب» أنهما تناولا بدراسات واسعة مختلف أحوال القبائل العربية التي تقيم في صحراء الشام، وهي امتداد لأخواتها من القبائل التي تعيش في الجزيرة، والقبائل العربية هنا وهناك تتفق في عاداتها ووسائل حياتها وأخلاقها وجميع أحوالها.

ومع ما أوضحته تلك الكاتبة حول التشابه بين كتابي (استيزن) و (بركهارت) عن القبائل العربية، فإنها ترى أن (بركهارت) يُعَدُّ أول الرحالين الذين توغلوا في الحجاز في أثر الجيوش التركية الغازية، ولا يعدُّ كتابه «رحلة في بلاد العرب» (Travels In Arabia) متممًا لما قام به (استيزن) قبله بسبع سنوات[3] وقد

---

(١) هو (أولريخ جاسبار ستيزن) رحالة مغامر ألماني من علماء الآثار، زار البلاد السورية سنة ١٨٠٦م فألف كتاب «بحث للتعرف إلى قبائل البدو في سوريا والعربية البتراء والعربية الفقراء» وأعلن إسلامه سنة ١٨٠٩م، ورافق حجاج القاهرة، فوصل مكة في ٢٠ تشرين الأول، فوصفها وزار المدينة ورسم مخططًا لها، ثم رحل إلى اليمن فتجول فيه، وعثر على كثير من الكتابات الأثرية، ثم ألقي القبض عليه ومات مسمومًا في سجن (تعز) سنة ١٨١١م – «اكتشاف جزيرة العرب» – ٢٠٣/ ٢١٠/ ٢١٤).

(٢) المصدر السابق – ٢١٧ –. (٣) المصدر السابق – ٢١٨ – .

لا يعني الباحث هنا تأثر (بركهارت) بما ألف قبله أكثر من العثور على معلومات قائمة على أسس علمية، وكتابه حافل بالممتع المفيد منها، فيما يتعلق بنواحي الحياة العامة من اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها في الجزء الذي خصص له من مدن الحجاز الخمس، فالكتاب ليس شاملاً، كما يوحي به عنوانه وإن تضمن بعض المعلومات عن نواحي أخرى في الجزيرة.

ولعل المعربَيْنِ الكريمين الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن صالح الهلابي، والأستاذ الدكتور عبدالرحمن عبدالله الشيخ من (جامعة الملك سعود) لم يجانبا الحقيقة في وصفهما مؤلفات (بركهارت) باحتوائها على معلومات جديدة غزيرة ومتنوعة في (الانثربولوجيا) والآثار والجغرافيا والاقتصاد، وخصوصًا وصفه الدقيق لجميع ماشاهده في المدن التي زارها مما يتعلق بوضعها وذكر أحوال سكانها، ومختلف أوجه الحياة فيها وغير ذالك، ولم يكتف بما رآه وسمعه، بل راح ينقب في المصادر العربية ليجد تفسيرًا لما شاهده، وليربط الظواهر بجذورها التاريخية[1].

وكان من البواعث لإقدامهما لتعريب هذا الكتاب ما أدركاه من قيمته العلمية في موضوعه، ومانالـه صِنْواه وهما رحلة مؤلفه في بلاد (النوبة) ورحلته في بلاد الشام، اللتين عربتا منذ بضع سنين، فنالتا من القراء استقبالاً حارًّا، لا لقيمتهما فحسب، ولكن لشهرة مؤلفهما باحثًا أثريًّا، ورحالة وجغرافيا.

وكتابه هذا لا يعود تأخر ظهوره لأنه أقل قيمةً من رحلتَيْهِ الممتعتين المعربتين المعروفتين، لكثير من القراء[2]، فمعلومات هذا الكتاب لا تقل عنهما فهي لا تقتصر على مشاهدات مؤلفه الخاصة، وعلى ماحُدِّثَ به، بل

---

(١) «رحلات في شبه جزيرة العرب» - المقدمة - ص - ٧ -

(٢) المصدر نفسه - ٩ -.

رجع فيما يتعلق بمكة المشرفة إلى ماعرف من تواريخها للأزرقي والفاسي والقطبي والعِصَامي، وعن طيبة إلى «وفاء الوفاء» للسمهودي رجوعًا بدون استيعاب لمحتويات تلك المؤلفات.

ولأن هذا الكتاب كما اتضح للمعربين الكريمين، وهما ممن عني بتاريخ هذه البلاد من جميع نواحيه في أقدم جامعاتها، يحوي معلومات قيمة عن الجوانب التي تعرض لها، لم يدونها أحد من كتاب المصادر التاريخية القليلة، في الفترة التي أُلِّفَ خلالها، مع اتّصافِ مؤلفه بالدقة والحياد، والتطلع إلى أنه سيكون رافدًا من روافد دراسة تاريخ شبه الجزيرة في فترة شحَّتْ مصادرها كما قالا، ولذالك كله عَمِدَا لترجمته ترجمة أمينة دقيقة، في حدود قدرتهما، وهما- مع كل ماتقدم- يدركان أن فيه من المعلومات ما يُعَدُّ ضعيفًا بالنسبة للقارئ العربي الواسع الاطلاع، كوصفه للحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة مما تزخر به المؤلفات العربية الموثوق بها، كما يدركان أن من بين القراء من لا يستسيغ، بل لايرضى إطلاق بعض الصفات المنافية للحشمة على بعض سكان المدينتين الكريمتين، ممن يَنْظُرُ إليهم نظرةَ تقدير واحترام، بعيدة عن مواطن الشُّبَهِ والرِّيب، لهذا عَمِدَا فحذفا مَاهو من هذا القبيل، وهو على قلته لا يتجاوز خمسة وأربعين سطرًا من خمسة مواضع متفرقة في الكتاب، مما يسْهُل للباحث المختص الاطلاع عليه في الأصل الذي أُوْضِحَتْ صفحاته بين صفحات النسخة المعربة[1].

---

(١) وهذه المواضع هي:

١ - ١٢١ (١٢٨) من صفحات الأصل: (٣) سطور حول سياسة الشريف غالب وسلوك بعض النسوة، ٢- ١٤٢ (١٥٢) سطر ونصف عن ارتكاب الحاج بعض المعاصي، ٣ - ١٨٣ (١٩٧) (٢٢) سطرًا في وصف المكيين ونسائهم، ٤ - ٣٥٣ (٣٨٥) (١٢) سطرًا في مقارنة بين أخلاق سكان المدينتين، ٥ - ٤١٤ و٤٥٣): (٣) أسطر عن قبيلة يام.

وقد أبدل المعربان كلمتي (الوهابية) و (الفارسي) في وصف الخليج بـ(المسلمين) و (العربي) أينما وقعتا.

ومما يحمد للمعربين الكريمين تصدِّيهما لتصحيح أخطاء المؤلف الكثيرة، ومقابلة ما ينسبه لبعض المؤلفات العربية بأصله، وإثبات الصواب فيه، وإيضاح معاني كثير من الكلمات، والتعريف بالقبائل والمواضع والقرى، والنبات وأنواع العملة (النقد) الوارد ذكرها، وغير ذلك مما يحتاج إلى إيضاح، وكل هذا يدل على مبلغ مابذلا من جهد، حاولا به إبراز هذا الكتاب بأوضح صورة يتطلع إليها الباحثون.

وهذا الكتاب كغيره من كتب الرحلات، مما يستهوي القارئ بتنوع معلوماته، وطرافتها، وبسلاسة أسلوبه، فيلذُّ له الانسياق في القراءة دون ملل، أو إجهاد فكر، بل قد يحس فيما يعرض المؤلف من وصف بعض مشاهداته ما يؤثر بإحساسه وشعوره، فيندفع مستمتعًا بذالك الإحساس، حتى يأتي على آخر فصل من فصوله، ولهذا فلا أرى مايدعو لإيراد نماذج وأمثلة مما يعدُّ منفردًا به، بل أكتفي بالإشارة الموجزة عن أهم موضوعاته.

١ – أبحر (بركهارت) مع الحجاج من سواكن في أول شهر يوليو سنة ١٨١٤م فبلغ مدينة (جدة) في منتصف ذالك الشهر، في ظروف وصفها بالسوء لعدم حصوله على ماكان حَوَّلَه من القاهرة ليصرفه، ولإصابته بالحمَّى، بحيث أُحضر له طبيب شعبي، قام بفصده فنزف دم غزير من جسمه، وبعد أن نفد ما معه من نقود اضطر لبيع غلامه، متأثرًا بمفارقته لما يتصف به من حسن عِشرة، ولرغبته في البقاء معه، باعه بتسعة عشر ريالًا[1]، فباعه الذي اشتراه في سوق

(١) هو ماكان يعرف في الجزيرة باسم (الريال الفرنساوي) وليس فرنسيًا بل عملة نمساوية تحمل اسم (فرنسو جوزيف) وكان استعمالها رائجًا في البلاد حتى منتصف القرن الماضي حيث استعملت النقود العربية (الريال العربي ومشتقاته).

النخاسة في (جدة) بثمانية وأربعين ريالًا، واشتد عوزه بعد ذالك حتى هَمَّ أن يسير على طريقة فقراء الحجاج، الذين يكسبون قوتهم اليومي بالقيام ببعض الأعمال اليدوية، ثم أوضح سبب زوال فاقته، وتحدث بتوسع عن مدينة (جدة) وعن سكانها وعن مختلف أحوالها، وأنها ليست ميناء مكة فحسب، بل ميناء لمصر والهند والجزيرة، وربما تكون أغنى من أيَّة مدينة في حجمها من بلدان الخلافة العثمانية، وأسهب في الحديث عن الناحية الاقتصادية، ولم يفته محاولة إحصاء عدد دكاكينها، وبيان ماتحتوي عليه، وأرباب الحرف فيها، وما يمارسون عمله، كما تحدث عن السلطة الإدارية (ولاية جدة) وشؤونها (العامة، ووقع ذالك في أكثر من (٤٠) صفحة من الكتاب، وبعد مكثه فيها نحو (٤٠) يومًا ذهب إلى (الطائف) فبلغها في رمضان ١٢٢٩ (آب سنة ١٨١٤م)، واصفًا الطريق المار بمكة إلى (عرفات) فجبل (كَرَا) حيث بلغ بعد صعوده عششًا أقيمت بين الصخور قرب نَبْع غزير الماء يسمى المكان (مقهى كَرَا) بين جبال تحمل هذا الاسم، وتحدث عن هذا المقهى بأسلوب شعري رقيق، ووصف ما استمتع به من جمال منظر الأرض، ومن هذا الموضع سار فبلغ رأس (كَرَا) وقال: (إن قرية رأس (كَرَا) وما يحيط بها هي أجمل بقعة في الحجاز، وأكثرها روعة وبهجة من أي مكان رأيته بعد مغادرة (لبنان) في الشام)، ووصف المنظر بأنه جميل مدهش، وأن الهواء رائع ومنعش مع كثرة أشجار الفواكه كالتين والمشمش والخوخ والتفاح وشجر الجميز المصري واللوز والرمان، ولكن العنب بشكل خاص من أفضل الأصناف. واستمر بوصفه الشعري لهذا الموضع الذي أثار إعجابه حتى قال: (وبما أن هذا المكان جميل ومبهج، إلَّا أن أحدًا منهم لم يفكر أن يبني فيه بيتًا ريفيًّا، وهذا تأييد جديد للرأي الذي اعتقدته منذ أمد، وهو أن الشرقيين والعرب على وجه الخصوص، أقلُّ تقديرًا للجمال من الأوربيين) ثم ذكر أن ماء رأس (كَرَا) مشهور بجودته، وأن محمد علي عندما كان مقيمًا في مكة أو جدة استغنى به عن ماء النيل.

لقد كان ذهاب (بركهارت) إلى الطائف بطلب من محمد علي حين كان مقيمًا هناك، ومع ما بينهما من تعارف سابق، فقد كانت الصلة بينهما على دَخَنٍ، فكل واحد ينظر إلى الآخر نظرة ارتياب، فهو ينظر إلى محمد علي نظرته إلى تركي متغطرس، لا يُؤْمَنُ جانبه، ومحمد علي يراه جاسوسًا إنجليزيًّا سيذهب إلى الهند ليقدم تقريرًا عما شاهده في شبه الجزيرة، وعندما قابله في الطائف حاول إزالة مافي نفسه، والتأكيد بأنه مسلم قدم للحج، ولم يَبْقَ عنده سوى ستة أيامه مراقبًا سمح له بعدها بالذهاب إلى مكة، فأقام فيها منزويًا متظاهرًا بكونه حاجًّا، أما (الطائف) فمع أنه أول أوروبي زارها، فقد كان وصف (تاميزيه)[1] بعده أوفى وأشمل[2].

لقد نزل (بركهارت) في بيت (بوصري)[3] طبيب محمد علي في شهر رمضان سنة ١٢٢٩هـ (٢٨ أغسطس (أب) ١٨١٤م) فأبدي تَذَمُّرَهُ مما بدا له من سوء الظن به: (إن بقائي في الطائف هو نوع من سجن الكرامة لا أرغب فيه، ومع ذالك لا أستطيع أن أُبدِي رغبتي خوفًا من أن أزيد الشكوك حولي) من هنا عمد إلى إساءة التصرف في منزل مضيفه، وإظهار رغبته في إطالة الإقامة، مما اضطر المضيف لأَنْ يقنعَ الباشا حتى أذن له بالسفر إلى (مكة) من هنا كان حديثه عن مدينة (الطائف) يكاد يقتصر على مقابلاته للباشا، ومادار بينهما، مع إيراد وصف مجمل للمدينة، وأشهر بساتينها، وشهرتها بجودة الفاكهة،

---

(١) (موريس تاميزيه): هو رحالة فرنسي سار مع البعثة الطبية في الحملة التي سيرها محمد علي في كانون الأول سنة ١٨٣٣م إلى بلاد عسير مارًّا بجدة فوادي الليمون فالزيمة، حتى وصل الطائف في (٢٣ أيار سنة ١٨٣٣م) فتحدث عنه في رحلته التي نشر ملخصها في المحرم سنة ١٤١٠هـ في مجلة «العرب» - س ٢٤ ص ٤٥٠ وما بعدها، وقد قام بترجمتها الدكتور محمد آل زلفة فنشرها سنة ١٤١٤هـ.

(٢) انظر كتاب «اكتشاف جزيرة العرب» - ص ٢٣٤ - ٢٣٧ -.

(٣) رسمه الدكتور عبدالله العثيمين (بوساري) والدكتور الهلابي وزميله (بوصري). وحروف اسمه في الأصل (Bosari).

ومظاهر آثار الحرب فيها، وذكر سكانها وبعض حرفهم، بحيث لم يتجاوز الصفحتين من الكتاب، فسافر في شهر رمضان (أيلول) ١٨١٤م ووصف طريقه المار باجتياز جبل (كَرَا) ثم بعرفات فبلغ مكة في اليوم الثالث من الرحلة التاسع من أيلول (سبتمبر) سنة ١٨١٤م).

في مكة المشرفة: لقد كان لطول إقامة (بركهارت) ومعرفته للغة العربية، واندماجه في السكان وامتزاجه بمختلف طبقاتهم، وارتياده كثيرًا من الأمكنة للبحث عما يحتاج إليه، وللتعرف عن كثب من خلال مشاهداته وأحاديثه عن كل ما يهمه، مما مكنه من إدراك الكثير من أحوال هذه البلدة التي أقام فيها أكثر من أربعة شهور، من النصف من رمضان سنة ١٢٢٩هـ إلى ٢٣ المحرم سنة ١٢٣٠هـ (٩ سبتمبر أيلول ١٨١٤م إلى ٥ يناير (كانون ثاني) سنة ١٨١٥م) من هنا استغرق وصفه لها ما يقارب نصف الكتاب من الصفحات (٢١٣) صفحة فتناول تخطيط المدينة، وتنسيق شوارعها، وكان مما رأى من نظافتها، وفخامة دورها، ما أثار إعجابه: (فالدور مبنية بالحجارة، ونوافذها العديدة مطلة على الشوارع، تعطي المنازل المكية أكثر حيوية وأكثر شبهًا بالدور الأوربية). وقد فصل الكلام عن أحياء المدينة في ذالك العهد، ووضع مُصَوَّرًا جغرافيًّا لها، وقد لاحظ قلة المياه، وتحدث عن مصادرها، ووصف المسجد الحرام ومافيه وموظفيه، وبعض الأمكنة التي تزار بمكة، مستعينًا بما بين يديه من مصادر، وخصص فصلًا لملاحظاته عن سكان (مكة) و (جدة) حول الأجناس والمظاهر والأعمال والأخلاق، وكان يعرِّض كثيرًا بذكر المطوفين، مما يدل على تأثره منهم، وفصل عن الحياة الاقتصادية، أما عن الحالة الثقافية، فكان حديثه عنها مما لا يبعث على الارتياح، وشكا من عدم وجود مكتبات عامة، أو دكاكين لبعض الكتب، واسترسل بحديث شيق في

الموضوع وما يتصل به، مشيرًا إلى أن السلفيين وفق ما تذكره التقارير حملوا كثيرًا من أحمال الكتب، وكانوا يدفعون ثمن كل شيء أخذوه (ص ١٩٥).

وأشار بعد ذالك إلى أن (سعودًا) بعث رجالًا من أهل بغداد فاشتروا كثيرًا من كتب التاريخ، وأن عبدالوهاب (أبو نقطة) حمل عددًا كبيرًا من موانئ اليمن وأرسلها إلى (الدرعية) (ص ١٩٦).

ولم يفته الحديث عن حكومة مكة، أي الأحوال الإدارية وعن المناخ والأمراض فيها وفي (جدة) وأورد بيانًا بأسعار المؤن والأجور، ولعل هذا جاء عرضًا.

وختم مشاهداته عن هذه البلدة الطيبة بفصل مطول عن الحج، من أمتع فصول الكتاب وأشملها، والطريف أن (بركهارت) خرج إلى مِنَى وعرفات ماشيًا حافيًا احتسابا للأجر، مع أنه استأجر جملًا لغلامه، ولحمل أمتعته، وفي عرفات كان يدور على الحجاج متعرفًا جنسياتهم ولغاتهم، ووضع مخططًا للموضع، واستمر في وصفه المشوق له ولمزدلفة ولمنى، وعاد إلى (مكة) ليكمل نسكه.

ثم سافر إلى (جدة) للحصول على نقود حولت له، وعاد بعد ذالك فبقي في (مكة) متأهبًا للسفر إلى (المدينة) ثُمَّ سافر في اليوم الحادي عشر من محرم ١٢٣٠هـ (٢ يناير (كانون ثاني) ١٨١٥م) مجتازا المسافة بين المدينتين الكريمتين في خلال أحد عشر يومًا مارًّا ببلدة (خليص) وما قبلها حتى (مستورة) حيث انحرف الطريق شمالًا بشرق عن الطريق العام المتجه غربًا، فكان مسيره نحو (الصفراء) التي مكث فيها فوصفها، ولم يفته الحديث عن ذكر (زيت البلسم)[1] الذي عُرِفَتْ به، ومنها مَرَّ بمنازل الطريق المعروفة إلى المدينة.

---

(١) زيت البلسم: قال عنه بركهارت - ص ٢٨٥: والصفراء وبدر المكانان اللذان يمكن للمرء أن يحصل منهما على البلسم المكي غير المغشوش، ثم وصف كيفية استخراجه من الأشجار، وأن العرب يسمونه (بشم) - لعله (بشام) وتوسع في الكلام عنه، وقد سماه داود في «تذكرته» (بلسان) وورد ذكره في «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريقة مكة المعظمة» - ١٤٠٧ - البيلسان البري، وأنه نقل من العقيق موضع بين الحوراء وينبع، وحمل في سنة نيف وأربعين وتسع مئة منه ستون شجرة غرست في المطرية بإشارة الطبيب بدر الدين القوصوني.

في طيبة الطيبة:

لم يكن حظ (بركهارت) عند وصوله (المدينة) بأسعد منه حين بلغ مدينة (جدة) فقد أصيب بحمى شديدة حتى أشرف على الهلاك، ولم يجد علاجًا ناجعًا، ولم يُشْفَ إِلَّا بعد ثمانية أسابيع، وكان تأثره من البلدة ومائها، وكثرة الأمراض فيها مما حمله على الاعتذار بأن ماكتب حولها من ملاحظات غير كافية، وقد تفيد (الأوربيين) الذين يجهلونها، وبلغ من تأثره أنه ختم مشاهداته بوصف مناخ المدينة وأمراضها.

لقد رسم للبلدة مخططًا أوضح مواقعها المشهورة، وتحدث عن سور أقيم حديثًا لها وماحوله، وعن شوارعها وعن محلاتها ومافيها من مساجد وأماكن للزيارة، وفصل في هذه النواحي لاسيما الحرم الشريف الذي تحدث عنه بتوسع، وعن خدمه (الأغوات) والفراشين، كما أشار إلى ماحول البلدة من بساتين، وذكر بعض حاصلاتها، وتطرق بعد ذالك إلى ذكر طبيعة أرض المدينة، ولم يَفُتهُ الحديث عن سكانها من مختلف جوانب الحياة، حاول فيه المقارنة بينهم وبين غيرهم، وحين ينهي ملاحظاته عن (حكومة المدينة) - يريد ولاة أمورها منذ بدء الحكم التركي حتى عهده - لا تفوته الإشارة إلى ماكان لأغوات الحرم من سيطرة على ولايتها لفترة من الفترات، وحين يتعرض لذكر بعض الأمراض المنتشرة كالحمى والزحار (الدوسنطاريا) واليرقان، يضيف: إن نسبة الوفيات فيها أكثر من أي مكان زاره في الشرق.

إلى بلدة ينبع:

غادر بركهارت (المدينة) إلى (ينبع) صارفًا النظر عما كان يراوده من آمال في اكتشاف أجزاء مجهولة من الصحراء كـ (الْحِجـرِ) وغيره حين دخل (المدينة) قبل ثلاثة شهور، أما الآن فقد هدَّه المرض فوهنت عزيمته، واعترتهُ

الكآبة، فلم يكن يتطلع إلا للوصول إلى بقعة يستعيد فيها صحته، وهاهو يتجه إلى (ينبع) ليبحر منها إلى مصر، فيقطع المسافة أو تُقْطَعُ به في ثلاثة أيام، فقد عاودته الحمى في أثناء الرحلة وزادت شدتها، ولكنه بلغ (ينبع) ولم يفته أن يصف ما مر به من منازل الطريق كالعقيق والخيف في الصفراء وبدر، وبعد ذالك اشتد به المرض، فلم يُسَمِّ موضعا بعد (بدر) حتى بلغ (ينبع) في أوائل جمادى الأولى سنة ١٢٣٠هـ (٢٧ نيسان (ابريل) ١٨١٥) وقد صُدِمَ حين اتضح له أن السفن المتجهة للسويس أو (القُصير) مشغولة بنقل الجند العائدين من الحرب، ووجد مرض الطاعون قد تفشى في البلدة، واستاء من كثرة الموتى، الذين يبلغون الخمسين في اليوم، في بلدة قدر سكانها بين خمسة أو ستة آلاف، مما حملهم على الخروج إلى البادية وهجرة البلدة، ولو كان في كامل صحته لفعل فعلهم، ولكنه اضطر للبقاء، وكان مما يضايقه أن مولاه يخرج من عنده ليشارك في غسل الموتى على ساحل البحر، ويتركه مع مرضه ليتولى شؤونه بنفسه.

لقد شُغِل بالحديث في ينبع عن المرض والمرضى بما استغرق نصف الصفحات التي خصصها من الكتاب لتدوين مشاهداته في هذه البلدة (٣٧٥/ ٣٨٣) فاقتصرت على وصف سورها وأجناس سكانها، ووصف أعمالهم، وذكر بعض مرافق البلدة كالمياه والزراعة، وبعض أحوالها الإدارية، كل ذالك باختصار، ومع ثنائه على البلدة برخص أسعار المؤن فيها وتفضيل موقعها على موقع (جدة) من الناحية الصحية، إلَّا أنه شكا كثيرًا من أسراب الذباب ووصف ذالك وصفًا مقززًا للنفس، أنهى به الحديث عن هذه البلدة الكريمة التي غادرها بعد إقامته فيها خمسة عشر يومًا من شهر جمادى الأولى إلى ٢٧ منه سنة ١٢٣٠هـ (٢٧ نيسان إلى ١٥ أيار سنة ١٨١٥م) في سفينة مكشوفة (سنبوك) متجهة إلى القصير، ولكنها حين رست في ميناء (رأس

محمد) في شهر جمادى الآخرة (أيار سنة ١٨١٥م) في جزيرة (سيناء)، نزل منها مفضلًا السفر برًّا إلى (الطور) و (السويس)، لا إلى (القُصير)، ووصف رحلته البحرية بأنها شاقة لم ينعم بأدنى راحة لاسيما وأن المرض قد انتشر بين ركاب السفينة. سار برًّا حتى بلغ القاهرة في ٧ رجب ١٢٣٠هـ (حزيران ١٨١٥م) ولكنه أثناء رحلته في البحر حاول أن يسجل ملاحظات عما مر به أو قرب منه من الموانئ، بين (ينبع) و (رأس محمد) قد يمد الباحثين بما قد يفيدهم بملاحظاته عن تلك المواضع، أما الملاحق المضافة إلى الكتاب فمع ماتحويه من معلومات عامة تتعلق بطرق الحج، وفي تفصيل سكان بعض نواحي البلاد حول مكة، وفي الجزيرة العامة عن المواضع والقبائل والطرق، إلَّا أنها بحاجة إلى كثير من التثبت، لتحريف بعض الأعلام. ولا أستبعد أن أصول هذه الإضافات توجد بين أوراق (بركهارت) التي أوصى بها لجامعة (كمبردج). ولن تفوت الإشارة مرة أخرى إلى ماقام به المعربان الكريمان من جهد متميز لا في تعريب الكتاب فحسب، بل بإضافات كثيرة تزيده قيمة، وتنبه على ما ينبغي التنبيه عليه مما وقع من كاتب غربي، يتحدث عن بلاد معرفته بها محدودة، ونظرته إلى كثير من أحوالها لا تتفق مع الواقع الذي يرتضيه أهل هذه البلاد. ويبدو أن الدكتورين الفاضلين لم يصححا تجارب الطبع، فوقع في بعض الأسماء تحريف فيما بدا لي قد يستفاد من تصحيحه عند إعادة طبع الكتاب، وهاهو أَهَمُّ ما مررت به أثناء القراءة:

١- ص ٨٣: (ووادي سلامى) في الكلام عن أشهر بساتين وادي (المثناة) في الطائف. المعروف (السلامة) وهي قرية مشهورة كانت ذات بساتين معروفة.

٢- ص ٨٤: (الزيمة: تقع في الطرف الشرقي من وادي الليمون، وبعده وإلى الجنوب من وادي الليمون وادي المضيق). المعروف أن وادي الليمون هو

وادي المَضِيق أي نخلة الشامية، أما الزيمة فهي في وادي نخلة اليمانية، وواديها لا يعرف باسم وادي الليمون بل باليمانية.

٣- ص ١٠٦: (كلما كانت التلال قريبة كلما تحكمت هذه الأبراج) والصواب: حذف (كلما) الثانية كما في قول الله عز وجل: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ**﴾.

٤- ص ١١٣: (ويشاهد خلف المروة منزل كان في أساسه سكنًا للعباس بن عبدالمطلب) المعروف أن سكن العباس بن عبدالمطلب يقع على مقربة من (الصَّفَا) وكان يقابله في المسجد (الحرم الشريف) باب يعرف بباب العباس، ويفصل بين منزل العباس وبين الصفا مجرى الوادي.

٥- ص ١١٧: (حي الركوبة) كان المعاصرون إلى عهد قريب يعرفون (حي الراقوبة) وهو يصل بين الشامية وبين القرارة، ولعله هو المقصود هنا.

٦- ص ١٢٢: (وفي نهاية المعلاة يوجد قبر أبي طالب عم الرسول ﷺ) إلى آخر ماذكره، هذا القبر ليس لأبي طالب عم الرسول ﷺ، بل لأبي طالب ابن أبي نُمَيٍّ، من أمراء مكة في القرن الحادي عشر الهجري، ممن عرف بسوء السيرة، كما أوضح ذالك العياشي في رحلته، وتحدثت عنه في محاضرة لي عن الآثار في مكة (انظر العرب - س ١٧ ص ١٦١ و ٧٩٣).

٧- ص ١٣٢: (السنة الحادية والعشرون بعد الألف) والصواب: (السنة الحادية والعشرون والمئتين بعد الألف).

٨- ص ١٥٥: (وفي الداخل ظل بئر الأخسف الجاف باقيًا حيث وضعت فيه كنوز الكعبة) ويحسن إيضاح هذه البئر بأن يشار إلى ماذكره الأزرقي عنها وملخصه: أن رجلًا جُرْهُمِيًّا أراد أن يسرق ماكان يهدى للكعبة وكان يوضع في جُبٍّ عميق حفره إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على يمين

من دخل فيها لوضع ما يهدى إليها فيه فأرسل الله حجرًا من البئر فحبسه فوجده الناس فأخرجوه وأعادوا ماوجدوا معه فسميت تلك البئر الأخسف، حيث خسف بالجرهمي وحبس («أخبار مكة» للأزرقي - ج ١ ص ٢٤٥).

٩- ص ١٥٧ في الحاشية: (أعاد بناءها أبو طاهر القرشي) (تطبيع) القرمطي.

١٠- ص ١٩٧: (نقل بركهارت عن بدوي من هذيل أن عكاظ يقع إلى الجنوب من الطائف بيومين أو ثلاثة) وقد عرف موقع عكاظ وأنه يقع شمال الطائف في مفيض أوديته على مقربة منه (انظر تحديد موقع عكاظ - العرب: س ٣ ص ١١٣٨ -).

١١- ص ٢٣٠: (أحد أحياء القاهرة يقال له طليون) المعروف (ابن طولون) عرف به مسجد مشهور في القاهرة، وهو من حكام مصر المعروفين.

١٢- ص ٢٤٠: (عن الحجاج الذين وصلوا مع القافلة المصرية أنهم أحرموا من عسفان). لعل هذا ناشئ عن جهل، فطريق حجاج مصر يمر بالجحفة الواقعة على مقربة من رابغ قبل عسفان بمرحلتين، والجحفة هي ميقات الإحرام.

١٣- ص ٢٥٧: في ذكر الذبيح بن إبراهيم (فالبعض يقرر أنه يعقوب لكن الغالبية العظمى تذكر أنه اسماعيل) المعروف: الاختلاف بين إسماعيل واسحاق، أما يعقوب فهو ابن اسحاق ولم يقل أحد من متقدمي العلماء بأنه كان الذبيح.

١٤- ص ٢٦٠: (مسجد الخِيف) تحت الحاء كسرة، والصواب فتحها (الخَيْف).

١٥- ص ٢٧٢: (الشقدوف) وتنطق الكلمة الآن (الشقدف) بضم الدال ولكن بدون واو، وقد ورد الاسم في كلام أحد المتقدمين من الرحالين. كالتُّجِيبي القاسم بن يوسف (٦٦٦/ ٧٣٠هـ) إذ قال: ثم رحلنا من العباسة - قرية من قوص على ثلاثة أميال - بعد أن أعددنا شقدوفًا يمنيًا، وهو أحسن ما يستعمل للركوب في هذه الطرقات. انتهى.

١٦- ص ٣٤٨: عن الفُرْع (تمتلكه قبيلـة بني عامـر) المعروف أن سكـان هذا الوادي بنـوعمرو من حـرب، والمؤلف كـرر في مواضع التفريـق بين عمرو وعامـر، وذكر أن بني عـامر من فـروع حرب كما فـي ص ٢٧٦ حيث قال: وقد اختلطت أسرات قليلـة من بني عامر وهم من حـرب ويسمون العمور بعرب زَبِيد في خُلَيص، وعلق على هذا بقولـه (بنو عامر غير بني عمرو، إذ أن هـذه القبيلة تختلف عن الأخـرى التي هي فـرع آخـر من فروع حـرب). انتهى، ولكن سكان الفرْع من بني عمرو، لا من بني عامر.

١٧- ص ٤١٩: (الشرافة على طـريق حجاج مصر) والصواب: الشَّرَفـة وقديمًا الشَّرَف، ويقـال الآن شرف بني عطية أو شـرفة بني عطيـة، وانظر للتفصيل عنه (شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

١٨- ص ٤٢٣: (في وصف الطـريـق من المـدينـة إلى القصيم قَبْـلَ (عُـرَيق الدَّسم): (طامية) وعلق المحققان بعدم معـرفة هذا الموضع، وإنما وجدا جبل (طامة) بقـرب جبل (عكَّاش). هذا الجبل ليس اسمه (طـامة) وإنما اسمه (طَمِيَّـة) كما أوضح ذالك ياقـوت وغيره، وقد ورد في الخـريطة التي رجع إليها المحققان اسمه خطأ (طاميـة) وهو الذي بقرب جبل (عكاش) وقد حـدد موقعـه الأستاذ الدكتـور أسعد عبـده في كتابـه «معجم الأسماء الجغرافيـة» بأنه يقع على (خـط الطول: ٥٩َ / ٤١ْ وخط العرض: ٣٦َ / ٢٥ْ) وأورده باسمه الصحيح (طَمِيَّة).

* * *

«رحلة عبر الجزيرة العربية»

للرائد: (ج. سادلير) عام ١٢٣٤هـ (١٨١٩م)

هذه الرحلة مذكرات كتبها رجل إنجليـزي عسكري برتبة رائد (كابتن) يدعى (جورج فورستر سادلير George Forster Sadleir) ووجهها إلى حاكم (بومبي) في حكومة الهند، حين كانت تلك البلاد تحـت حكم التاج البريطاني، وقد جمعها من سجلات تلك الحكـومة أحد مـوظفيها ويـدعى (ب. ريان اسك. P. Ryan, Esq)(*) ونقلها إلى اللغة العربية الأستاذ أنس الرفاعي، بطلب من الأخ الأستاذ سعود بن غـانم الجمران العَجْمِي الذي تـولى نشرها وتحقيقهـا والتعليق عليها، على مـاجاء في المقـدمة، فصـدرت عن (دار الفكـر في دمشق سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م)، وقـد بذل الأخ سعـود جهـدًا مشكورًا فيمـا أضـافه إلى الكتـاب من وثائق ونصوص زادت فائدته في صفحات تزيد على ثلثه.

وتتلخص غاية (سادلير) من رحلته هذه بالاتصال بإبراهيم باشا قائد الحملة المصرية الظالمـة للقضاء على الدولة السعودية الأولى، وإضعـاف القوة التابعة لها في الخليج كـالقواسم وأعـوانهم ممن قبلوا الدعـوة الإصلاحيـة وكانت لهم مواقف في البطـولة فيمـا جرى في الخليج وفي ساحل بحـر الهند من حـركات ضد النفوذ البريطاني في ذالك العهد.

وصاحب الـرحلة (سـادلير) كما يتضح من مـواضع في رحلته يكـاد ينضح جسمه بالكراهية والحقد والنيل من العرب، وهو كما يبدو من مواقفه وأعماله في الهند وبلاد عمان من صانعي السياسة البريطانية ومرسخيها في هذه الجهات في ذالك العهد.

وكُنتُ بعد أن قرأت مـا ورد في كتاب «دليل الخليج»(1) عن رحلته حرصت

(*) سماه المعرب الكـريم (ب. ريان راسك) خطأً فكلمة (اسك) مقتطعة من كلمة (اسكويـر) هو لقب فخري بمعنى (الموقر) كانت الحكومة البريطانية تضيفه لبعض موظفيها قديمًا.

(1) «دليل الخليج» القسم التاريخي - ج ٢ ص ١٠٠٩ وما بعدها - و ج ٣ ص ١٦٢٢ وما بعدها.

١٦- ص ٣٤٨: عن الفَـرْع (تمتلكه قبيلـة بني عامـر) المعروف أن سكـان هذا الوادي بنـوعمرو من حـرب، والمؤلف كـرر في مواضع التفريـق بين عمرو وعامـر، وذكر أن بني عـامر من فـروع حرب كما فـي ص ٢٧٦ حيث قال: وقد اختلطت أسرات قليلـة من بني عامر وهـم من حـرب ويسمون العمور بعرب زَبِيد في خُلَيص، وعلق على هذا بقولـه (بنو عامر غير بني عمرو، إذ أن هـذه القبيلة تختلف عن الأخرى التي هي فـرع آخـر من فروع حـرب). انتهى، ولكن سكان الفرْع من بني عمرو، لا من بني عامر.

١٧- ص ٤١٩: (الشرافة على طـريق حجاج مصر) والصواب: الشَّرَفـة وقديمًا الشَّرَف، ويقـال الآن شرف بني عطية أو شـرفة بني عطيـة، وانظر للتفصيل عنه (شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

١٨- ص ٤٢٣: (في وصف الطـريـق من المـدينـة إلى القصيم قَبْـلَ (عُـرَيق الدَّسم): (طامية) وعلق المحققان بعدم معـرفة هذا الموضع، وإنما وجدا جبل (طامة) بقـرب جبل (عكَّاش). هذا الجبل ليس اسمه (طـامة) وإنما اسمه (طَمِيَّـة) كما أوضح ذالك ياقـوت وغيره، وقد ورد في الخـريطة التي رجع إليها المحققان اسمه خطأ (طاميـة) وهو الذي بقرب جبل (عكاش) وقد حـدد موقعـه الأستاذ الدكتـور أسعد عبـده في كتابـه «معجم الأسماء الجغرافيـة» بأنه يقع على (خـط الطول: ٥٩َ/ ٤١ْ وخط العرض: ٣٦َ/ ٢٥ْ) وأورده باسمه الصحيح (طَمِيَّة).

* * *

«رحلة عبر الجزيرة العربية»

للرائد: (ج. سادلير) عام ١٢٣٤هـ (١٨١٩م)

هذه الرحلة مذكرات كتبها رجل إنجليـزي عسكري برتبة رائد (كابتن) يدعى (جورج فورستر سادلير George Forster Sadleir) ووجهها إلى حاكم (بومبي) في حكومة الهند، حين كانت تلك البلاد تحـت حكم التاج البريطاني، وقد جمعها من سجلات تلك الحكـومة أحد مـوظفيها ويـدعى (ب. ريان اسك. P. Ryan, Esq)(*) ونقلها إلى اللغة العربية الأستاذ أنس الرفاعي، بطلب من الأخ الأستاذ سعود بن غـانـم الجمران العَجْمِي الذي تـولى نشرها وتحقيقهـا والتعليق عليها، على مـاجاء في المقـدمة، فصـدرت عن (دار الفكـر في دمشق سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، وقـد بذل الأخ سعـود جهـدًا مشكورًا فيمـا أضـافه إلى الكتـاب من وثائق ونصوص زادت فائدته في صفحات تزيد على ثلثه.

وتتلخص غاية (سادلير) من رحلته هذه بالاتصال بإبراهيم باشا قائد الحملة المصرية الظالمـة للقضاء على الدولة السعودية الأولى، وإضعـاف القوة التابعة لها في الخليج كـالقواسم وأعـوانهم ممن قبلوا الدعـوة الإصلاحيـة وكانت لهم مواقف في البطـولة فيمـا جرى في الخليج وفي ساحل بحـر الهند من حـركات ضد النفوذ البريطاني في ذالك العهد.

وصاحب الـرحلة (سـادلير) كما يتضح من مـواضع في رحلته يكـاد ينضح جسمه بالكراهية والحقد والنيل من العرب، وهو كما يبدو من مواقفه وأعماله في الهند وبلاد عمان من صانعي السياسة البريطانية ومرسخيها في هذه الجهات في ذالك العهد.

وكُنتُ بعد أن قرأت مـا ورد في كتاب «دليل الخليج»[1] عن رحلته حرصت

(*) سماه المعرب الكـريم (ب. ريان راسك) خطأ فكلمة (اسك) مقتطعة من كلمة (اسكويـر) هو لقب فخري بمعنى (الموقر) كانت الحكومة البريطانية تضيفه لبعض موظفيها قديمًا.

(١) «دليل الخليج» القسم التاريخي - ج ٢ ص ١٠٠٩ وما بعدها - و ج ٣ ص ١٦٢٢ وما بعدها.

على الاطلاع عليها، وحين قام الأخ الأستاذ سعود بنشرها بعث إليَّ نسخة من تلك الرحلة، ولكنني صُدمت حين قرأت بعض ما ورد فيها من العبارات السيئة التي نال بها العرب، فانصرفت عنها مع رغبة الأخ سعود مني بأن أتحدث عن رأيي حيالها، ومن تلك العبارات[1]: (إن تسويف البدو، ونفاقهم وزيفهم، وخداعهم واحتيالهم، لا يمكن أن يوصف لأوربي في لغة وعبارات تعطي لخياله وصفًا للشخصية الحقيقة لهاؤلاء اللصوص الرحل، وإنك لتجد من السخف أن تحاول إقناعهم ومناقشتهم بمبادئ العدالة والحق والإنصاف - إلى أن قال -: كل هذا لا جدوى منه إذا لم تكن تملك وسائل الإجبار على المطاوعة والاذعان) في عبارات أخرى مبثوثة خلال هذه الرحلة، مما لا داعي للإطالة بذكره[2].

ماكان الأخ سعود بن غانم العجمي وهو ممن لا يغضي على القذاة، فضلًا عن أن يرضى بتوجيه ذالك السباب، وأن يوصف قومه الأدنون بأبشع الأوصاف، كالخيانة واللصوصية، ولعله رأى أن مثل تلك العبارات أقل من أن يهتم بالتعليق حولها، مع أنه أضاف في آخر الرحلة إضافات قيمة، ونبه إلى كثير من أخطائها.

ثم أدركت أن هذه الرحلة وأمثالها أصبحت تعدُّ لدى بعض الباحثين من المصادر التي يُرْجَع إليها في تاريخ تلك الحقبة من الزمن، بل رأيت بعض المعنيين بالتاريخ يعول عليها[3] وخاصة فيما قام به (سادلير) في بلاد (عُمَان) في التأليب ضِدَّ مناصري الدولة السعودية، (القواسم) وغيرهم في الخليج، وما أورده عما قام به قائد تلك الحملة الظالمة في بلاد نجد من البطش والظلم، وارتكاب أسوإ الأفعال التي انتهت باستيلائه على قاعدة الدولة السعودية الأولى

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٥٧ -.

(٢) انظر مثلًا - ص ٥٨ -.

(٣) «دليل الخليج» - القسم التاريخي - ج ٣ ص ١٦٢٢ وما بعدها -.

(الدرعية) وقيامه بتدميرها، وتدمير غيرها من كبريات المدن في بلاد نجد، وماصاحب ذالك من ظلم وبطش وجبروت، بل رأيت من الحكمة أيضًا أَلَّا يكون ماكتبه هذا الرحالة وأمثاله بدوافع من عداوة وحقد حائلًا دون معرفة آرائه كاملة، فالعاقل يدرك أنه ينبغي أن يعرف ما يقوله أعداؤه عنه ليتقي شرهم، ويحذر مما يلصقونه به من صفات، وأن يقدِّمَ ذالك على حرصه وتطلعه لمعرفة ما يقول أصدقاؤه، فما يبديه الأعداء من عيوب ينبغي إدراكه ليكون حافزًا لاجتناب تلك العيوب، ومن هنا فمن الخير أن نعرف نظرة الأعداء إلينا على وجهها الصحيح.

لمحة عن حياة صاحب الرحلة:

هو (جورج فورستر سادلير George Forster Sadleir) عاش بين سنتي (١٧٨٩ و ١٨٥٩) (١٢٠٥ و ١٢٧٧هـ) وقد تحدث عنه ناشر رحلته باللغة الإنجليزية حديثًا مطولًا لم ينقل إلى العربية، كما تحدث عنه مؤلف كتاب «دليل الخليج»[1] وملخص ما ذكر الأخير: (أنه ولد في يناير سنة ١٧٨٩ في بلدة (كورك) والتحق بالجيش سنة ١٨٠٥ وعمل فيه إلى سنة ١٨٣٠ حيث بلغ رتبة (عقيد) وتقاعد سنة ١٨٣٧، وقد تنقل في عدد من البلاد ومنها الهند وإيران، حيث عمل في قوات الشاه (فتح علي شاه) واشتغل بالسياسة، وقام في سنة ١٨١٩ برحلته إلى بلاد العرب، ثم أرسل سفيرًا إلى السند، ووقع هناك اتفاقية (حيدر أباد) الخاصة بالهنود، وبين سنتي ١٨٢٤ و ١٨٢٦ تولى قيادة لفرقة البنغال البريطانية في (بورما)، وأخيرًا هاجر إلى (نيوزيلند) سنة ١٨٥٥ ومات في (أوكلند) سنة ١٨٥٩) وقد وصفه أحد من عمل معه من رجال الجيش: بأنه عالم من علماء اللغة، لكنه كان حادًّا عنيف الطبع.

(١) ج ٢ ص ١٠٠٩ - القسم التاريخي -.

وقد زار في رحلته التي قصد منها الاجتماع بإبراهيم باشا (مسقط) ومكث فيها ثمانية أيام من شهر مايو سنة ١٨١٩ في مفاوضة السيد سعيد بن سلطان، حيث اتفق معه على القيام بمساعدة الحملة البريطانية على رأس قوات كبيرة للقضاء على قوة القواسم[1].

الغاية من هذه الرحلة:

عين (سادلير) من قبل حكومة الهند عام ١٨١٩ (١٢٣٤هـ) لمقابلة إبراهيم باشا لتهنئته على انتصاره بعد تلك الغزوة الظالمة، وليُؤكِّد له رغبة الحكومة البريطانية في التعاون معه للقضاء على مابقي للدولة السعودية من نفوذ في الخليج، فكان أن اتصل بإمام (عُمان)، وبعد اتفاقه معه واصل رحلته، ولكنه بعد أن قابل إبراهيم باشا في ٨ سبتمبر ١٨١٩ وسلمه الخطابات المرسلة إليه من الحاكم العام في الهند، وحاكم (بومبي) مع سيف مُهْدًى من الحاكم العام للباشا المنتصر أبدى إبراهيم باشا ضرورة بعث مقترحات الحكومة الهندية إلى والده محمد علي باشا بالقاهرة، وبعد انقضاء فترة بانتظار الرد من مصر سار (سادلير) إلى جدة للاجتماع بإبراهيم باشا الذي قابله بعنف وحِدَّةٍ، وردَّ إليه هديته، وبها انتهت مفاوضاته معه.

وفي يناير سنة ١٨٢٠ ذهب في إحدى السفن البريطانية من (جدة) عائدًا إلى (بومبي) بعد رحلة دامت حوالي سنة[2].

كان (سادلير) متوقعا أن يقابل إبراهيم باشا على شواطئ الخليج، إلَّا أنه بعد أن وصل (عُمَان) علم بعودته إلى بلاده، فابتدأ (سادلير) رحلته من (القطيف)

(١) «دليل الخليج» ج ٢ ص ١٠١١ - القسم التاريخي - .

(٢) المصدر السابق - ص ١٠١٢ -.

مارًّا بـ (الأحساء) حتى بلغ ميناء (ينبع) على البحر الأحمر، وكان قد قابل إبراهيم باشا عند (آبار علي) بقرب (المدينة المنورة) وقد سجل مشاهداته في هذه الرحلة، فوصف ما مر به من قرى ومياه، وما اجتازه من أودية ورمال، وماشاهده من جبال، محاولًا في ذالك أن يقدم صورة واضحة نالت إعجاب (الجمعية الأدبية في بومبي)[1].

إلَّا أن مما يؤسف من يريد الاستفادة التامة من هذه الرحلة، أن أكثر أسماء تلك المواضع التي مَرَّ بها، وأسماء القبائل وغيرها، وردت غير مفهومة وغير واضحة، ولعل سبب هذا أن (سادلير) لا يحسن لهجة أبناء البادية، فكان يكتب الاسم كما يبدو في سمعه وكثيرًا ما يكون محرفا بحيث بقيت تلك الأسماء غير مفهومة، وأوردها المعرب بصورة زادتها عجمة.

بدأ (سادلير) مذكراته عن رحلته هذه، فذكر أنه في الرابع عشر من نيسان عام ١٨١٩ (العشرين من رجب ١٢٣٤هـ) تلقى تعليمات من حاكم (بومبي) لتنفيذ المهمة التي أسند إليه القيام بها، فانطلق على سفينة حربية متجهًا نحو (مسقط) حيث رست سفينته في اليوم السابع من أيار، فاتصل بإمام مسقط الذي هيأ له بيتًا على الشاطئ، ليقيم فيه عدة أيام، وتباحث مع وزيره في المهمة التي حضر من أجلها، وذكر أنه في اليوم العاشر من أيار توصل مع الوزير بعد دراسة عن قوة (القواسم) قد لا يعني الباحث من هذا الأمر سوى التقرير الذي أورده لقوة القواسم التي قدرها بستة وأربعين زورقًا، وسبعة آلاف ومئتي رجل، وليس خاصًّا بسكان (الشارقة) بل أدمج في هذا العدد أهل رأس الخيمة وأم القيوين وعجمان، ودُبَي وغيرهَا، مما يفهم منه أن تلك الجهات في آخر عهد الدولة السعوية الأولى كانت داخلة تحت طاعتها.

(١) انظر ملخص تقريرها - ص ٨ - «رحلة عبر الجزيرة العربية» -.

ومن (مسقط) سافر إلى (بوشهر) في اليوم السابع من حزيران، وجاء في كتاب منه بعث به إلى حاكم (بومبي) بأن إبراهيم باشا ينوي أداء فريضة الحج، ويتوقع أن يعود إلى مصر بعد ذالك، وأنه عين ضابطًا أسند إليه القيام بأعباء أعماله خلال غيابه، ومما ذكر في هذا الكتاب عن إبراهيم باشا أنه أُرْغِمَ مؤخرًا على القيام برحلة من (الدرعية) لملاحقة بعض قبائل البدو، الذين بلغت جرأتهم إلى حد مهاجمة القوة العسكرية المرافقة للتموين المنقول، مشيرًا إلى تكرار مثل هذه الهجمات الجريئة التي شوشت أفكار إبراهيم باشا إلى حد كبير، واعتذر عنه بأن تلك الحركات لم تنشأ بسبب قسوة أو وحشية من قبل الباشا، بل على العكس من ذالك، فقد اتبع سياسة حكيمة في معاملة القبيلة الرئيسة في المنطقة (يعني منطقة الأحساء ونواحيها) وهي قبيلة (بني خالد) التي كان (الوهابيون)[1] قد أعفوا رئيسها عريعر بن سعدون من منصبه، لكن القبيلة بزعامة محمد بن عريعر وماجد بن عريعر عادت واستقرت في البلاد، ورُدَّتْ إليهم أملاكهم.

ونسب هدوء الحالة في (الأحساء) إلى أن ماجد بن عريعر تمركز فيها، وأقام أخاه محمدًا بجواره في هذه المنطقة التي تحميها قوة صغيرة من الأتراك لا تتجاوز خمس مئة رجل.

أبحر من (بوشهر) في السادس عشر من حزيران، وفي الثامن عشر منه نزل البر على الساحل العربي وصعب عليه دخول مرفإ (القطيف) حتى فكر في الذهاب إلى (ميناء العُقَير) وطلب من الحاكم التركي في (القطيف) بعث دليل يرشده إلى طريق هذا الميناء، ولكن رحمة بن جابر في اليوم التاسع عشر من

(1) عبر الرحالة والمعرب بهذا الاسم عن السعوديين، جريًا على الدعاية السيئة التي تنشر ضد القائمين بتجديد الدعوة السلفية من الدولة العثمانية والإنجليز.

ذالك الشهر أرسل إليه زورقًا يهنئه بالوصول، ثم أرسل قاربًا عليه دليلان ماهران فقادا المركب مع المدِّ الصباحي بعد أن أخبره الشيخ رحمة أنه ربما يستحيل الاقتراب من (ميناء العقير) بمركب كبير.

في بلاد القطيف:

نزل إلى البر في صباح الحادي والعشرين من حزيران عند قرية (سيهات) على بعد ثلاثة أميال من (القطيف) تقريبًا، وأرسل إليه خليل أغا حاكم (القطيف) جنديًّا تركيًّا لمرافقته من السفينة، فابتعد به إلى بقعة في البر، بسبب أن البلدة كانت غير صحية.

وعندما زار خليل أغا في اليوم الثاني والعشرين من حزيران وكان خليل مريضًا وجد عنده مُشَرَّف آل عريعر وهو ابن شقيق محمد بن عريعر زعيم قبيلة بني خالد.

قال: وقد جرى هذا اللقاء بشيء من الحذر لما أذاعه العرب من أن التركي الذي نُصِّبَ هنا من قبل محمد أغا كاشف، الحاكم التركي للأحساء، احتفظ بالسلطة لنفسه خلافًا لأوامر الباشا (يقصد إبراهيم باشا) وأنه أبقى الأوامر التي وُجِّهَتْ إليه طي الكتمان، وهي تنص على تسليم السلطة لِمُشرَّف إلَّا أن التركي ردَّ على التهمة ورفض الإذعان لطلبات مشرَّف، وأمره أن يكتب إلى عمه بطلب جمال وخيل بالإضافة إلى حماية (سادلير) في رحلته إلى (الأحساء) وأضاف إلى هذا قوله: وقد أبدى خليل أغا عدم رضاه عن متابعة سيري إلى (الأحساء) إلى أن يتلقى تعليمات بذالك، كما أنه يرى عدم الحكمة في وضع الثقة المطلقة بالبدو.

استأجر (سادلير) من مشرَّف الدواب التي يريدها لسفره إلى (الأحساء) وطلب منه إبلاغ عمه بتوجهه لمقابلته، لتجديد علاقات الصداقة بين قبيلته وبين رجال الحكومة البريطانية، وأشار إلى إشاعة عزل خليل أغا من عمله في

(القطيف) وأن مشرَّف بن عريعر أُبلغ بأن يؤمن الدواب لنقل أمتعته ومن معه إلى (الأحساء) ويتولى مهمة إدارة أعمال الحكومة بنفسه، ولكنه حينما ظهر عند بوابة الموضع مع حاشيته من الخدم رفض الأغا السماح له بالدخول إلَّا ومعه اثنان منهم فقط.

ذالك مثال من فوضى ذالك العهد ومن أسندت إليهم تصريف شؤون البلاد من ولاة الأتراك.

ثم وصف خليج (القطيف) وصفًا دقيقًا[1]، وقال عن وصف بلدة القطيف: يوجد لحصن القطيف ثلاث بوابات، وهو على شكل مستطيل، ولأطول وجه فيه وهو المتجه إلى البحر قلعة عند أقصى زاوية باتجاه الشمال وهي مزودة بنبع مائي جيد، ويُعْتَقَد أن (البرتغاليين) هم الذين شيدوها، وتوجد بعض البيوت الجميلة داخل الحصن، أما بالنسبة لعمق الماء في مكان النزول هنا فيزيد على عمقه في (سيهات) وقد سبق الحديث عنه.

يعقد عادة سوق خارج بوابة الحصن الجنوبي كل خميس تتوفر فيه كميات كبيرة من لحم الضأن والرز والتمر والسمك والبطيخ ذي الحجم الكبير (تزن البطيخة الواحدة ما بين أحد عشر وثلاثة عشر كَيْلًا)[2] بينما لا ينتج القمح والشعير بالوفرة التي ينتج فيها الرز، ويُعْزى سُوء هواء القطيف صحيًّا إلى العناية بزراعة الرز، أما التين فمتوفر بكثرة وذو نوعية جيدة، كما يزرعون بعض المشمش والمنجا والرمان والعنب والبرتقال والليمون، بينما يرى الباذنجان والبصل والفاصوليا واللوبيا والفول في الحدائق التي تمتد إلى مسافة طويلة، وهي مطوقة بالصحراء من أحد جانبيها، وبساحل البحر من الجانب الآخر، وتُسقى

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٤٣ -.

(٢) (كَيلا) بفتح الكاف (كيلو جرام) و (كِيلا) بكسر الكاف (كيلو متر).

كل هذه المزروعات من مياه الآبار[1]، وعلى الرغم من أن التربة رملية فإنها صالحة لإنتاج كميات كبيرة من المحاصيل[2].

وتحدث عن التجارة في (القطيف) ووصفها بأنها زهيدة في تلك الفترة لارتباطها بـ (البحرين) وكون (الأحساء) ومدن الساحل تعتمد على المؤن التي تصل عن طريق (العقير) مباشرة، ثم أورد بيانًا عن (القطيف) وقراه مع إحصاء السكان على هذا النحو:

مدينة القطيف وضواحيها: (٦٠٠٠) - تاروت (٢٤٠٠) - صفوى (٢٤٠٠) العوامية (٢٤٠٠) - الأجام (٨٠٠) - الجش (٥٦٠) - أم الخمام (Ummoolkman) (١٦٠٠) الجارودية (١٢٠٠) - سيهات (٢٠٠٠).

وأضاف: جميع المدن التي ذكرت مسورة، أما القرى التي غير مسورة فهي: الملاحة: (٤٠٠) - لغوة (؟) (Lugooah) (٤٠٠) - الخويلدية: (١٦٠٠) التوبي: (٤٨٠) - باري (؟) (٥٦٠) - حلّة مُحَيش: (١٢٠٠) - الدُّبَيْبِيَّة: (١٢٠٠).

وقدر الضريبة التي تستوفى من أبناء المدن والقرى المذكورة، كما قدر عشر الإنتاج من الرز والتمر وغيرهما، وواردات الجمارك، ووصف الأوضاع حين زار هذه المنطقة بأنها غير مستقرة بسبب انهماك الأتراك في جباية المال، وإهمال ماعدا ذالك.

ثم سار من القطيف إلى (الأحساء) في اليوم الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٨١٩م (٢٧ شعبان ١٢٣٤هـ).

اتفق (سادلير) مع مشرَّف آل عُرَيْعر الذي حلَّ محل والي (القطيف) لِيُعِدَّ له

(١) بساتين القطيف تروى من العيون وليست من الآبار.

(٢) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٤٤ -.

مـا يحتاجـه من الرواحـل، وسار في اليـوم الثامن والعشـرين من حـزيران سنـة ١٨١٩م (٢٧ شعبان ١٢٣٤) ومعه مشرَّف للمرور بعمـه محمد آل عريعر شيخ بني خالد، وهو مخيِّمٌ في الطريـق بين (الأحساء) و (القطيف) ووصف ماقاساه من مشقات وعـراقيل، أثناء سيره من قلة المـاء، وعدم صـلاحيته لـلاستعمال، ومن شدة الـرياح، وارتفاع درجة الحرارة، وكـان دقيقًا في وصف ماشـاهده أثناء سيره، وفـي ذكر أسماء الميـاه التي مر بهـا، وأكثرهـا محرف الاسم، وكـان سيِّءَ النظرة لأبناء البادية، يتضح هذا من وصفه لما لقي من معاملة مشرف.

وفي اليـوم الثاني من تمـوز (٩ رمضـان ١٢٣٤هـ) كـان الوصـول إلى مخيم الشيخ محمد بعد المـرور بمنطقة (أبواب)[1] بمخيم بَدْوٍ يتكون مـن ثلاث مئة بيت لقبيلة (العُمور)[2] ثم الوصول إلى (أُمِّ رُبَيْعَة)[3] حيث يُخَيِّم الشيخ محمد ابن عريعر، الذي وصفه بشدة الصمم، وتقـدم العمر، وأنه قابلهم مُثْقَلًا بالثياب، إلى درجة استغـراب (سادلير) كيف استطاع أن يحمل هـذا الحمل، وأنه لم يك منتعلًا، مع أن الرمال تكاد تلتهب من شدة الحرارة، ووصف لباسه.

وتحـدث معه حـديثًـا قصيرًا تحت الشمس المحـرقـة، وفي شهر رمضـان، وحاول أن يشكـو صاحبه مُشَرفًـا على عمه الشيخ محمد، وعمه الشيخ مـاجد، ولكنه لاحظ تقديره لمنصبه بين أفراد قبيلتـه، وألا يفعل شيئًا يؤثر في نفوس هذه القبيلة.

وعاد ليفرغ بعض مافي جعبته للنيل من أبناء البادية.

(١) موضع قديم انظر عنه (المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية) «المنطقة الشرقية» ص ١١٠.

(٢) من بني خالد والاسم هذا يطلق على مجموع قبائل من ربيعة ذكرها قدماء النسابين.

(٣) بضم الراء وفتح الباء تصغير (رُبْعَة) وقد أصبحت الآن من هجر العجمان وهي تقع شمال (عَين مُتَالع) بنحو ثلاثة أكيال.

واصل رحلته فبلغ مـدينة (الهفوف)[1] ليلة الحادي عشر مـن شهر تموز سنة ١٨١٩م)(١٨ رمضان ١٢٣٤هـ) ونزل بقرب (حصن الهفوف) حيث كان يسكن الكاشف[2]، وهو محمد أغا الحاكم الذي عينه إبراهيم باشا لمنطقة الأحساء.

وفي مسـاء اليـوم الثـاني عشـر من الشهـر (١٩ رمضـان ١٢٣٤هـ) زاره الكاشف كما زاره خليل أغا حاكم (القطيف) الذي وصل الأحساء قبله.

ومن غريب مـاذكر في كتاب وجهه إلى حـاكم (بومبي) في حديثه عن وصـوله إلى الأحساء أن حاكمـه محمد أغا الكاشف كان متأثّرًا بسبب عجـزه عن مواجهة مايحدث من أبناء البـادية، وذكر في معرض كلامه: (فقد هُـوجمت جنودُ الحماية بين (الأحساء) و (الـدرعية) على مقربة مـن (السلمية) التي تبعد مسيرة ستـة أيام عن هـذه المنطقـة، وكـان من وراء ارتكـاب هـذا الهجوم الـوقح بـدو قبيلـة بني سعدة)[3] كمـا ذكر أن بـدو قبيلـة (العُجْمَان) قـامـوا بغـارة على (العُقَيْر) فنهبـوا الحصن الصغير، والأكواخ المعـدودة التي تحيط به، ثم هاجموا قـافلة كانت على وشك الوصول إلى (الأحساء) وولوا هاربين بأحمالها، لذالك انقطعت الاتصالات إلى درجة أن الطريق المباشر إلى (القطيف) غَيْرُ أمنٍ حتى هذه اللحظة)[4].

(١) يقال إن أصل الاسم (الهُفْهُـوف) بضم الهاء ثم فاء ساكنـة وهاء أخرى مضمـومة بعدها واو - ويقصـد بهذه الكلمة المكـان الذي تتحرك فيه الهـواء، وعمران الهفهوف قبل القـرن التاسع، وانظر لتفصيل الحـديث عنه «قسم المنطقة الشرقية» من (المعجم الجغرافي).

(٢) لقب يقصد به والي الجهة.

(٣) علق الأخ سعود قائلًا: (لم أهتـد لمعرفة قبيلة (سعدة) ولكن مؤلف كتاب «دليل الخليـج» ذكر الاسم مقرونًا بقبيلة العجمـان) وأشار الأخ سعود أنها على الأرجح فـرع منهم، وأضاف في العجمان عـائلة مرموقـة تدعى (آل سعدة) وغيـر بعيد أن يكونوا المقصـودين، وان اسم تلك الأسرة أطلق على جميع الأتباع، كمـا يحدث في حالات مشابهة.

(٤) أطال الأخ سعود الكلام على (العجمان) بما يحسن بالقارئ الرجوع إليه لمعرفة أصلهم وبعض أحوالهم.

كما ذكر أن كاشف (الأحساء) تلقى أوامر بجمع الجنود الأتراك الذين يصل عددهم إلى (٢٥٠) لضمهم إلى معسكر الباشا في (سُدَيْر)[1] وأن يغادر البلاد.

وأشار إلى وصول الشيخين محمد وماجد آل عريعر (الأحساء) صباح اليوم الرابع عشر من يوليو ١٨١٩م (٢١ رمضان ١٢٣٤ هـ) فقوبلا من حامية البلاد بإطلاق المدافع تحيةً لهما، ولم يفته أن يذكر بأن جيرانه من جند الأتراك استغلوا عدة فرص لسرقة حاجات صغيرة له.

لم يجد سادلير من الكاشف ارتياحًا تامًّا للتباحث معه فيما قدم لأجله، ولا في تهيئة مايحتاج إليه من جِمَال، توصله إلى معسكر إبراهيم باشا برفقته، حيث أُبلغ بمغادرة البلاد للذهاب إلى (سُدَيْر) في نجد، فقرر مرافقة الكاشف، وبعث بكتاب وجهه إلى محمد وماجد آل عريعر شيخي بني خالد، قال فيه: (بأنه يضع نفسه تحت حمايتهما من تاريخ وصوله إلى حدود بلادهما، وحتى خلال عودته إلى ميناء (القطيف) للرجوع في سفينته التي تركها هناك) وجه هذا الكتاب بتاريخ ٢١ تموز ١٨١٩م (٢٨ رمضان ١٢٣٤هـ). وقد تحدث عن بلاد الأحساء بما خلاصته:

وصف بلاد الأحساء:[2]

تدعى البلدة المحصنة الرئيسة في هذه المنطقة (الهفوف)، أسوارها من الطين، ترتفع خمسين قدمًا، ومحاطة بخندق عميق جافٍّ، لها بوابتان، والبيوت التي داخل الحصن متواضعة، ويوجد إلى الشرق منها قرية غير محصنة، تحيط بها أراضٍ زراعية محروثة، ومزروعات نخيل، ولا يصل تعداد سكان (الهفوف) وضواحيها إلى خمسة عشر ألف نسمة، يشكل (٦٠٠) منهم قوتها العسكرية.

(١) فقد انسحب الغزاة من البلاد وتركوا ولايتها لآل عريعر شيوخ قبيلة بني خالد.

(٢) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٧١ -.

ثم حصن (المُبَرَّز)[1] الذي يقع على بعد ثلاثة أرباع الميل شمال (الهفوف) بيوته شامخة البنيان، ومحاط بخندق عميق جاف، ليس له سوى بوابة واحدة، وضواحيه غير المسورة ليست باتساع ضواحي (الهفوف) وعدد سكانه يقارب عشرة آلاف نسمة، منهم أربع مئة قوة عسكرية، وتمتدُّ مزروعات النخيل باتجاه الشرق، لتزين قرى صغيرة وكبيرة غير محصنة، يُرْوَى أنها تحوى خمسين ألف نسمة، تُروِي مزروعاتِها كمياتٌ وفيرة من الماء العذب الذي يأتيها من الآبار[2]، ومن عدة بحيرات، لكني لم ألمح أثر النهر أو جدول يشكل أي اتصال بين هذه البحيرات، وعندما سألت عن هذا الموضوع، أكد لي العرب والأتراك عدم وجود مثل هذا النهر.

يزرع القمح والشعير والرز في الأراضي المجاورة لهذه المزروعات، لكن فواكه الأحساء وخضارها ليست من النوع الجيد، وأما بالنسبة لما اقتنيناه فكان بعض المشمش الرَّدِيء والتين الجاف القاسي، والبطيخ السيِّء، كما أن البصل بشكل جزر، لا شكل بصل، ويعزى هذا طبعًا إلى كون التربة رملية، وإلى الزيادة المفرطة في الماء المستعمل للرَّيِّ، وينمو شجر الطرفاء - وهو ذو أغصان نحيلة - إلى ارتفاع عال، وهو مقلم بشكل دقيق، ويستعمل بشكل أساسي لسقف البيوت[3].

وعن حاصلات هذه البلاد، قرر بأن ما ينتج فيها يكفي سكانها، ولكن البدو يحتاجون إلى كل محصول التمر، والمتاجرة به مع (البحرين) بطريق (ميناء

(١) الاسم مشتق من البراز وهو البعيد الواسع من الأرض وتعلل تسمية موقع هذه المدينة بهذا الاسم بأن حجاج الأحساء كانوا يتبرزون فيه أي يخرجون من قراهم فيجتمعون في هذا المكان، ولتفصيل الحديث عنه انظر «قسم المنطقة الشرقية» من (المعجم الجغرافي).

(٢) ليست من الآبار بل من العيون.

(٣) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٧٢ -.

العُقَير) رائجة، ولا تفوته الإشارة إلى توقف هذه التجارة أخيرًا بسبب قبيلة (العُجْمَان) بحيث توقف بيع الشعير والرز في (الأحساء) - كذا قال -[1].

كان المفروض أن يكون طريق الرحلة من (الأحساء) هو الطريق المارُّ بمنطقة (الخَرْج) حيث تستقر ثكنة من الجند في بلدة (السلمية)[2] وقد أُمِرَ كاشفُ (الأحساء) بأن يضمها إلى الجند الذين معه، ويتوجه بهم إلى (سُدَيْر) إلَّا أنَّ الخوفَ من اعتراض القبيلة التي سماها (سعدة) وقد تكون من أفخاذ (العُجْمَان) كان السبب في الانصراف عن هذا الطريق، وبعث الكاشف إلى الجند الذين في (السلمية) بأن يقابلوه فوق أبار (رُمَاح) ولكنهم تأخروا، فأوجس أن يكون أصابهم شر، حين كان الوصول إلى تلك الآبار في اليوم الثامن والعشرين من تموز ١٨١٩م (٦ شوال ١٢٣٤ هـ).

أبار رماح: وجدتِ الحملة فوق (رُماح)[3] بَدْوًا من قبيلة (سبيع) وعدد هذه الأبار سبع، عمق البئر سبع قامات، وكان إبراهيم باشا قد زار هذه المنطقة منذ شهور بعد استيلائه على (الدرعية) فنال قبيلة (سبيع) القاطنة على هذه الأبار بشرِّه، وأذاه، لأنها لم تكن من القبائل التي انصاعت لأوامره في المشاركة معه في الحرب.

ومن (رُمَاح) كان الاتجاه نحو الجنوب الغربي، حيث المرور بنفود (بَنْبَان) ومن ثَمَّ الاتجاه نحو بلدة (منفوحة) ليستقيم الطريق إلى (الخَرْج) لكي يتمكن الكاشف من تنفيذ خطته في الاتصال بالجند المقيمين في (السلمية) وقد سبق أن أبلغهم بالالتقاء به في هذا المكان، ثم الانضمام إلى الجند الذين في

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» ص ٧٢.

(٢) السلمية: من أشهر مدن منطقة الخرج، ويظهر أنها قديمة النشأة قبل القرن العاشر الهجري.

(٣) رُمَاح: بضم الراء وفتح الميم بعدها ألف فحاء مهملة: من أشهر مناهل العرب القديمة، وقد انشئت فيه هجرة في عصرنا اتسع فيها العمران يتبعها عدد من الهجر وموارد البادية.

(سُدَيـر) ولكنهم تأخروا، فتوقع حدوثَ ما اضطرهم إلى هذا التأخر، وعزم على إمدادهم ببعض من معه من الجند[1].

وصف قرية منفوحة: كان الوصول إليها في اليوم الثالث من شهر أب ١٨١٩ (١٢ شوال ١٢٣٤هـ) والإقامة فيها إلى اليوم (الثالث عشر منه) (٢٢ شوال ١٢٣٤هـ) انتظارًا لوصول الجند الذين في (السلمية) وكان النزول في مكان يبعد نحو الميل عنها حيث أحيط حطام واسع لأسوار وأبراج في هذا المكان الذي كان في يوم من الأيام مزدَهِرًا،، وتقع (الدرعية) في واد ضَيِّق شديد الانحدار، إلى الشمال الغربي من (منفوحة) وعلى بعد عشرة أميال عنها، وهي الأن في حالة دمار كامل، أما السكان الذين نجوا من القتل فقد بحثوا عن ملجإٍ لهم في هذا المكان.

ويضيف (سادلير)[2] قوله: كان لديَّ من الفراغ في هذه الفترة ما يسمح لي بزيارة (منفوحة) التي تحوي ما يقارب ألفي أسرة، وفيها بعض البيوت الجيدة، مبنية بالطين والحجارة، وبعضها يتألف من طابقين، وسطوح منبسطة، وقد أُحيط هذا المكان بسور وخندق،أمر الباشا بمحوهما.

لقد استغرب (سادلير) هطول مطر حين كانوا في (منفوحة) وفي فصل الصيف، قائلًا: كان بالنسبة لي مالم أكن أتوقع حصوله، في الجزيرة العربية في هذا الفصل من السنة، وقد أخبرني القرويون أنه لم يسبق أن حدث مثل هذه الظاهرة، خلال مايتذكره أَسَنُّ رجل في هذه القرية، وعندما وجهت بعض تساؤلاتي بصدد هذا الموضوع إلى أحد عرب (منفوحة) أجاب هاتفًا: الله عظيم!!

(١) كتب الأخ عبيد بن محمد أبو اثنين معلقًا على خبر معاقبة سبيع: المتقدم في الصفحة قبل هذه: (هذه الوقعة تسمى قتلة الترك لـ (آل أبو اثنين) وقد نتج عنها عدد من الأيتام، تذكر بعض الروايات أنه قام على تربيتهم مبارك الجبيري ولقب بـ (مربي الأيتام). ويقول الأستاذ عيد بن مدعج السبيعي: (إن صاحب اللقب مبارك بن علي، ولم يعقب، وليس الأول).

(٢) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٨١ -.

لقد عشتُ لأَرَى ثلاث آيات في يوم واحد، أَرَى تركيًّا وإفرنجيًّا في (منفوحة) وأمطارًا في منتصف الصيف[1]!!

وصف بلدة الرياض:

وتحدث (سادلير) عن مشاهداته في هذه البلدة في (شوال ١٢٣٤هـ) آب سنة ١٨١٩م قائلًا: أما قرية (الرياض) فواقعة إلى الجنوب[2] على بعد ميل تقريبًا يفصلها عن (منفوحة) دمار الأسوار والبيوت، وسكان (الرياض) لا يعادلون سكان (منفوحة) وكل قرية محاطة بمساحات واسعة، مزروعة نخيلًا تسقى من آبار عميقة، وفي فصل الشتاء تشكل السيول المندفعة من الجبال الجرداء جدولًا كبيرًا يغمر الوادي، وقد كان السكان في تلك الفترة في حالة من البؤس تفوق أَيَّةَ فترة سبقت منذ تأسيس قوة (الوهابيين) مُحِيَتْ أسوارهم التي كانت تشكل الحماية الرئيسة لممتلكاتهم، وقد وجد الكثير من سكان (الدرعية) ملاذًا لهم في بساتين النخيل، وكانت القوات التركية قد استهلكت محصول العام، فلم يبق لديهم قمح ولا شعير يشترى، ولم يكن في هاتين القريتين جوادٍ واحد.

أظهر هاؤلاء السكان مقاومة على الرغم من حالة البؤس التي يعيشونها، ولم يسمحوا خلال اليوم الأول لأيِّ فرد من مجموعتنا بدخول أي من القريتين، فوضعوا المتاريس أمام بيوتهم، وظهروا بأسلحتهم فوق السطوح المنبسطة، ورفض شيخهم أن يزور (الكاشف) وقد ابتزوا بالمؤن التي عرضوها فيما بعد مايعادل أربعة (كراونات) ألمانية ثمنًا لكل شاة، وطلبوا قرشًا ثمنًا لكل ثلاث بيضات، والنسبة نفسها في سعر الدرَّاق الفاسد والتين، كما كان البطيخ الأحمر

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٨١ -.

(٢) كذا قال، والصواب إلى الشمال.

والشمام رديئين جدًّا، وكانت الخضار الوحيدة التي بصرت بها قليلًا من الباذنجان والبصل والسبانخ، وقد اشترينا بعض البرسيم والتبن من أجل الدواب.

من فظائع الغزاة في (السلمية):

كان الانتظار في (منفوحة) بشأن تأخر وصول الجند الذين في (السلمية) فقد بعث (الكاشف) إليهم جندًا لمساعدتهم متوقعًا أنهم شُغِلوا في قتال مع البدو، وفي اليوم الثالث عشر من شهر آب ١٨١٩م (٢٢ شوال ١٢٣٤هـ) وصلوا، وكان من أخبارهم، أنه كان يسكن (الخرج) بالقرب من السلمية أربعة شيوخ من آل سعود[1] اسم أحدهم عبدالله والثاني عبدالعزيز، وقد أخذ الباشا هذين الشيخين بالرحمة، ووعدهما بحمايته في المستقبل، وعندما قرر أن يغادر البلاد أمر (الجخدار)[2] الحاكم العسكري الذي خلفه، وكان مقيمًا في (السلمية) أن يفتك بهاؤلاء الشيوخ، ولكن نظرًا لكون جنده لا يتجاوزون خمسين رجلًا لم يستطع تنفيذ هذا الأمر، بشكل مكشوف، فلجأ إلى الغدر، حيث دعا هاؤلاء الشيوخ إلى وليمة اختتمت باغتيالهم جميعًا، وكان ألف وست مئة بدوي قد أجبروا الأتراك قبل بضعة أيام من هذا الحادث على الالتجاء إلى الأسوار، وقد تخلصوا من هذا المأزق لدى ظهور تعزيزات عسكرية)[3].

ويضيف (سادلير) أن عدم الثقة الذي ظهر على سكان (الرياض) و (منفوحة) إنما يُعْزَى لتصرف (الجخدار) إذْ لم يتجرأ أيُّ رجل منهم على القيام بمغامرة ضمن حدود معسكرنا، وقد بدَا أولئك الذين تناقشت معهم في جوار القرية أعداء حقودين للأتراك، وكانوا يجاهرون بالإعلان عن أنفسهم بأنهم على

(١) وذكر بعد هذا أنهم من نسل الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولعله يقصد من اتباع الطريقة السلفية.

(٢) هو من قواد جيش إبراهيم باشا الذين أبقاهم في نجد.

(٣) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٨ -.

العقيدة السلفية (عقيدة الوهابيين) وكثير من أقاربهم يسكنون (رأس الخيمة) شاكرين الله على هذا المكان.

وعند حديث (سادلير) عن قرى الوادي أضاف:[1] (على أن أشير إلى طريق نهري مرسوم في كثير من الخرائط الحديثة، يجري قريبًا من (الأحساء) وأن أعزو تشكله إلى سيول كثيرة من أمطار الشتاء، تشقُّ طريقها وفقًا لاتجاهات الوديان التي بين جبال هذه المنطقة، ولكنها لا تكوِّنُ أنهارًا فيما أرى، ومن المتوقع أن تَجَمُّع المياه في تلك الوديان في فصل معين، وغزارة الماء بالقرب من (الأحساء) يشكلان بحيرة طبيعية غير متصل بعضها ببعض، على وجه الإجمال، ووجود آبار وينابيع مياه في كل اتجاه أبرزت فكرة نهر أو سيل شق طريقه في زمن مضى باتجاه البحر، يُصِرُّ العرب في هذا على وجود نهر يجري تحت الأرض، ويتخيلون أن الينابيع التي اندفعت فوق الأرض تُمِدُّهَا مياهُ ذالك النهر، وأن الينابيع المجاورة للبحرين تستمد وجودها من نفس المصدر، وهذا الوصف ضرب من الخيال). انتهى.

ولكن هناك من علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) من أيد رأي القائلين بأن مياه الأمطار التي تسقط فوق جبال (العارض) وماحولها هي التي تُمِدُّ الينابيع القوية التي في شرق الجزيرة في (الأحساء) و (البحرين) وماحولهما، ومن هاؤلاء (هوغارث) في كتابه عن «اختراق الجزيرة» وقبله الهمداني[2] حيث علل اسم عين الناقة بأنَّ (أهل الفَلَجِ يقولون في اشتقاق هذا الاسم: إن امرأة مَرَّتْ بها على ناقة فتقحَّمَت بها الناقةُ في جوفَ العين، فخرج بَعْدُ سِوَارُهَا بِنهرِ مُحَلِّمٍ بِهَجَرِ البَحْرَيْن). انتهى.

ومهما قيل حول هذه الخرافة، إلا أن كثيرًا من الخرافات تقوم على بعض الحقائق، و (سادلير) ليس من أهل هذا الشأن.

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٨٣ -.

(٢) «صفة جزيرة العرب» - ص ٣٠٦ - ط. دار اليمامة.

إلى الدرعية:

في اليوم الثالث عشر من آب ١٨١٩ م (٢٢ شوال ١٢٣٤ هـ) كان الاتجاه من (منفوحة) غربًا مع الوادي إلى موقع (الدرعية) الذي وصفه (سادلير) بقوله: (وصلنا موقع حطام (الدرعية) بحيث تمتد إلى الغرب سلسلةٌ طويلة من التلال، بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي، كما تُرَى سلسلةٌ أخرى إلى الشمال، متجهة نحو الشمال الشرقي، كان الدمار واسعًا جدًا، ويدل على موقع مركز المدينة المدمرة بقايا الأسوار المؤلفة من تراب أصفر، وقد غطت الحجارة قسمًا منه، وتماسكت معه، فالبناء في هذه المدينة كثيف ومتقارب، ومرتفع على بروز طبيعي، يحميه من أحد جوانبه واد ضيق شديد الانحدار، وفي جهة الغرب سلسلة الأبراج موصولة فيما بينها بسور، ويسمى الجانب الغربي (الطُّرَيْف) وهو منفصل عن البلدة الشرقية المسماة (سلي؟[1] Called Selle) بالوادي العميق الضيق الرئيس، وكان هذا الجانب محاطًا بأبراج وسور، وبواسطة الوادي يتم الاتصال مع الأجزاء الأخرى من المدينة الواقعة إلى الشمال، والتي لم تكن محمية بشكل جيِّدٍ، إذا قورنت مع الجنوب، يجري من خلال هذا الوادي جدول ماء على مدار السنة، يزداد في الشتاء إلى مستوى سيل، وفي كل جانبي المدينة بقايا بيوت عديدة جيدة، هي الآن في حالة دمار كامل، ولقد محا الباشا أسوار الحصن بشكل كامل، وأتلف مزروعات النخيل والحدائق، ولم أشاهد رجلًا واحدًا خلال بحثي في آثار الدمار).

ثم ذكر إتلاف حدائق (الدرعية) التي وصفها بأنها تنتج المشمش والتين

(١) كذا ورد الاسم في أصل الرحلة، ولكن هذا الجانب من (الدرعية) يعرف باسم (البجيري) ولعله في الأصل ينسب إلى بجير الرميلي جد آل سليم على مافي «متعة الناظر» - ٢٠٧ -، وفي تلك الجهة من الدرعية (سمحان) و (السلماني) و (السريحة) على مافي «عنوان المجد».

والعنب والرمان، وتوصف تمورها بالجودة مع وجود الليمون إلى أنواع أخرى من الفاكهة، بحيث لم يبق سوى بعض أشجار الأثل.

ثم استمر (سادلير) في وصف سيره بعد مغادرة (الدرعية) مع وادٍ ضيق عميق، وفي المساء كان الوصول إلى (العُيَيْنَةِ) في وادٍ واسع من الحطام المنتشر، وفيه بعض السكان، ومساحات واسعة من مزرعات النخيل، وأشجار التين، ولقد كان سكان هذا الوادي فيما مضى بحالة حسنة، ولكنه في هذه الأيام يعرض مشاهدَ من مظاهر البؤس، ولم يفت (سادلير) ما اعتاد من غمز العرب بأخلاقهم وعدم تأثرهم بمخالطة الأتراك، ولكنه استدرك قائلًا[1]: (لكن العرب يشتهرون على كل حال بعفة نسائهم المتحجبات، فهم عربان رعويون في مَنْأًى عن الاحتكاك برذائل المدن ونقائصها، وإنه لمن المؤكد أنَّ أي مسافر يزور الجزيرة العربية لا يلاحظ استخفافًا بالعفة).

وواصل وصف السير مجتازا (الحَيْسِيَّة) مع طريق وعر حتى بلغ (الْبَرَّة) في اليوم الخامس عشر من أب (٢٥ شوال) ولكنه لم يشاهد عند آبارها ونخيلها أي أثر لقاطن، وإنما شاهد آثار تدمير سورها وأبراجها، وبعد اجتياز (البرَّة) مع السهل الممتد والسير نحو ثلاث ساعات كان النزول بجوار حصن مربع السور في مكان يسمى (عوريز[2] Aoorez) فيه آبار ماؤها مرٌّ، وكان الوصول إلى (ثَرْمَدَاء) في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور، ووصفها بأن آبارها مُجِيَتْ ودمرت من قبل الباشا، ولا يزال فيها بعض السكان، وتشاهد حدائق نخيلها من بعد، وبجوارها حطام قرية (مرأة) فيها عدة آبار، ولكن ماءها ليس عذبًا - على

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» ص ٨٧ -.

(٢) صواب الكلمة هذه (عُرَيق) أو (عريق البلدان) والاسم يطلق على كثبان ممتدة من الرمل ولعل (سادلير) سأل عن اسم القصر إنسانًا لا يعرفه، فذكر له اسم الموضع، ويبدو أنه أحد قصور (ثرمداء) الواقعة شرق البلدة.

ما قال - وبعد المرور بقرية (القراين) بمسيرة ثلاث ساعات كان الوصول إلى بعض حدائق النخيل في موضع يبدو فيه آثار التدمير.

الحديث عن شقراء:

قال: (هبطنا واديًا إلى (شقراء) وحططنا الرحال صباحًا، حيث ينفتح السهل الذي قطعناه إلى الغرب بشكل مفاجئ، وموقع (شقراء) منخفض جدًّا، ويبدو أن أسوارها قوية، فقد صمدت ثمانية أيام في مواجهة قوات الباشا، وقد دُمِّرت الأسوار، وبقيت البلدة قائمة، فيها مسجد جيِّد وسوق، وحدائق النخيل الواسعة تحيط بها، وتروى بكميات كبيرة من الماء العذب المستخرج من آبار عميقة، وقبل أن تُنْصَب الخيام وصل الخبر بأن مجموعة من بدو (عُتَيْبَة) ساقت ماشية أهل البلدة كلها، فتبعهم عشرون جنديًّا من العسكر الأتراك فقتلوا منهم عشرين، وأحضروا خمسة حُزَّتْ رؤوسهم[1].

من أعان ظالمًا سلطه الله عليه!!:

كان آل عُرَيْعر - الذين خلفوا المصريين في حكم منطقة الأحساء، قد أعدُّوا لهم ما احتاجوا من الرواحل التي توصلهم إلى مكان يستطيعون به إبدالها عند بلوغهم بلاد قبيلة (مُطَير) قال (سادلير)[2]: (اجتاز الأتراك الآن الحدَّ الذي وَعَدوا بدو (بني خالد) أن يطلقوهم عنده مع الجمال التي استأجروها منهم، مع الإضافة إلى جمال أخرى، قالوا لهم: إنها ستعوَّض بعدد مماثل من قبيلة (مطير) قوم الدَّويش، وكان هاؤلاء البدو خاضعين خضوعًا تامًّا لقوة الأتراك، وقد ضُرِبَ بقرار التعويض عرضَ الحائط، فَطُرِدَ العربُ بدون جمالهم، وهكذا نرى هاؤلاء الرجال التعساء الذين كانوا يستحقون ضعفَ الأجر الذي عُيِّن لهم

(١) «دليل الخليج» القسم التاريخي - ص ١٦٢٩ -: نقلًا عن رحلة (سادلير) ولعل قتل العشرين من تقولات الجند!!.

(٢) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ٩٠ -.

بمجاوزتهم المسافة التي اتُّفِقَ عليها قد حرموا من كل شيء حتى رواحلهم فانطلقوا الآن على غير هدى عبر الصحارى الواسعة يحيط بهم الأعداء من كل جانب).

كان اجتياز رمال (نفود السِّرِّ) في الاتجاه نحو الغرب، حتى الوصول إلى (عيون السِّرِّ) وكانت حرارة الشمس لاذعة طيلة النهار، والرياح الحارة مستمرة حتى منتصف الليل، ولكن (سادلير) عبر عن استراحة النفوس وهدوئها بظهور مساحة واسعة من الماء، ووصف الجانب الغربي من البحيرة بأنه أرض حرثت ونظفت لدرجة تلفت الانتباه.

وذكر أنه في اليوم العشرين من الشهر حدث لهم أثناء السير أن ضلوا الطريق، ولكنهم فيما بعد وصلوا إلى قرية مسورة، وأرضها محروثة ومشبعة بالماء، ونزلوا بعد ذلك على غدير، وسمى المنطقة (عيونية Aleeooneeat)[1].

ثم ذكر في اليوم التالي الوصول إلى حطام قرية مسورة، وبعدها بسبع ساعات كان النزول في (المُرَبَّع) ووصف الموضع بأنه بقعة توجد فيها علامات سكن سابقة في السهل، وأنهم حفروا في مجرى سيل فوجدوا الماء، وكان ذلك من آثار أمطار أصابت هذه الأرض.

وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر كان الوصول إلى بلدة (المِذْنب) في التاسعة صباحًا وصفها بقوله: (وهي قرية مكشوفة كثيرة الآبار، لكنَّ ماءها يميل إلى المرارة، وفيها نخيل وأراض مفلوحة واسعة).

وصف مدينة عنيزة:

قال: وفي اليوم الرابع والعشرين من آب (٤ ذي القعدة) في الثانية عشرة والنصف ظهرًا كان الوصول إلى (عُنَيْزة) وقد تعرض هذا المكان إلى دمار كامل،

(١) عند المعرب – ص ٩١ – (عيسونية) خطأ.

وقد أصاب هذا الحصن المصير نفسه الذي أصاب الحصون الأخرى التي سقطت نتيجة لغضب الباشا، وبقيت بعض أشجار النخيل التي في الوادي، وتُسْقَى من مياه الآبار التي تُروِي البلد، ويُعَدُّ هذا البلد ذا أهمية كبيرة بالنسبة لغيره في هذه المنطقة، لأنه مركز تجاري، بالنسبة لموقعه الجغرافي، ولمرور القوافل الآتية من البصرة والكويت والقطيف والأحساء والدرعية بعنيزة كل عام، أعطى هذا المكان أهمية كبيرة، وهو واقع أيضًا في مركز حساس بالنسبة للمدينة، وللبحر الأحمر، ولجبل شَمَّر، إنه يعد على الدوام وسيلة الاتصال بين الخليج والبحر الأحمر، ويتَوَقَّع أن يصبح مركزًا يتمتع بالأهميَّة الأولى.

وفي (عنيزة) حامية عسكرية لإرهاب القبائل التي تحتل الصحراء، ولاسيما من جهة الشمال الشرقي حتى الحدود التي تحتلها قبيلة (مُطَير) الممتدة إلى شرق (شقراء) باتجاه (الكويت) ومن هناك إلى جهة الخليج يمتد نفوذ قبيلة (بني خالد) ويستمر إلى أقصى الجنوب ليصل إلى (الأحساء) وجنوب هذه المنطقة قبيلة (العُجمان) المنيعة التي لا تُعَدُّ على كل حال ذات قوة لمواجهة (بني خالد)، وإلى الجنوب الغربي من (الدرعية) توجد قبيلة (عُتَيْبَة) ثم أضاف عنها قائلًا: (التي أبيدت عن بكرة أبيها تقريبًا)[1] وإلى الغرب من (عنيزة) قبيلتا (حرب) و (مسرو Misroo)[2] اللتان تحتلان ذلك الجزء من منطقة طريق الحجاج بين (الرَّسِّ) و (المدينة) من أجل هذا تبدو (عنيزة) مركز الجزيرة العربية من وجهة النظر الجغرافية والسياسية والتجارية، وقد التقيت في (شقراء) و (عنيزة) بالعديد من تجار (الكويت) و (الزبير) الذين ينتمون إلى قبيلة (العتوب) ووجدنا كميات من الرز الهندي، ومواد أخرى في أسواقهم الشرقية.

(١) هذا مما يدل على جهل (سادلير) وجهل المرافقين له بقبائل الجزيرة، فعتيبة أقوى وأكثر عددًا من أن تباد.

(٢) لعل المراد (مسروح) وهم فرع من حرب.

واستمرَّ (سادلير) في وصف السير حتى وصل إلى (الرَّس) في السادس والعشرين من الشهر بعد الظهر فوجد إبراهيم باشا قد ارتحل منه، ووجد عددًا كبيرًا من الجند من الأتراك والبدو والأرناؤوط وغيرهم مخيمين، ولم يجد الرجل الذي كلفه إبراهيم باشا بإدارة الأمور بعد رحيله، فقد ذهب إلى المدينة، ووصف مقابلته لرئيس الديوان لدى إبراهيم باشا الذي وصفه بأنه كالطفل الصغير، الذي لم يسبق له أن غادر أسوار مدينة (القاهرة) وفكر في العودة في اتجاه (البصرة) طالبًا من هذا مرافقًا له، ولكنه امتنع لأنه لا يريد أن يتحمل تبعة عودته الخطرة في مثل هذا الظرف، ونصحه بأن يذهب إلى المدينة ليكون الرجوع إلى (البصرة) بشكل أسهل، أو إلى (بغداد)، بالتوجه نحو (سورية) خلال عشرين يومًا، وامتنع من أن يُهَيِّئَ له ما أراد من حراس أو مرافقين، وقد بعث برسالة من الرس بتاريخ ٢٦ أب ١٨١٩ (٦ ذي القعدة ١٢٣٤) إلى حاكم (بومبي) يصف فيها مشاهداته وماجرى له في رحلته، وأعاد ذكر ما وقع في (السلمية) ووصف ما شاهد.

فظائع الغزاة في (الدرعية) و (منفوحة) و (الرياض) و (الأحساء) وغيرها:

أعاد وصف ما فعله إبراهيم باشا من تدمير مدينة (الدرعية) قائلًا: تمكنت خلال السير من (منفوحة) من زيارة (الدرعية) تقع على بعد عشرة أميال باتجاه الجنوب الغربي على شفا واد ضيق عميق شديد الانحدار، متشكل نتيجة لوجود جبال جرداء، دُمِّرَتِ الأسوار والحصون التي كانت تحيط بالمدينة، كما محي عدد من البيوت، فقد كان الباشا مصممًا على أن يعامل هذا البلد بوحشية، وقبل مغادرته أمر بمزروعات النخيل والحدائق أن تتلف، ولا يوجد في الوقت الحاضر عائلة واحدة تسكن في البلدة، أما الذين حالفهم الحظ ونجوا بأرواحهم من تدمير الحرب، فقد كانت (منفوحة) ملجأهم الرئيس الذي يحوي

ما يقرب من ألفي أسرة منهم، وفي هذه البلدة البيوت الجيدة، وقد ظهر العرب فوق أسطحها المنبسطة مسلحين، ومستعدين لمواجهتنا لدى دخولنا، وقد سبق أن دمر الباشا أسوارها وأبراجها، التي كانت تحمي ممتلكات السكان من أية هجمات، ويفصل قرية (الرياض) عن هذه القرية دمار واسع، جردها من تحصيناتها لكن مزروعات النخيل المجاورة للقريتين قد استبقيت، ومع أن شيخي هاتين القريتين قد تسلما السلطة عن طريق الباشا، فإنهما رفضا أن يستجيبا لدعوة الكاشف بأن يزوراه في المعسكر.

استغرق حصار (الدرعية) ثمانية أشهر، وخلال ذلك كان الجنود يستخدمون كثيرًا من وسائل الانتقام من قبائل البدو، ولقد اتخذوا من أتفه التصرفات ذريعة لأخذ أنعامهم، وقد دمرت تحصينات كل قرية من قرى نجد، ومع أن أسوار (الأحساء) قد استبقيت لأن موقعها بعيد، لم يظهر الكاشف احترامًا لثروات سكانها، فقد ابتز منهم ما يعادل مليونا ومئتا ألف قرش هندي قبل مغادرته المنطقة، حين عزم على التخلي عن هذا الجزء من البلاد، فصمم على اتخاذ ما يغني به نفسه، ويغني جيشه، تاركًا البلاد بحالة من الضياع لم يسبق لها أن تعرضت لمثلها في يوم من الأيام.

إني لأتوجَّع حزنًا وأنا أعلن مجلسكم الموقر: أنني قد استُجْرِرْتُ لأكون شاهدًا معارضًا للتخريب والدمار اللذين قام بهما جيش الباشا الذي سار إلى (الرَّس) فقضى عليها، ثم انطلق منها متوجهًا إلى (المدينة) قبل يومين من وصولي إليها).

ثم ذكر ماحدث بينه وبين نائب إبراهيم باشا، وأنه اضطر لموقفه معه إلى التوجه إلى أي مرفأ على البحر الأحمر لينتقل منه إلى (الهند) دون أن يقدر على إنجاز مهمته.

ومع أن (سادلير) أقام في (الرَّس) يومين إلا أنـه لم يتحدث عنها كعادته فيما يمر بـه من الأماكن، ولعلـه صُدِم بما حـدث له من عدم التقـائه بإبراهيم بـاشا، ومن مقابلته لنائبه.

وسـار في اليـوم الثـامن والعشـرين من أب (٨ ذي القعـدة) في السـاعـة الخامسـة والنصف متجها إلى المـدينة صباحًـا، وذكر أنه في السـاعة الحـادية عشر نزل عند آبار (مطا Mytta) ووصف الموضع بأنه رقعة صغيرة مُسَيَّجة تأوي إليها بعض الأسـر التي تقوم بحـراثة الأراضي المجاورة لـلأبارر وزرعهـا، وكان الطريق إليها متجهًا نحو الجنوب، والجنوب الغربي.

وفي اليوم الثـاني ذكر الوصـول إلى آبار تـدعى (عداس Uddas) واستمر في ذكـر مواضع بأسمـاء يبدو أنـه كتبها خـلاف ما تنطق، فبـدت مستعجمة منهـا (جروزية) و (وادي الميه) و (بجير) و (مشاش بـاطن العورمة) وهي أسماء كلها رسمت على غير وجهها الصحيح.

وفي الثاني من أيلول (١١ ذي القعدة) كـان الوصول إلى جبل (الماوِيَّة)[١]، ووصف هذا الجبل بأنه يُـرَى من مسافة بعيدة، لوقـوعه في سهل منبسط، وأشار إلى ما وقع بقـربه من حـادثة تاريخيـة، حيث قابل فيـه الإمام عبـدالله بن سعود

(١) عن وقعة الماويـة انظر «عنوان المجد» حوادث سنـة ١٢٣٢، حيث ذكر مؤلفه أسباب وقـوع الهزيمة وملخص ماذكـر: أنه في صبيحة يـوم الجمعة منتصف جمادى الآخـرة سنة ١٢٣٢ هـ حين بلغ عبدالله أن علي أزن ومن معه ساروا إلى الماوية: (فاض عليهم في ماوية بغتة وهم على مائهم، فحمل المسلمون عليهم حتى قربوا من محطة العسكر، فثوروا الـروم مدافعهم فخف بعض البوادي الذين مع عبدالله، ومن نزلوا قرب جبل مـاوية قبالة الروم، فثبت الروم بـواديهم، لما رأوه نزل فوجهوا مدافعهم إلى المسلمين فأثـرت فيهم، فأمر عبدالله على بعض المسلمين أن يرحلوا وينزلوا على الماء، فلما هموا بالرحيل خفت البوادي وتتابعت فيهم الهزيمة، ووقع الرعب في قلوبهم فاتصلت الهزيمة في جمـوع المسلمين، واختلطت الجموع بعضها ببعض، وتبعهم الروم والبوادي، وقتلوا رجـالًا وأخذوا كثيـرًا من السلاح وغيره، وركب عبدالله في كتيبـة من الخيل وحمى ساقـة المسلمين في تلك الهزيمة من القتل والأسر والظمإ نحو مئتي رجل، وهذا أول وهن وقع في المسلمين) انتهى.

إبـراهيم باشـا بجيشه، وكـان معه عشـرة آلاف رجل على جمال عـربية، لكنهـا هُـزِمت في الحـال لـوجـود بضـع مئـات من الجيـاد تحت إمـرة (أوزون علي) وأضاف: ولاتزال جثث الوهابيين منتشرة فوق الوادي عرضة للشمس[١].

ثم ذكر الـوصول إلى (الحِنَـاكِيَّة)[٢] ووصفها بأن فيهـا مركـز للأتراك يـرأسه رجل يدعى (عجم أوغـلان) وهو رجل فارسي، قـال عنه: برهن على أنـه جندي مضيـاف، ومُنْتَـم إلى (تبـريـز) ووصـف مـا قـابلـه بـه من حفـاوة، وقـال عن (الحناكية): إنها كانت محطة لكتيبة مهمتهـا تغطية المدينة، والتقاط بدو نجد، وفيها ميـاه كثيرة والعلف متـوفر، وفيهـا حصن صغير ذو أربعـة أبراج، فيـه أربعة مدافع صغيرة، وقد عُزِّزَت الكتيبة التي فيه من مجموعتنا، فبلغت مئتي رجل.

وتخيل أن السهل الـذي تقع فيه (الحنـاكية) يـزرع كل سنة، ليكـون المُمَوِّل الرئيس للمـدينة المنورة، وأشار إلى سـدٍّ في (وادي الحناكية) بأنـه يحفظ الماء عدة شهور، وإلى وفرة مياه الأبار الموجودة في هذا المكان.

بين المدينة وينبع:

في السادس من أيلـول (١٧ ذي القعدة) بعد المسير من (الحِنَـاكِيَّة) مع واد ضيق، شديد الانحـدار، فيه مياه، شاهد فيه (سادليـر) أشجارًا كبيرة تختلف عن غيـرهـا، تشبه الـورقـة راحـة الكف، وسمى الشجـرة (داون)[٣] (Down) ووصف ثمـرها بأنـه: لـه نكهة كنكهـة الزَّنْجَبِيل والمسير بين جبلين صخـريين إلى واد رملي، يتوفر فيـه علف الدواب، وينتهي بالسهل الذي يصل إلـى (المدينة)، ثم كان النـزول في اليوم السـابع، وقد رغب (سـادلير) التوجـه إلى (المدينـة) ولكنه

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» – ص ١٠١ –.

(٢) الحِنَاكية: تعرف قديمًا باسم (وادي نَخْل) الحناكية الآن ذات قرى متعددة وسكان.

(٣) يبدو أن هذا الشجر هو شجر الدَّوْم.

أضاف[1]: (وبما أن المسيحيين ممنوعون من دخول (المدينة) فقد أمر إبراهيم باشا رجلًا يدعى (شقر أغاسي) أن يقودني من الطريق المباشر القريب من (المدينة) ولكنه لفت نظري إلى احتمال أن يصادفَني رجال وطنيون، أو متعصبون للدين، فأشعر بالاستياء). وطلبت من الأغا المكلف بإرشادي أن يشقَّ طريقه مبتعدًا إلى شمال (المدينة) للدوران حول جبل صخري شامخ[2]، والمرور بأثار قرية سماها (بيركاس Birkas) كان فيها ما يقرب من مئتي بيت وتؤوي الآن نحو ستين شخصًا، ثم المرور بسهل فيه جدول ماء عَذْب، وأبار والسهل كثير المراعي، وكان التوجه إلى (أبار علي)[3] مع وادٍ واسع يستمد سيوله في الشتاء من الجبال[4]، وكانت مدة السير ثلاثين ساعة سقط فيها حصانه من الإعياء، فامتطى جملًا حتى بلغ حيث استقر جند إبراهيم باشا.

قد لا يعني القارئَ هنا وصف مقابلته لإبراهيم باشا، وما جرى بينهما من أحاديث تدور حول الغاية التي حضر من أجلها، وتقديمه الرسائل المفصلة لها، وأن إبراهيم باشا أوضح له أنه لا يستطيع إبداء أيِّ جواب دون استشارة والده محمد علي باشا، بعد أن يبعث إليه الرسائل، ويبدو أنه لم يكن صريحًا معه في جميع ما أفضى به إليه، حيث قال: إن هذه الحملة موجهة من أبيه بأوامر من الباب العالي هو بالذاتِ جاهل تمامًا الأهداف التي دفعت البلاط العثماني إلى إرسالها، وتطرق لِذكر صلته بالبريطانيين وبإمام (مسقط) بما قد يعني الباحثين في الشؤون السياسية الرجوع إلى أصل ما كتب (سادلير) فقد

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» – ص ١٠٣ –.

(٢) هو جبل أحد.

(٣) يعرف هذا الموضع قديمًا باسم (ذي الحليفة) وهو داخل في حرم المدينة، ومنه يحرم قاصد مكة.

(٤) هو وادي العقيق.

ينقص الترجمة كثير من الدقة في إيضاحها، وأشار إلى أنه سُرَّ بتهنئة الحكومة البريطانية، وبالهدية النموذجية المرسلة إليه.

وبعث (سادلير) في ١٠ أيلول (٢١ ذي القعدة) من (أبار علي) كتابًا إلى قنصل ملكة بريطانيا في مصر، أجمل فيه وصف رحلته في أثر إبراهيم باشا، وما جرى بينه وبينه، وكانت نساء إبراهيم باشا وأبناؤه معه، وقد قرر إرسالهم إلى (ينبع) ليكون الإبحار إلى (السويس) برفقة عدد كاف من الجنود لحمايتهم.

وأشار (سادلير) إلى أن مع إبراهيم باشا مجموعة من الخيل تبلغ ثلاث مئة فرس من جياد الخيل في الجزيرة العربية، التي استولى عليها من خيل آل سعود، وأخذها من القبائل بطرق غير مشروعة، وهذه الخيل ستنتقل من هذه البلاد التي ستبقى سنين طويلة محرومة من الجياد الممتازة، وستذهب إلى مصر.

وتطرق إلى ذكر بعض الحوادث التي جرت أثناء إقامته في (أبار علي) ومنها: أن ابن أحد الوزراء قدم مع حامية عسكرية من (ينبع) للمدينة، وعلى مسافة ثلاثة أميال من (أبار علي) انفصل عن حرسه لبلوغ المدينة في وقت مبكر، وفي طريق ضيق بين الجبال هُوجِم ومن معه من الرجال الخمسة، فجُرح ابن الوزير جرحًا بليغًا، وهرب من معه بعد إصابة أحدهم، وحين وصلوا (أبار علي) قالوا: إنهم تركوا الرجلين مَيِّتَيْنِ، وبالوصول إلى مكان الحادث وجدا حيّينِ في حالة يرثى لها.

وفي اليوم الثالث عشر من أيلول (٢٤ ذي القعدة) وصلت قافلة حجاج (دمشق) برئاسة باشا الشام صالح باشا، ومعه كسوة الكعبة، وقدر من معه من الحجاج بخمس مئة.

وصف المدينة المنورة:

أَبْدَى (سادلير) أسفه لعدم استطاعته كتابة وصف كامل للمدينة، إذ لا يسمح لغير المسلمين بدخولها ومع ذالك قال[1]: (تقع المدينة في غور وسط

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» – ص ١١٦ –.

أعظم الجبال الصخرية الجرداء أسوارها وحصونها مبنية من الحجارة والكلس، وجميع مآذنها ملساء ومبيضة، والمدينة تهيِّئ لسكانها ملجأ رائعًا، لها ثلاث بوابات، إحداها لدمشق، وهي أقرب إلى كونها قلعة من كونها بوابة، نُصب على هذا الحصن عدد من المدافع، وفي هذه النقطة بالذات ينشر العلم الأخضر أيام الجُمَع، أما البوابتان الباقيتان فهما (لليمن Juman) ومصر، فوق كل منهما فتحتان لثلاثة مدافع، تنشر في الأعياد أعلام خضراء على هاتين البوابتين، توجد داخل المدينة حديقة واسعة يكثر فيها النخيل والرمان وكروم العنب، وبعض الفاكهة ذات النوع الجيد، ويحتل الخضار الدرجة الأولى، والباميا بشكل خاص، يروي المدينة جدول يدعى (العين الزرقاء) والماء عذب وفيها أيضًا عدة آبار) انتهى.

وأضاف بعد ذكر القبور التي خلط في بيانها مما يدل على جهل محدثه زاعمًا أن في المدينة قاضيًا واحدًا، ومفتيين أحدهما حنفي والآخر شافعي، وثلاثين مدرسة، ونال من سكان المدينة بوصفهم بصفات هم بريؤون منها، وقال: بأن عدد المساكن التي فيها يصل إلى ستة آلاف نصفها مُدمَّر، وأن عدد السكان الإجمالي نحو ثمانية آلاف نسمة.

وفي شمال المدينة نخيل وحدائق واسعة فيها سكان كثيرون، وإلى الغرب (آبار علي) التي تحولت إلى دمار في هذه الأيام، وفي هذا الوادي الممتد بين الجبال في الجهة الجنوبية الغربية قرى ونخيل.

وذكر أنه تقرر رحيله مع نساء الباشا في الخامس عشر من الشهر، وأدلاؤهم بعض الخيالة العائدين إلى مصر، وبدو من المغرب، متوجهون إلى ديارهم، واسترسل في الحديث عن الجنود المغاربة الذين مع إبراهيم باشا، وقد وصفهم بالعنف والنشاط والشجاعة، مشيرًا إلى بعض عاداتهم في ركوب الخيل.

ووصف أسلحتهم من البنادق ذات الزناد، والمسدسات والسيوف، إلى غير ذالك من أحوالهم مقارنًا بينهم وبين بدو الجزيرة، وكان الانطلاق من (آبار علي) في الوقت المحدد.

قرية الجديِّدة في وادي الصفراء:

وفي صبيحة اليوم السابع عشر من الشهر المذكور كان الوصول إلى (الجُدَيِّدَة) قال عنها[1]: (وهي قرية بائسة ذات أكواخ مبنية من الحجارة، يرتفع قسم من أبنيتها فوق نجد منبسط، يقابل سفح الجبل، أما القرية المنخفضة التي تحوي عدة حدائق نخيل، فتقع في الأغوار، الماء فيها عذب، لكن البطيخ والقثاء وغيرهما مما اقتنينا لم يكن جيِّدًا، لا تسطع الشمس على هذا الوادي أكثر من ثلاث ساعات يوميًا، مما يجعله بقعة غير صحية، أما القبائل التي تسكن الجبال وتحمي هذا الممر فهي (مسروح) و (ميمون) وذكر بعد ذالك المرور بقرية (الحمراء) ثم المرور بـ (بير السلطان)، وهي بئر عميق جدًّا، مملوءة بالماء العذب، وعلى الهضبة التي فوق البئر مباشرة آثار مسجد.

بلاد ينبع:

كان الوصول إلى (ينبع) في العشرين من أيلول (١ ذي الحجة) قال عنه: وهو ميناء عربي قديم متواضع، محاط بسور من الحجارة غير متماسكة، ويبدو عليه أنه يتداعى، وقد قاموا برفعه حديثًا على نمط الأسوار القديمة ذات التطويق الكامل ليؤمن حماية لجميع السكان، ولاتزال الأسوار القديمة وإحدى بواباتها قائمة، لكنها لا توحي بقدم تركيبها على الرغم من أن (ينبع) ميناء قديم جدًّا. والمنطقة التي يطوقها هذا السور فسيحة تكفي لاستيعاب خمسة أضعاف عدد

---

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٢١ -.

البيوت، لذالك لاتزال بقع واسعة عديدة مخصصة لأكوام الروث والمقابر والحفر المعدة للجمال والخيول الميتة، مما يؤدي إلى تلويث هوائها.

ليس لينبع مصدر ثابت للماء، إذ يُحْصَلُ عليه بجمع ماء المطر في حفر عميقة مغطاة، ولا يتوقع لهذا الماء أن يبقى بحالة جيدة أو يتحسن نتيجة لحفظه فيها لأن بناءها سيء ولأنهم لا يهتمون كثيرًا بصفاء الماء عندما يخزنونه، أما الآبار الغائرة في البلد فتعطي ماء يصل في رداءة رائحته إلى رداءة الماء الأَسن الذي يتجمع في جوف سفينة، وقد صدف أن الأمطار لم تهطل في هذه المدينة منذ ثلاث سنوات، مما أدَّى بينبع إلى أن تصبح شِبْهَ مهجورة، بينما يمكن الحصول على ماء طيب من آبار، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال، بالقرب من بقايا حصن رفعه طوسون باشا لحماية معسكره.

كانت ينبع مستودعًا للذخيرة ومركزًا لتدريب الجند من أجل تعزيز جيش الباشا، بالإضافة إلى أنها نقطة التجمع بين الطريق البحري الآتي من قناة السويس، و (القُصَير) والطريق البرِّي الذي تسلكه القوافل الآتية من (السويس) خلال أربعة وعشرين يومًا، مع العلم أن مؤن الماء على هذا الطريق غير مستقرة.

وأشار إلى (ينبع النخل) وكثرة مافيها من المياه والحدائق التي تمول المرفأ البحري، وأنه لم يستطع زيارة هذا المكان، لأن الجو كان شديد الحرارة والرطوبة، ووصف سوء حالة إقامته في (ينبع) لإصابته بالحمى مع عدم الدَّواء والطبيب، وبلغه عودة الرسول الذي كلف بنقل الرسائل إلى مصر بجواب من محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا المقيم في جدة، أما القنصل الإنجليزي فما كان في القاهرة، ولهذا قرر الإبحار إلى جدة التي وصل إليها في خلال أربعة أيام، على زورق مكشوف في اليوم السابع والعشرين من الشهر، فوجد إبراهيم باشا مشغولًا بمحاسبة حاكم جدة المعفى من منصبه ويدعى (سيد

علي) الذي لَاقَى إهانات كثيرة، كما لَاقَى أشخاص كثيرون، من جراء تدقيق حساباتهم، وذاقوا أنواع التعذيب لانتزاع اعترافاتهم بشأن اختلاسات مزعومة، ولما قابل الباشا لم يكن الحديث بينهما مما يرتاح إليه (سادلير) ولم يفته حين عاد من المقابلة يرافقه اثنان من الجند وصفهما بإزعاجهما للحجاج المتسولين التعساء، الذين استسلموا للنوم على أرض الشارع بلا غطاء ولا فراش، يمثلون أسوأ مشهد للبؤس.

وصف مدينة جدة:

قال: كانت جميع شوارع جدة مزدحمةً بالناس، من مختلف البلاد الإسلامية، لدرجة صعوبة التجاوز من شارع إلى آخر، أما مدينة جدة فهي ذات بناء جيد، تحوي كثيرًا من المنازل الفسيحة الشامخة، ونادرًا ما تتمكن من استيعاب الحجاج، والأشخاص الذين تهيأت لهم ظروف الشراء، أما المعوزون وأولئك الذين أفنوا مالديهم من مال خلال رحلتهم الطويلة الشاقة لأداء هذه الشعيرة من دينهم، فهم معرضون لأقصى أنواع البؤس بشكل مستمر، وتوجد مخيمات لأمثال هاؤلاء الناس خارج المدينة الذين قدرهم بثلاثة آلاف شخص من الهند والسند وعُمَان والملايو والأتراك والمغرب، كان اليوم السادس عشر من شهر أيلول (٢٧ ذي القعدة) هو اليوم المقرر لرحيل إبراهيم باشا فقابله (سادلير) في اليوم الثاني منه وقد أَبْدَى أسفه لعدم عثوره على كاتب يتمكن من صياغة رسالة باللغة العربية للحاكم العام في الهند، وعن رغبته في إرسال هدية مناسبة مع الرسالة قال: فأوضحت له أن قيمة المادة المرسلة في مثل هذه الأوضاع ليست مسألة ذات أهمية، إذ الهدية الودية تقدر بالأسلوب الذي نقلت به، ويقدر ثمنها بالتعبير عن علاقات الصداقة المتبادلة، فأوضح بأنه سيبعث معي حصانًا وفرسًا للحاكم العام، وأن يقدم إكرامًا منه لي حصانًا، وأنه أمر بتجهيز زورق لنقلي إلى (المخا).

وبعد حديث حول أسلوب الرسالة التي ترسل إلى الحاكم العام في الهند، وماذا يستعمل له من الألقاب، وعن الخيل التي ستهدى إليه، وعما قدم له من الأدوات المتعلقة بها كالعذار والسرج والركاب والحلس، ذكر (سادلير) أنه أَبْدَى رغبته في عدم حمل بعض تلك الأشياء موضحًا بأنها لا تعد هدية مناسبة، لرجل نبيل يشغل ذالك المنصب الرفيع في الحكومة البريطانية، كان هذا من الأسباب التي دفعت إبراهيم باشا إلى الأمر بإنزال الخيل إلى البر، وإخبار (سادلير) بأن الجواب قد أُلغِي، كما أمر بإتلاف الرسائل، وأمر بأن يَرْحَل غدًا في الزورق المعد له إلى (المَخَا) وأن إبراهيم باشا سيوجه رسالة إلى الحاكم العام لدى وصوله إلى (القاهرة) رَادًّا معها السيف الذي أُهْدِي إليه.

وقد أحس (سادلير) بما وجه إليه من احتقار، فأفرغ ذالك في رسالة وجهها إلى القنصل البريطاني في مصر، وساقها بنصها، متوقعًا منه إيضاح الأمر لمحمد علي باشا لعله يدرك ضرورة دراسة تصرفات ابنه.

وفي اليوم السادس عشر من تشرين الثاني (١٩ محرم ١٢٣٥هـ) صعد إبراهيم باشا السفينة، ثم أبحر في اليوم السابع عشر متجهًا إلى (القُصَيْر) وقد عين قبل رحيله (حجي حسن) الذي كان قائدًا للأسطول، حاكمًا لمدينة (جدة) مكان الحاكم الذي فُصِلَ من منصبه، لاتهامه بتخصيص العائدات التي استردها من ممارسته للتجارة في (جدة) لمنفعته الخاصة، ثم أظهر (سادلير) التأثر عما جرى لهذا الحاكم المعزول، الذي انقلب إلى متسول يطوف على غير هدى في شوارع المدينة التي كان حاكمها في يوم من الأيام.

وكان من أثر تأثر (سادلير) من معاملة إبراهيم باشا له أن قرر عدم استعمال الزورق الذي هُيِّئَ من قبله لإيصاله إلى (المَخَا) عازما على أن يتخذ الوسيلة التي توصله على حسابه، وأن يسافر في الوقت الذي يتلاءم مع مصلحته، ولهذا أقام في (جدة)، بعد رحيل إبراهيم باشا، وزاره في اليوم الثامن عشر حاكمها

الجديد (حجي حسن) يرافقه السيد (عربي جيلاني) وعدد من التجار ممن اعتاد الصلة بالإنجليز، وأوضح أن (عربي جيلاني) قدَّمت أسرته للإنجليز خدمة فريدة من نوعها خلال الحملة التي قام بها الإنجليز في مصر، عندما تمكنوا من خلال اهتمامهم بشريف مكة من الحصول على تمويلات ضخمة من المواشي ودعم للأسطول، ووصف الحاكم الجديد بأنه ممن زار (كلكتة) و(بومبي) خلال قيادته لسفن أسطول إبراهيم باشا، وعبر عن امتنانه مما لقي من معاملة هناك.

قرر (سادلير) أن يبقى في جدة مؤملًا أن يتلقى جوابًا من القنصل البريطاني في القاهرة، ومنتظرًا وصول مركب من (الهند) ليعود إلى تلك البلاد.

قيل قديمًا: (والحقُّ ما شَهِدَت به الأعداء) و (سادلير) من هاؤلاء الأعداء ولكنه لم يستطع كتم ماشاهده من الأعداء الآخرين الذين جردوا تلك الحملة الظالمة لغزو سكان الجزيرة ﴿**وما نقموا منهم إلَّا أن يُؤمِنوا بالله العزيز الحميد**﴾ ولعل أبرز مايستفيده القارئ من هذه الرحلة مافيها من لمحات تكشف مساوئ أولئك الغزاة في مكاتبات وجهها الرحالة إلى رجال حكومته. وفي تقرير وضعه بعد انتهاء مقابلته إبراهيم باشا في جدة، واتصاله به، وادراكه لكثير من أحواله وأخلاقه.

ولا يتسع المجال لإيراد ذالك كله، لابل باقتطاف أطراف منه، فقد جاء في رسالة كتبها (سادلير) من جدة في ٢٨ تشرين الثاني ١٨١٩م (٢ صفر ١٢٤٥هـ) إلى أحد المسؤولين من رجال حكومته في الهند ما نصه[1] (ولقد كان من سُوءِ طالعي أن وقَعَت عليَّ القرعة للتعرف على الملامح القيادية في شخصية إبراهيم باشا من خلال ملاحظاتي الشخصية التي ينبغي عليَّ أن

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٨٥ -.

أُضيف إليها أن الواقع التاريخي العام للحملة الأخيرة التي عُهِد بها إلى تدبيره يعرض سلسلة لأبشع الأعمال الوحشية والهمجية التي ارتكِبت لتدنِّس العقيدة التي تتسم بأعلى درجات القداسة في تعاليمها وتوجيهاتها، كان يرتكب تلك الوحشيات في بعض الأحيان بهدف إثراء نفسه، بنهبه للقبائل نفسها التي كانت قد أسهمت في تحقيق نجاحاته، وكان في حالات أخرى يهدف إلى وضع يده على ثروات أعدائه المقهورين، لمجرد أنهم حجبوا أنفسهم عن الأنظار في لحظة غضبته، فبعد تضليله لأولئك البائسين تعيسي الحظ بأعدل الوعود، إذ بهم يقعون ضحايا تصرفاته الجشعة، وتعطشه الذي لا يرتوي إلَّا بسفك دماء البشر) انتهى.

ومما ورد في ذالك التقرير: (أن إبراهيم باشا أثناء اتجاهه من مصر إلى الحجاز أمر بأن يقام معسكره في (مليقا؟ Melca) بالقرب من ؟ينبع) حيث بقي الجند بانتظاره هناك أربعين يومًا يترقبون وصول الجمال من قبيلة (جُهَينة) التي تحتل الجبال الممتدة من المدينة إلى (ينبع) مع قبيلتي (ميمون) و(عوف) وحتى (مكة) من جهة الجنوب، فاضطر أخيرًا إلى إرسال قوة ضد أول قبيلة منها، فوضعت يدها على ألف من جمالها، وساقت ألفي رأس من أغنامها، وقتلت مئة وخمسين من رجالها، بينما جرح اثنان فقط من الجند، وذكر أن الجند أثناء إقامتهم في (مليقا (؟)) مات منهم نحو أربع مئة رجل بسبب رداءتها من الناحية الصحية، وأضاف: بأنه أرسل أثناء إقامته في (الحِنَاكِيَّة) قوة ضدَّ قبيلة (حرب) فسلبت ألفا وخمس مئة جمل، واستاق الجنود ستة آلاف شاة، وكميات كبيرة من التمر، وكان قد أقام في (الحِنَاكِيَّة) خمسة وعشرين يومًا، ومعه جيش مكون من مئتي فارس تركي، ومئتي فارس بدوي مغربي، وتسع مئة من المشاة، بالإضافة إلى ثلاثة مدافع، والتحقت به مجموعة (أوزن علي) المؤلفة من أربع مئة فارس ماهر، كانوا ذالك الوقت يشكلون قيادة منفصلة لحماية المدينةبمساعدة بعض الجنود الآخرين.

وأرسل كتيبة إلى أناس من قبيلة (عُتيبة) فلجأوا إلى الفرار، لكن سبعين شخصًا منهم وقعوا في الأسر، فتولى إبراهيم باشا نفسه ذبحهم بسيفه.

وأشار إلى وقعة (الماوية)[1] بأن إبراهيم باشا أمر (أوزن علي) مع جزء من قواته ومعهم مدفعان بالتقدم إلى (الماوية) وَبينما هو في الطريق وصله خبر معركة بين قوات (أوزن علي) وبين (الوهابيين) الذين هزموا هزيمة منكرة في تلك الوقعة في اليوم الثاني من كانون الأول، ووصل الباشا في الوقت المناسب ليقضي على حياة الأسرى الذين سقطوا في أيدي رجاله، وكان أن أرسل آذان القتلى لصعوبة نقل الرؤوس إلى مصر، وقد ذكر أن عدد (الوهابيين) الذين ذبحوا يتجاوز عدد جنود (أوزن علي) وفي هذا اليوم قُرِر مصير (عبدالله) لكنه هرب إلى (الرس) ومنه إلى (عنيزة) فـ(الدرعية) ولم يظهر ثانية على مسرح الأحداث - كذا قال -.

ويحوي التقرير إشارات تاريخية عن استبسال أهل المدن والقرى في الدفاع عن بلادهم وذلك مما أوضحه مؤرخو البلاد أنفسهم، إلَّا أن اعتراف (سادلير) وأمثاله به، جدير بالانتباه، وفي رحلته لمحات موجزة تصور ما قام به أهل المدن من دفاع عن بلادهم، ضِدَّ أولئك الغزاة، الذين لم يتركوا أيَّةَ وسيلةٍ من وسائل الظلم والجبروت، أو ارتكاب أيِّ فعل من الأفعال السيئة شرعًا وعقلًا إلا فعلوه.

وسأكتفي بعرض بعض تلك اللمحات.

(١) من المياه القديمة في عالية نجد منسوبة إلى جبل ماوان، جبل يقع غرب منطقة القصيم، أقرب الأمكنة إليه (النقرة) بينهما نحو أربعين كيلا، وهو في الجنوب منها، وأبار الماوية في واد يفيض في وادي ساحوق أحد روافد وادي الرمة، والوادي يحف بالجبل.

محاصرة بلدة (الرس)[1]:

ذكر أن القوات التي حاصرت (الرَّس) بلغ عـددها ألفًا وأربع مئة من المشاة، وست مئة فارس، مجهزة بمختلف أنواع العتـاد المعروفة في ذالك العهد، ومنها عشرة مدافع يقوم عليها مئة رجل، وأن إبراهيـم باشا أَغَذَّ السيرَ بقواته حتى وصل تلك البلدة، مصممًا على الاستيلاء عليها قبل إقـامة معسكره، لذالك أمر سلاح المدفعيـة بالتقدم إلى الأمـام، حتى يصل إلى بُعْدِ ثماني خطـوات من الأسوار، وأن يباشـر الرَّشقَ المدفعيَّ بـاتجاه أقوى المعاقل، ولكن رجـاله تعرَّضـوا لرشق كثيف، من نيران أسلحـة المدافعين، حتى تجـاوز قتلى الأتراك عشـرة أضعاف مَنْ قُتِلَ من المحاصَرِين الذين دافعوا عن المدينة بمعنويات عالية، وبعد ثلاثة أيام من رشق المعقل، بنيران المدافع، وعلى السور المحاذي له، قيل: إنه خُرِق فأمر بـالهجوم، ولمـا لم يتمكن المشاة من عبور الخنـدق أمر بصنع حُـزَمٍ كبيرة من عسب النخيل، وبِمَلء عـدد من الأكيـاس بـالقش، ثم انتقى ست مئـة من المشاة للهجوم، فرمى هاؤلاء الرجال بأنفسهم في الخندق، لكنهم لم يستطيعوا أن يصعدوا، إذ تبين أن حُزَم العيـدان والأكياس لم تكن كافية، وفتـح المدافعون نارًا مـدمرة من فوق الأسوار على الجنـود، وعلى المواد السريعـة الاشتعال التي تحيط بهم، وكـان الباشـا مع ممـاليكه يـرمـون بالـرصـاص كلَّ جنديٍّ يحـاول الانسحاب، فعـانى المشاة خسـائر فادحـة، وامتد حصار (الـرَّسّ) ثلاثـة أشهر ونصفا، أبدى خـلالها أهله فنًّا وعلمًـا أكثر مما أبداه القائد التـركي، وقد كلفت (بطاريـات) المدفعية اثنين وخمسين ألف (كراون ألمـاني) واسْتُهْلِكَتْ أحمالُ أربعِ مئة جمل من ذخيـرة البنادق، لإدخـال النار إلى داخل البلدة، ورمى رجال

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» -١٤٢ - ١٤٤ -.

المـدفعية ثـلاثين ألف قـذيفـة بلا جَـدْوى، وقـد شُيِّدت مِنَصَّاتٌ من جـذوع النخيل، لارتفـاع منـاسب، يمكِّن الجنـدَ من الـرمي إلى داخل البلـد، وقُـرِّبَتِ المدافعُ بحيث لا مَسَتْ حافة الخندق، ثم جربوا هجومين آخرين، لكن عدوهم استطاع أن يصدهـم في المـرتين، ويفقدهم عددًا كبيرًا من الرجـال، وعندما رأي الباشـا أنه عـاجز عن إنجاز مهمتـه، اضطر أخيرًا إلى الـدخول في مفـاوضات، وإلى رفع الحصار، ولم يسمح لأيِّ جنديٍّ من جنوده بالتغلغل في المدينة، بينما بقي (الـرسُّ) في حـالة حيـاد إلى أن يتقـرر مصيـر بلدة (عنيـزة) وقُتل في هـذه المعـركة تسع مئـة تركي، وجُـرح ألف، وآلت بهم الأمور إلى محنـة شنيعة، أما المحاصرون من سكـان (الرس) فقد فقدوا خمسين قتيـلًا فقط وسبعين جريحًا) وأضاف:[1]وقد أكـد سكان (الـرس) أن الطين الأصفر الـذي شيدت منـه أسوار بلدتهم يتصف بالالتصاق والتماسك السريع إلى درجة أن القنابل لم تؤثر فيه.

وذكر بعد ذالك[2]: أن (الخبراء) استسلمت بعد حصار يـوم واحد، وأنه سار إلى مدينة (عنيزة) حيث أقام فيها (عبدالله[3]) معسكرًا، ثم مضى إلى (الدرعية) فـدخل مشـايـخ بلـدة (عنيـزة) في مفـاوضـات، لأن حصنهـم كـان قـد نُسِف بالمدفعية، فاندلعت النيران في مستـودع الذخيرة، مما دفعهم للدخول بسهولة، إذ استسلم المـوقع العسكريُّ وسُمِح لمن فيـه بالمغـادرة مع السلاح والمتـاع، وقد استغرق هذا الأمر خمسة أيام.

أمـا (بـريدة) فقـد استسلمت خـلال ثـلاثـة أيام، وشيخهـا (حُجيـلان) في العشرين بعد المئة من عمره.

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٤٣ -.

(٢) نفس المصدر.

(٣) يقصد الإمام عبدالله بن سعود - رحمه الله -.

وأقام إبراهيم باشا شهرين في المنطقة ينتظر التعزيزات، وبعدها تقدم نحو (شقراء) فلما قرب من البلدة باشر بقطع نخيلها، وذكر أن أهل البلدة استسلموا، وسمح لهم بالرحيل، ومكث إبراهيم باشا في هذا المكان ثلاثة أشهر، ينتظر وصول التعزيزات والمؤن، وتحرك بعد ذالك إلى (ضرما) وكانت في درجة عالية من الازدهار، وقد صُدَّ حين هاجمها في اليوم الرابع، ولكنه احتل المدينة بعد أن التجأ ثلاث مئة في بيت، ثم استسلموا وسمح لهم بالرحيل بلا أسلحة، تحت إمرة زعيمهم المسمى (سعود) وهو خال عبدالله، ثم أضاف قائلًا:[1] وهنا عاد مزاج الباشا إلى ماكان عليه من مألوف الغضب، فاستخدم الجنود سبعة أيام كاملة في تذبيح سكان هذا البلد، وقُدِّمت لهم المكافأة المعتادة، ومقدارها أربعة (كراونات ألمانية) لكل زوج من الآذان.

وكانت تلك الأفاعيل حدثت في بداية شباط ١٨١٨ (٦ جمادى الأولى ١٢٣٣ هـ) حيث كان الطقس باردًا، والأمطار تهطل بغزارة.

في محاصرة الدرعية[2]:

وعندما بلغ مدينة (الدرعية) كان العدد الإجمالي للمشاة من جنده بلغ أربعة آلاف وثلاث مئة منهم ألف وسبع مئة وخمسة وعشرون من الأرناؤوط، والباقون أتراك، ووصل عدد المغاربة ومن معهم إلى ألف وثلاث مئة رجل، كما بلغ مجمل تعداد الخيل ألفا وتسع مئة وخمسين، مع عدد من المدافع والمهندسين والأسلحة الأخرى، والتجهيزات اللازمة، وقال[3]: استهل الهجوم على (الدرعية) من جهة الشمال في قرية تسمى (فيزل Fazel) تتكون من حدائق

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٥ -.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر - ص ١٤٦ -.

متناثرة مع البيوت المحمية بسور وأبراج، وقد تم احتلالها بعد سبعة أيام حيث أُجْبِرَت قواتُ عبدالله على الالتجاء إلى السور الذي فصل قرية (فيزل أو جنين الفيزل Jenein - Ul - Fyzel) عن أوسع تقسيمين من تقسيمات (الدرعية).

وأضاف بأنه حصل حادث خطير في جانب الباشا، فقد نُسِفَ مستودع أسلحته، وبقي جنود المدفعية بلا ذخيرة مدة تقارب الشهرين.

ثم ذكر الهجوم على أحد جوانب (الطُّرَيف) وأن من حسن حظ إبراهيم باشا أن أعداءه توقعوا الهجوم من الجانب المقابل، ويسمى (سيل Seille) حيث تقدمت جنود الباشا، واستولت على (الطُّريف) دون إطلاق رصاصة واحدة، وكان هذا الظرف مواتيًا للغاية، لأنَّ القسم الأعظم من فرسانه استطاع أن يعبر عبر الوادي الضيق الشديد الانحدار، الذي يُعَدُّ فَخًّا لكل عدو.

كانت المقاومة من جانب (سيل) أكثر عنادًا، فقد صمدت هذه البلدة ثلاثة أيام، لكن المهاجمين نجحوا أخيرًا لأنهم أكثر عددًا.

وعندما استولى الأتراك على مدينة (فيزل) هاجر عدد كبير من أهل (الدرعية) ولم يعودوا إليها، فأصبحت قوات عبدالله ضعيفة من ذالك التاريخ، إذ لم يبق معه خلال هذا الهجوم الأخير سوى ألفين من الآلاف الأربعة الذين بَدَأُوا مقاومة هجوم الأتراك، فاضطر عبدالله للتراجع إلى المكان الوحيد الذي بقي أمامه، وهو حصن أسرته الواقع على أطراف (الطُّرَيف) حيث اعتصم هناك مع مئتين من رجاله، وهم فلول قواته، وفي هذا المكان تحملوا قذف قنابل الباشا ثلاثة أيام، وعندما قام عبدالله بزيارة الباشا وضع شروطًا للتفاهم، فطلب العفو عن الجنود الذين بقوا مخلصين معه، بالإضافة إلى إخوته وأسرته على اتساعها، والحفاظ على المدينة، وسلامة شخصه بالذات.

ويضيف (سادلير)[1] قائلًا: تكشف سلوك الباشا طيلة فترة هذه المقابلة عن قمة في الغطرسة، على الرغم من أنه لـم يهْزِم بشكل كامل بعد، فكانت الشروط التي وضعها: العفو عن الجنود، وعن إخوته وأُسَرِهم، وعدم إعطاءِ أيٍّ تعهد حول المدينة، مع التعهد بسلامة عبدالله حتى تاريخ وصوله إلى (القاهرة).

عاد عبدالله إلى حصنه، ليفكر في مستقبل أيامه، وفي الرابع من أيلول ١٨١٨ (٦ ذي القعدة ١٢٣٣هـ) سلم نفسه ليدَي الباشا) إلى آخر ماذكر.

وقال[2]: عندما تمكن إبراهيم باشا من وضع يده على (الدرعية) دخل القلعة، ودخل بيت عبدالله مع خدمة الموثوق بهم، ولم يسمح لأي فرد من عائلة عبدالله أن يحمل شيئًا يمكن نقله، إذ كان يتوقع أن يجد بعض النفائس، ولكنه خاب أمله، ويُعْتَقَدُ أن مجموعة هائلة من الكتب قد كُدِّسَتْ وأرسلت إلى المدينة ابتهاجا بالنصر، ليفحصها المختصون في العلوم الدينية قبل السماح بقراءتها.

سُمِح للجند بدخول مدينة (الدرعية) وانتقاء أحياء ينهبونها لأنفسهم، ويُسيئونَ للسكان القلائل، الذين بقوا فيها حرصًا على بيوتهم وحدائقهم، وقد قبض الباشا على الأشخاص الذين شك في أنهم أخفوا أموالهم وثرواتهم، واستطاع بلجوئه إلى أنواع مختلفة من التعذيب، والبراعة في الخداع أن يحصل على مبالغ كبيرة.

لم يكن (سادلير) وحده هو الذي أخذ على الإمام عبدالله - رحمه الله - في اسْتِسْلَامِهِ بهذه الطريقة، إذ قال[3]: (لو أن عبدالله فرَّ من الدرعية، وتباعد بأفراد عائلته ليبقى الأتراك في الجزيرة العربية منتشرين، بشكل مجموعات صغيرة،

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٤٧ - .
(٢) نفس المصدر - ص ١٥٠ -.
(٣) نفس المصدر - ١٤٨ -.

لاقتفاء آثارهم، ولنجا بعضهم، بعد أن يستنزف الأتراك قُوَّتَهُمْ، لا سيما وأن جميع أفراد تلك الأسرة يدركون تمام الإدراك أن مصيرهم سَيُقَرَّرُ في اللحظة التي يسقطون فيها بين يدي الباشا، وإنه ليبدو أن هذا الذي يطلق عليه اسم (الأحمق)[1] هو الرجل العاقل الوحيد بين أفراد أسرته).

لقد بذل الإمام عبدالله غاية جهده، ولكن كما قال المعري:

وقَدْ يُخطِئُ الرَّأيَ امْرُؤ وهْوَ حَازِمٌ   كما اخْتَلَّ فِي وَزْنِ القَرِيضِ عَبِيْدُ

و (إذا وقع القدر عمى البصر) كما قال الرَّاجز:

هي المقادير، فلُمْنِي أو فَذَر   إنْ كنت أخطأت فما أخطَا القَدَرْ

ولقد كان الملك عبدالعزيز - رحمه الله - يأخذ على عبدالله جوانب من ضعف رأيه، على ما نقل الشيخ حافظ وهبة في كتابه «جزيرة العرب في القرن العشرين» فهو في الوقت الذي كان فيه في أشدِّ الحاجة إلى تأليف القبائل، لكي تنضم إليه في الدفاع عن البلاد حدث منه من سوء التصرف ما أغضب بعض شيوخها. يروي (سادلير)[2] أن شيخ قبيلة (مطير) بعث ابنه مهنئًا الباشا على انتصاره في وقعة (الماوية) فكان أن تم بسبب ذالك انضمام هذا الشيخ ومن معه للباشا، حيث استقبل باحترام وتقدير، وكان الباعث لذالك الشيخ حزازة في نفسه، وكراهيته لعبدالله، ناتجة عن قتل عبدالله اثني عشر رجلًا من أقاربه.

وبصرف النظر عن صحة هذه الرواية إلا أن الأمر الواضح أن تلك القبيلة بقي منها من له صلة بتلك الحملة الظالمة، كما يدل على هذا إحدى وثائق (الدار القومية في مصر) التي ألحقها الأخ الأستاذ سعود بن جمران في تعليقاته[3]، ومثل

(١) الأحمق يقصد به أحد آل سعود الذي هرب، وسيأتي ذكره فقد وصفه الأتراك بأنه أحمق مجنون.
(٢) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٤٢ -.
(٣) المصدر السابق - ص ٢١٨ -.

ذالك وثيقة بشكل مرسوم موجه إلى مشعان بن هذال شيخ عربان (عنزة) يفهم منه اتصاله بأولئك الغزاة.

وذكر (سادلير) أن أحد أبناء عبدالله أثناء الاتجاه به وبأسرته إلى مصر هرب حتى اختفى إلا أن المعلق كتب في الحاشية: أن الذي فر هو مشاري بن سعود شقيق عبدالله وليس ولده، وقد هرب من المعسكر في (الجُدَيِّدَة) بين المدينة و(ينبع) وعاد إلى (الدرعية) ثم ذكر بقية خبر مشاري.

حملة تركية إلى (أبي عَرِيش)[١]:

ذكر (سادلير) أنه أثناء إقامته في (جدة) قدمها خليل باشا بعثه محمد علي، ومعه ألفان وخمس مئة من الأتراك والأرناؤوط تعزيزًا لإبراهيم باشا الذي طلب مزيدًا من المساعدات، حين امتد حصار (الدرعية) لكن هذا الباشا ومن معه تأخر وصولهم، وحيث أنهم قد أُرسلوا عن طريق البحر، بتكاليف باهظة، فإن محمد علي صمم على استخدامهم ضِدَّ أهل (أبي عريش) الذين خرجوا على حكومته في (تهامة) ومن ثَمَّ تَمَّ استيلاء الجيش التركي على (القنفذة) و (اللُّحَيَّة) وأماكن كثيرة على الساحل، وفي داخل (تهامة) كما أُلقيَ القبض على آخر زعيم يمني (وهابي) خلال إقامة هذا الباشا في (جدة) وهو (محمود بن محمد) أُتِيَ به مكبَّلًا بالأغلال ومن (جدة) أُرسِل بسفينة متوجهة إلى مصر، ليَمْثُل بين يدي محمد علي.

محمد علي يتفق مع إمام اليمن:

وقال[٢]: (عند تقلص الوجود الوهابي في اليمن وتهامة دخل محمد علي في محادثات مع إمام (صنعاء) الذي وافق على أن يدفع مئة ألف من

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٥٢ -.

(٢) نفس المصدر.

(الدولارات) ضريبة سنوية، وأن تُعادَ إليه المناطق التهامية التي استولى عليها الجيش التركي كـ(القنفذة) و (اللحية) وغيرهما.

وأشار إلى أنه بعد هذا الاتفاق استدعَى خليل باشا مَنْ بقي من جنده في (تهامة) وهم في حالة سيئة من البؤس والمرض إلى (مكة) حيث اتخذها مركزًا، ينتقل بينها وبين (جدة).

نظرة (سادلير) إلى بادية الجزيرة:

مع أن هذا الإنجليزي على درجة من الجهل بحقيقة الدعوة الإصلاحية، التي قام بتجديدها الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وعن مبلغ تأثُّرِ سكان الجزيرة بها، وقبولهم إياها، وإدراكهم لحقائقها، إلا أنه مع ذالك أدرك من خلال مشاهداته أن بدو (نجد) وكل من اجتمع به منهم دون استثناء بعد القضاء على دعاة تلك الدعوة ومناصريها في قاعدة ملكهم (الدرعية) أي كل سكان البلاد عامة ومنهم أبناء البادية الذين وصفهم بأنهم كانوا على درجة قوية من التمسك بتلك الدعوة، فهو يقول عنهم بأنهم يصارحونه بأنهم على مذهب أهل السنة، وهم حريصون على عبادتهم، ولا يهملون شيئًا من الصلاة المفروضة، مهما كان السير طويلًا في أسفارهم، وتحت أشق أنواع الحرمان والعوز، ثم أشار إلى التناقض بينهم وبين الأتراك الذين وصفهم بأنهم يتَّسمون بثقافة روحية، لكنهم لا يسمحون للدين والصلوات أن تتعارض مع راحتهم واطمئنانهم أبدًا.

ولكي يدلل على أن ماحدث لأكثر مدن نجد لم يكن ليؤثر في نفوس سكان البلاد نحو تمسكهم بعقيدتهم قال: إني التقيت ببعض الذين لا يزالون يجاهرون بأنهم على تلك العقيدة في (منفوحة) و (الرياض) وهم بقايا سكان (الدرعية) لا العرب البداة، وكان عددهم قليلًا، وقد عرفت منذ ذالك الوقت أن

(الكاشف) فكر في تدمير البلدتين خلال فترة تأخرنا في (منفوحة) ولكنه خشي أن يحاصَرَ ويُعْزَل، كأنه يشير بهذا - وبسرعة إسراع عودة إبراهيم باشا - إلى عدم استطاعة القوة الغاشمة الغازية من زعزعة ما للعقيدة من ثبات في نفوس أهل البلاد.

وذكر أنه في الثالث والعشرين من كانون الثاني (٦ صفر) رسىٰ في ميناء (جدة) مركب إنجليزي، فركب فيه إلى (بندر المَخَا) وقد بلغه في الحادي عشر من شباط، فانتظر جواب رسالة بعث بها إلى (صنعاء) حتى الثاني والعشرين من آذار، حين غادر (المخا) إلى (الهند) فوصل (بومبي) في الثامن من أيار.

إن هذه الرحلة ستفيد بصفة خاصة أولئك المعنيين بالدراسات السياسية، المتعلقة بصلة الحكومة البريطانية في ذالك العهد بأحوال الخليج وعُمَان والجزيرة، فمؤلفها من صانعي تلك السياسة، ولهذا انصبَّ هدفه على إيضاح جوانب منها، وهي مما لم أتعرض له في هذا العرض الموجز، الذي قصدت من ورائه عرض بعض اللمحات التاريخية أو الجغرافية المتعلقة ببلادنا عرضًا قد يفيد من يهتم بدراسات هذه الجوانب.

ومن المدرك بداهةً أن أيَّ إنسان يتحدث عن رحلة أو كتاب بلغة لا يحسنها، فإن ما سيعرضه سيكون محلًا للخطإ لا سيما وترجمة هذه الرحلة - نَقْلها إلى العربية - لم تكن بالصورة التي يُطْمأَنُّ إليها كحالة كل عمل يقوم به فرد، ليتقاضَى عنه أجرًا، ومع ما بذله الأستاذ سعود بن جمران العَجْمِي من جهد في إضافة معلومات واسعة إلى هذه الرحلة، إلا أنني لاحظت أن المعرب الكريم تفوته بعض أشياء[1] وقد يورد عبارات مبهمة ناقصة.

(١) انظر الأصل - ص ١٣١ - حيث تجد حاشية طويلة مما فات المعرب.

تحريف أسماء المواضع:

وسيمر بالقارئ أسماء مواضع كثيرة لم أستطع معرفتها، وأنا واثق بأنها لم تكتب بصورتها الصحيحة، ويبدو أن (سادلير) نفسه قد أدرك هذا، فقد تحدث عن الرسائل التي بعثها خلال الرحلة، وعَدَّ منها ما بعثه مع خادم له من أهل (بوشهر) كان عاد مع الحجاج الذين جُرِّدُوا من كل ما معهم حين عادوا إلى الخليج قبل الوصول إليه، وكان مما أخذ من الخادم تلك الأوراق التي قال عنها:[1](وإني لأعتبر أن الأوراق التي سُرِقَت من خادمي هامَّةٌ جدًا، فهي تحوي أسماء جميع الأماكن التي مررنا بها، مكتوبة بشكل صحيح، وباللفظ العربي، بالإضافة إلى أسماء القبائل وفروعها، وبشكل أوضح هو عبارة عن بيان للقبائل الصغيرة التي تشكل أسرها القبائل الرئيسة الكبرى بالإضافة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بها) انتهى.

أما الأسماء الواردة في سياق الرحلة فقد يكون الخطأ من عدم معرفة (سادلير) للهجات أبناء البادية فيدوِّنُ الاسم خلاف ما ينطقه أولئك.

وقد يتعمد الدليل إذا لم يكن من أهل ذالك الموضع وهو يجهله أن يضع له اسمًا غير صحيح، لئلا يظهر أمام سائله بمظهر الجاهل، وحدث مثل هذا في بعض مؤلفات (فلبي) فقد كان شديدًا في معاملة من يرافقه، وخاصة إذا سأله عن اسم موضع فأبدى جهله به، ومن هنا كان من يرافقه يتحاشي الظهور بمظهر الجاهل، ويُطلق على الموضع اسمًا خلاف اسمه الصحيح، وهذا الأمر مما كان يتحدث به بعض مرافقيه.

(١) «رحلة عبر الجزيرة العربية» - ص ١٥٤ -.

لقد صدرت هذه الرحلة سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) عَرَّبَها أنس الرفاعي، وأشرف على طباعتها وحققها ونشرها سعود بن غانم الجمران العجمي، وصدرت عن دار الفكر في دمشق، في نحو ثلاث مئة صفحة، يقع الأصل في (١٨٦) وفي الباقي تعليقات وفهارس، وقد بذل الأستاذ سعود جهده فيما أضافه من معلومات، ووثائق تاريخية، إلا أنه كان من المناسب وضع التعليقات في هوامش الأصل موجزة، مع الإشارة إلى المصادر التي نقلت عنها، لكي يستفاد منها، ولعل الأستاذ سعود أن يعيد طباعة الرحلة بعد التثبت من صحتها بمطابقتها على الأصل وتصحيح الأسماء المحرفة، وهو مع كل ذلك جدير بالشكر والتقدير.

* * *

رحالة فرنسي يتحدث عن تهامة وبلاد عسير

هذا شاب فرنسي يُعَدُّ من أقدم الغربيين الذين زاروا بلادنا، وكتبوا عنها خلال الحرب التي شنها أعداء الدعوة الإصلاحية التي دعا إليها الشيخ محمد ابن عبدالوهاب، وقام بنشرها الإمام محمد بن سعود - مؤسس الدولة السعودية- وخلفاؤه من بعده عام ١١٥٨ فتكالبت قُوى البغي والطغيان على محاربة هذه الدولة، حتى تم القضاء عليها في دورها الأول سنة ١٢٣٣، ولكن الله سبحانه وتعالى قد تكفل بإظهار الحق، وإمداد أنصاره بالقوة والتأييد، حتى أعاد الكرة لهم، ومكنهم من إنشاء دولة أصبحت تسامي في هذا العصر أرقى دُوَلِه، عمرانًا وتقدمًا و إصلاحًا، واتجاهًا للعمل بكل ما فيه إسعاد شعبها ورقيه في جميع المجالات الحيوية.

قام هذا الشاب برحلته بعد رحلة (بركهارت) بثماني عشرة سنة، وتمكن من أن يضيف معلومات عن البلاد التي مرَّ بها وشاهدها، أَوْفَى مما سجله (بركهارت) في رحلته، بل أتى فيما دونه من مشاهداته وانطباعاته عن (بلاد عسير) و (تهامة) بمعلومات لم يسبق إليها. يدعى هذا الرحالة (موريس تاميزيه M. Tamisier).

ولعل أول من لفت النظر إلى رحلته تلك هو (فلبي) الذي عده هو وزميله أقدم من توغل في بلاد عسير وتهامة، إذ قال في كتابه «النجود العربية» الذي نشر باللغة الإنجليزية منذ سبعة وأربعين عامًا (سنة ١٣٧١هـ) وكان الفرنسي تاميزيه أول من زار هذه المنطقة سنة (١٨٣٥م) وكرر ذكره وذكر زميله (ادوارد كمبس) في صفحات أخرى ونقل عنهما[١].

ولقد كان (تاميزيه) وهو في الحادية والعشرين من عمره في القاهرة في آخر عام ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م) يتطلع إلى مايهيئ له الوسائل التي تمكنه من التجوال

---

(١) في الصفحات: (٣/ ٢٨/ ٤٧٩/ ٦٩٣).

في بلاد العرب، فسنحت له الفرصة حين اتصل بفرنسي من قومه، قد اختير ليكون رئيس أطباء حملة عسكرية، أمر بإعدادها محمد علي باشا بقيادة أحمد باشا لإخضاع بلاد عسير، التي ثارت ضد الحكم التركي بزعامة الأمير علي بن مُجَثَّل حين أزال ذالك الحكم، وسعى لتخليص بلاد تهامة من سيطرته، بعد أن ظلت هذه البلاد بضعة عشر عامًا منذ سنة ١٨١٥م ترزح تحت حكمه.

ولقد كان رئيس الأطباء الفرنسي بحاجة إلى كاتب وأمين، فهيأ لهذا الشاب المغامر مرافقته مع البعثة الطبية، فتحققت أمنيته بالقيام بتلك الرحلة التي مكث في خلالها ما يقرب من تسعة شهور، منذ وصوله إلى (جدة) في العاشر من كانون الثاني (يناير سنة ١٨٣٤م) أول رمضان سنة ١٢٤٩هـ، إلى نهاية أيلول (سبتمبر سنة ١٨٣٤م) حيث تم الصلح بين أمير عسير، وبين الوالي التركي أحمد باشا، فرجع إلى جدة.

ولكن حب المغامرة في نفس هذا الفتى، وقوة الرغبة في مواصلة السياحة في فجاج تلك البلاد الواسعة، مازَالَا يسيطران على فكره، ويحفزانه لإعداد العدة لرحلة أخرى، فما استقر به المقام في (جدة) إلَّا ليتحين الفرصة ليبحر منها إلى بلاد أخرى، وهكذا كان، فقد اتفق بشاب من قومه يدعى (ادوارد كمبس) يتفق معه في الأهداف والغايات والرغبات والميول، فأبحرا من (جدة) في أوائل سنة ١٨٣٥م حتى بلغا (القنفذة) ومنها سارَا بَرًّا إلى (جازان) ثم (اللُّحَيَّة) و (الحُدَيْدة) و (بيت الفقيه) و (زَبِيْد) حتى بلغا (المَخَا) حيث أبحرا إلى جزيرة (دَهْلَك) ثم جازا البحر الأحمر إلى الضفة الغربية، وسارا بَرًّا متوغِلَيْن في بلاد (الحبشة) ومكثا هناك سنتين، ثم عادا إلى فرنسا، وألفا عن رحلتهما كتابًا عنوانه «رحلة إلى الحبشة» في خمسة أجزاء نالا عليها جائزة من (الجمعية الجغرافية الفرنسية).

أما كتاب (تاميزيه) «رحلة إلى الجزيرة العربية» فيقع في جزءين، سُجِّلَتْ فيهما المشاهدات والانطباعات بأسلوب اليوميات.

ويحوي الجزء الأول المتضمن لرحلة (تاميزيه) إلى (بلاد عسير) وصفًا شيقًا لما مر به من البلاد، منذ مغادرته السويس بحرًا، مما يمر به أو يشاهده من موانئ وجزر، فيذكر أن الإبحار من (السُّويس) كان على سفينة شِراعية، وسمى بعض الأمكنة التي مر بها، ولما وصل إلى (ظبا) ذكر أن الملاحين استقوا من بئر عمقها نحو عشرين قدما طيبة الماء ملؤوا قربهم منها، وأن السفينة رست في جزيرة (النعمان)، وهذه الجزيرة لاتزال معروفة، ولكن ليست مرسى للسفن الآن، وهي تقع جنوب بلدة (ظبا) بنحو أربعين كيلًا، وقد ذكر البكري بأنه وُجِد في هذه الجزيرة لؤلؤة لا يعلم أنه وجد في مغاص اللؤلؤ مثلها، في كبرها وصفائها واستواء خلقها، وتسمى اليوم عند الملوك بـ(اليتيمة) لانفرادها عن النظائر، ولكن صاحب «الروض المعطار» ذكر أن هذه اللؤلؤة عثر عليها في جزيرة (عشقة) وجزيرة (عشقة) كما يفهم من تحديد صاحب كتاب «نظام المرجان» تقع شمال ميناء (الجار) بالقرب من ميناء (ينبع)، وقد فصلت الحديث عن هاتين الجزيرتين في (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

وذكر (تاميزيه) أن سفينتهم مرت بعد - (اسطبل عنتر) فجزيرة (كمران) حيث ألقت مرساها في مرفق صغير اسمه (العويش) (؟) يقام فيه سوق للعربان يباع فيه الماء والتمر والملح الناصع البياض، ووصف السكان بأنهم بدو، والواحد منهم كتلة من العصب والجلد، أصحاء الأجسام، يلبسون قمصانًا بيضاء، ويحتذون نعالًا من جلود الأنعام، أما سلاحهم فالبندقية بفتيل والرمح والجنبيَّة.

ويلاحظ أن (اسطبل عنتر) ليس ميناءًا، ولكنه موضع لايزال معروفًا يقع في البر، وكان من منازل الحجاج القادمين بطريق ساحل البحر فيما بين (ظبا) و(الوجه) أما الجزيرة التي دعاها (كمران) فغير معروفة في هذه الجهة، ولعل

الاسم محرف، أو أنه علق بذهن الرحالة اسم جزيرة (كمران) الواقعة جنوب البحر الأحمر، وكذا المرفأ الذي سماه (العويش) فهو غير معروف.

وذكر أنه في أول يوم من سنة (١٨٣٤م) أرست سفينتهم في جزيرة صغيرة اسمها (جبل حسن) وصفها بأنه لا ماء فيها، وأضاف: يبلغ عدد سكانها نحو خمس مئة نسمة يعيشون من صيد الأسماك والغوص لقلع المرجان، أما الماء فيأتون به من البر، كذا قال (جبل حسن) ويبدو أنه يقصد (جبل حَسَّان) إذ في هذه الجهة التي مر بها جزيرة تدعى الآن (جزيرة الحسَّاني) وكانت تدعى (جبل الحساني) وهي جزيرة كبيرة تقع غرب ميناء (أُمِّ لُجٍّ) بقربها، وقد وصفها العبدري الذي مر بها سنة (٦٨٨) بعد أن مر بـ (الحوراء) كما وصفها ابن عبدالسلام الدرعي في رحلته.

أما الآن فليس فيها سكان، ويبدو أن بلدة (أُمِّ لُجٍّ) لما عُمِرَت انتقل سكان الجزيرة إليها في العصور الأخيرة.

وذكر (تاميزيه) أن سفينته رست في ميناء (ينبع) في اليوم الرابع من شهر كانون الثاني، وأن ركابها نزلوا إلى المدينة بالقوارب، إلَّا الفقراء منهم، فخاضوا اليمَّ وقطعوه على الأقدام، ووصف هذه المدينة بأنها من أهم الموانئ الساحلية التي رآها منذ مغادرته (السويس) وأنها محاطة بأسوار بنيت حديثًا ولها بابان من جهة البحر، وأن العرب المقيمين بقربها الذين يفلحون الأودية المجاورة ومن أشهرها (ينبع النخل) يأتونها بما تحتاج إليه من المؤن، ووصف مدينة (ينبع) من الناحية الاقتصادية بأنها ذات شأن لأنها مستودع تجار المدينة المنورة.

وحينما اتجهت بهم السفينة من (ينبع) ذكر أنهم مروا بمرسى صغير يدعى (الجاع Dja) كذا سماه، قرب رأس (الحمة Al - Hama) غير بعيد عن قرية (رابغ).

ويظهر أن هذا الميناء هو (الجار) فهو الواقع في هذه الجهة، وكان ميناء المدينة وله شهرة في الكتب القديمة، ويعرف موقعه الآن باسم (الرايس) ممتدًّا إلى (البُرَيْكة) التي أبحر من مينائها الجيش الغازي بعد وقعة (الصَّفراء).

أما مدينة (جدة) التي أقامت فيها (البعثة الطبية) وفيها (تاميزيه) فكان المكث فيها أربعة شهور من اليوم العاشر من كانون الثاني (يناير) إلى اليوم السابع عشر من شهر أيار (مايو) سنة ١٨٣٤م، ولهذا توسع في وصفها، وهو وإن كان استقى هذا الوصف مما كتبه (بركهارت) قبله، إلَّا أنه قد يأتي بزيادات طريفة كحديثه عما سَمَّاه (قبر حواء) الذي كان قد هدم أثناء استيلاء السلفيين على هذه البلاد، وأن محمد علي باشا أمر بإعادة بنائه، ووصف شوارع جدة بالسعة والنظافة، وبيوتها بالجمال، وأنها تتكون من طابقين أو ثلاثة تزينها المشربيات، ولا تفوته الإشارة إلى ذكر تعدد أجناس السكان واختلاف ألبستهم باختلاف طبقاتهم الاجتماعية، ولن أطيل بإيراد كلامه عن جدة، فهو يعترف بأنه عول على وصف من سبقه.

غادرت البعثة مدينة (جدة) إلى (الطائف) بطريق يمر بـ (وادي فاطمة) فبئر (البرود) حيث تقيم قبيلة (لِحْيَان) ويذكر أنه شاهد غير بعيد عن هذه البئر بعض الخرائب الهامة، وهي تدل على بلدة كبيرة كانت قائمة في هذا المكان في غابر الزمن، جدران من الحجارة الصوانية ودرج من الحجارة الضخمة وأنواع من الأسطحة المستوية تحيط بهذه الأطلال خرائب أخرى أقل منها شأنًا ولكنها تعطي فكرة عن عظمة أولئك الذين أنشأوا تلك الأبنية، فمن هو هذا الشعب الذي شادها، وإلى أي عصر يرجع تاريخها؟

وإذا أمعن المرء النظر فيها اكتشف أن تلك الأحجار المنتشرة على الأرض لا تحمل أية كتابات أثرية وهي فيما يبدو مؤكدًا قد استخرجت من الجبال المجاورة، أما الأبنية فهي تسبق عهد الإسلام بكثير، والبدو هنا لا يعرفون عنها شيئًا.

وفي منطقة (السيل) حيث بلاد قبيلة (عُتَيبة) تمثل حياة البداوة وهي مؤلفة من سبع مئة بيت، غنية بما تملك من الأنعام، وعندها عدد كبير من الخيل النجدية الشهيرة ومراعيها جيدة.

ولم يفت (تاميزيه) وصف ما بين الإنسان والحيوان في هذه البلاد من علاقات الألفة، فالجمل هنا يلقى معاملة الصديق الحقيقي، يتحدث إليه البدوي في الطريق، وينشد له أناشيد الحب، والجمل يصغي إليه بانتباه، وللتعبير عما يشعر به من ارتياح يضغط على شدقيه، ويصر أسنانه، ويدير رأسه نحو الحادي ليعيره انتباهًا أكثر، ويشعر بتأثير الألحان البدوية بحيث أنه نسي ما فوق ظهره من حمل ثقيل، فيجتاز المسافات الطويلة ولكنه إذا هدر غاضبًا أثار الخوف والفزع.

وبعد سبعة أيام من مسير القافلة من جدة كان الوصول إلى الطائف والإقامة فيها عدة أسابيع مما هيأ لـ (تاميزيه) أن يصفها وصفًا مفصلًا إلَّا أنه يعبر بمرارة عما شاهده من تهدم الأبنية أثر الحرب سنة (١٨٠٢) وفتك الطاعون الذي تفشى في عامي (١٨٣١ و ١٨٣٢م) بعدد من السكان، حيث هبط سكان المدينة من عشرة آلاف نسمة إلى ألفين وخمس مئة، ولكن المدينة كلها ليست على هذه الحال المحزنة، فإن ما يحيط بها من الحدائق المنتشرة في سفح الجبال الجرداء، وما تحويه من الأشجار والخضار، ويجري من تحتها من مياه الري، كلها تبعث الراحة في النفس، وقد أثار إعجاب (تاميزيه) شجر الورد بين أشجار الفواكه الكثيرة من التين والتوت والجميز والدراقن واللوز والخوخ والتفاح والانجاص والمشمش والليمون والموز والرمان، وتدلي عناقيد العنب الأبيض والأسود من الدوالي المعرشة، وفي بساتين الخضار ينبت القرع والبطيخ الأحمر والشمام وغير ذلك مما عدده، ويصف مجتمع (الطائف)

بالغنى والمناخ بالاعتدال الذي يجعل منه مكانًا لا منافس له، والسماء في الليل مفرطة اللألاء ويقول: بأن صفاء الجو في هذه المدينة لا مثيل له في كل البحر الأحمر، بحيث استطاع وهو داخل الخيمة أن يقرأ بسهولة على ضوء القمر مع أنها كانت من القماش الغليظ المبطن!!

ويشير إلى بعض الخرافات المنتشرة عندما يقول: عندما يدخل المرء المدينة من الجنوب بين جبال أشبه ما تكون بقوالب السكر شكلًا يصل إلى حجرٍ مستوٍ كتب عليه بالعربية قصة أعطت المكان الاسم الذي عرف به (مضمن الغزالة) ويُرى بعض التجاويف في الحجارة على وصف طبيعي منها يقال: إنها آثار أقدام الغزالة، ثم يسوق القصة منسوبة إلى النبي ﷺ، وما جرى لغزالة مع يهودي إلى آخر الخرافة التي ذكر.

وكانت رحلة الحملة من الطائف في اليوم السادس والعشرين من شهر حزيران (يونيو) باتجاه بيشة ولا يفوت (تاميزيه) وهو يختتم الجزء الأول من رحلته هذه إيراد وصف مفصل لمنطقة (أبي عريش) التي بسبب غزوة أمير (عسير) لها لتخليصها من الحكم التركي، طارت الشرارة الأولى لإشعال الحرب، ويصف شيخ هذه المنطقة الشريف علي[1] بأنه شيخ بلغ من العمر نحو ثمانين سنة، إلَّا أنه متوقد الذهن نشيط الحركة، ويزعم أن عدد نسائه بين زوجات وسريات منذ أول زواج عنده يبلغ (٢٩٥) امرأة، أما نساؤه في هذا العمر فلا تقل عن أربعين امرأة كذا قال، ويلاحظ أن كثيرًا من الغربيين لا

(١) هو: علي بن حيدر بن محمد من آل خيرات الحسنيين، ولد سنة ١١٨٢هـ، كان من ولاة عمه الشريف حمود ابن محمد المعروف بأبي مسمار، فغاضبه فاستنجد بالترك فولوه في تلك الجهات إلى أن توفي سنة ١٢٥٤هـ.

يتحرون فيما ينقلون من الأخبار وقد تستهويهم غرابة الأمر بالإنسياق بإيراد خرافات حوله، يضاف إلى هذا أن (تاميزيه) قاصر المعرفة بما يتعلق بتاريخ هذه البلاد، ومعرفة طباع سكانها، ويجهل كل مايتعلق بالدين الإسلامي جهلًا تامًّا.

لقد استرسلت في الحديث للإشارة إلى مايحويه القسم الأول من رحلة (تاميزيه) مما اقتطفته من مقال الدكتور يوسف شلحد في وصفها[1]، ومما ورد في كتاب «اكتشاف جزيرة العرب»[2] ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م).

❊ ❊ ❊

(١) «العرب» - س ٢٤ ص ٤٥٠ - وما بعدها.

(٢) هو كتاب ألفته (جاكلين بيرين) ونقله إلى العربية الأستاذ قدري قلعجي، وقد كتبت مقدمة له حين نشر سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م).

حول رحلة (تاميزيه) إلى بلاد عسير

١ - عرفت الدكتور محمد بن زلفة حين كان يدرس في (إنجلترا) فقد قام بمكاتبتي بدون سابق معرفة، وبعث إلَيَّ ببعض ما يريد نشره في مجلة «العرب» فلم أكن أسارع إلى ذالك، من قبيل الإشفاق عليه، بل كنت أَحُثُّهُ على التريُّث، وعدم الحرص على سرعة نشر آرائه وأفكاره مادام في مرحلة الطلب، فقد يتضح له بعد ذالك بالاستفادة من المعرفة، خطأُ التسرُّع في ذالك. ثم لما أكمل دراسته وعاد إلى البلاد صار يكرمني بالزيارة في أوقات متقاربة، وآنس به، وبما يمتعني به من أحاديث.

٢ - وفي إحدى الزيارات حدثته أن (فلبي) ذكر بأنه ثاني أوروبي يزور بلاد عسير بعد (تاميزيه) وسألته عن معرفته هذا الرجل، فقال: إنه يعرفه وقرأ رحلته، فتمنيت عليه أن يتحف قراء مجلة «العرب» بوصف لتلك الرحلة، فوعدني بذالك، ثم زارني بعد فترة، فذكَّرتُه بالأمر فكرر الوعد وأكَّده، ولكنني بعد ذالك فقدته زمنًا يقارب العام، وفي خلال ذالك كتبت إلى باحث جليل ذي اختصاص بالدراسات المتعلقة باليمن وهو (عضو بمركز الأبحاث) في تلك البلاد، وذو عناية واهتمام ومعرفة بما أُلِّفَ عن الجزيرة في العهود الأخيرة، وخاصة من الغربيين، ثم هو في الوقت نفسه (باحث في المركز القومي الفرنسي في باريس) ويجيد اللغة الفرنسية إجادَةً هيأت له التأليف، وترجمة بعض الأبحاث العربية لتلك اللغة، وفوق ذالك فهو عربي صميم من سورية، ذو غيرة وحرص على الدفاع عن عروبته وأمته، هو الدكتور يوسف شلحد، كتبت إليه طالبًا منه إمدادَ المجلة بخلاصة موجزة لـ (رحلة تاميزيه) فسارع مشكورًا بتلبية الطلب، وبعث إليَّ بحثًا استغرق نشره (٣٢) صفحة من السنة الـ (٢٤) من مجلة **«العرب»**.

يتحرون فيما ينقلون من الأخبار وقد تستهويهم غرابة الأمر بالإنسياق بإيراد خرافات حوله، يضاف إلى هذا أن (تاميزيه) قاصر المعرفة بما يتعلق بتاريخ هذه البلاد، ومعرفة طباع سكانها، ويجهل كل مايتعلق بالدين الإسلامي جهلًا تامًّا.

لقد استرسلت في الحديث للإشارة إلى مايحويه القسم الأول من رحلة (تاميزيه) مما اقتطفته من مقال الدكتور يوسف شلحد في وصفها[1]، ومما ورد في كتاب «اكتشاف جزيرة العرب»[2] ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م).

* * *

(١) «العرب» - س ٢٤ ص ٤٥٠ - وما بعدها.

(٢) هو كتاب ألفته (جاكلين بيرين) ونقله إلى العربية الأستاذ قدري قلعجي، وقد كتبت مقدمة له حين نشر سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م).

حول رحلة (تاميزيه) إلى بلاد عسير

١ - عرفت الدكتور محمد بن زلفة حين كان يدرس في (إنجلترا) فقد قام بمكاتبتي بدون سابق معرفة، وبعث إلَيَّ ببعض ما يريد نشره في مجلة «العرب» فلم أكن أسارع إلى ذالك، من قبيل الإشفاق عليه، بل كنت أَحُثُّهُ على التريُّث، وعدم الحرص على سرعة نشر آرائه وأفكاره مادام في مرحلة الطلب، فقد يتضح له بعد ذالك بالاستفادة من المعرفة، خطأُ التسرُّع في ذالك. ثم لما أكمل دراسته وعاد إلى البلاد صار يكرمني بالزيارة في أوقات متقاربة، وآنس به، وبما يمتعني به من أحاديث.

٢ - وفي إحدى الزيارات حدثته أن (فلبي) ذكر بأنه ثاني أوروبي يزور بلاد عسير بعد (تاميزيه) وسألته عن معرفته هذا الرجل، فقال: إنه يعرفه وقرأ رحلته، فتمنيت عليه أن يتحف قراء مجلة «العرب» بوصف لتلك الرحلة، فوعدني بذالك، ثم زارني بعد فترة، فذكَّرتُه بالأمر فكرر الوعد وأكَّده، ولكنني بعد ذالك فقدته زمنًا يقارب العام، وفي خلال ذالك كتبت إلى باحث جليل ذي اختصاص بالدراسات المتعلقة باليمن وهو (عضو بمركز الأبحاث) في تلك البلاد، وذو عناية واهتمام ومعرفة بما أُلِّفَ عن الجزيرة في العهود الأخيرة، وخاصة من الغربيين، ثم هو في الوقت نفسه (باحث في المركز القومي الفرنسي في باريس) ويجيد اللغة الفرنسية إجادَةً هيأت له التأليف، وترجمة بعض الأبحاث العربية لتلك اللغة، وفوق ذالك فهو عربي صميم من سورية، ذو غيرة وحرص على الدفاع عن عروبته وأمته، هو الدكتور يوسف شلحد، كتبت إليه طالبًا منه إمدادَ المجلة بخلاصة موجزة لـ (رحلة تاميزيه) فسارع مشكورًا بتلبية الطلب، وبعث إليَّ بحثًا استغرق نشره (٣٢) صفحة من السنة الـ (٢٤) من مجلة «**العرب**».

٣- وقبل نشره قابلني الدكتور ابن زلفة خارجًا بعد العشاء من (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية)، وأنا أتأهب لركوب السيارة للعودة إلى البيت، فركب معي لإيصاله إلى منزله في سكنى موظفي (جامعة الملك سعود)، ولما وصلت إلى بيتي أخبرته باتصالي بالدكتور شلحد، وبعثه ملخص الرحلة، فنزل من السيارة منفعلًا مكررًا كلمات (تاميزيه.. تاميزيه.. أنا الذي اكتشفته!! فقلت له: يا أخي (تاميزيه) رجل معروف، ذو رحلة مطبوعة، ولا يحتاج إلى اكتشاف، والعلم مشاع بين الناس، ولا يسوغ لأي أحد أن يتحجر شيئًا منه، مُدَّعِيا اكتشافه.

وأردت أن أُهَدِّئ انفعاله، فطلبت منه الاستراحة عندي فترة أعرض عليه الملخص، ولكنه ضرب بباب السيارة بعنف، واتجه إلى الباب الخارجي مسرعًا، كمن يحاذر أن يلحق، ولم أره بعد ذالك.

٤- وفي يوم الخميس ١٢ ربيع الثاني ١٤١٣هـ خصصَتْ جريدة «الرياض» صفحتها الـ (١٧) للحديث عن أحد الأدباء من إخواني، فرأيت للدكتور ابن زلفة كلمة في الموضوع، إلَّا أنها مركزة على المقارنة والمفاضلة بيني وبين أخي الذي كنت أعرف فضله معرفة تقدير واحترام هو جدير بهما، قبل أن نعرف الأخ ابن زلفة الذي اتخذ من تلك المفاضلة وسيلةً للنيل مني، ولبعث ماقد يسبب الكراهية والحقد.

وقد رغب مني أحد الإخوة التعليق على تلك الكلمة، فأوضحت له أنها بالنسبة لي أقل من أن أوليَها اهتمامًا كعادتي مع غيرها.

٥- وفي صباح أحد الأيام القريبة أحضر لي أحد العاملين عندي كتابًا قال: إنَّ إنسانًا سلمه وذهب، فإذا هو: «رحلة في بلاد العرب - الحملة المصرية على عسير» تأليف: موريس تاميزيه، ترجمه وعلق عليه: د. محمد بن عبدالله آل

زلفة، وإذا في أعلى طرته: (إلى الأستاذ العلّامة الشيخ حمد الجاسر مع بالغ التقدير والاحترام ابنكم. محمد آل زلفة، ٢١/ ٤/ ١٤١٤هـ) فاتجهت لإملاء كتاب شكر أُوَجِّهُهُ للدكتور ابن زلفة، على اتحافي بما أعده تحفة قيمة، إلَّا أن أحد الإخوة الجالسين عندي كان قد تناوله بالتصفح، وإذا به يلفت نظري إلى ماورد في المقدمة - ص٢٠ - ونصه: (وبعد الانتهاء من الترجمة وطباعتها على الآلة الكاتبة خرجت علينا مجلة «**العرب**» الغراء التي يملكها ويشرف على تحريرها شيخنا حمد الجاسر بحلقتين مختصرتين عن هذا الكتاب، قام بترجمتها يوسف شلحد المقيم في باريس، وبتكليف من الشيخ حمد. وكنت قبل ذالك بفترة طويلة قد حدثت الشيخ حمد بشروعي في ترجمة هذا الكتاب، وأنني على وشك الانتهاء منه، وعرضت عليه نشره على حلقات في مجلة «**العرب**» ولكن فوجئت به ذات ليلة في حفلة توزيع جائزة الملك فيصل يقول: اكتشفت كتابًا مهمًّا عن (بلدك) يعني عسير، وستنزل الحلقة الأولى منه في مجلة «**العرب**» في العدد القادم. فقلت ياشيخ: تعلم أنني قد انتهيت من ترجمة هذا الكتاب، وعرضت عليك نشره في مجلتك، وأجدد العرض مرة أخرى، فكان محتدًّا في جوابه على غير عادته في تعامله معي كأحد أبنائه، أُكِنُّ له كثيرًا من الاحترام والودّ، دَعْك عن التقدير والاعتراف له بالريادة فيما قدمه من خدمة لتاريخ وجغرافية هذه البلاد). كذا قال الدكتور.

٦- والواقع خلاف ذالك من عدة أمور:

(١) أنه لم يخبرني بشروعه في ترجمة الكتاب، وإنما وعدني بكتابة ملخص عنه، ولما ألححت عليه انقطع عن زيارتي.

(٢) لم أقل بأنني اكتشفت كتابًا مهمًّا عن بلدك، فأنا لم أطلع على الكتاب، وإنما أخبرته بكلام (فلبي) قبل زمن من التقائنا خارج (مركز الملك فيصل

للبحوث والدراسات الإسلامية) ولم أره في حفل توزيع الجائزة، وإنما رأيته حينما أردت ركوب السيارة، إذ طلب مني ايصاله إلى منزله، فكان ذالك.

(٣) لم يقبل التحدث معي حينما علم بما بعث به الدكتور شلحد، بل خرج في غاية الانفعال وهو يتلفظ بكلمات لا رابط بينها من اسم الرحالة وأنه اكتشفه وأنه لاحقَّ لأحد أن يتعرضه.

ومع أنني نشرت الملخص، فما الذي يحول دون الدكتور ابن زلفة في التعقيب على مانشر، وإيضاح رأيه كاملًا في الموضوع، لاسيما وأن الدكتور شلحد عَرَّب ماكتب عن اللغة الفرنسية التي هي لغة الكتاب الأصلية، بينما الدكتور ابن زلفة على ماذكر في المقدمة - ص ١٩ - عَرَّبه من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، ومعروف أن ما عُرِّب عن اللغة الأصلية أقرب إلى مطابقة الأصل.

٧- وفي يوم الثلاثاء ٤ جمادى الأولى ١٤١٤هـ نشرت جريدة «الرياض» - ع ٩٢٤٨ - عرضًا لهذا الكتاب بعنوان (الحملة المصرية على عسير) عرض: معيض البخيتان.

والأخ معيض البخيتان، جمعني مجلس هو فيه مع بعض الإخوة، فحدثني بأسماءِ مواضع في منطقة تثليث، بأنها وردت في الشعر القديم وَسَمَّاها، فقلت له: كثيرًا ما يطلق الاسم الواحد على عدد من المسميات في مناطق مختلفة، ولكن الشواهد التي ذكرتَ الآن ليس منها ما ينطبق على مافي منطقة تثليث، وأذكر من تلك الأسماء التي نسيتها (حَوْضَى) وقلت: إنه واقع شرق بلاد تُرَبَة، ولايزال معروفًا، وهو الذي ورد في الشعر القديم، ولكن الأخ تَصَلَّب لرأيه بدرجة حملتني إلى الانصراف عن الحديث معه، وهي المرة الأولى، ولعلها الأخيرة التي رأيته فيها. ولا يعنيني مما كتب عن تلك الرحلة سوى قوله في آخره:

(وعسى ألَّا يأتي يوم نرى فيه بعبعَ الكتبة أو ما يسمونه بشلحد يطلع علينا بفوضويته المعهودة في مراجعة كل ماكتب بأي لغة عربية، وذالك بدعوى انتمائه إلى أحد المعاهد إياها، إذ أن أصدقاء هذا الشلحد أو المبهورين به ما إن يطلع أيَّ جهد لأحد المثقفين في بلادنا حتى بعث إليه بنسخة منه، ويطلب منه نقدها وتقويمها بالرؤية الشلحدية إياها.. أقول عسى أن لا يفسد علينا متعة هذا الكتاب وهو لن يفسدها مهما تقول (بتضعيف ما قبل الأخير) لكنه قد يفسد علينا طبيعة وتذوق الحاسدين من أصدقائه فحسب، أما الكتاب فقد دخل التاريخ منذ القرن التاسع عشر..).

٨- هذه العبارات التي ختم بها الكاتب عرضه للرحالة سيدرك القارئ الكريم أنه لا صلة لها بالموضوع، وأنها أشبه بـ (المفاضلة) التي سبقت الإشارة إليها، فوراءها ماوراءها، بل هي - كما عبر أحدهم - (كلام مُلَغَّمٌ) أو بمعنى أوضح (هَمزٌ) و (لَمْزٌ) و (غَمْزٌ) أبدعت مخيلة الكاتب فرسمت صورًا أربع لا حقيقة لها-:

أولاها: (بعبع الكتَبَة) والموصوف بأنه (ذو فوضوية معهودة في مراجعة كل ماكتب بأي لغة عربية) أجل (كُلّ) لا بعض. و (أي لغة عربية) بدون استثناء.

إنه (الشلحد) المنتسب لأحد المعاهد بمجرد (دعوى) ثم أي معهد (إِيَّاها) الكلمة التي يعبر بها عن التحقير.

الصورة الثانية: لصديق هذا الشلحد المبهور به التي أبرز صفاته:

أ- أنه لا يطلع على أيِّ جهد لأحد المثقفين في بلادنا حتى بعث إلى (البعبع) بنسخة منه، كذا يصفه بالتعميم في كل هذا.

ب- أما غاية هذا الصديق (المبهور) فهي (إفساد) ذالك الجهد بالنقد والرؤية (الشلحدية).

جـ - الدافع له أنه من (الحاسدين).

د- أما غاية هذا الصديق فهي مجرد (الإفساد).

الثالثة: تمثل (المثقفين في بلادنا) الذين ابتلوا بهذا الحاسد، فكل ما طَلَعَ جهد لأحدهم بعث بنسخة منه إلى (البعبع) ليفسدها، ولن يسلم من كل جهود أولئك المثقفين سوى هذا الكتاب العتيد، الذي حظي بهذا العرض، وبذالك (دخل التاريخ منذ القرن التاسع عشر)!!

٩- لعل من الخير أن أعفي القارئ الكريم من الاسترسال في إيضاح صور ذالك الخيال الخصب، وأن أدع ذالك لما هو أجدى مما له صلة بالموضوع.

(١) ليس الأستاذ الدكتور يوسف شلحد بالنكرة المجهولة لدى المعنيين بالدراسات التاريخية العربية، فهو عربي صميم، منشأً وهَوًى وثقافةً، من أسرة معروفة في مدينة حلب التي فيها ولد، وتلقى العلم في مدارس الشام، وعمل فيها مدرسًا، ونشر عددًا من الأبحاث في مجلات ذالك القطر: «الحديث» و «الضاد» و «برق الشمال» وغيرها، ثم سافر إلى فرنسا للدراسة، فنال شهادة (الليسانس) في العلوم الاجتماعية من (جامعة السربون) ثم (دكتوراه الدولة الممتازة بدرجة الشرف من الجامعة نفسها سنة ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) ثم عين باحثًا في (المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي) وقد أُوفد منه إلى كثير من الأقطار العربية لدراسة الأوضاع الاجتماعية، ثم أُسندت إليه شؤون البحث العلمي التعاوني عن اليمن، وعن الجزيرة العربية مدة عشر سنوات، وتولى تدريس العلوم الاجتماعية في معهد العلوم العليا بفرنسا، وفي (جامعة السربون) ثم تفرغ للبحث والدراسة والكتابة، ونشرت له أبحاث علمية في المجلات الفرنسية والألمانية، وفي «الموسوعة الإسلامية الدولية» وعني بتحقيق بعض المؤلفات المتعلقة بتاريخ اليمن، ككتاب «بغية المستفيد» وذيله

«الفضل المزيد» وهو من أعضاء (المركز اليمني للدراسات التاريخية)، وله مؤلفات منها: «الذبائح عند العرب» و «المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي» و «الحقوق في المجتمع البدوي» و «العربية الجنوبية تاريخًا وحضارة» في ثلاثة مجلدات تناول الحياة الاجتماعية في اليمن بتوسع، وشارك معه في هذا الكتاب اثنان من زملائه في المركز القومي الفرنسي.

(٢) صلة الدكتور شلحد بمجلة «**العرب**»: اتصل الدكتور بي قبل بضعة عشر عامًا عندما أراد نشر كتابَيْ «تاريخ زبيد» لابن الديبع، و «بغية المستفيد» وذيله، وكان في اليمن، فعلم بوجود نسختين مصورتين من هذا الكتاب عندي، فكتب إليَّ طالبًا إمداده بمصورتين عنهما، فكان ذالك بعد أن عرفت منزلته في العلم، وصار يواصل مجلة «**العرب**» بأبحاثه منذ شهر ربيع الأول سنة ١٤٠١هـ، وهاهي الأبحاث التي نشرت له ليتَبَيَّنَ القارئ مدى صلتها بجهود (المثقفين في بلادنا) كما صورها أو (تصورها) أخونا ابن بخيتان:

١- حول كتاب «بغية المستفيد» (س ١٥ ص ٧٨٤).

٢- حول رحلة فتح الله الصايغ إلى الدرعية (س ١٩ ص ٧٠٥).

٣- وفد فرنسي يزور الإمام المهدي في اليمن (س ١٩ ص ٧٨٠).

٤- اليمن تاريخًا وحضارة (س ٢٠ ص ١٢١).

٥- الأعراف اليمنية والقضاء البدوي (س ٢٠ ص ٤١٣).

٦- رحلة فتح الله الصايغ للبادية (س ٢٠ ص ٧٧٥).

٧- من البنيوية إلى التشريحية (س ٢١ ص ٤٥٤).

٨- اليهودية في اليمن (س ٢٢ ص ٦٤٠).

٩- الجزيرة العربية كما وصفها الرحالة ماركو بولو (س ٢٣ ص ٢٤٠).

١٠ - رحلة الصايغ إلى الدرعية بين الشك واليقين (س ٢٤ ص ١٠٠).

١١ - رحلة تاميزيه إلى الجزيرة العربية (س ٢٤ ص ٤٥) نشر هذا البحث في محرم سنة ١٤١٠هـ في حلقتين بينما نشر الدكتور ابن زلفة ترجمته عن هذه الرحلة سنة ١٤١٤هـ.

١٢ - التاريخ معرفة وعمل (س ٢٦ ص ١٧٧).

١٣ - آداب الضيافة وحقوقها عند العرب (س ٢٦ ص ٣٥٥).

١٤ - البرتغاليون في اليمن (س ٢٨ ص ٤٣٧، ٦٢٣).

هذه هي الأبحاث التي نشرتها «**العرب**» للدكتور شلحد.

فهل من أحد يوجه سؤالًا إلى أخينا ابن بخيتان عما أفسده الدكتور شلحد بهذه الأبحاث، مما يتعلق بجهود مثقفي البلاد؟! أو أنَّ المراد من ذالك الكلام مجرد الإيهام والتضليل!!

لقد تعرض الدكتور شلحد لرحلة (تاميزيه) التي كان يعرفها قبل أن يتجه ابن زلفة للدراسة في (انجلترا) فالدكتور يوسف ذو عناية بالرحلات المتعلقة بالجزيرة وخاصة جنوبها، ومنها رحلة (تاميزيه) التي شملت جانبًا من تهامة واتصلت بالحبشة، ثم قام بتلخيصها بطلب من صاحب مجلة «**العرب**» أتراه يلام على أمر هو السابق إليه والعليم به.

ثم إن رحلة تاميزيه (M. Tamisier) معروفة قبل ذالك، فقد أراد الأستاذ فؤاد حمزة أن يعرب منها ما يتعلق عن بلاد عسير ليلحقه بكتابه عن هذه المنطقة في طبعته الثانية، ولكنه توفي سنة ١٣٧١هـ قبل إعادة طبع هذا الكتاب.

ثم إن فلبي في كتابه «النجود العربية» (Arabuan High Lands) الذي ألفه سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) قد ذكر الرحلة ونقل عنها في الصفحات (٣، ٢٨،

٤٧٩، ٦٩٣) من أصل الكتاب في كلامه عن بلاد عسير وتهامة وليست تلك الرحلة من الأمور التي يغالى بها أو ينبغي لأحد أن يقول بأنه (اكتشفها)!! فهي مطبوعة متداولة بين المعنيين بكتب الرحلات.

وليطمئن أخونا ابن بخيتان بأنه لن يناله من ذالك البعبع ولا من صديقه الحاسد المبهور به ما ادعى من الفساد الذي نال جهود مثقفي البلاد! أَمَّا لماذا؟!

١٠ - ولولا ما لهذه الجريدة الكريمة من منزلة في نفسي، وما للإخوة المشرفين على تحريرها من تقدير، لترفعهم عما يورث الأحقاد والحزازات في النفوس كـ (المفاضلة) التي تقوَّلها الكاتب الأول بين أخوين يحمل كل واحد للآخر الحب والتقدير، ثم وقيعة الكاتب الثاني بباحث محقق جليل ذي أثر في الدراسات التاريخية الاجتماعية المتعلقة ببلادنا، لها قيمتها عند العارفين بها، مع ما يضاف إلى هذه الوقيعة من (الغمز) و (اللمز) ونحوهما مما يجب أن تترفع عنه صحافتنا - لولا ذالك لما كان لما كتب الأخوان الكريمان أيُّ أثر في نفسي، ولما شغلت القراء بكتابة صفحات عن موضوع ليس بذي بالٍ في رأيي، وإنما عنيت من وراء ذالك أن تبرز صحافتنا بخير صورة، بعيدة عما كانت تتصف به بعض صحف العهد الماضي التي وصفها شاعر النيل بقوله:

جرائد ما خُطَّ حرف بها — إلا لإيهام وتضليل

يَخلو بها الكِذْبُ لأربابها — كأنها أول (ابريل)

معاذ الله أن تنزل صحف بلادنا إلى هذا المستوى !! وهي في رعاية نخبة طيبة من شبابنا المثقف، الذين يدركون غاية الصحافة وأهدافها، وما يرجى ويطلب منها من توجيه المجتمع وجهة الخير والصلاح، إنهم يدركون ذالك غاية الإدراك ويبذلون الوسع لتحقيقه على خير الوجوه وأكملها. والله الموفق،

«رحلة في بلاد العرب»

تأليف: موريس تاميزيه، ترجمة د. محمد بن عبدالله آل زلفة

كان الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفة - الأستاذ في قسم التاريخ (جامعة الملك سعود) قد أكرمني فأتحفني بنسخة من رحلة عَرَّبها تعد من أقدم ماكتب عن بلاد عسير في القرن الثالث عشر الهجري، وكان الأولى أن أقابل بادرته الطيبة هذه بما هي جديرة به من تقدير، إلَّا أن من طباع المرء - غير المحمودة دائمًا - مالا يستطيع كبح جماح نفسه عن ارتكابه، فكان أن كتبت كلمة عن هذه الرحلة[1] تعرضت لجانب ذي صلة خاصة بي حولها، لا يتعلق بما يتطلع إليه المعنيون بما تحويه، مما قد يستفاد منه مما يتناوله الرحالة الغربيون عن دراسة جوانب الحياة في بلادنا وهي دراسات في الغالب قائمة على المشاهدة، والتعمق في البحث، والاستنتاج لبلوغ حقائق من المعرفة، في كثير من حالاتهم، بصرف النظر عن البواعث والأسباب، واتصاف كثير منهم بالتعصب والمكابرة أو بالجهل وعدم الإدراك.

وها أنا بعد أن هدأت سَوْرة التأثر أحاول أن أبرز جوانب مما للدكتور ابن زلفة من جهد، جدير بالتقدير، والاعتراف له بالفضل، من خلال عمله بإمداد الدارسين لأحوال بلادنا المختلفة، والباحثين في مجال الدراسات الاجتماعية والجغرافية والتاريخية بصفة عامة - إمداد هاؤلاء بمرجع يُعَدُّ فردًا في موضوعه، في زمن شحَّت فيه المراجع التي تتناول ما تصدى له صاحب الرحلة ومعربها بالدراسة والبحث.

(١) «جريدة الرياض» - ع ٩٢٥٤ تاريخ ١٠/٥/١٤١٤هـ.

ولئن سبق أن قام أحد الباحثين بنشر معلومات مقتطفة[1] من هذه الرحلة، فإن ما نشر لا يروي غُلَّةَ المتطلعين إلى الاستفادة التامة، وعمل ذالك الباحث يعد من أهم البواعث للاستشراف، والتطلع لما هو أتم وأشمل، فهو لا يعدو التشويق، وإثارة الرغبة لقراءة جميع ماحوته تلك الرحلة من معلومات وافية، وهذا هو ماقام به الدكتور الكريم ابن زلفة حين عمد لنشر مايتعلق برحلة (تاميزيه) عن بلاد عسير بكتاب مفرد بعنوان «رحلة في بلاد العرب» الحملة المصرية على عسير، ١٢٤٩هـ (١٨٣٤م) فقدم بعمله هذا مصدرًا لدارسي تاريخ هذه المنطقة الكريمة من بلادنا يُعَدُّ مُهِمًّا وفريدًا في موضوعه، وسأحاول بإيجاز عرض ذالك العمل.

المقدمة: صدر الدكتور الكتاب بمقدمة ضافية وقعت في نحو (٢٠) صفحة تحدث فيها عن تعرض الجزيرة في القرن الثالث عشر الهجري لحملات عسكرية شنها الأعداء بقيادة حاكم مصر في ذالك العهد محمد علي باشا، وبأمر من السلطان العثماني، للقضاء على الدولة السعودية في خلال الفترة فيما بين (١٨١١ و ١٨٤٠م) مشيرًا إلى أنه بعد القضاء على الدولة السعودية بسقوط قاعدتها (الدرعية) سنة ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) بيد أعدائها انتقل الثقل السياسي و العسكري إلى بلاد عسير، مشيرًا إلى أن عصر تلك الحروب هو عصر استكشاف مناطق جديدة بالنسبة للأوربيين، كانوا يجهلونها، وبواسطة أفراد منهم ممن رافق تلك الحملات العسكرية، فسجل مشاهداته، ودون الوقائع الحربية التي اشترك فيها، فوفرت معلومات تاريخية وجغرافية عن تلك المناطق.

(١) «العرب» - س ٢٤ ص ٤٥٠ - و س ٢٥ ص ٦٦ -.

وخلص من ذالك للحديث عن العمل الذي هو بصدد تقديمه للقارئ العربي لأول مرة، وهو الوحيد عن منطقة عسير خلال عهد الاكتشاف كما تسميه (جاكلين بيرين) ولكن المعرب الفاضل يستدرك على هذا بأن (تاميزيه) ليس أول أوروبي رافق حملات محمد علي على منطقة عسير، وإن كان أول أوروبي يدون يومياته عن الحملة التي رافقها سنة ١٨٣٤م، وربما هناك من الأعمال لغيره مالا نزال نجهله، مضيفًا ذكر إيطالي يدعى (جيوفاني فانتاني) رافق حملة عسكرية بعثها (طوسون بن محمد علي) للاستيلاء على (القنفذة) ولكن قوات طامي بن شعيب داهمت تلك الحملة فشتتها، وهرب من نجا من أفرادها، ومنهم (جيوفاني) الإيطالي الذي فَرَّ ماشيًا إلى مكة، وأملى بعد سِنِيْنَ ذكرياته عن تلك الحادثة على نَبِيل بريطاني، كان يتاجر بالخيل في مصر والشام فنشرها في لندن سنة ١٨٢٨م.

وعندما حاول الدكتور أن يُعَرِّف (تاميزيه) للقراء، لم يجد عنه أكثر مما ذكر في إحدى يومياته من أن عمره سنة ١٨٣٤م اثنان وعشرون عامًا، وذكر في موضع آخر من المقدمة أن (تاميزيه) خص منطقة (عسير) بدراستين مستقلتين غير رحلته المعربة المقتصرة على أحوال الحملة العسكرية التي رافقها، الأولى: عن جغرافية الإقليم، والثانية: عن تاريخه[1]، ولم يتمكن الدكتور ابن زلفة من العثور عليهما بعد استقصائه في البحث، وذكر أنه قابل مؤلفة كتاب «اكتشاف جزيرة العرب» في صنعاء سنة ١٩٨١م فأخبرته بأنها لا تعرف عن (تاميزيه) شيئًا، فاكتفت بالحديث عن كتابه.

(١) أشار (تاميزيه) إلى هذا في خاتمة كتابه بهذا النص: (إن هذا الكتاب ليس تاريخًا للحملة العسيرية فحسب، بل كتبت معلومات عن البلاد والتي كانت ضرورية فقط لحركة سير الجيش، وفيما بعد سأقوم بنشر ملاحظاتنا الجغرافية والتاريخية عن هذا الجزء من البلاد).

وفي فصل عنوانه (قصتي مع الكتاب) أفاض الدكتور محمد بن زلفة في الحديث عنه وعن تعلقه به، منذ أن كان في مرحلة الدراسة الابتدائية، مشيرًا إلى الوسائل التي حاول بواسطتها الحصول عليه، فلم يتسن له ذالك، لأن الكتاب طبع سنة ١٨٤٠م فأصبح في عداد الكتب النادرة، ولكنه بعد أن بعثته- جامعة الملك سعود - إلى (الولايات المتحدة) سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) لإكمال دراسته، تمكن من الحصول على صورته بواسطة (جامعة كنساس) وهو باللغة الفرنسية التي لا يحسنها بدرجة تمكنه من نقله إلى العربية، فعهد إلى متخصص بتلك اللغة فنقله على حسابه إلى الإنجليزية، ولارتفاع تكاليف الترجمة اقتصر على الجزء الثاني المتعلق بمنطقة (عسير) على أمل أن يُتَرْجَمَ الجزء الأول المتعلق بمنطقة الحجاز إلى الإنجليزية، وهذا ماحدث بعد فترة من الزمن، وتحدث الدكتور بأن كثرة مشاغله ومتاعبه لم تثنه عن ترجمته إلى اللغة العربية، ثم عرضها على أستاذ ضليع باللغة الفرنسية - سَمَّاهُ - لمراجعتها، مما ازداد طمأنينة على مطابقتها الأصل، وتأخر دفع الكتاب إلى المطبعة لكثرة مشاغل الدكتور، وعاد فوصف الكتاب بقسميه، وذكر طبعاته القديمة، موضحًا أن الأصل للقسم الذي عربه يقع في خمسة عشر فصلًا، ولكنه أضاف إليها الفصل الأخير من المجلد الأول لتصبح ستة عشر، لتضمُّنِ هذا الفصل أسباب المواجهات بين إمارة (عسير) وبين محمد علي، كما تحدث عن بعض الجوانب التاريخية والجغرافية لمنطقة (عسير) وإمارة (أبي عريش) فهو يشكل بداية طبيعية لهذا الكتاب.

وتطرق بعد ذالك لذكر اهتمام الفرنسيين بأحوال الجزيرة اهتمامًا يستلزم كثرة ماقام به بعض مرافقي الحملات العسكرية وغيرهم من الرحالين، من تدوين مشاهداتهم عن هذه البلاد، مما لا يزال الكثير منه مجهولًا، متمنيًا اتجاه الباحثين السعوديين للتعمق في البحث عن أعمال أولئك، مما له صلة بتاريخ

البـلاد، ودراسة مختلف أحـوالها، مشيـرًا إلى جـوانب مما أمـد به (تـاميزيـه) الباحثين في تاريخ بلاد (عسير) وأن هذا لا يقتصر على كونه يعد سجلًا متكامل الوقائع لأكبـر حملات محمدعلي باشا على هـذه البلاد، بل يضيف إلى ذالك إيضاح بعض أحوالهـا، وما لبعض رجالها ممن سمـاهم من دور بارز في تاريخ تلك الفترة للحفاظ على كرامة البلاد، والدفاع عن حوزتها.

وختم المقـدمة بذكـر منهج المؤلـف في تدوين معلـوماتـه ومالها مـن قيمة علمية، أمـا ما أضـاف إليه المعـرب الكريم من تعليقـات حرص على إيجـازها، فإنها أضفت على الكتـاب ما أكملت جوانب من نقصـه، وقومت ماهو بحـاجة إلى التقويم منها، ضبطًا و إيضاحًا بدونهما يبدو كثير من عباراته مستغلق الفهم.

الكتاب: يقع في ستة عشر فصلًا، تتفاوت طولًا وقصرًا بين (١٥ و ٢٣) صفحة

١- في الفصل الأول محـاورة شيقـة بين (تـاميزيـه) وبين (دوسـري) حـول السبب الحقيقي للحـرب ضد أهل (عسيـر) التي يتـولى قيادتهـا حاكم (مصـر) محمد علي باشا، وفي الأجوبة الصريحـة من (دوسري) مايدل على سعة إطلاع الرجل، وإدراكه للأمـور وصراحته، وهو ابن عبدالوهاب بن عامـر أبو نقطة أمير عسير وصـاحب الدور المشهور في نشر الـدعوة الإصلاحية في الجنـوب الذي قُتِل في معركة بينه وبين حمود أبو مسمار سنة (١٢٢٤هـ) وكان (دوسري) أحد من حمل إلى (مصـر) حين استولت حملة محمـد علي على بلاد (عسيـر) سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) ولم يتجـاوز الخـامسـة عشـرة من عمـره فَعُـومِل بحسن الرعاية ورُبِّيَ كـأبناء أرقى الأسر في القاهرة، وعند تجهيـز الحملة العسكرية رآه محمد علي جديرًا بأن يتولى حكم بلاد (عسيـر) وأنَّ في استطاعته استمالة قومه العسيريين إلى جانب الحكم العثماني، فأرسله في الحملة، ولم يتم له ذالك.

لقد قابلـه اثنان من عشيرته في أثناء الطريـق فأبديا تذمر قومـه منه لو أصبح

حـاكمًا من قبل التـرك، وأظهرا نفـورهما من بعض مـاشاهـدا من أحوالـه، ومع مشاركتـه الحملة في قتال أهل البلاد، وتأكيـد القائد له بتنفيذ الغـاية التي رافق الحملة من أجلها بأمر حاكم مصر، إلَّا أن الأمور جرت خلاف ذالك.

وفي هـذا الفصل ما يشير إلـى ما قام بـه الأمير علي بـن مُجَثّل في مناصـرته للدعوة السلفيـة واستيلائه على بلاد تهامة ومنها منطقـة (أبي عريش) التي كان حاكمهـا الشريف علي بن حيدر من المـوالين للحكم العثماني، مما أثـار ثائرة محمد علي باشا فجد في مـوالاة بعث الإمدادات العسكرية لتخليصها، وبعث حملة أحمـد باشا لـلاستيلاء على بـلاد (عسير) فمكثت هذه الحملـة في جدة نحو ستة شهور، وبعد الاستيلاء على (أبي عريش) سارت إلى الطائف، وكانت مكونة من (١٦٨٠٠) من الجنـود بكامل عُدَدِهم، وقد انضم إليهـا شريف مكة محمد بن عون، ومعه من جنده من أبناء البادية عدد كثير.

أفـاض (تـاميـزيـه) في الحـديث عن منطقـة (أبي عـريـش) من النـاحيـة الاجتماعية والناحية الجغرافية وغيرهما.

وهذا الفصل من أطـول فصول الكتاب، وقـد ضمه المعرب الكـريم إليه من القسم الأول الذي لم يعرب، لإرتباط موضوعه بموضوع الكتاب.

وهنـا يبدو تسـاؤل: أليس من المناسب ضـم كل مايتعلق بـالحملة منـذ أن خـرجت من القاهـرة حتى مغـادرتهـا (الطائف) لتتم أخبـارهـا، فكلها متعلقـة بموضوع واحد، وهو غزو بلاد (عسير)؟

٢- ومنذ غادرت الحملـة (الطائف) في ٢٧ حزيران (يـونيو ١٨٣٤م) حتى انتهى أمرهـا فاضطرت إلى عقـد الصلح في اليوم السادس والعشـرين من شهر أيلول (سبتمر) - و (تاميزيه) يسجل مشاهداته يومًا بيوم، ويُعنى عناية كبيرة في وصف المواضع، ومعه آلات يستعين بهـا فلا يدع - مما يمر به - واديًـا أو قرية

أو بئرًا دون أن يحاول وصفه ما استطاع[1]، ويحرص على الاتصال بالسكان للتحدث إليهم لمعرفة بعض أحوالهم، وهو وإن كان معدودًا من أفراد هذه الحملة، إلَّا أنه كثيرًا ما يبدي تذمره واستياءه من بعض تصرفاتهم، ومما يشاهد من بعض الأعمال السيئة، وينال قائدها فمن فوقه بالنقد اللاذع، ومن هنا فإن ماكتب عن مشاهداته يعد مصدرًا ذا قيمة علمية، وما وقع من خطإٍ فليس ناشئًا عن سوء قصد، بل عن عدم إدراك تام لِمَا يتحدث عنه.

ولقد استمر في تدوين مشاهداته بأسلوب شيق ممتع يستهوي القارئ، فتلذ له متابعته في خلال أيام الرحلة التي بلغت تسعين يومًا، واستغرقت من صفحات الكتاب أغلبها (٣٥٣).

ومن هنا فإن ما تحويه هذه الرحلة من إمتاع وطرافة من أقوى الحوافز للاسترسال في قراءتها فيجمل بي لذالك عدم إطالة الوصف بما تحويه.

وأكتفي بالإشارة إلى أن نهاية تلك الحملة أنها (قنعت من الغنيمة بالإياب) حين انقطعت عنها الإمدادات، فنفد ما معها من المؤن من زاد وغيره، بحيث بلغ الأمر من جرَّاء ما لحق أفرادها من الجوع أن كتب (تاميزيه) ما تعريبه[2]: (إن أسلم طريقة أن يتركونا نعاني من مشكلة المجاعة وينظروا حتى يتم القضاء على آخر شخص منا).

لقد انضم أكثر الجنود من المصريين وأبناء البادية إلى الجيش العسيري، وانتشرت الأمراض، وقد أصبح المستشفى خاليًا من وسائل العلاج بل بدت نذر حدوث أمراض معدية سيئة، مما اضطر قائد الحملة إلى التطلع بلهفة إلى

(١) كوادي (لية) ووادي (تربة) ووادي (العقيق) ووادي (تبالة) ووادي (بيشة) وغيرها من الأودية و القرى والمناهل.

(٢) - ص ٣٤١ -.

عقد صلح بينه وبين أمير (عسير) مما حقق لهذه البلاد الانتصار على أعدائها بحصولها على الاستقلال التام، أما قائد الحملة فلعله قنع بأقل شيء يصون ماء وجهه، وهو أن يُتْرَكَ من بقي من جنوده ليعودوا من حيث أتوا سالمين.

وقد يتساءل سائل عن مآل ذالك المرشح لحكم هذه البلاد حين يتم استيلاء الحملة عليها؟ لقد اكتفى (تاميزيه) بقوله: (لم يُذْكَرْ شيءٌ بخصوص الرجال الذين اعتزلوا جيش عايض، ولم يذكر كذالك شيء عن (دوسري أبو نقطة) الذي سيحشد خصمه ضده كل قواته). يقصد أنه لم يذكر شيء في عقد الصلح.

ولاشك أن مآله مآل مثيلٍ له أرسله محمد علي باشا مع قوة عسكرية سنة ١٢٥٢هـ لمحاربة الإمام فيصل، وقد انتصر في أول الأمر، إلَّا أن نفور أهل البلاد منه، كان سببًا للثورة ضده مما اضطره للهرب[1].

ولا تفوت الإشارة إلى حسن طباعة هذا الكتاب الواقع في (٣٥٨) من الصفحات الصغار، لولا ما وقع فيه من (التطبيع)[2] ولعل سبب هذا أن الأستاذ الدكتور محمد آل زلفة لم يشرف على تجارب الطبع (البروفات) وأكتفي بذكر أمثلة، فالمجال لا يتسع لأكثر.

١- ص ٨: (كان الثوار منشغلون) والصواب: (منشغلين).

٢- ص ١٧: (لم يعاد طبعه) والصواب: (لم يعد طبعه).

٣- ص ١٩: (لم تثنيني كل هذه المتاعب والمشاكل مع جسامتها) و الصواب: (لم تثنني) بحذف الياء الأولى.

٤- ص ٢٣: (النذر اليسير) والصواب: (النزر) بالزاي، وهو القليل.

(١) هو: خالد بن سعود، وتاريخه معروف.

(٢) أي الأخطاء المطبعية. وقد طبع الكتاب سنة ١٤١٤هـ (١٩٩٣م) في الرياض.

٥- ص ٤٣: (منطقة أبو عـريش) الصغيرة بين خطي عرض: ١٥° و ٥٠° وبين خطي طول: ١٧° و ٤٠°).

ومعروف أن منطقة (أبـو عريش) تقع بين خطي الطول: ٤٥َ/ ٤٢° و ٠٠َ/ ٤٣° وخطي العرض: ٤٥َ/ ١٦° و ٠٠َ/ ١٧° كمـا يتضح هـذا من الخـريطـة التي رسمتها (وكالة وزارة الشؤون البلدية والقروية لتخطيط المدن).

٦- ص ٩٢: (وصلنا إلى مكـان يسمى (أوراخ). وفي الحاشيـة نقل عن كتابي «في سراة غـامد وزهران» جاء فيـه: (ويقال فيه: أوراخ مثل أضـاخ ووضاخ وأراط) صـواب الاسم: (أراخ) بحـذف الـواو أو (وراخ) بـدون الألف المهموزة، إذ الاسم ينطق بالصيغتين، أما بصورة (أوراخ) فيُحرف الاسـم.

ومع كل مـا تقدم فإن جهد الأستـاذ الدكتـور محمد بن عبـدالله آل زلفة في تعريب هذا الكتاب ينبغي أن يذكر فيشكر.

* * *

«صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري»

المستشرق الهـولندي (ك. سنـوك هُورْخْـرونيه Snouk - Horgronje) ١٢٧٤/ ١٣٥٥هـ (١٨٥٧/ ١٩٣٦م) ممن استطـاع بحيلتـه ودهائه أن يخـدع النـاس باسم الإسـلام، فيزور مكـة ويبقى فيها فترة مـن الزمن، ألف كتابـه خلالهـا، كما استطـاع أن يخدع المسلمين في جـزائر الهند الشـرقيـة (بلاد جـاوة ونواحيهـا) بحيث تولى لـديهم أرفع المناصب الإسـلامية، مما جـرى الحديث عنـه مفصلًا في التـرجمة التي كتبهـا مُعَرَّبًـا كتابه الأستـاذان: محمد بن محمـود السريـاني، ومعراج بن نـواب مرزا، ويـلاحظ أنهما لم يعرِّبـا الكتاب عن لغتـه الأصلية التي هي اللغة الألمـانية، بل عن ترجمة إنجليـزية للكتاب، وملاحظة هـذا من الأمور المهمة فقد تكون التـرجمة الإنجليزية ليست وافية، وقد يكـون فيها مالا يتفق مع أصل الكتاب، وما يَعْنِي القارئ هنا هو الإلمـام بصورة موجزة عن محتويات هذا الجزء المعرب من الكتاب، وهو أحد جُزْءيْه، فالكتاب يقع في مجلدين كبيرين، أولهما: دراسـة مفصلة لتاريخ مكـة وحكامها، تحـدث فيه المـؤلف عن الموقع الجغـرافي لمكة، وتـوسع في الحـديث عنهـا في العهد الإسـلامي من النـواحي الإداريـة والاجتماعيـة والاقتصاديـة، ونشأة العلـوم الإسلاميـة، ثم ساق تسلسـلًا تاريخيًّـا لأهم الأحداث فيها، وتحـدث عن علاقة الحجـاز بنجد، وخاصـة بعد قيام (الـدولة السعوديـة) بزعامـة الإمام محمد بن سعـود، ثم أتى بوصف مجمل لمكة سنة (١٨٨٦/ ١٨٨٧م) حيث انتهى في هذه الفترة من إعداد الكتاب.

أما عن المجلد الثاني من الكتاب، فقد فَصَّل الحديث فيه عن مشاهداته في مكة، وقسمـه إلى أربعة أقسـام هي: الحياة العـامة في مكـة، والحياة العـائلية، والنـاحيـة العلمية، ثـم عن السكان، وقـد ألحق بكل جُـزْء من أجـزاء الكتـاب

٥- ص ٤٣: (منطقة أبو عريش) الصغيرة بين خطي عرض: ١٥° و ٥٠° وبين خطي طول: ١٧° و ٤٠°).

ومعروف أن منطقة (أبو عريش) تقع بين خطي الطول: ٤٥َ/ ٤٢° و ٠٠َ/ ٤٣° وخطي العرض: ٤٥َ/ ١٦° و ٠٠َ/ ١٧° كما يتضح هذا من الخريطة التي رسمتها (وكالة وزارة الشؤون البلدية والقروية لتخطيط المدن).

٦- ص ٩٢: (وصلنا إلى مكان يسمى (أوراخ). وفي الحاشية نقل عن كتابي «في سراة غامد وزهران» جاء فيه: (ويقال فيه: أوراخ مثل أضاخ ووضاخ وأراط) صواب الاسم: (أراخ) بحذف الواو أو (وراخ) بدون الألف المهموزة، إذ الاسم ينطق بالصيغتين، أما بصورة (أوراخ) فيُحرف الاسم.

ومع كل ما تقدم فإن جهد الأستاذ الدكتور محمد بن عبدالله آل زلفة في تعريب هذا الكتاب ينبغي أن يذكر فيشكر.

* * *

«صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري»

المستشرق الهولندي (ك. سنوك هُورْخْرونيه Snouk - Horgronje) ١٢٧٤/ ١٣٥٥هـ (١٨٥٧/ ١٩٣٦م) ممن استطاع بحيلته ودهائه أن يخدع الناس باسم الإسلام، فيزور مكة ويبقى فيها فترة من الزمن، ألف كتابه خلالها، كما استطاع أن يخدع المسلمين في جزائر الهند الشرقية (بلاد جاوة ونواحيها) بحيث تولى لديهم أرفع المناصب الإسلامية، مما جرى الحديث عنه مفصلًا في الترجمة التي كتبها مُعَرِّبَا كتابه الأستاذان: محمد بن محمود السرياني، ومعراج بن نواب مرزا، ويلاحظ أنهما لم يعرِّبا الكتاب عن لغته الأصلية التي هي اللغة الألمانية، بل عن ترجمة إنجليزية للكتاب، وملاحظة هذا من الأمور المهمة فقد تكون الترجمة الإنجليزية ليست وافية، وقد يكون فيها مالا يتفق مع أصل الكتاب، وما يَعْنِي القارئ هنا هو الإلمام بصورة موجزة عن محتويات هذا الجزء المعرب من الكتاب، وهو أحد جُزْءيْه، فالكتاب يقع في مجلدين كبيرين، أولهما: دراسة مفصلة لتاريخ مكة وحكامها، تحدث فيه المؤلف عن الموقع الجغرافي لمكة، وتوسع في الحديث عنها في العهد الإسلامي من النواحي الإدارية والاجتماعية والاقتصادية، ونشأة العلوم الإسلامية، ثم ساق تسلسلًا تاريخيًّا لأهم الأحداث فيها، وتحدث عن علاقة الحجاز بنجد، وخاصة بعد قيام (الدولة السعودية) بزعامة الإمام محمد بن سعود، ثم أتى بوصف مجمل لمكة سنة (١٨٨٦/ ١٨٨٧م) حيث انتهى في هذه الفترة من إعداد الكتاب.

أما عن المجلد الثاني من الكتاب، فقد فَصَّل الحديث فيه عن مشاهداته في مكة، وقسمه إلى أربعة أقسام هي: الحياة العامة في مكة، والحياة العائلية، والناحية العلمية، ثم عن السكان، وقد ألحق بكل جُزْء من أجزاء الكتاب

إضافاتٍ على درجة من الأهمية، من صور ووثائق وغيرها، وأضاف إلى مجلدي الكتاب أطلسًا يحوي ٤٠ لوحة تتضمن صورًا لبعض سكان مكة، ومناظرَ عَامَّةً للحرم، وبعض المباني الهامة، ورسومًا لبعض الأواني المستعملة.

ولقد كان من أَوْلَى الأمورِ حِيال هذا الكتاب أن يُعَرَّب من لغته الأصلية، وأن تلحق به جميع ملاحِقِه ومنها (الأطلس) وأن يُعتنى بالتعريب من حيث الدقة والمحافظة على الأصل، وعدم حذف أيِّ شَيْءٍ منه، والاكتفاء عن هذا بإضافة تعليقات تبين الأخطاء التي وقع فيها المؤلف، أيًّا كانت تلك الأخطاء، فقد كُتِبَتْ في عصر مضى، عن أناس لحقوا بالعالم الآخر ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

ولماذا لا تتسع صدورنا لما سبق أن قيل عن بعض متقدمينا؟! وهذا الضيق لا يحول دون أن يعرف ذالك أناس آخرون، وكان الأَوْلَى أن نعرفه نحن قبل غيرنا، وأن نُوَضِّح ما نراه حياله، وألَّا يُنْظَر إلينا نظرةَ من لا يزالون بأشد الحاجة إلى أن يُحْجَرَ عليهم في أفكارهم، وفيما يتلقون من علوم ومعارف، وخاصة ما يتعلق بتاريخ هذه البلدة الكريمة!!

ولقد قرأت هذا الجزء فاتضح لي أنه من أمتع ما قرأته مما نشرته نوادينا الأدبية من المؤلفات، إن لم يكن أمتعها[1]، فهو يجلو صورةً واضحةً للمدينة الكريمة في ذالك العصر، بصرف النظر عما قد يبدو من ملاحظات مؤلفه وأفكاره التي لا يتفق بَعْضُهَا مع أفكار كل قارئ عربي مسلم، ولكنه مع ذالك حاول ما استطاع إبرازَ ما شاهد أو سمع كما اتضح له، ومن هنا بَرَزَتْ جوانب

(١) هو من مطبوعات (نادي مكة الثقافي الأدبي) سنة ١٤١١هـ (١٩٩٠م) مطبوعًا بمطابع الصفا بمكة المكرمة في (٥٦٤) من الصفحات.

الإمتــاع فيه، ولعل من أظهرها: أن القارئ يسترسل في القراءة دون أن يُحِسَّ بضجر أو ملل، فهو يعرض مشاهِدَ يتلذذ المرء بمعرفة الكثير عنها، يضاف إلى هذا أن أسلوب المعرِّبيْنِ الكريمين على جانب من السهولة والوضوح.

ولا ينبغي تجاهل مالهما من تعليقات قيمة استدركا فيها على بعض ما وقع فيه المؤلف من أخطاء.

سيأتي الحديث مستوفى عن عملهما من جميع جوانبه، وإذَن فيحسن عرض محتوى هذا الجزء[1].

خصص المؤلف الفصلَ الأول منه في الكلام على الحياة اليومية في مكة موضحًا أن سكانها خليط من كل جنس ولون، من الأتراك والنوبيين والهنود والحضارم والبدو، والأفارقة والجاويين والنجديين وغيرهم، وإن كانت (الغالبية العظمى) من المكيين، الذين لا يزالون ينتمون إلى أصولهم الأولى، مشيرًا إلى البواعث لاستقرار تلك الأجناس، وأنها بجانب الهدف الديني تشتمل على منافع دنيوية أخرى، وقد تحدث بإيجازٍ عمَّن عَدَّد من أنواع السكان، ثم عن تأقلم الجاليات في مكة، بحيث تشعر كلها بالارتباط بهذه المدينة الكريمة، مع التأثير بالعادات والتقاليد لتلك الجاليات على السكان الأصليين في اللغة والزيِّ وغيرهما، وتوسع في الحديث عن الرقيق في مكة، وبعض عاداتهم وأحوالهم، وطرق بيعهم، وعن أثر سياسة تحرير الرقيق، في ذالك، ولم تفته الإشارة في كلامه إلى (الأغوات)[2] وأن الإسلام لا يقر عملية الخصيان الذين

(١) في المقدمة فهرس مفصل لجميع محتوياته.

(٢) الأغوات: جمع أغا وهم رجال مخصيون لكي يمارسوا مهنة الخدمة في الحرمين الشريفين، وقد أوشكوا على الانقراض، وكلمة (أغا) كانت من ألقاب التشريف في اللغة التركية، إذ كان أولئك يخدمون في بيوت الكبراء عند نسائهم.

يتولون خدمة نساء الطبقات العليا في المجتمع، وحراسة المسجد الحرام، وهم (الطواشون)[1] و (الأغوات).

وتحدث عن الوسائل التي استطاع بها المكيون أن تكون عاصمتهم المقدسة مدينةً منتجة، فمع أن الدين الإسلامي لا يقر الوساطة بين العبد وربه، إلَّا أن هناك من أثرى ببعض التعلق بالأسباب الدينية، ومَثَّل لذالك بمن تولى حجابة البيت، وبالزمازمة، وبحراسة بعض الأمكنة الأثرية، كدار السيدة خديجة وغيرها، وبالطوافة.

ثم وصف البيت المكي من حيث تخطيطه وبنائه، ومايحويه من أمكنة، وعن فَرْشِه، وفصل الكلام عنه مكانًا مكانًا، وخلص من ذالك إلى الكلام عن إيجار البيوت في مكة، وبمناسبة تحديد زمن الاستئجار، كما تحدث عن التقويم الإسلامي المبني على دورة القمر، وعاد ليتحدث عن الحياة الاجتماعية بعد موسم الحج، ولم يفته وصف المكيين بقلة أسفارهم، بحيث أصبحت معلوماتهم عن (الأوربيين) لا تتجاوز ما تلقوه من أمهاتهم - فيما يَزْعم - وساق طرفًا من ذالك يبرز أولئك (الأوربيين) بأسوإ الأوصاف.

وتعرض لوصف مظاهر الحياة في بعض أشهر العام كشهر المحرم وصفر وربيع الأول وما بعده، وما يتخللها من الاحتفالات كعودة قافلة المدينة، وذكر وفاة عبدالله بن عمر رضي الله عنه، وذكر المولد النبوي، والشيخ محمود، والشيخ المهدلي، والسيدتين خديجة وآمنة، والطريقة السنوسية، وذكر الإسراءَ والمعراج.

ولما ذكر الاحتفال بالسيدة ميمونة بما يجري من عبادة وتلاوة الذكر في الليل، أو الاستماع إلى قراءة سِيَرِ بعض الصالحين، أضاف[2]: (إن الشباب من

(١) واحدهم طواشي، وهو الخصي الذي كان يعمل في خدمة نساء الملوك والرؤساء ونحوهم. والكلمة دخيلة.

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ١٢٠ -.

أهل مكة يأتون هنا لأغراض مختلفة تمامًا، فهم يأتون لاستنشاق هواء الصحراء، ولإرضاء بعض رغباتهم، التي يتوقون لتحقيقها من جهة أخرى، ولهذا فهم بعد تناول الطعام من (المبشور) و (السلات)[1] يتجمعون بالقرب من القبر، لسرد القصص والأحاديث والتغني بالأغاني العاطفية، وقد يستعملون بعض الآلات الموسيقية) وأضاف بعد ذالك قائلًا: (فلا عَجب إذَنْ أن نرى العلماء لا يُقِرُّوْنَ مثلَ هذه الاجتماعات، ولا يسمحون للصغار دون البالغين بحضورها، إلَّا إذا كانوا بصحبة ناس أتقياء).

وعندما تحدث عن الاحتفال بذكرى وفاة عبدالله بن عمر[2] في (محلة الشهداء) وعلل هذه التسمية أضاف[3]: (إن الهواء والماء في الشهداء صِحِّيَّانِ، لذالك نجد أن الكثير من المكيين لهم سكن صيفيٌّ في هذا المكان، والموسرون من أهل مكة يجلبون الماء إلى مكة من الشهداء إلى بيوتهم) وختم الكلام بقوله: (الغرض الأساسي لمعظم هاؤلاء الزوار هو التسلية واللهو وتستمر الاحتفالات هنا في الشهداء لمدة أسبوع) وبعد أن وصف الاحتفال بذكرى وفاة النبي ﷺ، ثم بذكرى ولادته، من قبل الدولة في الحرم الشريف، أضاف:[4] (غير أن بعض العلماء كانوا يصرحون بمعارضتهم لهذه الاحتفالات،

(١) هما نوعان من الأكلات المفضلة عند أهل مكة، جاء تعريفهما في الحاشية - ص ١٢١ - المبشور لحم مفروم، متخيَّر مما يلي سلسلة الظهر وأعالي الفخذين، ينظف من الأعصاب، ويضاف إليه مقدار من شحم البطن، ويُفْرَمُ، ويوضع عليه كمية من الثوم والفلفل الأسود، ثم يعمل مُدَوَّرًا على قدر حبة الليمون، ويرصُّ في صينية حتى يَجِفَّ، ثم ينظم في أسياخ ويشوى على فحم مُعَدٍّ له، وبقية اللحم والعظام يطبخ مع الأرز الذي يوضع في أطباق فترصَّ عليه حبات الشواء، ويؤكل المبشور مع اللبن الحامض.

والسَّلَاتُ: يصنع في الغالب من لحم الماعز، حيث يقطع اللحم قطعًا صغيرة، ويكون هناك نوع من الحجر رهيف يسمى السلات، قد وضع على نار حَتَّى يَحْمَى فتوضع عليه القطع من اللحم حتى تستوي.

(٢) عبدالله بن عمر بن الخطاب صحابي جليل ممن توفي في مكة اختلف في موضع قبره.

(٣) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ١٢٢ -.

(٤) نفس المصدر - ص ١٢٦ -.

لأن هـذا الموكب والحشـد الكبير من النسـاء اللواتي يحضـرن يثير الكثيـر من الشُّبهات بدلًا من الفضائل).

ويتضح للقـارئ مـن خـلال عـرض المـؤلف لمظاهـر تلك الاحتفـالات المتعددة أمران:

أولهما: أن أكثـر البواعث والحـوافز لإقـامتها من قبل أنـاس نفعيين، أرادوا الاستفادة المـادية، فتـذرعوا بالـوسائل الـدينية، فانقـاد لهم بعض العامـة، وقد يكـون أكثرهم ممن هـو بحاجـة إلى أن يُرَوِّحَ عن نفسـه بأيَّة مظهـر من مظاهـر الحياة، عمـا ألفه واعتاده من نظـام حياتـه اليومية المملِّ المرهق دون أن تكون هناك بواعث نفسية حقيقة لما وراء هذا.

الأمر الثاني: أن العلماء ومثلهم الشبـاب يدركـون ماتجـره تلك الاحتفالات من مفاسد، فيتَّجـه العلماء للتحذير منهـا، وقد يتخذ منها الشبـاب وسائل للهو والاستـرواح، وممارسة بعض الأعمال الملائمة لحياتهم كالغناء وغيره.

واستـرسل المؤلف بـذكـر عادات أهل مكـة، فتحدث عـن الزيـارة الرجبيـة للمدينـة المنورة، وعـن شهر رمضان فـي مكة، ومـا يجري خلالـه من التـذكير والتسحيـر والمسحـرين، وعن العمل فـي شهـر رمضـان، ثم عن العِيـدَيْن ومـا يجري من تبادل الزيارات فيهما، ومايتجلَّى من البهجة الشاملة مدة ثلاثة أيام.

وختم هـذا الفصل بـالحـديث عن المطـوفين، ولم يفتـه وصف بعضهم بالجشع، مع مشـاركة والي مكة فيمـا قد يحصل عليه هـاؤلاء، مشيرًا إلى حُمَّى الكسب التي تنتاب بعض العاملين في الحج مضيفًا[1]: (وفي بداية القعدة فإن الحـاج لا يرى من أهل مكـة سـوى أناس شـديـدي الجشع والنهم، في حبهم

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٢٧ -.

للمال والغنيمـة، في حين لا يعرف هـاؤلاء الحجاج أن هـذا الكفاح المـرير من أجل المادة يُستبـدل بحياة فياضة بـالجمال والحيويـة) وأضاف إلى ذالك: (أن هاؤلاء الحجاج أيضًـا لا يدركون أهمية المسجد الحرام كجـامعة ومعهد علمي رفيع، إلَّا إذا لبثوا فترة طويلة في مكة، ولهذا السبب نَجِدُ أَنَّ كل المعلومات التي وصلت إلى (أوربا) كـانت من خلال ملاحظـات وانطباعات الحجـاج الذين لا يعرفون إلَّا ظواهر سطحية عن الحياة الحقيقية لأهل مكة، والتي لا يعرفها إلَّا مَنْ عاش مع هاؤلاء، وعاشرهم ونـظر إليهم عن قرب وفي الداخل).

وَكأَنَّ المـؤلف بهذا الكـلام أراد أن يوجـد مُبرِّرًا لمـا وصف به أهل مكـة[1]، ومـاكان مُحِقًّـا بهذا الـوصف، فما كلهم بتلك الصفـة، ولو فـرض وجود فـرد أو طائفة ممن يُعْنَـى بشؤون الحجاج ممن يبدو بذالك المظهـر الذي وصف، فإنَّ ما يبذله حاج ذالك الزمان بالنسبة لما ينال من خدمة ورعاية يُعَدُّ ضئيلًا، ثم هو في الوقت نفسه قد أتى إلى هذه البلدة الطاهرة محتسبًا للأجر، مُؤمِّلا ما عند الله متقربًا إليـه بما استطاع أن يقدمـه من عمل صالح، فلماذا يستكثر مـا يدفعه في هـذا السبيل؟! ولا يفكـر فيمـا سيجنيـه من فـوائد ومكـاسب، ومنـافع عظيمـة ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ، وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِيْ أَيَّامٍ مَعْلُوْمَاتٍ﴾ - الآية -.

وهنا وقفة قصيرة حِيال ما عرضه (سنوك) عن أحوال مكة وعاداتهم.

إن من المعـروف أن الغـربيين يستهـويهم، ويستميلهم كل أمـر غـريب عن الشـرقيين من أخبارهم وأحـوالهم، وهـم في نقل مثل هذه الأمـور قد لا يتثبَّتـون، وقد يتقربُ إلى بعض السياح من يدرك هذا الأمر بما يستلذه ويتطلع إليه.

ولقد مَرَّ فيما عرض هذا الرحالـة من أحوال سكان مكة المكرمة بعض الأمور الغريبة ولكنني وقفت عند حالتين اثنتين منها:

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة خلال القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٧٥ -.

الأولى: ماذكر من أن اليوم الخامس عشر من شهر جُمَادَى الأَخرة تبدأ الذكرى السنوية للشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، ووصف موقع ضريحه، وهو مشهور في أول (محلة جَرْوَل) وقال عن هذه المناسبة[1]: (لقد رأينا أن مناسبات السيدة ميمونة والشهداء مخصصة للرجال، غير أن ضريح الشيخ محمود مُخَصَّصٌ كُليَّةً للنساء) وذكر أن الزيارة تستمر ثلاثة أَيَّام حيث يشاهد المكان يَعُجُّ بالنساءِ المكيَّات، وذكر أن الذهاب للزيارة بموافقة الرجل الذي يدرك المتاعب التي يتجشمها فيما لو رفض ذالك، إذ يُعَرِّض زوجته لسخرية النساء الأخريات، وإذَنْ لا بدَّ له من دفع مبالغ من المال، لشراء بعض أدوات الزينة ولدفع نفقات الزيارة مدة ثلاثة أيام، فالمرأة المكية تَعُدُّ هذا حقًّا تقليديًا، إذ تمضي بعض الوقت في زيارة الضريح، التي تعدها قبل كل شيء نزهة للتسلية والسرور).

وتحدَّثَ عما يستفيد منه قاطنو الحَيِّ في (جَرول) في هذه المناسبة بتأجير بيوتهم إلى سيدات مكة، وقد يضم البيت الواحد قرابة اثنتي عشرة امرأة، ثم ذكر ما يجري في الثلاثة الأيام من أمور لا تتجاوز المألوف، سوى الاحتفال بسماع الأغاني من بعض المحترفات من الجواري، مع الضرب على الطبلة، والنقر على الدف.

لايستطيع القارئ أن يستسيغ صحة ماذكر (سنوك) إذ كيف يجيز عاقل من الرجال لامرأته أن تمضي ثلاثة أيام تختلط فيها بكثير من النساء في مظاهر ليست مأمونة من جميع الأحوال، وفي غفلة عن الرقباء، والمهتمين بالمحافظة على الأخلاق والعادات الكريمة، وأقل مايمكن تقبله من هذه الناحية هو القول

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٢٨ -.

بأن (سنوك) جَسَّمَ الأمر، وبالغ في وصفه، أو أن الذي حَدَّثَهُ به حاول إبرازه بمظهر من الغرابة ليتلقفه هذا الغربي الجاهل بأحوال مايتصف به سكان هذا البلد الأمين، من الغيرة الدينية، والحفاظ على الأخلاق الإسلامية، والتمسك بجميع الأمور الشرعية بالنسبة للجنسين، في هذه المدينة المقدسة لدى كل مسلم، والتي تضم عددًا من العلماء في ذالك العهد، ذوي غيرة و نصح، وحفاظ على أمور دينهم، وإظهار بلدتهم بالمظهر الذي يجعلها مثالًا يقتدى به في القداسة وسمو الأخلاق.

وقريب من هذا ما ذكره عن خرافة شيخ يدعى (المهدلي) خلاصتها[1]: (أن الحجاج قبل سنوات في نفرتهم من مِنَى بعد انقضاء أيام التشريق، توقفت قافلتهم فجأة، ولم يستطع أي إنسان تجاوز نقطة معينة أسفل مِنَى، فلما أمر شريف مكة بالبحث عن سبب التوقف علم بوجود جثة غير مدفونة، اتضح أنها جثة الشيخ المهدلي، التي غسلت وصلي عليها، ثم دفنت وبُنِي فوقها قبة، وأُقيمت مؤسسة خيرية بهذه المناسبة أدت إلى إقامة يوم للاحتفال بذكرى ذالك الشيخ، حيث يقوم الناس بتوزيع الطعام بجوار الضريح، ليستفيد منه من يقوم بتلاوة القصائد والذكر بقربه، ويقيم أهل مكة (البشكات)[2] يومين أو ثلاثة حيث يسكنون الخيام في وادي منى).

ومع أن (سنوك) عَدَّ هذا من الأعياد الخاصة لأهل مكة، إذ قال[3]: (إن أعياد السيدة ميمونة والشهداء، والشيخ محمود، والشيخ المهدلي هي الأعياد

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٣٢ -.

(٢) الاحتفالات بمجموعة متجانسة من الناس تسمى (بشكة) والكلمة ليست عربية.

(٣) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ١٣٣ -.

الخاصة لأهل مكة، أما بقية المناسبات فهي كثيرة، ولكن دائرتها محدودة بعدد قليل من الناس، وليست ذات طابع عام لكل أهل المدينة) - كذا قال -.

قد يقال بأنه ليس من المستغرب أن يُتَّخَذَ من مثل تلك المناسبات إقامة احتفالات يراد بها ترويح النفس، والخروج إلى أمكنة عَذِيَّةٍ[1]، وممارسة بعض الأمور المباحة شرعًا، وانه قد يتخذ من بعض الأوقات التي ذكرها وسيلة للتخلص من الأعمال المملة في كثير من أيام السنة، أما أن يُنْظر إليها لتتخذ أعيادًا ذات قدسية ومكانة في النفوس، فلاشك أن هذا الرحالة إن توهم هذا بَنَى توهمه على جهله بمكانة هذه المدينة الكريمة، وبما يتصف به علماؤها وعقلاء أهلها من صفات فاضلة.

وخَصَّص الفصلَ الثاني من هذا الجزء للتحدث عن (الحياة العائلية في مكة المكرمة) وقد فَصَّل الكلامَ فيه وأطال، إلَّا أن ماذكره لا يختصُّ بسكان هذه البلدة الطاهرة، بل يعم ويشمل المسلمين بصفة عامة، ولهذا لا أطيل بعرضه مما لا يعني القراء، إذ هو معروف لديهم، و (سنوك) إنما يتحدث بذالك إلى الغربيين، الذين كانوا إلى عهد قريب يجهلون كثيرًا من أحوال المسلمين.

ومما يُحْمَدُ له أنه في أول هذا الفصل حاول إزالةَ ما علق بأفهامهم عن مدلول كلمة (الحريم) ونَفَى تصورهم الخاطئ بذالك، إذ قال[2]: (الأوربيُّ يعتقد أن في الركن الخلفي في بيت المسلم يوجد سجنٌ يعرف بـ(الحريم) يحوي في العادة أربع نساء، وعددًا لا يحصى من الجواري) إلى آخر ماذكر. ثم أضاف قائلًا: (إن كلمة (الحريم) في مكة لا تعني ذالك الجزء من الدار، بل

(١) أي نقية الهواء ملائمة لقواعد الصحة، خالية مما يؤثر فيها.

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٧٦ -.

تعني النسوة أنفسهن، فعندما يتحدث الرجل عن حريمه فإنه يعني زوجته وجواريه والنساء الأخريات، ولا يوجد في المسكن جزء تحجز فيه النساء كما يتصور الأوربيون).

ثم خرج من هذا للحديث عن الصلات بين النساء، والتزاور بين الأُسَر، ومشاركة المرأة الرجل في الحديث عند أَمْنِ الوقوع في محظور، وعلل التحفظات في العلاقة بين المرأة والرجال الأجانب بضعف الروابط الزوجية، ولكن المعربين الكريمين بَيَّنَا خطأه موضحَيْنِ أن الروابط الزوجية في المجتمع الإسلامي وثيقة كما يتضح من حقوق الزوجين في الشرع الإسلامي، وواجبات أحدهما على الآخر.

وعن تعدد الزوجات فقد خَصَّه (سنوك) في الطبقة العليا من المجتمع، وأن الزواج بواحدة هو السائد عمومًا للتكاليف العالية المترتبة على التعدد، ولكنه أضاف:[1](والغريب في المجتمع الإسلامي ليس تعدد الزوجات، وإنما سهولة الطلاق بين الزوجين، فالرجل يستطيع أن يطلق زوجته بدون سبب) كذا قال.

وقد فاته أن الغاية من الزواج في الدين الإسلامي دوام الحياة الزوجية، وهذا يستلزم عدم التساهل في استعمال الطلاق، ولهذا ورد في الحديث الشريف «**أبغض الحلال عند الله الطلاق**».

فهو مباح عند الضرورة، حينما لا تستقيم الحياة الزوجية، لكي يحصل لكل واحد من الزوجين من الراحة والاطمئنان في حياته ما يتوق إليه، قال جل ذكره: **﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِي الله كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾**.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٨١ -.

وعاد للحديث مرة أخرى عَمَّا يتصل بالحريم، فأوضح أن غيرة المسلم على محارمه خوفًا من أن تُمَسَّ زوجتـه أو عرضه بسوء مضيفًا[1]: (وفي هذا الموضوع نجد المكي أكثر تحفظا من الأوربي بهذا الخصوص.

إن الحدود واضحة بين ما هو مسموح به، وما هو ممنوع، غير أن هذه الحدود أوسع من الحـدود المتعارف عليهـا عند الأوربيين، إن الانطبـاع الخاطئ الـذي يحمله الرحالة الأوربيـون مَرَدُّهُ في الغالب إلى أن المسلمين يعرفون أن الأوربيين لهم عادات وأخلاقيات مختلفة عنهم خاصة فيما يتعلق بأمور الزواج).

وعنـدمـا انتقل للحديـث عن الطب في مكـة استهله بـالقـول[2]: (التطبيب والشعـوذة والابتـزاز متصل بعضها ببعض)، ثـم أشار إلى أن المـرأة هي طبيبـة الأسرة، تستشار في كافة أنواع الأمراض ولَدَيْها في البيت بعضُ أنواع الوصفات الطبية من الأعشاب والتوابل).

والـواقع أن هذا الأمـر يوشك أن يكـون شـاملًا في كل الأقطـار العربيـة في العهـد الماضي، فَـرَبَّةُ البيت في الغـالـب تَـدَّخر عـددًا من الأعشاب والتـوابل لاستعمالهـا في العلاج مثل الصَّبـر، والحِلْتيت، والمُرِّ والتـوتيا والشَّبّ والقـرمز وغيرها وبعـض أنواع المسهلات كـ (العشرق) وغيـره، وكثيرًا ما تعالـج أطفالها وأهل بيتها بما لديها من ذالك.

وقد أدركت فترة من الـزمن ماكان أهله يعـرفون من أنواع العلاج سـوى ماهو متـوارث عن كبار السن رجـالًا ونسـاءً، ومن أشهرهـا استعمـال الكي في أغلب الأمراض، إن لم يكن كلها، ومن أمثالهم (آخِرُ الطبِّ الكَيُّ).

وهذا من الأمور المعروفة.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢١١ -.

(٢) نفس المصدر ص ١٩١ -.

واسترسل (سنـوك) في الحديث عن الطب قـائلًا: (إنه هنا كأَيَّـة مهنة تنتقل بالوراثة إذ الناس لا يعدُّونَ ممارسة الطب تحتاج إلى تفرغ كامل).

ووصف أحـد الأطباء المشهوريـن في مكة بقـوله: (عرفتـه في مكة يتعـاطى تصليح السـاعات والبنـادق، وتقطير الـزيوت العطـرية، والصيـاغة وهي مهنتـه الـرئيسـة، ومع كل هـذه الأعمـال فإنـه مُتَفَـوِّقٌ في مهنـة الطب على كثيـر من أصحابها) وذكـر بعض الوسائل التي يمـارسها المُتَطَبِّبُون، وعاد لذكـر طبيب له خبـرة طويلـة أكسبته شهـرةً واسعة في مجـال طب العيون، يقـوم بإجراء عمليـة عدسـة العين، ويشفي عن طـريق الجراحة انتفـاخَ الجفون التي قـد تنتهي إلى العمَى، وذكـر شيئًا من أعـاجيب علاجـه مضيفًا[1]: (هذا الـرجل المشهور في مكة ليسـت لديـه أَيَّة معرفـة لوظـائف الجسم، ولا في الـدواء الذي يقـدمه، لا يعرف ماهو ولا ما تأثيره، إذ نجاحٌ واحـدٌ يحققه من بين مئة محاولة كافٍ لجعل الثقة فيه كبيرةً، في حين يترك شفاء ما تبقى من الحالات لله عز وجل).

وحين عدَّ الكيَّ عـلاجًا لبعض الأمـراض أضاف[2]: (على الرغم من بعض الأحاديث الواردة التي تظهر استياء الرسول الكريم من عملية الكي).

ولا أدري من أين أتى بهـذا مع أنـه عليـه الصـلاة والسـلام كـوى عـددًا من أصحـابـه، منهـم أسعـد بن زُرارة وغيـره، كمـا استعمل الكيَّ بعـض مشـاهيـر الصحابة رضوان الله عليهم.

وللحـديث عن الخـرافـات في كـلام (سنـوك) مجـالٌ واسع، ولكنـه علل انتشارها في العالم الإسلامي تعليلًا معقولًا إذ قال[3]: (إن انتشار الدين الإسلامي

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ١٩٤ -.

(٢) نفس المصدر ص ١٩٣ -.

(٣) نفس المصدر ص ١٥١ -.

في بقاع كثيرة من العالم ساعد على إيجاد خليط سكان من أصول متعددة استوطن مكة المكرمة، ولهذا فإن هذا المجتمع لديه الكثير من المعتقدات الخرافية التي تسربت إليه من جميع بقاع العالم) ولم تَفُتْهُ تسميةُ بعض الجهات التي يرى أن تلك الخرافات انتشرت منها، ولكنه نسب شيوعها وانتشارها إلى المرأة قائلًا[1]: (إن تعدد المعتقدات الخرافية في مكة يعني تجميع كافة الخرافات الموجودة في مختلف ديار الإسلام، والمرأة في الغالب لها قَصَبُ السبق في مزج الخرافات الجديدة القادمة من الخارج مع الخرافات التقليدية الموروثة).

وما أراه قال هذا إلَّا حين شاهدَ أن المرأة لضعفها وجهلها سريعةُ التأثر بالاعتقادات الخرافية، ومن ذالك أنه لما تحدث عن خرافة (الزار) مقررًا أن أصل الكلمة مشتق من (الأثيوبية) أضاف[2]: (ويظهر أن هذا الاعتقاد الخرافي مصدره الرقيق الحبشي، وأن كثيرًا من النساء يتظاهَرْن باصابتهنَّ به) قائلًا[3]: (إن الملابس الأنيقة، والحفلات الجميلة، هي كل ما تطلبه المرأة المكية، كما أن لديها بعض المؤهلات التي تمكنها من تمثيل دور (الزار). هذا المرض الكوميدي قد أصبح وباءًا مستوطنًا).

ثم استرسل في القول بأن المرأة إذا منعها زوجها من حضور حفلات (الزار) تظاهرت بالجنون حتى تحصل على ماتريد.

ومن طريف ماذكر هنا قوله[4]: (إن الطبيب الأنف الذكر قد اكتشف دواءً ناجعًا للزار، لقد رأى الطبيب زوجته تتظاهر بأن لديها (الزار) وقد بعثْ تطلب

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢٠٠ -.
(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣ -.
(٣) نفس المصدر ص ٢٠٤ -.
(٤) نفس المصدر ص ٢٠٥ -.

(الشيخة) وما إن حضرت حتى لقيها الطبيب على الدرج، وأمرها بالعودة فورًا وهددها إن اقتربت ثانية من البيت، أو حضرت لمقابلة زوجته، ثم صعد إلى الزوجة ومعه مِجْمَرَةٌ كبيرة، مملوءة بالجمر، وغرس فيها قطعةً حديدية وقال لها: إنَّ الجن خُلقوا من نار، ولا يخرجهم من الجسم إلَّا النار، وأنه سيقوم برصد المكان الذي فيه الجن من جسمها، ثم يكويه حتى يخرج، وقد استطاع الطبيب بدهائه بأن يقنعها بأن (الزار) في كل جسمها، وأن عليه أن يقوم بكيِّها في أماكن عديدة منه، وما إن سمعت المرأة بهذا النوع من العلاج حتى أعلنت أنها شُفِيَتْ تمامًا وبدون كَيٍّ، وأن (الزار) لن يقتربَ منها إلى الأَبَدِ).

لقد انتهت خرافة (الزار) كغيرها من الخرافات، وطهر الله هذه المدينة المقدسة منها جميعها، وما سبق عرضه هو من قبيل التحدث بنعمة الله، والتذكير بما أنعم به على عباده من حيث رسوخ قواعد الأحكام الشرعية التي بها أزال الله من الباطل ماكان منتشرًا، لا في هذه المدينة وحدها، بل في أغلب مدن العالم.

ولم يَفُتْ (سنوك) عند التحدث بالزواج ذكر الجواري، إذْ كانت سوق الرقيق في عهده رائجة، مما سهل انتشار (التَّسَرِّي) المفضي إلى اتخاذ بعض السِّرِّيَّاتِ زوجاتٍ، وحين تكلم عن المرأة الحبشية قال[1]: (كل ماكانت المرأة أكثر سوادًا كانت أكثر جاذبية ولهذا فجميع أهل مكة يثنون ثناءً عطرًا على بنات (حام)، غير أن ثقافة هاؤلاء وبعض خصائص الرقيق تحدد من هذا الميل) إلى آخر ما تحدث به.

ولم يفته أن يشير في الحاشية إلى أسطورة لعنة (حام) التي هي أساس العبودية الحاضرة في مختلف صورها على ماقال، ثم ذكر أن الأسطورة في قصة

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢١٢ -.

خرافية تشير إلى أن آدم وحوَّاء كانا يمشيان عاريَيْنِ في الجنة، الأمر الذي أثار الضحك لدى بعض الفتيات الحبشيات، مما نجم عنه الدعوة على هاؤلاء بالاسترقاق وسواد البشرة) انتهى.

ويلاحظ أولًا على هذا الكلام: أن الجنس ليس كما توهم هو أساس العبودية في مختلف صورها، فأصل العبودية في الإسلام لا صلة له بالجنس ولا باللون، وإنما يتوقف على الفعل وهو الإشراك بالله، فالرق في شرعة الإسلام سببه الكفر، ولا يجوز استرقاق غير الكافر.

أما خرافة أسطورة لعنة (حام)، فقد ورد في «التوراة» تعليل آخر تناقله بعض المؤرخين من المسلمين، قال الهمداني في «الإكليل»[1]: (وعن محمد بن إسحاق قال: يزعم أهل التوراة أن السواد لم يكن في ولد (حام) إلَّا عن دعوة دعاها نوح على ابنه (حام)، وذالك أن نوحًا نام فانكشفت عورته فرآها (حام) فلم يُغَطِّهَا، ورآها سام ويافث، فألقيا عليها ثوبًا، فَوَارَيَا عورته، فلما هبَّ نوح من نومه علم ما صنع حام وسام ويافث، فقال: ملعونٌ كنعان بن (حام) عَبِيْدًا وعِبَادًا يكونون لإخوتهم، ويبارك الله رَبِّي في سام. ويضيف الهمداني قائلًا: وهذا غاية التناقض أن يُسِيء (حام) ويُلْعَنُ ولده، والله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ويحسن سام ويافث، فيشكر لسام وحده. وإنما لسواد الناس وبياضهم وسمرتهم عِلَّةٌ، قد ذكرناها في السيرة من هذا الكتاب) انتهى.

وقسم السيرة من كتاب «الإكليل» مفقود، لكن الهمداني علل ذالك في بعض كتبه بتأثير حرارة الشمس في السكان، وأن من كان بقرب خط الاستواء يشتد سواد بشرته، وكل من بعد يخف السواد من لونه.

(١) ج ١ ص ١٤١ –.

ولم يفت (سنوك) حين تحدث عن (الختان) أن يشير إلى طريقة السلخ ووصفها[1] وأنها طريقة متبعة عند قبائل جنوب الجزيرة.

ولقد زالت هذه الطريقة التي كانت معروفة إلى عهد قريب بزوال غيرها من الخرافات، حين أنعم الله على جميع أقطار الجزيرة بانتشار العقيدة السلفية بين أهلها ومحاربتهم للبدع والخرافات. وفي الكتاب وصف لكثير من مظاهر الحياة الأُسَرِيَّة في مكة المكرمة، كالحفلات التي تقام للزواج، وعند الختان، وعند ختم القرآن الكريم، وعند العودة من المدينة المنورة، ولم تفته الإشارة إلى أن بعض مظاهر هذا الاحتفال الأخير يخالف الشريعة، إذْ من يدخل مكة يجب أن يدخلها بسكينة ووقار، وبملابس الإحرام، ولا يدخل بمثل هذه الخيلاء على قرع الطبول والأناشيد، وأضاف: إن أهل الصلاح من سكان البلدة المقدسة يستاؤُوْنَ من هذه المناظر، ويهز الواحد منهم كتفه، ويُبْدِي اشمئزازه قائلًا: (في وقت الخلفاء الراشدين لم تكن تلك التَرَّهَات موجودة، ولم يكن الناس يبنون بيوتهم أعلى من الكعبة، ولم يكن المرء يدخل مكة إلَّا بملابس الإحرام).

وفي وصف حفلات الزواج تحدث عن الغناء وأن الرجال يغادرون البيت بعد العصر فتتهافت عليه النساء اللواتي يحيين الليل كله بالغناء والطرب، وتدعى هذه الليلة بليلة (الغمرة) ويقوم بالغناء مغنيات من مكة، وجميع الأغنيات تبدأ بمقطع (دَانَ – دان) ويطلق عليه اسم (دانَ دانَ) وهو على صور وأشكال عديدة، والبعض يؤكد أن لهذه الكلمات علاقة بكلمة (دَنا) التي تعني اقترب، وربما ترمز لدنو الحبيب واقترابه – كذا قال – وأرى أن أصل الكلمة غير عربي، فبعض الأغاني الإفريقية تُبْتَدَأ بهذه الكلمة (دان، دان) التي لا أستبعد أنها عجمية.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٢١ –.

تلك لمحات رأيت الوقوف عندها مما فصل به هذا الرحالة حديثه عن الحياة العائلية في هذه البلدة الكريمة.

ولقد أَوْفَى كل موضوع بَحْثَه حقَّه من التفصيل، وأبرز كثيرًا من مظاهر الحياة في هذه البلدة المشرفة مما أصبح في عهدنا الحاضر غير معروف، فقد تغيرت جميع مظاهر الحياة بتغير أسسها وأسبابها ومتطلباتها في هذا العصر في جميع بقاع العالم.

وخصَّص (سنوك) الفصل الثالث من هذا الجزء للحديث عن (التعليم في مكة المكرمة) وَيُعَدُّ هذا الفصل من أوسع مباحث الكتاب، وأغزرها معلومات، ففي الفصلين الذين قبله يوشك أن يقتصر الحديث على مجرد وصف ماشاهد (سنوك) من مظاهر الحياة، مع ملاحظات يسيرة عابرة يضيفها إلى تلك المشاهدات.

أما في هذا الفصل فقد بدأه بتناول قضايا علمية، يرتكز إدراكها على التفكير العقلي العميق، والمعرفة الواسعة بأصول المعارف والعلوم عند المسلمين، ويبدو أن هذا المستشرق مُزْجَى البِضاعة بهذه الناحية، ولهذا وقع في مقدمة ماكتب في هذا الفصل في بعض أمور دَالَّةٍ على قصور معرفته، وهذا مما لا داعي للتوسع في بحثه، وإنما أكتفي بالإشارة الموجزة إلى بعض ماعرض لي منه.

لقد تحدَّث عن علوم العرب في العهد الجاهلي فحصرها بقوله[1]: (وقبل الإسلام كان الشعراء هم أهل المعرفة، وبجانب الإنجازات التجارية التي امتاز بها العرب نجد بعض فروع المعرفة التي تناقلها بعض أفراد المجتمع مثل السحر والكهانة والتطبيب).

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧١ –.

– كذا قال – مع أنه فيما سبق من كلامه عَدَّ التطبيب قائمًا على أسس خرافية في الغالب، وكذا السحر والكهانة، فهما من هذا القبيل، وماكانت المعرفة عند العرب تقتصر على ما يتصف به شعراؤها منها، بل كانت لهم معرفة واسعة في مختلف مظاهر الحياة المعروفة في بلادهم، ففي اليمن عُرِفت السدود لحصر مياه السيول، و الاستفادة بها في الزراعة، وفي إقامة المحافد وهي القصور العظيمة المنشأة على قواعد هندسية بارعة.

كما يتمثل هذا في آثارها وفيما استطاع علماء الآثار من كشفه مما يتعلق بجميع أحوال سكانها.

ولا تقتصر تلك الآثار الدالة على تقدم العرب في جوانب من هندسة العمران و إتقانه على ما عُرِف في جنوب الجزيرة، بل كُشفت آثار أخرى في شمال الجزيرة ووسطها وشرقها، وليس المجال مجال توسع فيما للعرب من مختلف العلوم.

أما في العهد الإسلامي فقد أشار إلى أن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام لم تقتصر على نشر العقيدة الإسلامية، بل تجاوزت ذلك إلى وضع الأسس الأولى للعلوم عند العرب[1].

وكأنه بهذا يقرر ما سبق أن أشار إليه من ضحالة حظ العرب في العلوم، وكان الأَوْلى أن يكون تعبيره أَدقَّ وأَشمل، كأن يقول مثلًا: بأن تلك الرسالة المباركة قامت بوضع الأسس الأولى للعلوم الشرعية، مِمَّا وضع حَدًّا لبعض ماكان متعارفًا في العهد الجاهلي من وسائل الخداع التي ينظر إليها بصفتها من العلوم كالكهانة والسحر وأمثالهما.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧١ –.

ولعل من هفواته، زعمه أن القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ لم يكونا يحويان علومًا محددة بعينها.

وهذا جهل منه بحقيقة الشريعة الإسلامية، التي تكفل القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، بإيضاح جميع أصولها وقواعدها، ولا يُسْتغرب منه الجهل بمثل هذا، ففي عباراته ما يدلُّ على أن نظرته إلى رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام نظرة يعتريها الشكُّ، يتضح هذا من قوله[1]: (وفي رأي المؤمنين بهذه الرسالة، فإن النبي الأمي قد وضع حَدًّا للجاهلية، كما وضع حَدًّا للمعارف التي كانت سائدة، والتي كانت عبارة عن خدع وحيل شيطانية)!!

وقد قرر أن الأحاديث النبوية كانت المصدر الأساسي للمعرفة لدى علماء الشريعة في القرون الأولى للإسلام[2]، كما قرر أن المشكلات التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي تجد إجابتها في الأحاديث النبوية، إذْ لم تكن العلوم قد تفرعت بعد، ويمكن أن يقال هذا عن الفقه والتشريعات المنظمة للحياة.

وأضاف إلى ذلك علومًا أخرى ذات صلة باختيار الخليفة، وقوانين الخراج، والطب وأنواع الغذاء قائلًا: (وبالاختصار فإن كل الموضوعات السابقة يُتَلَمَّسُ لها حُلُولٌ بما ورد عن النبي ﷺ من نصوص وأحاديث).

ثم أشار إلى موضوع الاختلاف بين المسلمين قائلًا[3]: (وعلى الرغم من الخلافات الجانبية فإن الإجماع الإسلاميَّ كان منعقدًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الاختلاف فقد كان ذا أهمية قليلة أمام الإجماع على الكتاب والسنة، وَيُعَدُّ هذا الخلاف رحمة بالمسلمين).

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧١ –.
(٢) المصدر السابق.   (٣) المصدر السابق – ص ٢٧٢ –.

مادام الإجتماع منعقدًا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلماذا الخروج عن هذا الإجماع، وقد أمر عباده بِأَلَّا يختلفوا بعد أن أوضح لهم أن بالاختلاف هلكت الأمم السابقة، فقال جل ذكره: ﴿وإِنَّ الَّذِيْنَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِيْنَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا من بَعْد مَاجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾[2] وقال: ﴿وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[3] إلى غير ذالك من الآيات.

وهذا المستشرق عاش في عصر جمود فكري، سيطر على العالم الإسلامي، فانتشرت الضلالات والبدع والخرافات وضعف العلم، فَتَصَدَّى الجهال للقيام بما كان مختصًا بالعلماء المحققين من أمور التوجيه والإرشاد، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا حَتَّى شاعت هذه الفكرة التي تمجد الاختلاف، بل تنسب إلى المصطفى ﷺ مالم يقل (اختلاف أمتي رحمة) وكيف يكون الاختلاف رحمة وهو سبب الفرقة التي هي سبب كُلِّ شَرٍّ.

ومع أن (سنوك) قرر فيما تقدم أن الشريعة الإسلامية قامتْ على قاعدتين هما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إِلَّا أنه أضاف إلى هذا إضافات ينبغي الوقوف عندها فقد قال[4]: (لقد استغرق جمع الحديث النبوي قرابة مئتي عام، وفي أثناء ذالك تطورت المعارف العربية تطورًا كبيرًا، إذ دخلت إليها التأثيرات الغربية وشملت جميع المعارف الموجودة في ذالك العصر).

---

(١) الآية – ١٧٦ – من سورة البقرة.   (٢) الآية ١٠٥ – من سورة آل عمران.
(٣) الآية – ٢١٣ – من سورة البقرة.
(٤) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧٢ –.

قد يصح القول بتأثر بعض العلوم العربية التي لا صلة لها بالعلوم الشرعية بالأفكار الإغريقية من حيث منهج التدوين، وتنظيم قواعده في العلوم اللغوية، وفي طرق التأليف.

ومع أنه استدرك في آخر الكلام قائلًا بعد الإشارة إلى تأثير المنطق اليوناني على العلوم الدينية في الشام والعراق[1]: (ولقد انطلقت صيحات التحذير في المدينتين المقدستين مكة والمدينة لتجنب مثل هذه الأمور، غير أن تأثير هذه التحذيرات لم يكن ملموسًا، وذالك لأن المدينتين المقدستين فَقَدَتا سيطرتهما على بقاع العالم الإسلامي).

ولكنَّهُ أضاف بعد ذالك بأن هذه الأمور أَجْبرت علماء المسلمين في مكة والمدينة على قبول التحديات الجديدة.

أُرَانِي قد استرسلت فيما طرقه المستشرق (سنوك) من البحث في موضوعات ذات صلة عميقة في نشأة العلوم والمعارف الإسلامية لألفت النظر لأن في آرائه ماهو جدير بالرفض، ومنها ما يستدعي التعمق في بحثه، ولن أطيل بذكره، وتكفي الإشارة إليه.

وتحدث بعد ذالك عن ظهور المدارس الفكرية الناشئة عن تجدد آراء وأفكار حول تفسير القرآن الكريم، وتفسير الأحاديث النبوية، وطريقة استنباط الأحكام أو ما يعرف بـ (علم أصول الفقه) مشيرًا إلى أن تلك المدارس انتهت إلى أربع، هي المذاهب الأربعة المعروفة، وأشار إلى ظهور المعتزلة قائلًا[2]: (فالإسلام قد قرر ميلاد نظرية جديدة في العقيدة، مخالفة لما كان عليه العرب في الجاهلية). ثم أثنى على المعتزلة في مناقشة أمور العقيدة مع التزام أهل

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧٣ –.

(٢) نفس المصدر – ص ٢٧٦ –.

السنة في دفاعهم بنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية في الرد عليهم وتوسع في الحديث في هذا المبحث.

ومن جهله بحقيقة الإسلام[1] زعم: (أن الإسلام كأي نظام ديني آخر ليس على وفاق تامٍّ مع العلوم الطبيعية والرياضية) إلَّا أن المُعَرِّبَيْن الكريمين أبطلا هذه الفِرْيَة، فذكرا أن الإسلام ليس كالأديان التي تناهض العلم، فالدين والعلم لا تناقُض بينهما في الشريعة الإسلامية، لأن الحقائق العلمية اليقينية لا تتنافى مع الحقائق الدينية كلاهما من مصدر واحد، أما ما يبدو من تناقض ظاهري في بعض الأحيان فمرده إلى أن بعض الأمور العلمية هي مجرد نظريات قد يثبتُ خَطَأُهَا بعد حين، أو أن بعض الحقائق الدينية من الأمور التي ليست قطعيَّةَ الثبوت والدلالة. انتهى.

ثم خلص (سنوك) بعد ذالك إلى ذكر بعض فروع المعرفة في هذه المدينة المقدسة[2].

قال عن الطب والفلك: الطب كما سبق وصفه، مجرد حِرْفة وليس علمًا، وقد يعمد بعض الهواة لكتاب طبي قديم إذا تطلَّب الموقف ذالك، أما الفلك فرئيس المؤذنين في المسجد الحرام وبعض راغبي المعرفة هم الذين يعرفون التقويم، وتفسير بعض الظواهر السماوية.

وعن الكيمياء: ذكر أن فئات من أهل مكة يهتمون بها بغية الحصول على ثروة، بتحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة، وأورد أمثلة من ذالك، مُسْتَخِفًّا بهذا الأمر.

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٧٧ –.

(٢) ما أورده (سنوك) عن فروع العلوم نشر مترجمًا في مجلة «العرب» – س ١٣ ص ٥٣١ – سنة ١٣٩٩ أي قبل صدور هذا الكتاب باثني عشر عامًا.

ووصف عناية بعض أهل مكة بعلم الجغرافيا لمعرفة البلاد الأصلية للحجاج، وتجارتها وحكوماتها، واحتمالات الربح المأمول مع أهلها، ولكنهم لا يعيرون اهتمامًا لمعرفة (لندن) و (باريس) وذكر أنه سمع مرة رجلًا مرموقًا قرأ عن (الأندلس) في كتب التاريخ يسأل إذا كان هناك ثمة اتصال بين روسيا وأسبانيا؟! وكم تستغرق القافلة بين البلدين؟، وكان ذالك إبَّان نشوب الحرب التركية الروسية.

ولأهل مكة اهتمام بالتاريخ كالسيرة النبوية وتراجم الصحابة، ومنهم من يُعنى بالتأليف فيه عن تاريخ الأُسَر الحاكمة أملًا في مكافأة من الأمير الحاكم[1]، وأضاف[2]: (وفي مكة منذ القرن الثالث بعد الهجرة، وقد أصبحت الكعبةُ والبيئة المحيطة بها مَرْكَزَ اهتمام الباحثين في التاريخ، ويوجد رجال مثقفون، يشغلون وقت فراغهم في كتابة الحوادث الهامة في حياة هذه البلدة المقدسة).

ويمكن القول بصفة عامة: (أن الرأي العام الإسلامي له تأثير قوي على المؤرخين، مشابه لما له من تأثير على القضاء)، وقال: (ومما هو جدير بالذكر والشكر أن مؤرخي أحداث مكة مع عدم الإقبال على مؤلفاتهم، فإن تسجيلهم لأهم الأحداث لم يكن يعترضه نقص مع قلة الرجال المثقفين المهتمين بهذه المؤلفات).

ويظهر أن (سنوك) لم يطلع على شيء من المكتبات في مكة، كمكتبة الحرم، وإنشاؤها متقدم على عصر مجيئه إلى مكة، وغيرها من مكتبات العلماء، ولهذا قصر حديثه عن الكتب بذكر مفردات منها مثل كتابي «تاريخ

(١) لعله يشير بهذا إلى أحمد زيني دحلان صاحب كتاب «خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام» فقد اطلع على مؤلفاته وعاصره.

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٨٠ –.

ابن الأثير» و «وفيات الأعيان» لابن خلكان والكتاب الذي سماه «الأحاديث الستة»[1] للكاتب المكي الشيخ حقي المطبوع في القاهرة عام ١٨٨٢م ووصفه: بأن مضمونه موضح في خاتمته التي ساق طرفا منها[2]، ومما نقل مما جاء فيه إباحة تعليق التمائم ومن الكتب التي ذكرها: مجموعات صغيرة من الحكايات والنوادر ككتاب «ألف ليلة وليلة» و «سيرة عنترة».

ولم تفته الإشارة إلى أن بعض المهتمين باقتناء الكتب يحتفظون بمجموعات منها، وهم شَدِيْدُو الحرص عليها لندرتها، ومن بينها بعض الكتب المترجمة المطبوعة في مصر، وأُعْجِبَ بكتاب سماه «الفوائد والعوائد والزوائد» وَاصِفًا نسخته المخطوطة بأنها ذات حواشٍ قيمة، وتُبْرِزُ عملًا أدبيًّا يدل على القوة والبراعة، ومن طريف ماذكر أن أحد هواة جمع الكتب استعار مخطوطًا نادرًا ليلة واحدة لئلًا يتمكن من نسخه، ولكنه بعد أخذ الكتاب قام بِفَكِّه إلى أجزاء، دفعها إلى عدد من الكتبة فقاموا بنسخها، وتم إكمال نسخ المخطوط ثم أعاده إلى صديقه بعد إعادة تجميعه بعناية، كما كان قبل فَكِّه، وَأشارَ إلى أن «شرح الإحياء» للغزالي توجد نسخ قليلة منه في بلاد المغرب، وَعَدَّ من كتب الأدب التي يُعْنَى بها المثقفون المكيون «العقد الفريد» و «مقامات الحريري».

ووصف كثرة الإقبال على كتب التاريخ والسيرة المتعلقة بالعقيدة، وكذا مؤلفات مؤسسي الطرق الصوفية، والمذاهب المتميزة ككتب سيرة الأولياء،

(١) لم أعرف هذا الكتاب، وهناك كتاب اسمه «الأحاديث الستة في معاني الستة من طريق رواة الستة عن حفاظ ستة عن مشايخ ستة بين مخرجيها ورواتها ستة» لابن ناصر الدين محمد الدمشقي ولكن مؤلف الكتاب ليس حقي، بل محمد بن ناصر الدين الدمشقي المتوفى سنة ٨٤٢هـ من مشاهير العلماء وكتابه لايزال مخطوطًا في المكتبة الظاهرية بدمشق، وهو رسالة مختصرة، أما كتاب حقي فقد فصل الحديث عنه (سنوك) مما يفهم منه أنه أُلِّفَ حديثًا، ويحوي معلومات ليست صحيحة.

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٨٢ –.

وهذه الكتب تقرأ في مجالس الأصدقاء بغرض التثقيف والاستنارة أكثر مما هو لغرض التعليم، وذكر كتابًا في السيرة النبوية تحوي مقدمته أسماء كثير من المؤلفات المطولة في الموضوع، إلا أن مؤلف هذا الكتاب اكتفى بنقل المسائل التي تهم هذا العصر، فكان الإقبال عليه فائقًا، ولكنه لم يسمه، واكتفى بالقول بأنه عبارة عن سرد للأخبار على نطاق كبير، وأضاف:[1] (وعلى نفس الوتيرة ظهر كتاب «تاريخ الفتوحات الإسلامية»[2] وهو عبارة عن مجموعة نصوص ووثائق حكومية، وقد تم طبعه أثناء إقامتي في مكة في (مطبعة الحكومية) التي افتتحت حديثًا)، وقال عن هذا الكتاب: (إنه يحوي تاريخًا شاملًا لوجهة النظر الإسلامية من عهد الرسالة حتى عام ١٨٨٥م).

وأشار إلى أن معظم المطبوعات قبل إنشاء (المطبعة الحكومية) تأتي من (القاهرة) التي تطبع فيها مؤلفات علماء مكة، وخاصة ذات الطابع الديني.

أما عن تعليم الخط العربي فيقوم به معلمو القرآن، ومن رغب من ابنه تعليمًا راقيًا فعليه أن يعهد به إلى خطاط ماهر، بعد أن ينتهي تعلمه في مدرسة الأطفال.

وأطال الحديث عن طريقة تعليم الترتيل (التجويد) قائلًا: (وهناك أمر هام يبدأ بعد الانتهاء من مدرسة تحفيظ القرآن ألا وهو فَنُّ تلاوة القرآن (التجويد).

ووصف حضوره أول جمعة للتلاوة في منزل المفتي، واستغرب ما سمع، إذ قد اعتاد سماعه التلاوة على إحدى القراءات، ولكن ما سمعه تلك الليلة وصفه بقوله:[3] (كان مَزْجًا لمخارج الكلمات الصعبة النطق، مع أكثر الأنغام صعوبة

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢٨٢ -.

(٢) تأليف السيد أحمد زيني دحلان، والكتاب مطبوع.

(٣) «صفحات من تاريخ مكة» - ص ٢٨٦ -.

وتعقيدًا، بالإضافة إلى تغيُّر نبرة الصوت مع مضمون النص القرآني، بحيث يؤثر بسرعة في المستمعين، ويكون الصوت هازئًا ضاحكًا في الجزء الذي يتوعد الله فيه الأشرار بجهنم، وأضاف: (والمستمع الذي لا خبرة له يدهش لتمايل جسم المقرئ وللنبرات المرتفعة جدًّا، بحيث أن المقرئ نفسه أحيانًا يضرب على أُذُنَيْهِ من صوته الصارخ، وتكون عروق رقبته قد انتفخت إلى حد الانفجار)[1].

ووصف نفور المستمع الأوربي من مثل هذه التلاوة مضيفًا: (والمقرئون كالمغنِّيين يظهرون انفعالات لا يشعرون بها، وهم يتميزون بالخيلاء والغرور والغيرة، والنزوات). إلى آخر ماذكر عنهم من الأوصاف التي ختمها بقوله: (والناس لا تعزو التأثير الساحر للقرآن على قلوب البشر إلى مهارة المقرئ، ولكن إلى أنَّ القرآن هو المعجزة الكبرى التي اعترف البدويُّ عندما سمعه أول مرة بأنه صوت السماء الذي تلين له القلوب المتحجرة).

لَم أَسُقْ ما تقدم إلَّا للإشارة إلى ماكان يحدث من بعض المقرئين، لا في مكة في ذالك العهد، بل في غيرها من البلدان حتَّى عهدنا الحاضر، ممن يصرفون انتباه القارئ واتجاهَهُ لتفهم ما يسمع من كلام الله عز وجل إلى أصواتهم المنغمة وطريقتهم الغريبة أثناءَ التلاوة، وما يقاطعها من هتاف بعض المستمعين مما ليس مشروعًا عند تلاوة القرآن الكريم، التي أمر الله عباده عند سماعها بالإنصات ﴿وإذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وختم حديثه عن تعلم (التجويد) وأن بعض الطلبة يتلقون ذالك في الحرم، كما يقوم بعض العلماء بإلقاء بعض المحاضرات عن فن التجويد، ممثلًا بقراءة نَصٍّ قرآني بالطريقة الصحيحة.

(١) لم تكن هذه الطريقة في القراءة خاصة بمقرئي البلد الحرام، بل هي عامة في البلاد الإسلامية وقديمة أيضًا كما يفهم مما جاء في رسالة «زغل العلم» للحافظ الذهبي.

أما عن تعليم الكتابة فذكر أن الحبر والورق وريشة الكتابة لا تزال منذ القدم هي الوسائل المتبعة في تعلمه.

ويواصل (سنوك) حديثه عن الحالة العلمية في مكة بعد أن أشار إشارات موجزة إلى مايُهْتَم بالبداءة به من العلوم، فيتطرق إلى الحديث عن المصدر المعيشي لطالب العلم، وأنه قد يضطر إلى إعالة نفسه بممارسة بعض أعمال التجارة أو الحرفة، وهذا الأمر ليس صعبًا إذ الاحتياجات ليست كثيرة التكاليف، وقد يجد من يعينه، معتقدًا نيل الأجر بهذه الإعانة لشرف التعليم الديني، الذي هو في نظر الإسلام إعانة الحياة في المجتمع.

ومن هنا فالعلماء المخلصون لم يغيبوا عن الساحة الإسلامية في أي عصر من العصور.

وتحدث عن تطور العلوم الشرعية في القرون الأولى الخمسة بحيث وصل إلى القمة، فصحب هذا التطور استمرار الجدل بين المدارس الفكرية، ولكنه لم يكن ذا أهمية في التأثير في الحياة الواقعية، وتوسع في هذا المبحث، ولم تفته الإشارة إلى أن المناصب العليا في مؤسسات الدولة الشرعية أُسْنِدَتْ إلى غير الصفوة من العلماء لتباعدهم عن شغلها، لئلا تضطرهم الظروف إلى مجارات الحكام، وتحقيق رغباتهم، والابتعاد عن تطبيق أوامر الله.

ومن هنا أصبحت تلك الوظائف تُسْنَدُ لمن يدفع الثمن الأكبر ولو كان جاهلًا، لهذا ساءت الأحكام في كثير من الولايات الإسلامية، إذ أَنَّ العالِمَ الذي يريد الوصولَ إلى مرتبة رفيعة لابد له أن يتغاضى عن وخز الضمير، وأن يُقْنِعَ نفسه بمجال متواضع هادئ.

من هنا ماتت لدى بعض هاؤلاء العلماء روح البحث والتقصّي ولم يبق لديهم سوى التعالي الذي يتيهون به[1]. - كذا يقول -.

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢٩١ -.

وخلص بعد ذالك إلى الحديث عن ظهور المدارس كمؤسسات تعليمية في عالم الإسلام، مرافقًا لذالك الضعف السياسي، فنقل عن تاريخ قطب الدين المكي[1]: أن أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥م) وتوسع في الحديث عنها مضيفًا[2]: في مكة لا توجد حاجة ماسَّة إلى قاعات للمحاضرات، لأن مكان المحاضرات هو صحن المسجد في ساعات النهار الباردة، وفي الأروقة عندما يشتد الحرُّ، ومع هذا فلكل مدرسة من مدارس مكة قاعات للمحاضرات، ناقلًا عن القطبي خبر إنشاء مدرسة سنة ٦٤١هـ (١٢٣٣م) تضم مكتبة كبيرة، بناها أحد خدم الخليفة المستنصر، بجوار باب السلام وهو الأمير شرف الدين إقبال الشرابي.

وفي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) أمر السلطان المملوكي قايتباي بإنشاء مدرسة أخرى بجانب باب السلام أيضًا ذات قاعة محاضرات جميلة واثنتين وسبعين خلوة صغيرة، ومكتبة تضم كتبًا في الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة.

وفي سنة ٩٧٢هـ (١٥٦٥م) أمر السلطان سليمان العثماني ببناء مدرسة ثالثة، وقد أوضح القطبي أن الذي أمر ببنائه السلطان سليمان أربع مدارس، يدرس فيها علم الفقه على المذاهب الأربعة.

وكان القطبي نفسه مدرسًا فيها، وقد وصفها وصفًا مسهبًا في تاريخه.

وأنشأ عدد من الأمراء والأثرياء والوجهاء من الهند ومصر وغيرهما مدارس صغيرة كانوا يرصدون لها من الأموال ما ينفق على المدرسين والطلبة، إلَّا أن

---

(١) وهو كتاب «الأعلام بأعلام بيت الله الحرام» وهو شامل في تاريخ مكة وقد طبع مرارًا والمؤلف هو قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (٩١٧/ ٩٩٠هـ) انظر ترجمته مفصلة في مقدمة كتاب «البرق اليماني في الفتح العثماني» نشر (دار اليمامة).

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٢٩٣ -.

الإدارة السيئة وعدم صرف الأموال فيما خصصت له سبب اضمحلال هذه المدارس، في خلال سنوات قليلة، وحينئذ اتخذ المشرفون على هذه المدارس من أماكنها سكنا لهم، أو أمكنة تؤجر للحُجَّاج الأثرياء أو غيرهم ممن يفضلون السكنى فيها لقربها من الحرم، كما يصف هذا القطبي في تاريخه إذ يقول[١]: (لقد أصبحت هذه المؤسسات بأيدي هاؤلاء الأشرار، ولم يبق إلَّا بعض الغرف القليلة لبعض المدرسين والطلبة، أما بقية الغرف فتصرَّفَ فيها المالك الذي آلَتْ إليه، والذي قد يقوم في بعض الأحيان بترتيب إلقاء بعض المحاضرات في القاعة، تخليدًا لذكرى مؤسسها، لقد وصل الحال إلى أن كلمة (مدرسة) أصبحت تعني دارًا جميلة بجوار الحرم، دون إدراك المعنى الأساسي لها).

وخلص إلى الحديث عن أقدم جامعات مكة وهو (الحرم الشريف) الذي يتلقى مدرسوه الدعم المالي من مصادر مختلفة، ورجال الإفتاء مدرسون، سوى مفتي الحنيفة الذي له صلاحية إصدار الفتاوى للسلطات الرسمية التركية.

ولهذا يمتاز راتبه على مرتباتهم، إلَّا أنهم يقومون بأعمال أخرى، ويتلقون هدايا وصلات من تلاميذهم الأثرياء ومن غيرهم.

ولم يفت (سنوك) استثناء الشيخ رحمة الله من أولئك العلماء، واصفًا إيَّاه بأنه يَعُدُّ خدمة العلم في سبيل الله، ولهذا فهو يدرس الطلاب في بيوتهم دون أجرٍ يتقاضاه، وقال عنه: بأنه كان مناهضًا للنصرانية، وأنه يعيش في المنفى في مكة.

والشيخ رحمة الله هو ابن خليل العثماني ولد في الهند سنة ١٢٢٦، وفي سنة ١٢٧٠ ناظر مع بعض العلماء في الهند رئيس البعثة التبشيرية فأفحمه، وعندما احتل الإنجليز الهند ثار الشيخ رحمة الله على هذا وأعلن الجهاد، إلَّا

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٩٥ –.

أن قوة الإنجليز ألجأته إلى الفرار، فوصل مكة عام ١٢٧٤ وأخذ يعقد جلساتِ تدريسه خلف المقام الحنفي في المسجد الحرام، وتلقى عليه العلم عدد من وجهاء مكة وعلمائها، وأنشأ (المدرسة الصولتية) المنسوبة إلى السيدة الكريمة (صولت النساء) التي اشترت أرضًا بـ(الخندريسة) أوقفتها لبناء هذه المدرسة التي تم بناؤها سنة ١٢٩٢هـ، ولاتزال قائمة في مكة المشرفة، وللشيخ رحمة الله مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب «إظهار الحق» جزءان في مجلد واحد، الذي رد فيه على رئيس البعثة التبشيرية ويدعى (فندر) وقد ترجم لمعظم لغات العالم وهو من أجل الكتب في موضوعه، وتوفي الشيخ رحمة الله بمكة سنة ١٣٠٦هـ (١٨٨٨م) عن ٧٢ سنة[١].

ووصف اعتماد أهل مكة في أرزاقهم وأوجه كسبهم على ما يرد لهم من هبات، وريع أوقاف من مصر والبلاد العثمانية، فقد كان المسلمون من عصور متقدمة يرون من أفضل وسائل الخير تخصيص بعض ثرواتهم، لبذلها في الحرمين الشريفين، فيشترون العقارات التي تغل غلات عظيمة تصرف لتلك الغايات نقودًا وحبوبًا وتوزع على جميع السكان، وإن نال الطبقات العليا النصيب الأوفر، إلَّا أن الطبعة الفقيرة لن تعدم ما يساعدها على معيشتها، وكذا جميع موظفي مكة من المفتي فمن دونه لهم مبالغ مقررة سنويًا تصرف من خزينة الدولة.

مع أن المشرفين على تلك الأوقاف قد تمتد أيديهم لاقتطاع نصيب وافر منها.

أما طريقة التدريس في الحرم الشريف فإن (سنوك) يقول[٢]: (ليس هناك ما يمنع أي فرد من أن يجلس حيث يشاء في المسجد الحرام، بعد صلاة الجماعة، فهاؤلاء أطفال يجتمعون لقراءة القرآن بحركة إيقاعية، تجمع بين

(١) انظر ترجمته «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية». ص ٥٧٣

(٢) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٢٩٨ –.

الصوت وحركة أجسامهم، وبجانبهم يمكن مشاهدة عصبة من اتباع إحدى الطرق الصوفية، ينشدون بألحان رتيبة، وتتوزع في أرجاء المسجد حلقات الطلبة، الذين يستمعون إلى المدرسين أثناء تدريسهم، وهذه الصور توحي بإن كل من يستطيع جَذْب أفراد يستمعون له يمكنه القيام بإلقاء محاضرات في المسجد، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة، فمن لم يكن مؤهَّلًا للتدريس يعرِّض نفسه للسخرية، ومساحة المسجد قد تضطر بعض المدرسين البارزين بتأخير إلقاء محاضراتهم في وقت واحد، وفي بعض الأحيان يحدد بنظام خاص من شيخ العلماء المدرس الذي تعينه الدولة، ومن أعمال هذا الشيخ توزيع عوائد العلماء، وتعيينهم طبقًا لوجهة نظره الشخصية.

ولكل مدرس أن يتقدم بطلب الإذن من شيخ العلماء، للتدريس في الحرم، وليس له الحق في أن يتقاضى أجرًا في البداية، وبعد فترة وحسب مقاييس موضوعة للسماح بالتدريس، ينال حصة من الأعطيات، أو يصرف له راتب سنوي حسب ما يقرره شيخ العلماء، وهو ممثل الحكومة الرسمي في هذا المجال، وقد يمنح بعض الأساتذة إجازة التدريس، وهناك من هو أكثر علمًا منه وأنشط سعيًا، ومثَّل لذالك بعالم من بلاد التكرور أجازه مفتي الشافعية وهو في الغالب الذي يناط به أمر إجازات التدريس في الحرم، ولم يُجِزْ من هُوَ أعلم منه.

وقد يُجْرى للمدرس امتحان قبل أن يوافَق على السماح له بالتدريس، فيحدد شيخ العلماء الموعد، أما مكانه فهو في الغالب في الحرم قرب باب الزيادة، بعد صلاة الظهر أو العصر، ويتولى شيخ العلماء أو نائبه مع عدد من الأساتذة يجلسون على هيئة حلقة دائرية يحضرها بعض الأصدقاء ممن يجلس في الخلف عادة، وهناك أربعة أو خمسة من الأساتذة يراقبون الامتحان الذي يقتصر أحيانًا على (البسملة) ولعلماء المسلمين شروح وتعليقات عليها، لا يتسنَّى فهمها بدون معرفة تامة بالقواعد والمنطق، وعلوم الفقه والشريعة،

ويمكن القول بشيءٍ من الثقة أن نصف العلوم الدينيَة على الأقل له ارتباط وثيق بـ (البسملة) وقد يبدو الامتحان سهلًا للوهلة الأولى، غير أن هناك أمورًا صعبة تُثَارُ خلال هذا الاختبار، وبعد انتهاء الامتحان يدعو الحاضرون بالتوفيق لزميلهم الجديد، ثم تُدار القهوة، وحينما يكون الشيخ ميسورَ الحال، يدعو الجميع لتناول طعام العشاء في بيته.

وشيخ العلماء الذي يتولى توزيع عوائد المدرسين، ويقوم بتعيينهم، وهو في الغالب مفتي الشافعية، وهو الذي ينظم كافة أمور هذه المؤسسة الدينية القائمة في (المسجد الحرام) ويمثلها في علاقاتها مع العالم الخارجي، وخاصة مع السلطات الحكومية.

وفي الأحوال العادية، تلجأ إليه الحكومة إذا أرادت استصدار أيِّ حكم لا يخالف القواعد الشرعية وأن ينال موافقة زملائه من العلماء على ذالك.

وألمح[1] إلى أن موضوعات هذه الفتاوى الخاصة تقديم تنظيمات ولوائح جديدة لا يحبذها الجمهور في العادة، ومثل لذالك بما جرى من الشيخ محمد ابن سليمان حسب الله (١٢٤٤/ ١٣٣٥هـ) الشافعي المكي الذي وصفه بأنه من أعظم الناس علمًا في مكة، وهو ينحدر من أب قبطي، وقد اعتنق الإسلام، وزع رسالة خطية حرم فيها شرب الدخان فانتهز الفرصة أحمد دحلان، وكان يحقد على حسب الله، فأصدر فتوى بأن ما أفتى به الشيخ حسب الله غير شرعي، ولكون توقيع الجزاء ليس من اختصاص هاؤلاء العلماء الذين يتصدَّوْن للفتوى لم يستطع شيخ العلماء توقيع عقوبة على الشيخ حسب الله، وقد وقف بجانبه أحد رجالات بني شيبة سدنة الكعبة، وذكر أيضًا[2]: أنه كان من المقرر

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٠١ -

(٢) نفس المصدر - ص ٣٠٣ -

أن تُقَامَ قُبَّةٌ فوق ضريح أبي طالب عم الرسول الكريم، الذي مات على غير الإسلام، فما كان من الشيخ حسب الله إلا أن أصدر فتوى ضدَّ هذا العمل متهمًا شيخ العلماء أحمد دحلان بالإهمال وبالسماح بذالك، وقد رد دحلان على هذا بأن أجداد الرسول ﷺ بما فيهم عمه كانوا من المسلمين، وكان من نتيجة هذا أن صدرت فتوى بإبعاد الشيخ حسب الله عن الجزيرة العربية لمدة ستة أشهر، عاد بعدها إلى مكة، وحينما كنت فيها كان يقوم بالتدريس، ويتمتع بالاحترام والتقدير، غير أنه أخلد إلى السكينة قليلًا.

لقد استرسل (سنوك) في حديث شَيّقٍ إلَّا أن المناسبة تدعو إلى وقفة قصيرة حول أبي طالب، الذي كان ذا قبة في مقبرة المعلاة، اعتقادًا أنه عم المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أوضحت بطلان هذا في محاضرة لي ألقيتها على طلبة (جامعة أم القرى) في ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هـ بعنوان (الآثار الإسلامية في مكة المكرمة) فكان مما قلت حول القبور[1]: (وفي عصرنا - بل قبله بنحو ستة قرون - عرف قبر أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - معرفة قائمة على أساس من الجهل، إن صح أن للجهل أساسًا، فشيدت قبة عظيمة تحمل ذالك الاسم الطاهر، ثم أقيم بجوار تلك القبة في أول القرن الحادي عشر قُبَّتَانِ تحمل إحداهما اسم (عبدالمطلب) وتعرف الأخرى باسم قبة (أبي طالب) وارتباط هذه الأسماء الثلاثة بحياة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - أضفى عليها هالةً من الإجلال، حتى اعتقد كثير من الجهال صحة وجود قبر خديجة وقبر عبدالمطلب جد النبي ﷺ، وقبر أبي طالب عمه، وهو اعتقاد خاطئ كما أشرت إلى ذالك في كلمة لي بعنوان (خرافة قبة اليهودية)[2] قلت فيها: (من الأمور التي لا حقيقة لها مايصبح بمرور

(١) مجلة «العرب» - س ١٧ ص ١٦٩ -.

(٢) مجلة «العرب» - س ١٠ ص ٢٧٨ -.

الزمان ذَا تاريخ تتناقله الأجيال، حتى يُعَد بطول الزمن وبتناقل ذكره بين الناس، من الأمور الثابتة التي لا يسوغ إنكارها.

فقبر أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - كان مجهولًا لدى مؤرخي مكة حتى القرن التاسع الهجري أي طيلة ثمانية قرون بل تزيد، ثم أصبح معروفًا محدد المكان، في القرون الخمسة الماضية حتى يومنا هذا، بعد أن رأى أحد العارفين - في المنام - كأن نورًا ينبعث من شعبة النور، في (مقبرة المعلاة) ولما علم أمير مكة في ذالك العهد بخبر تلك الرؤيا أمر ببناء قبة فوق المكان زعم ذالك (العارف) أن النور ينبعث منه، جازمًا ذالك الأمير أن ذالك المكان ماهو سوى قبر خديجة - رضي الله عنها - ويدور الزمان فيصبح المكان وماحوله مقبرة للعظماء من أهل مكة، فيقبر فيه في القرن الحادي عشر في سنة ١٠١٠هـ عبدالمطلب بن حسن بن أبي نُمَيٍّ، ثم في سنة ١٠١٢هـ يموت أحد أمراء مكة - ممن عرف بالظلم والجبروت - وهو أبو طالب بن حسن بن أبي نُمَيٍّ، وتُبْنَى فوقه قبة تعرف بقبة أبي طالب، بجوار قبة خديجة الخرافية، وقبة عبدالمطلب، ويدور الزمان فَيُجْهَلُ أمر صاحبي القبة، فتنشأ خرافة قبة عبدالمطلب جد الرسول ﷺ، الذي مات في زمن الفترة، وقُبَّة أبي طالب بن عبدالمطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، الذي مات مشركًا بنص القرآن الكريم.

ويُدَوِّنُ التاريخُ تلك الخرافات الثلاث باعتمادها حقائق تاريخية، وتتناقلها الأجيال إلى يومنا هذا، بل تزداد رسوخًا وقوة حين تَصَدَّى عالم جليل من علماء العصر، بكتابة سفر نفيس دعاه «في منزل الوحي» إذ تطغى عاطفة التدين على ذالك العالم[1] حين يشاهد مقبرة مكة (المعلاة) فتنتابه الذكريات عمَّنْ ضمَّتْ

(١) هو العالم المصري الشهير محمد حسين هيكل باشا.

من أجساد عظماء الأمة خلال الثلاثة عشر قرنًا وما فوقها من السنين، وتنطلي عليه خرافة قبر عبدالمطلب جد النبي ﷺ، وقبر أبي طالب عمه، وقبر أم المؤمنين خديجة زوجته، فيتقبل القَوْل على عِلَّاته، ويريح نفسه من عناء البحث والتحقيق، فَيُجْرِي يراعَه السيَّال بكتابة الصفحات التي يعدد فيها أمجاد السادة الذين ضم تراب تلك المقبرة رفاتهم، ويخص بالذكر منهم أولئك الثلاثة، وينحي باللائمة على من أزال تلك القباب الخرافية.

وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن الباحثين ممن جاؤوا بعد ذالك العالم اتخذوا كتابه مصدرًا يُعْتمد عليه في آثار مكة وأخبارها، بحيث أن إحدى المجلات الدينية تقوم بنشر كتيب عن الحج في كل عام، منذ بضع سنوات، وتُعَددُ فيه من آثار قبور المعلاة، الثلاثة القبور الخرافية). انتهى

لا أُرَانِي خرجت عن الموضوع بتطلُّبِه مِثْل ذالك التفصيل، أما ماكتب السيد أحمد بن زيني دحلان عن إسلام أبي طالب فهو في رسالة بعنوان «أسنى المطالب في نجاة أبي طالب» والرسالة مطبوعة متداولة، والحق الذي لا مِرْيَةَ فيه حول أبي طالب هو ما أورده شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - في كتابه «التوحيد» وخلاصته أن أبا طالب مات على الشرك. وقد حضر المصطفى عليه الصلاة والسلام وفاته فلقنه الشهادة فلم يتلفظ بها وقال: إنه يموت على مِلَّة عبدالمطلب، فلما مات قال ﷺ: «لأستغفرنَّ لك مالَم أُنْهَ عن ذالك»، فأنزل الله عز وجل[1]: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾.

لقد قدم الشيخ دحلان[2] على ماقدم ولا يعني المرء منه إلَّا أن يكون على

(١) سورة «التوبة» - الآية - ١١٣ -.

(٢) انظر ترجمته «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» ص ٣٧٢ - ٣٧٦.

بينة من بعض الآراء التي بينها في مؤلفاته مما يخالف الحق، ويحسن لمن أراد التوسع في معرفة هذا الرجوع إلى كتاب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» الذي ألفه العالم الهندي المعروف أحمد بشير السهسواني - رحمه الله -.

وواصل (سنوك) حديثَه عن ضعف نفوذ مفتي الشافعية، الذي أَسْنَدَتْ إليه الدولة العثمانية في ذالك العهد إدارة الشؤون العلمية في الحرم الشريف وفي غيره، ومثَّل لذالك[1] بقيام جدول عنيف بين شيخين ينتميان إلى نِحْلَةٍ واحدة من النحل الصوفية، يتنافسان على رئاسة طائفتها، وتلك الطريقة لا تجيز وجود شيخَيْن[2] في درجة واحدة في مدينة واحدة، فَأَدَّتِ المنافسة بينهما إلى طعن كل واحد منهما بطريقة الآخر، إلَّا أنَّ هذا النزاع لم يستدع إيجاد مجلس علميٍّ لِفَضِّهِ، لأن أحدَهما صديقٌ للوالي العثماني عثمان باشا، ولمفتي الشافعية، فتبادلا تأليف الرسائل بطعن كل واحد منهما بعلم الآخر، ولكن المفتي لم يجد بُدًّا من إصدار فتوى بأن ماكتبه أحدهما ضدَّ الآخر كان مُضَلِّلًا وخَطيرًا ونصت الفتوى على إتلاف ماكتب وعقاب المؤلف، وأيَّدَ هذه الفتوى ثمانية عشر أستاذًا من أساتذة الحرم، من بينه مفتي الحنابلة، ومفتي المالكية، فَحُبِسَ المحكوم عليه حتى يرضخ للكتابة لمريديه في جزر الهند الشرقية رسالة يستنكر فيها ماكتبه سابقًا عن صاحبه، وأن العلاقة بينهما أصبحت أخويَّةً، فتم ذَالك وطُبعت الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع، في كراسة في المطبعة الحكومية.

ومثَّل أيضًا لضعف نفوذ المفتي أن في عام ١٨٨١م أقنع أَحَدُ اتباع المذهب الحنفي القاضِيَ المعيَّنَ من قبل الحكومة التركية بإصدار قرار بتأخير

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ٣٠٣ -.

(٢) هما: سليمان أفندي شيخ الطريقة النقشبندية وخليل باشا المتمتع بالنفوذ في الدوائر الرسمية لكونه كان يشغل منصبًا حكوميًا في السابق وكان الانتصار للأخير.

صلاة العصر، إلى ما بعد موعدها المألوف، فاستاء لهذا القرار معظمُ العلماءِ، والكثيرُ من عامة الناس، ومن بينهم عدد من أتباع المذهب الحنفي، وطالبوا عودةَ موعد الصلاة إلى ماكان عليه.

ولكن المفتي[1] ليس له أن يصدر أحكامًا في قضايا تُطْرَحُ عليه بغير صورة رسمية، وهذه القضية لم تعرض رسميًّا عليه، وكل مايستطيع حيالها اقتراح بعض الوسائل والسبل لحل الموضوع دون أن يُصْدِرَ حكمًا ملزمًا بذالك.

وأضاف: كان عمل مفتي الشافعة الأساسيُّ هو إصدار أجوبة الاستفسارات التي تعرض عليه من معظم أهل مكة وهم شافِعِيُّو المذهب، والاستفسارات التي ترد إلى المفتي لا تقتصر على ما يوجَّهُ منهم، بل ترد إليه استفساراتٌ من (الملايو) ومن (داغستان) وغيرهما.

وتحدث عن طريقة التدريس في الحرم بتفصيل، وعن الأمكنة التي يجلس فيها المدرسون، وكيفية حلقات تلقِّي الدروس، وذكر أن المدرس في بداية درسه يطلب من أحد تلاميذه القُدَامَى الجالس في مواجهته أن يتلو ملخَّصًا للدرس السابق، وفي بعض الأحيان يبدأ المدرس محاضرته بجمل نثرية مسجوعة، تبيِّنُ أهميةَ الدرس، ثم يطلب من تلميذِهِ الأَنِفِ الذكر تكرارها ليسمعها التلاميذ مرتين.

وذكر أن حلقات التدريس التي تُعْقَد في الحرم بعد صلاة الفجر مباشرةً يكون قوامها من عشرة إلى ستين دارسًا، وتكون مخصَّصَةً لدراسة العلوم الشرعية، أما عند إرادة دراسة الفقه فإن الطالب يختار المدرس الذي ينتمي إلى مذهبه، إذ الدروس الفقهية تُلْقَى على المذاهب الأربعة، مع أن أتباع المذهب

(١) مفتي الشافعية المذكور هو السيد أحمد زيني دحلان صاحب المؤلفات المعروفة.

الحنبلي قليلون، وهناك مدرس أو اثنان من مدرسي الفقه الحنبلي في الحرم، ومعظم الطلاب من وسط الجزيرة العربية، وبعد الحنابلة يأتي عددُ المالكية، ومدرسوهم أكثر، ويسود المذهب المالكي في شمال غرب افريقية باستثناء مصر كسكان السودان، والتكارنة والحبشة، وجميع العناصر الزنجية، وفي سورية والجزيرة العربية عدد قليل من المالكية معظمهم من أصول مغربية[1].

أما المذهب الحنفي فمذهب الدولة العثمانية الرسمي لهذا اتباعه كثيرون.

ومعظم أهل مكة شافِعِيُّو المذهب، إلَّا أن هذا لم يؤثِّر في انتشاره، وكانت الحكومة العثمانية تعيِّنُ أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ولكنها الآن لا تعين سوى قاضٍ للأحناف، هو الذي يقوم بتصريف الشؤون الدينية، وأمور الأحوال الشخصية فقط[2].

أما الأمور الأخرى فإن الحكم بها بموجب قانون جديد يسمى (القانون المنيف) وقد حل محل (الشرع الشريف) وليس من مهمة القاضي تطبيق هذا القانون، بل ذالك من اختصاص رجال الإدارة، الذين يقومون بتطبيقه وفْقَ رغباتهم وميولهم، ولكن هذا التنظيم الجديد لم يهمل المذاهب الأخرى، فلكل مذهب مُفتٍ خاص، ويلتزم القاضي الحنفي بما يصدره هاؤلاء المفتون من أحكام في أمور الزواج وغيره.

وللمدرسين الأحناف النصيبُ الأوفرُ من المرتَّبَات في مكة المكرمة، ففي (تقويم الحجاز) لعام ١٣٠٣هـ قائمة بالمدرسين ومرتباتهم، إلَّا أن تلك البيانات الرسمية ليست دقيقة، إذ تحوي بعض أسماء من لا يقوم بالتدريس،

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣١٢ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٣١٣ -.

ولكن يمنح مرتَّبًا في الاعتمادات المخصصة للمدرسين، أما عدد هاؤلاء المدرسين فيتراوح بين خمسين وستين مدرسًا حوالي ثلثهم من الأحناف.

وأما المذهب الشافعي فمع أن الحكومة العثمانية قد حددت تطبيقه في الأحوال الشخصية فقط، إلَّا أن له سيادة كبيرة، في مختلف مناطق الدولة العثمانية، وليس له من منافس سوى المذهب الشيعي، وأشراف مكة لا يلتزمون بمذهب معيَّن، فقد انتقلوا من المذهب الشيعي للمذهب الشافعي مذهب (السواد الأعظم) من مواطنيهم، وهو مذهب سكان غرب الجزيرة.

وبجوار مكة هناك بعض قبائل (حَرْب) التي تتبع الدعوة السلفية التي دعى إليها الإمام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله -.

واسترسل (سنوك) في الحديث عن انتشار مذهب الإمام الشافعي[١]، وأن مفتي الشافعي أو أي أستاذ بارز من علماء هذا المذهب، يتولى منصب شيخ العلماء، وأن عدد أساتذة الشافعية يتراوح بين عشرين وثلاثين مدرسًا من مجموع الأساتذة في الحرم البالغ عددهم بين خمسين وستين مدرسًا، مضيفًا قوله[٢]: والحلقات العلمية لديهم هي المثل البارز للحياة (الأكاديمية) في المدينة المقدسة، يُضَاف إلى هذا: أن معظم علماء هذا المذهب مَكِّيُّوْنَ مولدًا ونشأةً، ثم تحدث عن أبرز علماء مكة كالعالم الزاهد السيد عبدالله الزواوي[٣] والسيد أبو بكر شطا[٤] الذي هاجر والده إلى مكة من (دمياط) مصر، وسمَّى

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣١٦ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٣١٦ -.

(٣) سماه (سنوك) عبدالله الزواوي بن محمود صالح، وعلق المعرب بأنه لم يجد في المراجع عالمًا باسم محمود ورجح أن الاسم الصحيح هو: أحمد صالح الزواوي المولود في مكة سنة ١٢٦٢هـ والمتوفى سنة ١٣١٦هـ ووصفه بأنه من العلماء المجتهدين في العبادة وسمى ابنين له هما: عبدالله ومحمد.

(٤) قال عنه (سنوك) وهو رجل في خريف العمر يسميه المكيون (بكري) وعرفه المعرب بأنه ولد سنة ١٢٦٦هـ بمكة ودرس على شيوخها، واشتغل بالتصنيف وله عدة مؤلفات وتوفي بمكة سنة ١٣١٠هـ.

بعد ذلك عددًا من العلماء الذين درسوا في (الجامع الأزهر) وقد وصفه بأنَّهُ قبلة الدارسين للمذهب الشافعي، وأشار إلى أنه كان لعلماء (مصر) في مكة مكانة بتفوقهم العلمي، ولكن بعد احتلال الإنجليز لمصر، ومحاولة إسماعيل باشا نشر الحضارة الأوربية، أصبح النَّاسُ ينظرون إلى مكة بأنها الملاذ الحقيقي للإسلام، وفي مصر أصبح غير المسلمين هم الذين يتولون تعيين الأساتذة، ورجال الفتوى التي تَصْدُر في كثير من الحالات مخالفةً لما تُكِنُّه ضمائر أولئك العلماء، ومع أن بعض المعاملات في مكة يقوم بتصريفها أشخاصٌ غير متدينين، إلَّا أن هناك قدرًا من حرية الحركة التي تُمْنَحُ للعلماء في هذا المجال، وكأَنَّ لسانَ حال المكيين يقول[١]: (ومن نعم الله علينا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا) ورجل الشارع التركي يعرف واجبات المسلم أكثر بكثير من أي إنجليزي رفيع المستوى، وساق (سنوك) خبرًا قال فيه[٢]: حَدَثَ مرة أن مُزارعًا مصريًّا كان يشكو بمرارة من غلظة الضباط الإنجليز، وغُرورِ الكثير منهم، فما كان مني إلَّا أَنْ ذكَّرْتُهُ بالخدمات الجليلة التي تقدمها الحكومة البريطانية لمصر، فضْلًا عن الصفات السامية التي يتحَلَّى بها بعض الإنجليز، فكان جوابه لي بالمثل القائل: (كلبٌ أبيضُ هنا، وكلب أسود هناك لكن النتيجة كلهم كلاب أولاد كلاب)!! إن لسان حاله يقول: لا يستطيع أَيُّ كافرٍ أن يدخلَ مكة، أما في مصر فقد دَنَّس الإنجليزُ (الأزهر الشريف) ونجد في مكة سوقًا للعبيد، بينما في مصر لا يستطيع المرءُ شِرَاءَ العبد إلَّا بطريقة سِرِّيَّةٍ، وكأنه خطيئة، والمجتمع الإسلامي في مكة لم يختلط بالكفرة، وهذا أمر غير ممكن في مصر،

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣١٩ -.

(٢) نفس المصدر.

وختم كلامه بقوله[1]: والنتيجة هي أن المصريين الموجودين في مكة يظهرون خوفًا شديدًا على بلدهم.

وتحدث عن علماء الحضارم في مكة، فذكر منهم الشيخ محمد سعيد بابصيل[2]، وكان يشغل منصب (أمين الفتوى) لشيخ العلماء بوصفه مفتي الشافعية، وتطرّق إلى وصف سكان (حَضْرَ مَوْتَ) بأنهم يأتون من بيئةٍ قاحلة، فيرون المدينة المقدسة وكأنها (بابل) الجديدة، والحياة العلمية في مكة لها جاذبية خاصة للذين يتذوقون طعم هذه الحياة، فالدراسة فيها تسمح بتبادل الأفكار والآراء بالإضافة إلى ميزة التمتع بالماديات الغنية ثم وصف رغبة (الحضارمة) بالاستيطان في مكة وَتَأَقْلَمَهُمْ مع العادات والتقاليد، مما ساعدهم على إحراز التقدم والنجاح في حياتهم[3].

ولا أدري لماذا فَرَّقَ بين (الحضارمة) في (الملايو)، والحضارمة في (مكة) فوصف الفريقين بالتنافر، وعَلَّلَ هذا التنافر بِالتنافس الشديد بينهما في الأمور التجارية، لا أدري من أين أتى بهذا.

وعن علماء الأعاجم في مكة ذكر[4] استيطان لفيف من العلماء الداغستانيين فيها من أشهرهم الشيخ عبدالحميد الداغستاني[5]، الذي يَعْتقد كثير من عارفيه بأنه

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٣٢٠ –.

(٢) ولد الشيخ بابصيل بمكة وبها تلقى العلم وتولى التدريس في الحرم وأسند إليه منصب الافتاء وقام برحلة إلى صنعاء للتوسط بين الترك وبين إمام اليمن في إزالة الخلاف بينهما، فلم ينجح، وتوفي عام ١٣٣٠هـ وله مؤلفات معروفة.

(٣) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٣٢١ –.

(٤) المصدر السابق – ص ٣٢١ –.

(٥) هو: الداغستاني الشرواني المكي تلقى العلم عن علماء عصره ودرس في المسجد الحرام وتوفي بمكة عام ١٣٠١هـ على ماذكر الشيخ عبدالله غازي في كتاب «إفادة الأنام» الذي لايزال مخطوطًا.

أكثر علمًا من مفتي الشافعية، ولم يذكر من علماء (الجاوا) في مكة سوى الشيخ زين الدين بن سومباوا، وعلل قلة علماء هاؤلاء بطبيعتهم وتواضعهم المتناهي من جهة، و إلى حاجات الطلبة الدارسين من بلاد (الجاوا) من جهة أخرى.

وعاد ليتحدث عن حلقات الدروس وطريقة التدريس، فأشار إلى الفروق الكبيرة بين أعمار الطلبة إذْ يجلس في الحلقة الكهول جنبًا إلى جنب مع الشباب والمراهقين وكبار السن من الرجال، وتتراوح أعمار الدارسين الحقيقيين بين ستة عشر سنة وأربعين سنة، ووصف رغبة المكيين في التعليم بأنها ضعيفة، ولهذا فالسواد الأعظم هم من غيرهم، ومن بين هاؤلاء بعض الأعاجم القادمين من (مليبار) و (الملايو) وجزيرة (جاوة) الذين عليهم أن يبدأوا بدراسة اللغة العربية ليتسنى لهم مواصلة الدراسة.

والدروس التي تعقد في الحرم مفتوحةٌ وحُرَّة للجميع، ومن الممكن لأي شخص أن يحضر أيَّة محاضرة، ولو لمجرد حُبِّ الاستطلاع، وتحدث عن تنوع دراسة العلوم الإسلامية و تغيرها بمرور الزمن بإيجاز، من القرن الخامس إلى عصره، وأوضح بتفصيل طريقة إلقاء المحاضرات في الحرم، ويلاحظ أنه يعبر بكلمة (المحاضرات) مريدًا بها (الدروس) وسَمَّى بعض الكتب التي كانت تدرس في الفقه، ثم في الحديث فكان مما ذكر «شرح القسطلاني لصحيح البخاري» و «شرح النووي لصحيح مسلم» مضيفًا[1]: هذه الأعمال كبيرة الحجم، لذا يستعيض عنها بعض المدرسين بكتب أخرى صغيرة، تحوي مختارات معينة من الأحاديث، مما له صلة بحياة الناس، وأثناء إقامتي في مكة أنهى أحد الأساتذة الأحناف واسمه الشيخ عباس قراءة كتاب «شرح القسطلاني» في خلال ثلاث سنوات، ومن الجدير بالذكر أن ابن هذا الشيخ يحفظ «صحيح البخاري» غيبًا عن ظهر قلب، وقد نقل المعرِّب ترجمة الشيخ

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٣٣٠ –.

عباس عن كتاب «نشر النور والزهر» قائلًا ما ملخصه[1]: (الشيخ عباس بن جعفر ابن عباس بن صديق الحنفي المكي المفسر الفقيه، ولد بمكة سنة ١٢٤١هـ وأجيز في التدريس في الحرم سنة ١٢٩٩هـ وعينه الشريف عَوْنُ مفتيًا للأحناف مدة سنتين، وتوفي بمكة سنة ١٣٢٠هـ).

أما العلوم التي سماها المساعدة على فهم العلوم الدينية وهي علوم الآلة، كالصرف والنحو ومايتصل بهما فقد أشار إلى تدريسها للطلاب المبتدئين، وسمى من الكتب التي تدرس «الأجرومية» و «ألفية ابن مالك».

وعن العقيدة قال: إن الجميع يتبنَّوْنَ عقيدة الأشاعرة التي وضع أسسها أبو الحسن الأشعري[2]. مضيفًا أن كثيرًا من العلماء يعلنون صراحة أنهم أشاعرة في عقيدتهم، شافعية في مذهبهم، قادرية في طريقتهم الصوفية، وأن الدراسة في أحد الكتب الحديثة لمؤلفين معاصرين، ووصف هذه الكتب بأن معلوماتها ليست منظمة الترتيب، لتعالج الموضوعات بطريقة التناسق، وأن ما يعرفه الطالب المُجِدُّ عن المعتزلة - الذين قالوا بأن العقل الإنساني هو مقياس الحقيقة - أنهم أغبياء خرافيون، وقارن أحد المدرسين بين جهلهم وجهل الوثنيين، الذين عادوا الرسول الكريم، وأشار إلى التعويل على كتب الطريقة السنوسية في إثبات صفات الباري جل وعلا، وأن ما يعرفه الدارسون من ذالك لا يتجاوز القشور، وتحدث عن موضوع القضاء والقدر والأنبياء والرسل وعن معتنقي الأديان السماوية وعن البعث والحساب والحياة البرزخية وظهور المهدي والدجال والمسيح المنتظر وعن التخليد في النار، وصلة كل هذه الأمور بالدراسات.

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٣١ -.

(٢) هو: علي بن إسماعيل بن اسحاق يتصل نسبه بأبي موسى الأشعري - ٢٦٠/ ٣٢٤هـ (٨٧٤/ ٩٣٦م) الصحابي الجليل وهو مؤسسها وأبو الحسن الأشعري هو مؤسس الطريقة الأشعرية، إلا أن المنتسبين إليها ينسبون إليه أمورًا لا تتفق مع آرائه في العقيدة.

ثم انتقل بعد ذالك إلى وصف إلقاء الدروس، وتحدث عن غياب المدرس الذي قد يمتد لمدة سنة دون أن يكون لشيخ العلماء علم بذالك.

أما تفسير القرآن الكريم فذكر أن الكتب المعول عليها في ذالك هي «تفسير البيضاوي» و «تفسير الجَلَالَيْن» ووصف مفتي الشافعية وهو يدرس كتاب «تفسير البيضاوي» عام ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) بأنه لا يضيف إلى مافي الكتاب سوى بعض الكلمات من الحواشي الخاصة، وعندما وصف حفظة القرآن وأنهم لا يستطيعون فهم معانيه إلا بعد دراسة التفسير أضاف[1]: إن اللغة العربية في القرآن غالبًا ما تكون غريبة، غير أن تلاوة القرآن الكريم قد حفظت الشعور الدقيق للغة، كما ساهمت في حفظ اللغة العربية القديمة، وحتى عند (الأوربيين) نجد أن القرآن يساعد كثيرًا في فهم اللغة العربية الدارجة، كما أن فهم اللغة العربية الدارجة يساعد أيضًا في فهم القرآن وأضاف: ومن الملاحظ أن هذا الأمر غير موجود عند العرب، فالغربيون يقرأون القرآن لفهم معانيه، ولكن المسلمين اعتادوا أن يَعُدُّوا كتاب الله ذا طبيعة خاصة للمرء، ثم وصف اشتغال الطفل أثناء قراءة القرآن بصوت خاصٍّ وبنطق خاص مُقَلِّدًا في ذالك، ووصف العامة بأنهم يبتغون الثواب بمجرد القراءة دون فهم، ومَثَّل هاؤلاء بقصة امرأة إنجليزية أثناء محاكمتها استشهدت ببعض فقرات من «الإنجيل» تُدِيْنُهَا في القضية أمام المحكمة.

وحينما أشار إلى أن دراسة التفسير تُعَدُّ من الأمور الهامة نقل أن رجلًا من المغرب قدم مكة وهو معتدٌّ بنفسه، وقد أثار غضب الناس عليه كثرة تخطئته لهم باللغة العربية، فوقف هذا ليفسر قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[2] ففسرها تفسيرًا غريبًا أثار العلماء، مما سبب إبعاده إلى

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٣٨ -.

(٢) سورة البقرة الآية - ٢٢٣ -.

المدينة المنورة، فعاش هناك فترة من الزمن، وذات يوم كان لفيف من أصحابه ينظرون إلى مشادَّةٍ وقعتْ بين بعض البدو وبعض الجنود الأتراك فاستشهد أحد الحضور بآية من القرآن، فما كان من صاحبنا إلَّا أن صحح له بعض الأَخْطَاءِ التي أثارت حفيظته، فقال له: إن تفسيرك وقراءتك صحيحة على مذهب أهل سدوم (قوم لوط) مُذَكِّرًا له بما قاله في مكة في تفسير الآية السابقة الأمر الذي عَدَّهُ إهانة له، فما كان منه إلا أن ترك الحجاز نهائيًا.

وعاد إلى ذكر أوقات الدراسة مرة أخرى في المساء حيث يوضع أمام المدرس قنديل كبير، ويكون الحضور أكثرهم من أبناء البادية، ومعظمهم من قبيلة (حرب) يأتون مع أبنائهم لتعلم المبادئ الأولى، وهاؤلاء ممن يؤجرون إبلهم لنقل الحجاج، وهم يقطنون في القسم الجنوبي الغربي من المدينة، ويحضرون في العادة لصلاة المغرب والعشاء، ويستمعون إلى بعض المواعظ في الحرم، بالإضافة إلى بعض الدروس، ويتصف هاؤلاء بذكائهم وفطنتهم، وسلوكهم الحسن ومحبتهم للعلم، غير أن العيب فيهم كثرة الجلبة والضوضاء، حيث يخيل إليك في حديثهم أنهم يُنَادون شخصًا من مكان بعيد، وعن تدريس النساء[1] ذكر أن العالم الحضرمي السيد بابُصَيْل اعتاد في عامي ١٣٠٢ و ١٣٠٣هـ أن يلقِيَ بعضَ المحاضرات للنساء في يومي الجمعة والثلاثاء، حيث تعطل الدراسة في الحرم هذين اليومين، ووصف ما يلقيه بأنه مقتطفات نافعة، ومنتقاة من موضوعات كثيرة، في الفقه والعقيدة والأدب، وماعدا محاضرة الشيخ لا توجد محاضرات في يوم الجمعة صباحًا.

و (سنوك) يستطرد كثيرًا أثناء حديثه عن موضوع خاص، فيتناول موضوعًا عامًّا، ومن أمثلة ذلك أنه بعد وصفه لطريقة إلقاء المحاضرات (الدروس) في

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٣٤١.

الحرم وصفًا مفصَّلًا، وذكر مؤلفات ألفها بعض علماء مكة كالسيد بكري شطا وهو ممن يلقي دروسه من معلومات جمعها هو، وقد طبعت في القاهرة بعنوان «إعانة الطالبين» في أربعة مجلدات في الفقه الشافعي أراد منه تقريب المعلومات القديمة إلى أذهان الطلاب المعاصرين، بعد أن ذكر هذا خرج إلى موضوع مَدَى تطبيق الشريعة على حياة الناس الحقيقية[1]، مستخلصًا أن أمور العبادات والحياة العائلية هي التي تطبق فيها أحكام الشريعة، ومابقي من مختلف شؤون الحياة يطبَّق فيها العرفُ، وأهواء الطبقة الحاكمة، مما يحصر أثر الأمور الشرعية الأخرى في موضوعات الدراسة فقط، ويضيف: فإذا أخذنا الجانب السياسي من الشرع الإسلامي وجدناه يوجَّهُ نقدًا لاذاعًا ولا يقر الأوضاع القائمة في الأقطار الإسلامية، وتحدث عن القوانين التي تبين علاقة المسلمين بغيرهم من اليهود والنصارى التي تضمن لهاؤلاء الحماية في ظل الإسلام قائلًا: إنها مستمدة من المعاهدات التي أبرمها الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل الشام.

وعن قوانين المعاملات التجارية الإسلامية زعم أنها على درجة من المثالية بحيث لو طبقت لألغَتِ الكثير من الأعمال التجارية القائمة.

وأشار المعربان الكريمان إلى أن قوله هذا من (السموم) التي يجب الانتباه لها (إنها تحمل السمَّ في الدسم).

ووصف التشريعات الجنائية بتشددها في قبول الأدلة من جهة وبالطريقة الخاصة التي تطبق فيها العقوبات من جهة أخرى، بحيث يجعل إمكانية تطبيق العقوبة في أضيق الحدود، ولعله بهذا يشير إلى الحديث الشريف «ادرأوا الحدود بالشبهات».

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٣٢٧.

ووصف تأثر علماء المسلمين من أن أمورهم لا توزن بميزان الإسلام، فهم يصرحون في كتبهم[1]: (هذا ما يجب أن يكون عليه الحال، لا ماهو كائن فليساعدنا الله على تحقيقه!!) وهناك بعض الحكام يوافقون علماء الشرع على تطبيق بعض جوانب الشريعة الإسلامية، غير أن من المؤكد أن هذا لم يتم، والعلماء مجمعون على أن التشريعات التي يتبنونها تناسب مجتمعًا أفضل من المجتمعات المعاصرة، وأشار إلى المجتمع الإسلامي خلال عهد الخلفاء الراشدين مع التطلع إلى عودة تلك الصورة في آخر الزمن، حين يظهر (المهدي) فيملأ الأرض عدلًا.

والواقع أن الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان، وبها صلاح المجتمع، في أي عصر من عصوره، وما أصاب المسلمين الضعفُ إلَّا حين انتشرت فيهم بعض الأفكار الغريبة عن الإسلام التي منها التواكل، والوهن والاستسلام لليأس تأثرًا بكثير من مبادئ الطرق الصوفية الغريبة مما لا يتسع المقام لتفصيله.

ولم يفت (سنوك) إيضاح ما للحكومة التركية من أثر في حصر تطبيق الشريعة على أمور العبادات والأمور العائلية، وقيامها بوضع عدد من القوانين تُسَيَّر بموجبها كافة الأمور الأخرى، على الرغم من ادعاءاتها بأن للمسلمين الحرية بأن يطبقوا أحكام الشريعة على كافة أمورهم، ثم وصف الشريعة التي وصفها بالمثالية، وأن لها أهمية كبيرة في الحياة الإسلامية، وأن العلماء وعامة الناس ذوو آمال عريضة في تطلعهم لتطبيقها وجعلها هي المحرك لكل الثورات السياسية على أمل أن يتحقق ما يطمحون إليه.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٢٨ -.

وعندما تحدث بعد ذالك عما يلقى في الحرم الشريف من دروس انتقل فجأة للحديث عن التصوف[1]، فوصف القرآن الكريم والسنة النبوية بأنهما يحويان عناصر ذات معان روحية، ولكن هذه المعاني تأثرت بمؤثرات أخرى من النصرانية والفارسية والهندية، وعن هذا نشأ (علم التصوف) قائلًا[2]: هذه المعاني من خلال التأثيرات النصرانية الفارسية والهندية أدَّتْ إلى ظهور علم جديد يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها، ذالك هو (علم التصوف)[3].

ثم وصف نظرة معتنقي التصوف إلى العلوم الشرعية والفقهية بأنها مقدمات أولية للوصول إلى مرحلة محبة الخالق، وفي الهند وجد الإسلام نُظُمًا معقدة للتصوف، وقد تسربت إليه بعض صورها لأنه لم يكن من الممكن القضاء عليه نهائيًا.

قد يكون هناك نوع من التصوف لم يكن في أوله متأثرًا بما هو بعيد عن المعاني الإسلامية، فقد وُجد أُناسٌ من عباد المسلمين رأوا في تفرغهم للعبادة، وركونهم إلى الزهد، والتخلي عن الدنيا، وبصرف النظر عن مدى ما يوصف به هذا الأمر، إلَّا أن أولئك أرادوا الخير، ومن هنا عُرف عدد من الصوفية بملازمتهم لتعاليم الشريعة، وإنكارهم على بعض غلاة الصوفية، ومثل هاؤلاء لا يسوغ وصف أفعالهم مادامت مطابقة للتعاليم الشرعية بأنها متأثرة بأفكار بعيدة عن الإسلام.

أما أولئك الغلاة من الصوفية الذين بلغ بهم الأمر إلى أن تجاوزوا الحدود الشرعية، في الاعتقاد والسلوك فلاشك أن تأثرهم بأفكار هي أبعد ما يكون عن

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٤٢ -.

(٢) المصدر السابق.

(٣) والمقصود بالتصوف هنا المخالف لما سلكه زُهَّاد السلف الصالح كإبراهيم بن أدهم والجنيد وأشباههما ممن كان يتخذ الشريعة الإسلامية نهجًا لطريقته، والقول بأنه يقرب الأرواح البشرية من الاتصال بخالقها لعله يشير بهذا إلى ما يزعمه غلاة المتصوفة المنحرفون عن النهج السوي من أن من وصفوهم بهذا العلم يتلقون العلم عن الله مباشرة، وبهذا ينظرون إلى الوحي بأنه لا يحتاج إليه إلَّا العامة، أما الخاصة بزعمهم فهم يتلقون معلوماتهم مباشرة عن الله، وهذا هو غاية الضلال.

تعاليم القرآن الكريم، ومن مشاهير هاؤلاء ابن عربي صاحب «فصوص الحكم» وابن الفارض والسهروردي والحلّاج وأشباههم ممن هم أبعد الناس عن الإسلام.

ومع سوء نظرة (سنوك) إلى كثير من أحوال الشريعة الإسلامية، إلا أنه كان على حق حين قال[1]: إن جميع هذه التأثيرات الفكرية كان ينظُرُ إليها علماء الشريعة على أنها ظواهر خطرة وهم يرون أن أولئك المتصوفة التي تسعى إلى اكتساب المعرفة الروحية من خلال طرق بعيدة كل البعد عن العلوم الشرعية ليست مقبولة، في نظر المسلمين، بحيث بلغ الأمر ببعضهم إلى ازدراء العبادة في التقرب إلى الله تعالى، وهم يرون في طرقهم الغَرِيبة، وممارساتهم المتطرفة أنها مستمدة من نصوص الكتاب والسنة، ومع نظرةعلماء الإسلام إلى خطورة تلك الحركة الصوفية، إلّا أنها وجَدتْ طريقًا بين بعض العلماء المستنيرين، وبين أعداد هائلة من عامة المسلمين من أتباع أولئك العلماء.

وخلص ليتحدث عن كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، الذي أشار إلى نزعته الصوفية، وأنه حين حثَّ على قراءة القرآن طلب من القارئ التمعُّن في المعنى أثناء القراءة، وأن هذا مما يفيد الحياة الروحية، واسترسل في وصف محتوى كتاب الغزالي.

ومن المعروف رأي العلماء المتقدمين في الإمام الغزالي - رحمه الله - وتأثره بالمباحث الفلسفية وأن كتابه «إحياء علوم الدين» لم يَخْلُ من ذالك، ولهذا كان محققو العلماء ينهون عن قراءة هذا الكتاب مَنْ لم يكن لديه من المعرفة ما يمكنه من إدراك حقائق ما يحويه، وللشيخ عبداللطيف ابن الشيخ عبدالرحمن بن حسن ابن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - رسالة في هذا الموضوع منشورة ضمن رسائل الشيخ المعروفة، جمع فيها أقوال

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٤٢ -.

العلماء المحققين عن ذالك الكتاب، وأكتفي بالإشارة إليها عن الاسترسال في عرض البحث الطويل الذي تحدث فيه (سنوك) عن الغزالي وعن كتابه، وخلص من ذالك عن نظرة الغزالي للتصوف، ووصفه بأنه اعترف بأهمية الطرق الصوفية، غير أنه وافق علماء الشريعة على وجود الكثير من التوافه و القشور في بذرة التصوف[1]، وحذَّر بشدة من أمثال هذه الطرق الزائغة والمضللة، ثم أبدى (سنوك) أسفه حين وصف الغزالي بأنه أوجد الأسس الأولى لمهام المرشد، أو شيخ الطريقة بقوله: إن وجود شيخ ضروري للطريقة الصوفية لابُدَّ من الأخذ بتوجيهاته، ثم وصف مايجب أن يتحلى به هذا الشيخ، وأن من ذالك الالتزام بنصوص الشرع والقواعد الأخلاقية وفهم الأمور الدينية فهمًا صحيحًا.

ولا أدري أصحيح ما نسب (سنوك) إلى الغزالي من قوله[2]: أما الأساليب المتبعة عند الصوفية مثل التغني بالأشعار، وعمل الحركات العنيفة التي تصاحب الرقص والإنشاد، فإن الغزالي يُقِرُّهَا إذا كان الهدف منها تقوية العواطف الدينية والأخلاقية، أما أن تستعمل غطاء يتستر به عن الرذائل، فالغزالي لا يقر هذا ولا يجيزه، وإن كان من دعاة التصوف الذي لا يصاحبه أمثال هذا الصراخ والترنح.

وخلص للحديث عن المتصوفة الذين فضلوا العمل في الظلام، وأدخلوا كثيرًا من الأمور الباطنية نشروها بين صفوف العامة ممن يحظى بتقدير كبير في الأوساط الصوفية، ومن هاؤلاء ابن عربي والشعراني، ولهم شهرة في مكة، إلا أنها لا تداني شهرة كتاب «إحياء علوم الدين» وقال عن العلماء والمستنيرين: إنهم يظهرون عدم رضاهم عن الحركات الصوفية الشائعة، وخصوصًا ما يبديه

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة - ص ٣٤٨ -.

(٢) المصدر السابق - ص ٣٤٩ -.

هـاؤلاء من شعـوذة، ومـواكب تكتنفها الضـوضـاء، ودراويش همهم التسـول، وشيوخ رغبتهم في جميع حشود كبيرة أمامهم.

وتحدث بتفصيل عن طريقة اعتناق الطرق الصوفية وقال خلال ذالك[1]: إن مشايخ الحـرم وعلماءَه يستاؤون كثيرًا عنـدما يلتحق الكثير من طلبتهم بـالطرق الصـوفية، سيمـا من لم ينل من المعـرفـة إلَّا الشيء اليسير، وأضـاف إلى ذالك قـوله: إن الطـرق الصوفيـة في الأعم الأغلب تصـرف طـاقات الطلبـة الكامنـة، وجهودهم في أمور أبعد ماتكون عن تلقي العلم والثقافة والمعرفة.

وبعد ذالك خلص إلى وصف مكانة مكة المكرمة من حيث التأثير في العالم الإسلامي قـائلًا: (إن علوم الشرع والعقيدة والتصـوف ساهمت مساهمة قـوية في إحياء القيم السياسية والإسلامية كما أن البيئة المكية تساعد وتقوي الآراء والآمال الإسلاميـة من خلال ماتطـرحه من موضـوعات دراسية مختلفـة، سيما وأن معظم الدارسين يَفِدُون من مناطق مختلفة من العـالم الإسلامي، وهاؤلاء حينما يوجدون ويعيشون معًا يـزداد الوعي الديني بسعة انتشار دينهم وتقـوى لديهم الأفكار التي يطرحها القادمون من البلاد التي يمثلهـا الأجانب الغربيون بأن المسلمين ملامون لخضوعهم لفترات طويلة إلى هذه القوى الغازية).

يبدو أن (سنوك) لم يقل ما تقدم بدافعٍ حسنٍ إذْ أضاف إليه: ذكر منع ممثلي الـدول العظمي من دخـول مكـة، ووصفَ نظـرة المكيين إليهم، ولم يتـورع عن القـول: صحيح أن هـاؤلاء الأجانب قـد ضَـربـوا (جُدَّةَ) بـالمـدافع، ولكن هل باستطاعتهم مهـاجمة مكة؟ إن لسان حال المكيين يقـول: إن السلطان سيدافع عنها، وأن المـولى عز وجل سيرميهم بصـواعق من السماء، ولهذا فـالأجانب لا

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٥٣ -.

يجـرأُون على مثل القيـام بهـذا العمل، وأضـاف: إن قـراءة بعض الفصـول عن الفتـوحات الإسـلاميـة أو عن انتصارات المسلميـن على الديـانـات اليهوديـة والنصرانية، لا تثيـر عقول الكثير هنا في مكة بنفس القدر الـذي تثيره في إحدى مساجد الهند. إن مكة حقًّا مركز العالم، والانتصارات المستقبلية يجب أن تبدأ منهـا، وأكثر الطلبـة ومعظم المجتهدين مـن الأغراب الـذين يستقرون في مكـة بضع سنين، وعنـدمـا يعـودون إلى بـلادهم يبدأون بنشـر المعـرفـة والآراء التي تعلموها في هذه المـدينة المقدسة، بالإضافة إلى حـركة الإنعاش التي تمنحها مكـة للطبقة المتعلمـة ممـا أثر في الطبقـات الشعبيـة بالتضـامن من المجتمع الإسلامي الكبير.

ثم انتقل بعد ذالك لإكمال الحديث عن الدراسة في الحرم الشريف بإعطاء صورة عن بعض الأمور التي تسبب عدم الالتزام بنهج الدراسة، إذ لا يطبَّقُ إلَّا في خـلال سبعـة أشهـر من أول السنـة، وبعـد حلـول منتصف رجب يخصص المدرسون ساعةً لتلاوة قصـة الإسراء، وكذالك الحال في الأيام الأولى من شهر ربيع الأول حيث تقرأ قصة المـولد، وفي شهر شعبان يشرع المـدرسون في قراءة موضـوعات الصيام، وفي نهـاية العام الـدراسي بحلول شهر رمضـان لا يتوقف العلمـاء عن التـدريس، بل يقـومـون خـلال إجـازتهم التي بـدأت في رمضـان بالتـدريس أيام الجمع والثلاثـاء وبعض المناسبـات الأخرى، وتكون الـدراسة بعد صـلاة الفجر، وبعدصـلاة العصر، والموضـوعات التي تـدرس هي العقيدة واللغة العـربية والتفسيـر والحديث، ومن بين العلمـاء من استمر على الطـريقة الأولى في التدريس، أمـا بعد عيد الفطـر فالأذهان تتطلع إلى شهـر ذي الحجة حيث يخصص المدرسون دروسهم عن الحج، ويستمـر ذالك حتى نهاية شهـر ذي القعدة، فتتوقف الدراسة بحلول هذا الشهر، لتزايد عدد الحجاج، بحيث لا يمكن أداء الدراسة بل تتوقف حتى منتصف شهر المحرم.

ويلمح إلى أن استنتاجه من كتب تاريخ مكة يدل على أن الحياة الثقافية فيها أكثر نشاطًا وازدهارًا فيما مضى من القرون، ويبدي أسفه بأن (بركهارت) لم يذكر شيئًا من ذالك، بل اكتفى بإبراز تَصَوُّرِ أهل مكة في الحضارة والعلم بصورة مبالغ فيها، ويعلل هذا من فعل (بركهارت) بأن مكة تبدو للحجاج بصورة مختلفة تمامًا عن أولئك الذين يستقرون فيها، وينقل عن (بركهارت) قوله: إنه في يوم الجمعة بعد صلاة الظهر اعتاد بعض الأساتذة الأتراك أن يتجمعوا في المسجد، ويحيط بكل منهم حلقة من مواطنيه حيث يلقي عليهم محاضرة بلغتهم الأصلية، وقبل انصرافهم يقبِّلون يدَ الشيخ، ويقدمون له هدية مالية ويضيف (بركهارت)[1]: أن هذا التقليد موجود حتى الآن (١٨٨٥م) غير أنه يجب أن يضاف إليه المعلومات التالية، وهي أن المسجد في أوقات الحج يزدحم بالحجاج الأتراك، فيقوم بعض الأتراك الذين يستوطنون مكة بإعطائهم مثل هذه المواعظ، وهاؤلاء ليسوا بعلماء ولكنهم أساتذة موسميون لا يمكن أن يعملوا في دائرة المسجد، حيث تنظم دراسة الفصول، ولقد شاهدت أمثالَ هاؤلاء في شوال عام ١٣٠٢هـ (يوليو ١٨٨٥م) في رحاب المسجد الحرام، ولقد قال لي أحد المكيين مشيرًا إليهم بالأصبع السبابة: (لقد ظهرت الضفادع!!) وحينما سألته عن ذالك أضاف: (إن الضفادع تبدأ في النقيق حين تمطر السماء مشيرًا بالمطر إلى قدوم الحجاج، وأن هاؤلاء يبحثون عن المنفعة المادية وهم متطفلون على سوق العلم).

ووصف مكة بكونها مركزًا للعلم والثقافة قائلًا[2]: (يظهر في مدينة مكة في كل قرن من القرون العديد من رجال العلم والثقافة، وقد امتازت لقرون طويلة بأنها مركز ممتاز للدراسات الشرعية الفقهية، ولقد تضافرت في الوقت الحاضر على

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٦٠ -.

(٢) المصدر السابق.

المدينة المقدسة أسباب عديدة جعلت منها مركزًا فريدًا للعلم والمعرفة لجميع بقاع العالم الإسلامي).

ماتقدم هو خلاصة ما رأيت عرضه مما تحدث به (سنوك) عن الحالة العلمية في مكة، مع أن حديثه متعدد الجوانب، متشعب الموضوعات، كثير الاستطرادات، مما يحسن لمن حاول استيفاء ما قدم من معلومات أن يرجع إلى الكتاب نفسه، وما قدمته للقارئ في هذه الصفحات هو أبرز ما ظهر لي منها.

أما الفصل الرابع فقد خصصه لسكان مكة والوافدين إليها من الجاويين ويعد أطول الفصول وأشملها فقد استغرق من صفحات الكتاب نحو ثلاثين ومئة صفحة من (٤٩٢) صفحة.

ولا أجدني مبالغًا إذا قلت أن هذا الفصل هو الغاية من تأليف هذا الكتاب إن لم يكن الغاية من تسلل هذا المستشرق الغربي (سنوك) إلى هذه المدينة الطاهرة يوضح هذا:

١- أن (سنوك) من أعظم رجال الاستعمار الهولنديين الساعين في ترسيخ قدمه في تلك البلاد الإسلامية الباذلين مختلف الوسائل لإخفاء مآربهم وغاياتهم من استعباد ذالك الشعب المسلم وامتصاص خيرات بلاده.

٢- أن مكة شرفها الله هي أعظم ملتقى إسلامي تجتمع فيه مختلف طبقات الأمة من قادة وعلماء ودعاة إصلاح ومفكرين وغيرهم، ويلتقي في هذا الملتقى من جميع أقطار العالم الإسلامي ممن أوجب الله عليهم فريضة الحج أو وفقهم للتطوع في أدائها، فيحدث بين مختلف هاؤلاء الوافدين من الاتصال والالتقاء والاجتماع ما يكون من أقوى الوسائل لمعرفة مختلف أحوال المسلمين في تلك الأقطار المختلفة، والتباحث فيما هم فيه من ضعف وهوان واستعباد واستعمار والتفكير في الطريقة المثلى التي تهييء لهم الخلاص من جميع ذالك.

٣- لقد كان الاستعمار إذ ذاك مسيطرًا على جميع الأقطار الإسلامية باستثناء جزيرة العرب وذالك بعد أن سقطت الخلافة بسقوط الدولة العثمانية وسيطرة الدول الغربية على تلك الأقطار.

٤- إلَّا أن من حسن الحظ أن الاغفاءة التي عمت المسلمين بدأت تنجلي بظهور عدد من دعاة الإصلاح، فدعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب لإصلاح العقيدة الإسلامية كانت قد استقرت وانتشرت واشتهرت بين المسلمين وبرز في كل قطر دعاة مصلحون في الهند، وفي الشام وفي مصر وفي غيرها من الأقطار.

٥- من هنا ليس غريبًا أن نجد مفكرًا عالمًا مثل (سنوك) يبذل مختلف الوسائل ليتغلغل بين المسلمين وليخدعهم لكي يقيم في هذه البلدة الكريمة ويطلع على مايجري فيها لكي يتخذ من معرفة جميع مايمكنه من القيام بأداء عمله على أكمل وجه.

لقد افتتح (سنوك) حديثه في هذا الفصل بما نقله عن أحد أمراء الحج المصريين وهو محمد صادق باشا في رحلته - «دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج» - المطبوع سنة ١٣٠٣ من قوله[١]: (إن قطاع المهاجرين في مكة هم خليط من الجاوى والهنود والمصريين والأتراك والأفارقة (السود) واليمنيين والبدو يقومون ببيع مياه زمزم ويتاجرون بالحناء وأعواد الأراك وكان معظم العاملين بالتجارة من الأجانب المجاورين بمكة، وكان بعضهم يتعاطى الربا في تعامله بحيث يسترد العشرة اثنتي عشرة أو أكثر ويقوم باستغلال الحجاج ولاسيما حجاج الجاوى لأنهم كانوا غرباء وموسرين).

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٦٣ -.

ويقف (سنوك) عند هذا قائلًا[١]: (إن الباحث المصري السابق ذا الثقافة نصف الأوروبية قد لاحظ بصورة سطحية الظروف السائدة في مكة، غير أنه من المهم أن نذكر أنه خص حجاج الجاوى بالاستغلال دون أن يذكر أي مبرر أو سبب لذالك.

ويندرج تحت اسم الجاوى في الجزيرة العربية كل الشعوب التي تنتمي إلى السلالة الملاوية في أوسع صورها شاملة البلاد الممتدة من سيام (تايلند) إلى ملقا وغينيا الجديدة - وتشمل هذه التسمية في مكة المسلمين وغير المسلمين. وغير المسلمين يطلق عليهم في العادة اسم عبيد).

ثم يتوسع في ذكر الحجاج من سكان (الملايو) في غير بلاد الجاوة.

ويبدي تأثره من نشاط المظاهر الإسلامية في بلاد أولئك قائلًا[٢]: (وعلى أي حال فإن بناء المساجد قد نشط خلال العشرين سنة الأخيرة أكثر من أي وقت مضى، كما أن الناس قد بدأوا يتجشمون المصاعب في سبيل تعلم أمور الدين يضاف إلى ذالك أن بعض هاؤلاء أصبح يسافر إلى مكة لأداء فريضة الحج).

ويسترسل (سنوك) بذكر أشياء تتعلق بهذا كوصول الدعاة، وطبع الكتب الدينية باللغة الهولندية السائدة في منطقة رأس الرجاء الصالح حيث ينتشر هاؤلاء وغير ذالك من الأمور كتغيير اسمائهم من الأسماء الهولندية إلى الأسماء العربية حين يصلون إلى مكة.

ويحاول أن يصل إلى الغاية التي جعلت الباحث المصري يبرز شأن الجاويين في مكة بين الحجاج على غيرهم من الأصناف الأخرى قائلًا[٣]: (إن

---

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٦٣ / ٣٦٤ -.
(٢) نفس المصدر - ص ٣٦٥ -.
(٣) نفس المصدر - ص ٣٦٦ -.

الباحث المصري السابق قد أكد على أهمية الجاوى من بين الجاليات الأجنبية في المدينة المقدسة. وأن هذا التأكيد لابد أن يكون وراءه سبب ما. على الرغم من أن المؤلف المصري لم يذكر لماذا كان ذالك. ولعل نسبة القادمين إلى مكة من أرخبيل الملايو لا يدانيها نسبة أخرى في مختلف بقاع العالم الإسلامي).

ثم يقارن بين حجاج الجاوى وبين بعض أصناف الحجاج الفقيرة الذين يمتهنون التسول بخلاف الجاويين الذين يصفهم بالترفع عن ذالك وبأنهم متواضعون بطبعهم ومعتزون بانتمائهم إلى الدين الإسلامي أكثر من اعتزازهم من أصولهم العريقة وتقاليدهم الوطنية في بلادهم من مختلف جزر الملايو.

ويتحدث عن انتشار الإسلام في بلاد الجاوى مشيرًا إلى ما يتناقله أهل تلك البلاد من أساطير، ولا يأتي بما يمكن الاعتماد عليه في هذا الجانب، ولكن لا يفوته القول بأن سكان بلاد الجاوى الحاليين ينظرون إلى مكة المشرفة بكونها بؤرة الإسلام ومركزه.

ثم يتحدث (سنوك) عن موقف أهل مكة من حجاج الجاوى قائلًا ما نصه[1]: (والمرء يدرك بسهولة كيف أن المكيين قد يتنازعون فيما بينهم حول المكاسب التي يجنونها من شعب يسهل استغلاله كهاؤلاء).

فكأن النظرة الاقتصادية بالنسبة إلى الجاويين لاتزال هي المسيطرة على تفكيره وذهنه إذ يقول مرة أخرى[2]: (إن ترتيبات الحجر الصحي ليس لها من هدف سوى استغلال هاؤلاء. وترتيبات الحجر الصحي قد نظمت من قبل السلطات العثمانية لإقناع السلطات الطبية العليا في الغرب والتي لا تعرف شيئًا عن الظروف الحقيقية في الشرق بهذا النظام الذي ليس له من هدف سوى ابتزاز الأموال).

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٦٨ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٣٦٨/ ٣٦٩ -.

ويوضح بعض ما في الحجر الصحي من مضار، وما يعتري الحجاج فيه من مشقة وعناء.

ويصف موقف المطوفين في مكة من السعي لجلب أكبر عدد من الحجاج الجاويين معللًا ذالك بأن المكيين لا يتركون أيَّة فرصة لزيادة العائد الذي يجنونه من بلاد الجاوى.

ويصف (سنوك) انتشار العرب في أرخبيل الملايو، وخاصة الأشراف والسادة وأصحاب الطرق الصوفية ورجال العلم من أهل مكة الذين يحلون ضيوفًا على الأمراء فينالون حفاوة بالغة، ويعودون إلى أوطانهم بجوائز وهدايا ثمينة منهم ومن طبقات العامة من شعب الملايو ممن يتلقى عنهم العلوم الدينية أو يعتقد صلاحه، ولولا ما تضعه الحكومة الهولندية من عراقيل أمام هاؤلاء القادمين لفاضت جزر الملايو بالأعداد الكثيرة منهم.

وهنا يبرز جانبٌ مما يحاول هذا المستشرق اخفاءه ألَا وهو الخوف من انتشار الوعي والعداء للاستعمار إذ يقول ما تعريبه:[1] (وقد يكون ذالك خطيرًا من وجهة نظر سياسية لأنه على الرغم من أن غرض هاؤلاء هو المال فإنهم سرعان ما يرون في الحكومة الأوربية والتأثير الإفرنجي قوة عدائية يقاومونها سرًا وعلانية ما استطاعوا إلى ذالك سبيلًا. وحتى يتسنى لهم القدوم في الوقت الحالي يجب أن يكون هاؤلاء أو من يزورونهم على جانب عظيم من القوة والنفوذ، لأنهم يخضعون لرقابة شديدة من قبل السلطات الأجنبية التي تشك بنواياهم دائمًا. وعلى كل حال فإن حسن نية الجماعات الملاوية يساعد المسلمين الأجانب على إغراء هاؤلاء بالقيام بحركات دينية وسياسية. وحينما

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٧٠/ ٣٧١ -.

يكون هاؤلاء الأجانب من العرب فإن نجاح مثل هذه الحركات يكاد يكون مؤكدًا بدرجة كبيرة).

ثم يقلل من شأن انتشار الحضارمة في تلك البلاد إذ لا تتعلق غاياتهم بالأمور الدينية.

ثم يعود إلى الحديث عن تأثير وفود العلماء والسادة ومشايخ الطرق إلى تلك البلاد قائلًا[1]: (إن زيارات العلماء ومشايخ الطرق الصوفية والمغامرين قد قَلَّتْ عما كانت عليه في السابق نتيجة انتقال السلطة إلى أيدي الأوربيين.

إن وصول هاؤلاء وأمثالهم إلى جزر الملايو غالبًا ما يعني ثورات دينية ضد الوضع القائم الأمر الذي فرض تحديد عدد القادمين منهم. وقد أصبح هاؤلاء يغطون هدفهم الحقيقي وهو إثارة الحماس الديني للسكان بهدف آخر بعيد هو ادعاء الأعمال التجارية خوفًا من السلطة القائمة.) انتهى.

لقد اتضح فيما سبق تلخيصه مما ورد في هذا الفصل اهتمام هذا المستشرق بأمرين هما الناحية الاقتصادية، ومناوأة الاستعمار بإيجاد الوسائل للتخلص من قبل الوافدين على هذه البلاد من رجال الإصلاح.

وهذان الأمران هما أهم ما يشغل بال دعاة الاستعمار كهذا المستشرق وأمثاله.

فلا غرو والحالة هذه أن تتضح مقاصده السيئة وإن حاول إخفاءها بصورة غير واضحة في كثير من عباراته في هذا الفصل.

وتحسن الإشارة إلى أن كثيرًا ممن كانوا يفدون إلى تلك البلاد من العرب ماكانوا ذوي أهداف نبيلة سامية بالنسبة للدعوة الإسلامية، فبينهم كثيرون يدعون الشرف والسيادة ويحاولون بذالك تغرير السذج لكي يعاملوهم بغير ماهم جديرون به من الاحترام والتقدير.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٧١ -.

وهناك أصحاب الطرق الذين قد يكون من بينهم من ذوي الغايات الحسنة، إلَّا أن جهلهم بحقيقة الدين الإسلامي وبما تنطوي عليه تلك الطرق من بدع وخرافات تتنافى مع قواعد ذالك الدين كان من أسباب انتشارها في تلك البلاد وهذا من الأمور التي تصرف عن إدراك الغايات السامية مما جاء الدين الإسلامي الحنيف به.

ولانتشار الطرق الصوفية في بلاد الملايو تاريخ طويل، ليس هذا محل تفصيله، إلَّا أن دعاة الإصلاح قد تنبهوا لهذا الأمر، وتكونت بعض الهيئات التي حاولت بالقدر المستطاع إيضاح حقيقة تلك الطرق، وهي وإن كانت ليست بالغة الأثر في ذالك، إلَّا أنها قد بذلت جهدًا نافعًا.

ويسترسل (سنوك) في الحديث عن الحجاج الجاويين من حيث قوة الصلة بينهم وبين أهل مكة، إذ يصف هاؤلاء بقوله[1]: (إن المكيين لم يحتاجوا إلى وقت طويل لمعرفة خصائص الجاوى أو لمعرفة الفروع والأجناس المختلفة التي تنتمي إليها هذه المجموعة من البشر. ومعارف المكيين وملاحظاتهم على سكان الجاوى شاملة ودقيقة في النواحي التي يجنون من ورائها الفوائد المادية). انتهى.

فأنت ترى أنه يحاول ربط الصلة بين الفريقين برباط مادي، فيصف الجاويين بعد ذالك بأنهم يفدون إلى المدينة المقدسة ومعهم الأموال الوفيرة بقصد انفاقها في مكة، وإذا ما نووا الإقامة لفترة أطول فإنهم يجلبون أموالًا أخرى من الوطن الأم كدخل سنوي ترسله لهم أسرهم[2].

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٣٧٢ -.

(٢) نفس المصدر.

ولا يفوته أن يصف الحجاج الجاويين على مختلف طبقاتهم بالاستقامة والرغبة في التزود من الخير عبادة أو علمًا وأمانة واستقامة في المعاملة بحيث يفضلهم التجار المكيون على غيرهم في ذالك، ويعاملون معاملة ممتازة من قبل رجال الدولة فيما قد يعترض أحدهم من بعض المشكلات مع غيره، كما أنهم يفضلون للخدمة في الأعمال المنزلية لما يتصفون به من حسن الأخلاق[1].

ويعلل (سنوك) ماحدث من تغير بعض أخلاق الجاويين في الأونة الأخيرة بكثرة إقبال الشباب منهم إلى السفر إلى مكة بحثًا عن حياة زوجية مريحة انخداعًا بما كانوا يسمعونه من العائدين من تلك البلاد، فلا يلبثون أن يفاجأوا بحالة من شدة الاحتياج تجعلهم فريسة للمرابين من التجار الذين تدفعهم ثقتهم بهذا الجنس من الحجاج ليقدموا لهم ما يطلبون، لكنهم يفاجؤون في بعض الحالات بهرب هاؤلاء المستدينين إلى بلادهم، ومتى طلبوا لجأوا إلى المماطلة في الوفاء.

ولا أدري ما مراد (سنوك) في وصف ما بلغه بعض الجاويين من التردي الخلقي من تأثر اتصالهم بسكان هذه البلدة الكريمة.

وإن كان في قوله[2]: (لقد كان المكيون يغضون الطرف عن هاؤلاء حينما كانت لديهم الأموال الوفيرة فشجعهم ذالك على التبذير والفخفخة وارتكاب الغواية، ولم يدرك المكيون هذا الجانب المظلم من حياة بعض أفراد الجالية الجاوية إلَّا حينما نفدَ ما بأيديهم من أموال).

في قوله هذا مغامز لسكان هذا البلد الأمين، هم أجل قدرًا من أن يكونوا بتلك الصفة ولهم من أخلاقهم الكريمة مايؤهلهم ليقوموا بتوجيه قصاد هذا البيت الحرام لما يجب أن يتصفوا به من أخلاق سامية.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٧٣ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٣٧٤/ ٣٧٥ -.

ويعود مرة أخرى لينسب تأثر بعض الجاويين القاطنين بمكة بالمكيين في تأثر أخلاقهم قائلًا[1]: (إن العديد من الجاويين الذين استقروافي مكة قد أصابهم حب الاستغلال متأثرين بالروح الاستغلالية الموجودة لدى بعض أفراد المجتمع المكي).

ويتوسع (سنوك) في ذكر ماكان يزاوله الجاويون في مكة من أعمال لاكتساب معيشتهم ومنها مشاركة المكيين في أعمال الطوافة، حيث أفاض في الحديث عن هذا الجانب مشيرًا إلى أنه لا يمتهن ذالك سوى طبقة خاصة من الفقراء.

أما من حيث الطباع والعادات العامة للجاويين فيرى (سنوك) أن الجالية الجاوية قد دخلت في منافسة مع أهل مكة، لذالك اكتسبوا كثيرًا من العادات المكية السيء منها والحسن.

ثم يعود مرة أخرى ليصف معاملة بعض المطوفين للحجاج الجاويين فيصفها بأنها معاملة تقوم على الخديعة والكذب من أناس يتظاهرون بعمل الطوافة وليسوا من أهلها، لاسيما وأن الجاويين على درجة من السذاجة وطيب النفس، بحيث يسهل إغراؤهم وخداعهم في كثير من الأمور التي يورد (سنوك) أمثلة متعددة لها، مما يسبب لهم غالبًا كثيرًا من الإهانة التي لا تقف عند حد الكلام.

ويعود مرة أخرى في حديثه عما تتقاضاه الحكومة من رسوم الطوافة فيزعم أن العناصر الجاوية كانت مستغلة إذ قال[2]: (ومن بين جميع حجاج العالم فقد قسم هاؤلاء إلى فئات عديدة بحسب المناطق التي قدموا منها، ولقد كان للأموال الطائلة التي أخذتها الحكومة من مطوفي الجاوى حتى قبل وصول هاؤلاء الحجاج أثر في استغلال هاؤلاء، فالإجراءات التي اتخذتها الحكومة

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٣٧٥ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٣٨١/ ٣٨٢ -.

كانت صارمة وتقضي بتوزيع الحجاج حسب مناطق معينة دونما أخذ رغبات هاؤلاء الحجاج، ثم سوق هاؤلاء كالقطيع للمطوف الذي حصل على التصريح بالطوافة لمنطقة هاؤلاء).

ويسترسل في وصف ما دعاه بالاستغلال، وأنه يبدأ من وصول الحجاج إلى مكان الحجر الصحي، ثم في مدينة جدة عند استيفاء الرسوم من كل شيء مع الحاج وتكليفه بدفع مبالغ من النقود مقابل أمور ذكرها.

وينهي كلامه بقوله[1]: (وعلى العموم هناك طرق مختلفة ومتنوعة يقوم بها بعض ضعفاء النفوس من المطوفين لاستغلال حجاجهم).

ويبدو أنه يريد من الحديث في هذا الموضوع الاستثارة والاستعداء لكي يحال بين أولئك الحجاج وبين الوفود إلى البلاد المقدسة من قبل تلك الدولة المستعمرة لأوطانهم، وليس بالغريب أن يحاول (سنوك) ما استطاع إن حقًّا وإن باطلًا في تحقيق غاياته بالحيلولة بين أولئك المسلمين وبين أداء فريضة الحج، إذ هو يدرك ما لاجتماع حجاج الأقطار الإسلامية في مكة المشرفة وتباحثهم في شؤون المسلمين عامة وتفكيرهم في الوسائل التي تعتقهم من رق الاستعمار من تلك الدول الغاشمة التي استولت على أوطانهم بغير حق.

وكما سبقت الإشارة إلى أن هذا الفصل من الكتاب يوشك أن يكون لبه وأن يكون المقصود من تأليفه فقد حاول أن يتحدث عن جميع أحوال حجاج بلاد الملايو حديث المتتبع المعني بتلك الأحوال، وهكذا كان هذا المؤلف، فهو لم يكتف بذالك بل تحدث عن عمق صلات المكيين ببلاد الملايو لا من حيث إدراكهم وفهمهم لمختلف اللغات التي يتحدث بها أهل تلك البلاد فحسب، بل أضاف إلى ذالك قائلًا[2]: (إن المكيين لهم نفوذ كبير في جزر الهند

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» – ص ٣٨٥ –.
(٢) نفس المصدر – ص ٣٨٨ –.

الشرقية، فقد استقر بعضهم في تلك الربوع بقصد التجارة لفترات طويلة ورحل البعض الآخر إلى تلك البلاد بقصد الزيارة، وربما تجد من هاؤلاء من تزوج من نساء هذه الديار) انتهى.

فكأنه بهذا يسعى للحيلولة دون تقوية هذه الصلات التي سبق أن أشار فيما تقدم من كلامه إلى ما لها من تأثير لإضعاف النفوذ الاستعماري، ولا يدع مناسبة تمر به دون أن يحاول إبراز هذا الصنف من الحجاج بصورة تستدعي العطف والشفقة من جراء معاملتهم أثناء حجّهم إذ يقول[1]: (إن معظم أفراد الجاوى وسط هذا الحشد الإسلامي الضخم في مكة يبدون الكثير من التواضع الجم الذي قد يؤدي إلى إساءة فهمهم وربما إلى إساءة معاملتهم فهم يوزعون بين المطوفين دونما تبصر ولا يؤخذ رأيهم في ذالك. إن هاؤلاء الحجاج يسلمون أمرهم كلية إلى المطوفين، ولسان حالهم يقول: أليس هاؤلاء المطوفون هم مشايخ هذا البلد المقدس الذي تهفو إليه الأسماع). انتهى.

بل يضيف إلى هذا بأن بعض الحجاج الجاويين أبناء الأمراء يبدون من الخضوع والذلة لمطوفيهم مالا يتفق مع مالهم من منزلة اجتماعية، وبعد مرور فترة من الزمن على إقامتهم في مكة يقوى الشعور الديني في نفوسهم بحيث يندمجون في المجتمع المكي، وتختلف نظرتهم إلى موطنهم الأصلي مع عدم مساواتهم مع أفراد المجتمع المكي – كذا يقول[2]– إلَّا بتنصلهم من جميع ما يربطهم بأصولهم الأولى.

إنه بهذا يحاول الضرب على وتر حساس – كما يقولون – من حيث تأثر هاؤلاء الحجاج بصلتهم بسكان البلد الأمين تأثرًا يكاد يفصلهم عن موطنهم

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» – ص ٣٩٣ –.
(٢) نفس المصدر – ص ٣٩٤ –.

الأصلي، وما هكذا يريد هذا المستعمر وأمثاله من بني جلدته أن يتصف هاؤلاء الذين ابتلوا باستعبادهم واستعمارهم بذالك.

ويعلل ما يفعله بعض الحجاج من التبرك بماء زمزم بالنسبة لحجاج الملايو قائلًا[1]: (يقوم الحجاج الجاويون بالاغتسال من ماء زمزم وكأنهم يتطهرون من رجس جو وأرض الملايو، ويكون ذالك بصب الماء المبارك عليهم).

ولا يفوته أن يسوق كثيرًا من الخرافات التي كانت تجري في هذه البلدة المقدسة في عهده، واتخاذها وسائل لاستغلال حجاج الملايو من الناحية المادية، مع أن الأمر في ذالك ليس مقتصرًا على هاؤلاء بل يكاد يشمل غيرهم من الحجاج.

ويتحدث بتفصيل عن جميع ما يقوم به الحاج الجاوي في مكة من أعمال وما يدفع مقابل ذالك من مبالغ كتغيير الاسم من قبل مفتي الشافعية، أو إمام الحرم أو رئيس المؤذنين، وكتعليم مناسك الحج قبل القيام بذالك، وحفظ بعض سور من القرآن الكريم مجودًا، وهذان الأمران يستلزمان دفع شيء من المال، ولا تقتصر تلك الأعمال على ماهو مستحب أو مباح وإنما تعدى ذالك إلى مالا يجوز شرعًا كالانتساب إلى إحدى الطرق الصوفية[2]، وقد فصل (سنوك) أن طريقة الانتساب تلقي بعض أنواع الأوراد والذكر وبعض الأعمال الجماعية إلى آخر ماذكر من الأمور المبتدعة، فالطريقة الإسلامية الصحيحة هي ماكان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، أما هذه الطرق المحدثة ففضلًا عما يلازمها من بدع وخرافات وأمور لا تقبل لا شرعًا ولا عقلًا فجميعها محدثة وكل محدثة ضلالة، ولقد طهر الله هذه البلدة الطيبة من جميع البدع والخرافات

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» ص ٣٩٤.

(٢) نفس المصدر – ص ٤٠٣/ ٤٠٤ –.

وصنوف المنكرات، ومنها هذه الطرق التي انتشرت في جميع بلاد الإسلام، وتحدث (سنوك) عن اتصالها ببلاد الملايو، وسمى أشهرها مما لا داعي للاسترسال بذكره.

وهو في إيراد ذالك لا يقصد التنفير منها، إلَّا من حيث اتخاذها وسيلة لاستغلال حجاج الملايو، فلم يكن على درجة من الإدراك لحقيقة الدين الإسلامي تمكنه من أن يبين وجه الحق فيها، وأن الدين الحنيف يرى جميع الطرق غير الطريقة الشرعية المثلى باطلة، الطريقة المثلى هي ماكان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام هو وأصحابه.

لا ينبغي أن يُفْهَم مما تقدم من محاولة (سنوك) أن تكون دراسته لأحوال حجاج الجاويين أو غيرهم جميعها من الوسائل التي يروم من ورائها تحقيق أهداف وغايات يسعى هو وأمثاله من دعاة الاستعمار لبلوغها، وأن كتابه هذا خصص لهذا الجانب، فالواقع أن ماحواه من دراسات مفصلة لأحوال سكان البلد الأمين في القرن الثالث عشر الهجري، وأوائل الرابع عشر من اجتماعية وثقافية واقتصادية وغيرها، يُعَد من الدراسات الشاملة لكل من يعنى بمعرفة أحوال هذه البلدة الطاهرة في تلك الحقبة من الزمان.

إن كتاب (سنوك) ليس تاريخًا لتلك الفترة، كما يفهم من عنوانه، ولكنه أشمل وأعم من أن يكون تاريخًا، فهو مباحث عامة لجميع ماتصدى لدراسته من تلك الأحوال التي اكتفيت بتفصيل الحديث عنها بإيراد إشارات موجزة لا تفي بما يتطلبه الباحث من تفصيل لجميع الجوانب التي تحدث عنها من أحوال هذه البلدة الطاهرة.

ومن أمتع فصوله وأوفاها ماتحدث عنه بتفصيل يتعلق بسكان الملايو، وعن نظرتهم إلى الدولة التي استعمرت بلادهم وهو لا يقتصر على هذا، بل يتناول بإيجاز أحوال سكان الهند، وسكان بلاد الجزائر وغيرهما مع مستعمريهم.

ولقد أفاض الكلام عن أمرين هامين هما: اقبال بعض الحجاج الجاويين على طلب العلم إقبالًا مكن العديد منهم لكي يبلغوا مرتبة تؤهلهم للقيام بالأعمال الدينية في بلادهم حين يعودون إليها، ونشر تعاليم الدين الإسلامي هناك.

والأمر الثاني: عن انتشار الإسلام في تلك البلاد والقضاء على معالم الوثنية فيها فمما قال[1]: (إن أقطارًا إسلامية قد دخلها الإسلام قبل جاوة بثمانية أو تسعة قرون ولا تزال فيها بعض الخرافات المنتشرة بصورة ليست بأقل مما هي عليه في أرخبيل الملايو. فكثير من الأعياد الوثنية يحتفل بها تحت أسماء جديدة وعندما يستعرض الإنسان كيفية دخول الإسلام إلى هذه المناطق، و أنه دخل تدريجيًا وبدون قوة السلاح من خلال إصلاحات داخلية محلية يشعر المرء بالنجاح العظيم لهذا الدين الذي غطى بدخوله لهذه البلاد على أعظم الانتصارات الحربية في هذا الشأن.

إن انتشار التعاليم الإسلامية بين صفوف الجاوى القدماء لم ينجم عنه ردود فعل مضادة إذ لم تتكون فرق دينية من المعتقدات السابقة لوجود الإسلام بالرغم من أن الحضارة التي كانت سائدة قبل وجود الإسلام لا يمكن التقليل من شأنها. وأن الفرقة الدينية التي وجدت في هذه الديار كانت نتيجة لوجود بعض دعاة الشيعة، وقد زالت نهائيًا بانتشار وسيادة المذهب السني فيما بعد) انتهى.

إن (سنوك) هنا وهو من أرسخ علماء الاستشراق في الشؤون الدينية ومن دعاة الاستعمار أيضًا الذين هم في القمة من أعداء الإسلام يقرر بصراحة أن الدين الإسلامي انتشر في أرخبيل الملايو، ودخل بصورة تدريجية وبدون قوة السلاح، وبتأثير ما يتصف به من عدالة ومن دعوة إلى الإصلاح مما تتقبله

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٤٣٢ -.

النفوس تقبلًا منبعثًا عن رغبة بينما يتخذ كثير من أبناء جلدته وأشباهه من أعداء الإسلام من الوسائل المنفرة عن هذا الدين الحنيف الحكم عليه بأنه إنما انتشر بقوة السلاح لا بطريقة الحجة والاقناع والرغبة القوية من ذوي الفطر السليمة بالإقبال عليه.

ولقد تطرق لذكر قوة الصلة بين العلماء في مكة والعلماء في بلاد الجاوى وتأثير هذه الصلة تأثيرًا عميقًا بين عموم سكان البلاد الجاوية من الناحية الروحية إذ قال[1]: (وإذا عرفنا أن الاتصالات قوية ونشطة بين مكة والوطن الأم فهناك الاتصال المستمر بين الأساتذة الواعين في مكة وبين تلاميذهم الجدد القادمين من الوطن الأم. ذالك الاتصال الذي يزيد من مشاركة السكان الوطنيين الذين يأتمرون بأوامر قادتهم الموجودين في مكة) انتهى.

مشيرًا إلى انتشار المؤلفات الدينية التي تأتي من مكة إلى هذه البلاد مما ألفه علماء جاويون أو علماء مكيون ممن لهم منزلة مؤثرة لدى سكان الهند الشرقية.

وأبرز أهمية من استوطن من بقايا الحجاج الجاويين وتأثير هاؤلاء في بلاد الأم من الناحية الروحية.

وقد وصف الحج بأنه[2]: (عبارة عن قناة تجري فيها تيارات الحياة الإسلامية إلى أراضي الجاوى).

ولم يفته التحدث بتفصيل عن أشهر العلماء الجاويين من حيث ماضيهم ومختلف أحوالهم وقد أطال الكلام على أفراد منهم من أشهرهم في عهده الشيخ محمد نواوي[3]، ففصل الكلام عنه وذكر مؤلفاته ووصف كثيرًا من أحواله، وحينما تحدث عن رأيه في الطرق الصوفية قال[4]: (وفي مجال

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٤٣٤ -.
(٢) نفس المصدر - ص ٤٤٠ -.
(٣) انظر ترجمته «معجم المطبوعات العربية» ص ١٣١٦.
(٤) المصدر الأول - ص ٤٥٦ -.

التصوف كان شيخنا يتبع خط الإمام الغزالي وكذالك كان كافة علماء الحرم المكي كما أوضحنا سابقًا).

مضيفًا[1]: (وعندما أرسل له السيد عثمان بن يحيى أحد العلماء العرب خطابًا يتضمن هجومًا عنيفًا على الطرق الصوفية التي تنتشر انتشارًا واسعًا في مختلف بلاد الجاوى لم يكن من النواوي إلَّا أن وافق على مضمون ذالك الكتاب كما دعم خطوات السيد بكلمات المدح والاطراء وقد اعتبر ذالك كنوع من التقارب في وجهات النظر بين الرجلين. لقد أخذ عثمان بن يحيى على عاتقه مناصبة العداء للطرق الصوفية، ولم يكن ليذكر ذالك صراحة وإنما كان يتناول مثل هذه الأمور بالتلميح من خلال خطب مليئة بالحقد على هذه الطرق، ولم يكن ليسع النواوي سوى الموافقة على ما يقوله السيد عثمان بن يحيى على الرغم من اختلاف وجهتي نظريهما حول المعايير المختلفة فيما يتعلق بأمور الطرق الصوفية.

ومهما يكن من أمر فإن الصوفية التي مارسها النواوي نفسه كانت صوفية معتدلة. وهي صوفية الغزالي الأخلاقية بما فيها من تمسك بالقيم الدينية). انتهى.

الإمام الغزالي – رحمه الله مع جلالة قدره له آراء من ناحية مزج الدين بالفلسفة، ويعد كتابه «احياء علوم الدين» من أشهر الكتب الدينية إلَّا أن العلماء المحققين قد أوضحوا بأنه فضلًا عن احتوائه على أحاديث لا أصل لها، فيه أمور تحول دون الاستفادة منه وخاصة من قاصري النظر بالأمور الشرعية.

وسبقت الإشارة إلى أن الطرق الصوفية المنتشرة في العهود الأخيرة جلها – إن لم يكن كلها – مبني على أسس لا تتفق مع القواعد الشرعية، وسيعود قريبًا للحديث عن هذه الطرق.

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» – ص ٤٥٧ –.

وتطرق بعد ذالك إلى الحديث عن المناطق اللغوية في جزر الهند الشرقية لصلة اللغات بوجه عام بتعلم اللغة العربية لطلبة العلم من تلك البلاد.

ويعلل (سنوك) ميل الجاويين إلى الاعتقاد ببعض الخرافات بأن لذالك ارتباط بحياتهم وطراز تفكيرهم المُتَأَثِّرِيْنِ في ذالك بالهندوسية[1] وأورد أمثلة على ذالك.

وعندما ترجم أحد علماء الصوفية من الجاويين وهو من اتباع الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني توسع في الكلام عما يقيمه أتباع هذه الطريقة من احتفالات، وعما يقدم من نذور وصدقات عن الموتى، إلى مزارات وقبور من يعتقد فيه الصلاح من الأموات، لاعتقاد الجهلة بأن هاؤلاء هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى، فهو يدرك أن هذه الأفعال مما لا يجيزه الدين الإسلامي، وإنما هي من أفعال الجهلة، ولكنه فيما عرض من أحوال المتصوفة بدأ وكأنه يقررها ولا يدرك وجه الحق فيها، وأن الدين الإسلامي لا يقر تلك الطرق لما يحدث فيها من أمور تتنافى مع الأحكام الشرعية، ومنها مبالغة المريدين في تعظيم شيخهم بدرجة لا تليق بمخلوق.

ومع محاولة (سنوك) تبرير ما يفعله هاؤلاء، إلَّا أنه يبدو مدركًا لحقائق ما تنطوي عليه تلك الطرق، مع أمور محرمة فهو يقول[2]: (وإنه لمن المهم جدًّا لكي نحكم على طريقة ما أن نعرف ماهي الاتجاهات التي توجه إليها الطاقات البشرية بهدف الوصول إلى النتيجة المطلوبة. ففي الطريقة القادرية التي يديرها الشيخ عبدالكريم هناك تركيز كبير على الالتزام الشديد بمبادئ الشرع الحنيف، عن طريق محاربة الآثام الخفية أكثر من التركيز على الحركات

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» – ص ٤٦٦ –.

(٢) نفس المصدر – ص ٤٧٣ –.

الجسمية وتدريب النفس تدريبًا خاصًا يولد شفافية قلبية خاصة. إن الطرق الصوفية تهيئ للفرد نزعة روحية، فبدلًا من التدريس العادي الذي من خلاله يتعلم المرء ماذا يجب عمله أو اعتقاده فإن هذه الجماعات تعمل بقوة كبيرة في إبراز القيم السياسية المثلى أكثر من التدريس العادي) انتهى. - كذا قال - مع أنه سبق أن ذكر أن الجهلة من اتباع الصوفية يعتقدون أن الصالحين هم الواسطة بينهم وبين الله تعالى ولم يدرك أن هذا الاعتقاد هو اعتقاد أهل الجاهلية القائلين: **﴿ما نعبدهم إلَّا ليقربونا إلى الله زلفى﴾** فكيف توصف الطرق التي تفضي ببعض متبعيها إلى ذالك الاعتقاد بأنها تهيئ للفرد نزعة روحية يراها أبلغ من تلقي التعاليم الدينية الصحيحة عن العلماء. فإن التوجيه القويم بالعلم النافع والأعمال الصالحة المشروعة هي أعمق تأثيرًا في النفوس من تلك الطقوس التي اعتاد شيوخ الطرق أن يكلفوا مريديهم بتعاطيها والأخذ بها مما لا يتفق مع القواعد الشرعية الثابتة عن السلف الصالح.

وحينما انتهى من التحدث عن شيوخ الطرق الصوفية الذين أفاض في حديثه عنهم عاد ليفصل الكلام عن العلماء الجاويين بالنسبة لمواطنهم، مع ذكر المؤلفات التي ألفها أولئك العلماء وأن من أوائلها ما طبع في مكة حيث أنشئت مطبعة في هذه المدينة سنة (١٨٨٥ - ١٨٨٦م) فطبع فيها عدد كبير من تلك المؤلفات وصفها بقوله[١]: (إن العدد الكبير من الكتب التي طبعت في مكة لمؤلفين من الجاوى تظهر أهمية هذا الشعب في المدينة المقدسة).

وقد ذكر أن الحكومة التركية عينت السيد أحمد بن محمد زين من (بتاني) مشرفًا على المطبوعات الجاوية، وأن من المحتمل أن تكون أعمال العلماء الجاويين من (بتاني) هي أكبر نسبة من المؤلفات المطبوعة في مكة. وأورد

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٤٨١ -.

أسماء مؤلفات جاوية أخرى طبعت في مطبعة الحكومة التي أنشئت في مكة، ثم ذكر عددًا من الكتب التي طبعت لعلماء جاويين خارج مطبعة مكة في كل من استانبول والقاهرة ولم يفته أن يستدرك على أحمد دحلان ووصفه هذه المطبعة بقوله[١]: (والناظر في الكتب المطبوعة لعلماء الجاوى خارج مكة يدرك أن عبارة أحمد دحلان الواردة في كتابه عن أمراء مكة والتي تشير إلى أن المطبعة التي أمر السلطان العثماني بإنشائها تتفوق على المطابع الحكومية الأخرى بأنها تطبع الكتب العربية والتركية والملاوية، فيها شيء من المبالغة لأن كثيرًا من كتب الجاوي تطبع خارج مطبعة مكة. ومع هذا فإن ما يطبع من كتب لعلماء من أصل جاوي يشكل نسبة كبيرة من إنتاج هذه المطبعة).

لقد كان ما كتبه (سنوك) عن هذا الشعب الكريم من جميع أحواله، من أمتع وأوفى ما قرأت وخاصة ما يتعلق بالجانب الثقافي العلمي من ذكر العلماء بتفصيل في تلك البلاد.

وعن تأثر ذالك الشعب الكريم بصلة كثير منهم بعلماء مكة تأثرًا كان له الأثر الطيب بانتشار الإسلام في بلاد الجاوى وإقبال السكان على اعتناق ذالك الدين الحنيف والتخلق بأخلاقه الكريمة.

ويختتم (سنوك) هذا الفصل - الذي هو خاتمة الكتاب - بالإفصاح عما جمجم عنه في مواضع أخرى من تأثر الحجاج الجاويين أثناء حجهم واختلاطهم بغيرهم في مكة المكرمة بالاتجاهات الفكرية المعادية للاستعمار مما يصح القول معه بأن ما اختتم به كتابه من ذالك هو الغاية من تأليف هذا

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٤٨٣ -.

الكتاب فيقول ما خلاصته[1]: (أثر المستوطنة الجاوية على الأمور السياسية في جزر الهند والشرقية.

أما أولئك الذين طال بهم المقام في مكة فقد أصبحوا مدرسين للشريعة ويقدرهم المجتمع تقديرًا عاليًا وأصبحوا ناشطين في الطرق الصوفية، وهاؤلاء وأولئك يقدمون القيم والمفاهيم الإسلامية لأرخبيل الملايو على خلاف الحجاج الذين يثيرون صفوف العامة بالحركات المناوئة للدولة. وتأثير الحجاج محدود لا يتعدى تكدير صفو الأمن في حين تأثير أولئك تأثير بطيء ثابت ومستمر على مشاعر الناس وعواطفهم السائدة، وهذه النتائج غير المباشرة للحج هي في الواقع ذات الأهمية الكبرى. وأنه من المؤسف حقًّا أنه لم تتخذ إجراءات لمجابهة مثل هذه الأمور في الماضي وخاصة في المناطق التي لم يكن منها العديد من الحجاج). انتهى.

ثم يستخلص مما تقدم قوله[2]: (إن جميع الاعتبارات التي تنجم عن الحج تتضاءل في الأهمية أمام ازدهار المستوطنة الجاوية في مكة. إذ هنا يكمن قلب الحياة الدينية لأرخبيل جزر الهند الشرقية الذي ينبض بالدم الجديد ذي النشاط المتزايد إلى مختلف المناطق الإسلامية في أندونيسيا). ثم يندفع في إبداء ما يراه من آراء يوجهها لحكومته فيقول[3]: (ولماكان من غير المستطاع الآن وضع الحواجز أمام تيار الحج، فإن المرء لا يستطيع أن يمنع قدوم البذور العربية التي تترعرع وتنمو في مكة وتعود إلى جزر الهند الشرقية، وقد أصبحت

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» - ص ٤٨٨ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٤٨٩ -.

(٣) نفس المصدر - ص ٤٨٩ -.

نباتات كبيرة تتكاثر وتزدهر وتنمو من جديد. لهذا فإن من الأهمية بمكان أن تعرف الحكومة الهولندية ماذا يجري في مكة وماهي الأمور التي تصدر منها كل عام. وكيف يمكن الاستفادة من ذالك بطريقة ذكية تتضمن دعم الحكومة أو على الأقل لا تسبب لها الأضرار والخسائر، ويمكننا ضبط الحياة الدينية في الملايو وذالك بأخذ زمام المبادرة والتحكم بالموضوع وتوجيهه كما توجه الريح الشراع، أو على الأقل جعل تأثير الحياة الدينية معتدلًا، وذالك إذا عرفنا التأثيرات الفكرية التي تنبعث من مكة قلب العالم الإسلامي) انتهى.

هذا هو كلام (سنوك) فكيف يصح إحسان الظن به من حيث نظرته إلى الإسلام.

لن استرسل في الكلام من هذه الناحية بل أكتفي بما سبق أن تحدثت عنه وعن مؤلفه في موضع آخر مما يُعَد متممًا للحديث عن مؤلفه «مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» الذي عربه الأستاذان الفاضلان محمد بن محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، ونشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة.

أُرَانِي وقد حاولت عرض أهم محتويات الكتاب الذي ألفه المستشرق الهولندي (سنوك. هورخرونيه) عن مكةالمشرفة ونقل إلى اللغة العربية في الأونة الأخيرة يحسن بي أن أعرض للقارئ الكريم بتفصيل ما أراه حول مؤلف هذا الكتاب، وحول الكتاب نفسه بصورة عامة.

لقد كثر تسلل كثير من سائحي الغربيين المغامرين من رواد البحث والدراسة إلى داخل المدينتين الكريمتين (مكة) و (المدينة) مستعملين مختلف الوسائل لبلوغ مأربهم أيًا كانت تلك الوسائل، التي تقوم أكثرها على الكذب والاحتيال بشتَّى الطرق، فهم يرون أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد تمكن

بعضهم من بلوغ هدفه ووجدوا من ذوي النفوذ في الفترة التي كان الحجاز تحت حكم دولة لا يدرك أكثر ولاتها عليه ماله من مكانة في نفوس المسلمين، وما للمدينتين المقدستين من حرمة وإجلال مما يحول دون أولئك من القرب منهما ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ولقد تجاوز الأمرُ حدَّ التسلل بتلك الوسائل لدخول عدد من أولئك البلدتين المشرفتين والإقامة فيهما فترة من الزمن إلى أن ولي المدينة رجل عسكري إنكليزي مسيحي، فقد جاء في كتاب «اكتشاف جزيرة العرب»[1] في الكلام على الجيش الذي شكله الأتراك والمصريون: (أوربي التنظيم يرافقه عدد من الأوربيين الكفار، لأسباب غير معلومة، وكان (طومان كيث) من فرقة (الهايلندروز) الثانية والسبعين، قد أصبح (أغا) للمماليك، ويشغل بعض الوقت أغربَ منصب، يمكن أن يشغله رجل (إيقوسي) وهو منصب (حاكم المدينة) البلدة الإسلامية المقدسة، واكتشف (تاميزيه) في سنة ١٨٣٤م إنكليزيا يدعى (اتكنيز) كان مسؤولاً عن المدفعية[2] مع الجيش الذي أرسله محمد علي باشا للاستيلاء على بلاد عسير.

وهذا الجانب ومايتصل به من مختلف الحيل التي هُيِّئَتْ لبعض من تصدوا للكتابة عن البلدتين الطاهرتين جديرٌ بدراسة مفصلة، أما ما أريد الحديث عنه فلا يعدو محاولة عرض ما لبعض أولئك الرحالين الغربيين من دراسات وآراء عما شاهدوه وسجلوه، فأصبح مصدرًا للدارسين الغربيين - بصفة عامة - مما اتجه المعنيون بالدراسات التاريخية من أساتيذ الجامعات في هذه البلاد وغيرهم من الباحثين لتعريبه، مما عرضت للحديث عنه، وكان الأَوْلَى تقديم ما

(١) ص ٢٣١.

(٢) في الحملة العسكرية التي وجهها محمد علي باشا لحرب عسير. وتقدم الحديث عنها.

يتعلق منه بهذه المدينة الكريمة إلّا أنَّ ما سأتحدث عنه من ذالك لم أتمكن من مطالعته إلّا متأخرًا.

يقول رالي[1]- فيما نقل عنه مُعَرِّبًا كتاب «مكة» تأليف (هورخرنيه): أن (باديا) و (بيركهارت) و (بيرتون) و (هورخرونيه) هم القمم الأربعة الذين عرفوا (مكة) وكتبوا عنها للعالم الغربي، ويأتي على رأس هاؤلاء (هورخرونيه) في أبحاثه الاجتماعية عن سكان المدينة المقدسة).

وقد سبق أن حاولت عرض محتويات كتابه فيما تقدم وإن لم تكن تلك المحاولة شاملة إلا أنني أردت منها أن يكون لدى القارئ فكرة عامة عنه، وهنا أريد أن أتحدث بتفصيل عن جوانب من صلة هذا المستشرق بمكة المكرمة وعن موقف معربي كتابه الأستاذين الكريمين منه.

وسأقصر حديثي عن (سنوك) على ناحيتين لهما صلة عميقة بكتابه: إسلامه، وإخراجه قسرًا من (مكة) وعلى عمل الأستاذين الفاضلين محمد بن محمود السرياني، ومعراج نَـوَّاب مرزا، وهما اللذان قاما بنقل كتابه إلى اللغة العربية وتولى ((نادي مكة الثقافي الأدبي) نشره - عام ١٤١١هـ (١٩٩٠م) بطباعة أنيقة واضحة الحروف، جيدة الورق حسنة الترتيب، مزدانة بالصور الجميلة لبعض معالم هذه البلدة الكريمة زمن تأليف الكتاب في (٥٦٤) من الصفحات، هذان المعربان الكريمان الفاضلان قد أوفيا المؤلف حقه فيما تحدثا به من ترجمته في نحو ثلاثين صفحة من المقدمة وإن كانا - وفقهما الله - توقفا حيال موقفه من الإسلام حتى يتضح مافي أوراقه التي لم يسمح بنشرها إلّا هذا العام (أي سنة ١٩٩٤م) - ولم يتم الاطلاع على مافيها بعد مع إيرادهما

(١) ص ٢٢٣ Ralli; "Christians at Mecca", William Heinemann London, 1909.

رأي الدكتور قاسم السامرائي في هذا الأمر في كتابه «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» (بأن اعتناقه الإسلام كان ظاهرًا على الأقل) ولا أعتقد أن الأخوين الكريمين يريان أَيَّة غضاضة في إبداء ملاحظات يسيرة حول ما قرأت فيما كتبا عنه، وعما أوضحاه عن عملهما في ترجمة كتابه في مقدمته الضافية، مع الاعتراف لهما بالفضل إزاء هذا العمل الجليل، واطلاعهما على مصادر عن حياة المؤلف قد لا يتسنى لكثيرين الاطلاع عليه لاسيما من يجهل اللغة الإنجليزية، ومن كان محدود المعرفة بما كُتِبَ حول المستشرقين مثلي، ومع أنني كنت حرصت على نقل كتاب «مكة» فدفعته لمن قام بتعريبه لأنشره ولم أُبَادِر بذالك حتى أثق بصحة الترجمة، ولكن حدث ماحال بيني وبين ما أردت، وكان مما قرأت عن المؤلف البحث الذي كتبه الدكتور عبداللطيف بن عبدالله بن دهيش ونشرته في مجلة «**العرب**»[1]، وماكتبه الدكتور السامرائي حوله، إلَّا أني كنت متأثرًا قبل ذالك بما كان يكرره أستاذنا الشيخ محمد بن عبدالرزَّاق حمزة – رحمه الله – على طلابه في (المعهد) في مكة، وأنا أحدهم عام ١٣٥٢هـ عن حِيَل الرحالين من الغربيين للتوغل في البلاد العربية، ومقدرتهم في تلك الحيل بطرق مختلفة بحيث تنطلي على كثير من الناس، ويمثل لأولئك بصاحبنا الذي استطاع أن يخدع علماء البلد الأمين ووجهاءه، وأكثر المسلمين في بلاد (جاوة) وغيرهم – بالتظاهر بدعوى الإسلام، فترة من الزمن استمرت حتى بعد موته، بل خدع بذالك أقرب الناس إليه كزوجته وقبلها أبوها أحد أمراء (الجاوى) فقد كان بارعًا في تمثيل هذا الدور من الخداع والتضليل[2].

---

(١) س ١١ ص ٩٤٢.

(٢) ونقل الدكتور قاسم السامرائي – «الاستشراق» ١٢٦ – عن رسالة له جاء فيها: تعرفت على الآشيين بمناسبة لم تَتَأَتَّ لأوروبي من قبل، وأعني بذالك على طريقتي الخاصة بالتنكر وإخفاء شخصيتي الحقيقية. إلى آخر ماذكر.

ومهما كُنَّا حَسَنِي الظن حيال ادِّعائه الإسلام – بالدرجة التي تجعلنا نتطلع إلى ما تحتويه أوراقه فإننا لن نستطيع أن نوفِّقَ بين هذا وبين ما اتضح من أفعاله، وما انكشف مما اعترف به هو، وأوضحه مترجموه من بني جلدته وألصق الناس به من اتصافه بصفات تنافي ما ادعى من صدق إسلامه كعراقته وممارسته للتبشير، واشتغاله في التجسس طيلة سبعة عشر عامًا في بلاد (الجاوى) مستشارًا للشؤون الدينية في (وزارة المستعمرات الهولندية) وتحريضه على استعمال الشدة – إلى درجة القتل – للمتمسكين بدينهم من علماء المسلمين ومحاولة خداع السذج منهم بتظاهره بالإسلام حتى كان يضفي عليه بعضهم لقب (مفتي بتافيا) و (شيخ الإسلام) مما لا يتسع المقام لتفصيله[1].

إن كل ما يعنينا من أمره ينحصر في النظر إلى أثر من آثاره مرتبط بجانب من ثقافتنا وتاريخ بلادنا يجمل بنا أن تكون نظرتنا منصبة على مبلغ استفادتنا منه، بعد التثبت من ملائمة ما يحويه هذا الأثر لما تقوم عليه أسس ثقافتنا وأصول معتقداتنا وأخلاقنا بصرف النظر عن الجوانب الأخرى، وهذه النظرة يجب أن تكون شاملة لكل مانروم التزود به من معرفة أَيًّا كان مصدرها، ولاسيما ممن لا نتفق معه في اتجاهاته وأفكاره واعتقاده، ومن هنا فما الذي يعنينا من أمر إنسان ثبت أنه ليس جديرًا منا بحسن الظن بعدما اتضح من سوء معاملته لإخواننا في (أندونيسيا) ممن خدعهم بالتظاهر بالإسلام فما حدث منه في هذه البلاد ينافي ما حاول به – احتيالًا – دخول (مكة) فتم له ذالك حتى انكشف أمره.

وَأَنْتَقِلُ إلى الحديث عن جانب آخر ذي صلة بإخراج الرجل من مكة كُرْهًا – بعد مكثه بها ما يزيد على ستة أشهر – من ٢٢ شباط سنة ١٨٨٥ حتى شهر آب

---

(١) انظر لتوضيح هذه الأمور مقدمة كتاب «صفحات من تاريخ مكة المكرمة» ص ٢٢ وما بعدها وكتاب «الاستشراق» للدكتور قاسم السامرائي ص ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٢.

من السنة نفسها، وهو ما فصل خبره الأستاذان الكريمان في أكثر من ثلاث صفحات بإيراد[1] قصة يبدو في كثير من جوانبها ضعف صلتها به، وقد اتُّخِذَتْ - بالنسبة لإلصاقها به - لمحاولة إخفاء السبب الصحيح لإخراجه بإبراز هذا السبب الوارد في القصة ليضفي مزيدًا من التكتم الذي يحاول (هورخرونيه) أن يظهر به، مادامت غاياته لم تتحقق كلها، وسيمثل الدور الذي ظهر به في (مكة) بصفة أكمل - في (أندونيسيا) إذا صح هذا الاستنتاج.

يورد الأستاذان القصة كما رواها (رالي) الذي ألف عن (هورخرونيه) كتابًا يدل على ماله من سمو منزلة في نفسه[2]، وملخصها: في عام ١٨٧٨م اتفقت (وزارة المعارف) في (فرنسا) مع عالم يدعى (شارل هوبر) ليقدم تقريرًا عن (نجد) وفي العام التالي وصل (هوبر) إلى (تيماء) وقد شاهد حجرًا أثريًّا في سياج أحد الآبار القديمة، ظهر له أنه ذو قيمة أثرية وعاد (هوبر) سنة ١٨٨٣م إلى (تيماء) ومعه مستشرق ألماني يدعى (جوليوس بوتنج) في محاولة للحصول على الحجر ثم قاما بإرساله إلى (حائل) وافترق العالمان، فقصد الألماني (القدس) وعاد (هوبر) إلى (حائل) ثم إلى (جدة) ثم عاد ثانية إلى (حائل) وفي الطريق اغتيل من قبل أدلائه، ويبدو من عودة (هوبر) إلى (حائل) أنه كان قلقًا على مصير الحجر، وربما أوجس خيفة من (بوتنج) الذي كان بعث بملاحظاته حوله إلى المستشرق (نولدكة) في (برلين) مدعيًا أنه الذي اكتشفه، وكان (هوبر) قد أرسل صورة الحجر وملاحظته عنه إلى (رينان) في (باريس).

طالب القنصل الفرنسي في (جدة) بإعدام قاتلي (هوبر) فكتب إلى (والي الحجاز) بهذا الخصوص ولكن (هوبر) قام برحلته رغم معارضة السلطات

(١) المقدمة ص ١٤ و ١٧.

(٢) ص٢٣٣ "Christians at Mecca".

التركية فاعتذر (القنصل) وعمد إلى الحيلة لإحضار (حجر تيماء) فأبدى أحد الجزائريين المقيمين في الحجاز استعداده لإحضار (الحجر) وممتلكات (هوبر) الشخصية مقابل (٥٠٠٠ فرنك) وكان هناك من دفع ضعف هذا المبلغ، وربما كان (هورخرونيه) إذ كان موجودًا في (جدة) وإن كان ينفي ذالك، إلَّا أنه كان يعترف بإرسال كتاب إلى أستاذه (بوتنج) مؤكدًا أن (حجر تيماء) يمكن أن يصل سالمًا إلى (جدة).

لقد اعتقد (القنصل الفرنسي) أن (هورخرونيه) يحاول إرسال الحجر إلى (ألمانيا) فأرسل إليه (هورخرونيه) رسالة مؤكدًا أنه لا ينوي الحصول على الحجر، وليس لديه أيَّة نية في إرساله إلى (ألمانيا) ولقدأعاد الجزائري أشياء (هوبر) الخاصة إلى (القنصلية الفرنسية) إذ كانت ومنها الحجر مودعة أمانة عند ابن رَشِيد أمير (حائل) فسلمها للجزائري مندوبًا عن تلك (القنصلية) في (جدة) ومنها إلى (باريس) حيث أودع الحجر (متحف اللوفر) ويضيف الأستاذان المعربان إلى هذا مما نقلاه-: لقد كانت قصة الحجر سببًا في إبعاد (هورخرونيه) عن المدينة المقدسة، فقد نشرت جريدة «الزمان» (Le Temps) الفرنسية مقالة عن مقتل (هوبر) ومحاولة سرقة الحجر من قبل (هورخرونيه) مزودة بذالك من (لستالوت) القنصل الفرنسي في (جدة) فنقلت الخبر جريدة «استانبول» العثمانية وفيها: أن هولنديًّا يدعى (عبدالغفار) وهذا يحاول الحصول على نقوش أثرية، وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بإبعاد (هورخرونيه) دون أن تخبره بالسبب.

لقد دعي من قِبَل (قائم مقام الوالي) في مكة فأمر بمغادرتها خلال ساعات لحمل أمتعته وَأُرْسِل مخفورًا بجنديين إلى (جدة) غادرها بعد ذالك إلى (هولندا).

هذا ملخص قصة (حجر تيماء) التي ساقها المعربان الكريمان سببًا لإبعاد (هورخرونيه) عن (مكة) وهي بهذه الصورة تختلف عما أورده (هوبر) في مذكراته التي نشرت بعد وفاته[1] من جوانب كثيرة، وعما ذكر (فلبي) عنه في كتابه «أرض مدين»[2] ومما يوضح تلفيقها بل اختلافها بتلك الصورة ومن أوجه الاختلاف:

١- أن (هوبر) أوضح أن الحجر وجد في حائط قصر مما اضطره لإرضاء صاحبه بعد إرضاء أمير تيماء عبدالعزيز بن رَمَّان بما بذل من نقود وليس الحجر في سياج بئر، وقد سمى (فلبي) ذالك القصر بأنه (بيت الطليحان).

٢- أن الحجر لثقله البالغ (١٥٠ كيلًا) وللحفاظ على مايحويه من كتابة وصور استلزم استئجار أربع من الإبل لنقله من (تيماء) إلى (العُلَا) حيث (محطة سكة الحديد) التي نقل بها إلى (دمشق) فـ(باريس) حين العثور عليه بتاريخ ١٩ شباط سنة ١٨٨٤م ولم ينقل إلى (حائل).

٣- ليس نقل ذالك الحجر بالأمر السهل لثقله، حتى يقدر عليه ذالك الجزائري من (حائل) إلى (جدة) ولم تكن مخلفات (هوبر) الأخرى لدى ابن رشيد ليسلمها للجزائري مع الحجر، وإنما كان(هوبر) بعد عثوره على الحجر، أودع في (جدة) جميع تسجيلاته قبل رحلته الأخيرة للعودة إلى (تيماء) كما ذكر (فلبي)[3].

---

(١) نشرت هذه المذكرات في (باريس) في Journal d' un voyage en Arabia (1883 - 1884), puble par la societe Asiatique et la societe de Geographie Sous les auspices du Ministere de L' instruction publique, Paris 1891.

(٢) "The Land of Midian" وعرب خطأ باسم «أرض الأنبياء» أو «مدائن صالح» ولا صلة له بـ(الحجر) الذي يسمى خطأ أيضًا بـ(مداين صالح).

(٣) ونص كلامه: (وقد جمع هوبر) كمية من النقوش قبل مصرعه بشهر واحد على يد مرافقه العربي ولكنه لحسن الحظ كان قادرًا على إيداع جميع تسجيلاته في (جدة) وذالك قبل أن يبدأ رحلته الأخيرة ليزور الجزء الشهير من تيماء). انتهى. ولمعرفة جميع ما يتعلق بآثار تيماء وخاصة ماكتب فوق هذا الحجر يحسن الرجوع إلى كتاب «في شمال غرب الجزيرة» ص ٣٥٠ وما بعدها تأليف حمد الجاسر.

٤- سأوضح في كلمة ملحقة بهذا عن (هوبر) بإيجاز خبر نقله الحجر، ثم عودته في رحلة ثانية وقتله بعد انتهائه منها.

وما أُرَانِي بحاجة إلى الاسترسال في الكلام على جوانب التلفيق لمحاولة إيجاد صلة بين قصة (هوبر) وبين إخراج (هورخرونيه) من (مكة) مما يكاد يجزم مَنْ أدرك ما يتصف به من براعة في التكتم في أموره، أنه لما أحس بانكشاف أمره في دعواه الإسلام، قبل أن يحقق ما يطمح إليه من غايات، حاول إبراز ذالك بما لا يؤثر في مستقبله بالربط بينه وبين صلته بـ(هوبر) فَحَوَّر قصته وسعى لنشرها في الصحيفتين على ذالك النحو.

ويلاحظ أن الأستاذين الكريمين لم يشيرا إلى السبب الذي ذكره الأستاذ الزركلي في «الأعلام» وهو من مصادرهما ونصه[1]: (ويقول: إنه دخل مكة متسميًا بـ(عبدالغفار) ومكث بها في (سوق الليل) خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة، قبل حلول موسم الحج لانكشاف أمره، لكلمات تَفَوَّه بها وكيل قنصل فرنسا في (جدة) في بعض المجالس ورحل إلى بلاد (الجاوة) فأقام بها ١٧ سنة).

أما الدكتور قاسم السامرائي فنص كلامه[2]: (وحاول القنصل الفرنسي في (جدة) الحصول على ما خلفه (هوبر) من متاع ونقوش وجدها، وهنا بدأ الصراع على المسلوب بين (فرنسا) و (هولندا) فدار شك الفرنسيين حول (هورخرونيه) من أن له يد في قتل (هوبر) للحصول على نقوشه وظهر هذا الإتهام في جريدة «الزمان» الفرنسية) إلى آخر ماورد في ملخص القصة.

وأجدني أطلت فيما لا يستحق الإطالة من حيث محاولة (سنوك) إخفاء

---

(١) ٥/ ٢٢١.

(٢) «الاستشراق» ص ١١٦.

السبب الحقيقي الداعي لإخراجه من مكة المشرفة وهو انكشاف أمره من أن إسلامه غير صحيح، فيحسن بي العودة إلى الحديث عن مقدمة المعربين الكريمين بإيجاز، قالا وفقهما الله[1]: (لقد اخترنا أن ننقل بعض نتائج التفكير الاستشراقي إلى لغتنا العربية من خلال ماكتبه أحد كبار المستشرقين عن مركز الإسلام الروحي (مكة المكرمة) أما المستشرق فهو الدكتور كرستيان سنوك هورخرونيه[2] وأما الكتاب فهو «مكة»).

ثم أوردا بحثًا ضافيًا عن (المؤلف وآثاره الاستشراقية) رجعا فيه إلى ماكتبه الدكتور عبداللطيف بن دهيش[3]، ومصادر أخرى عربية وإفرنجية سمياها، ومما ذكرا عنه: ولادته سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) في (هولندا) ودراسته علم (اللاهوت) في (جامعة ليدن) وبعد عام ١٨٧٨م اتجه لدراسة اللغات والآداب (السامية) وفي عام (١٨٨٠م) نال (الدكتوراه) وموضوع رسالته «الحج عند المسلمين» وعين محاضرًا في الدراسات الإسلامية في (كلية تدريب الموظفين لجزر الهند الشرقية) في (جامعة ليدن) وفي عام (١٨٨٤م) نال إجازة دراسية للسفر إلى الجزيرة العربية للتعرف على حياة المسلمين، وتمكن من دخول مدينة (جدة) والمكث فيها زمنًا، ثم دخل (مكة) باسم (عبدالغفار) وبقي فيها حتى تمكن من تأليف كتابه عنها في جزئين: (١) تاريخها (٢) وصف حياة أهلها الاجتماعية، وهو ماتصدى الأستاذان الفاضلان لتعريبه، ومما ذكرا من آثاره جمع عدد كبير

(١) «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» - ص ٧ -.

(٢) أشار المعربان إلى الاختلاف في رسم (هورخرونيه) وأنهما اعتمدا الصورة التي أثبتها الدكتور قاسم السامرائي لمعرفته (الهولندية) وصلته بتلاميذ المذكور، مع أن الأستاذ الزركلي - رحمه الله - رسم الاسم (هرخرونيه) في «الأعلام» اعتمادا على سماعه من الهولنديين.

(٣) «العرب» - س ١١ ص ٩٤٢ -.

من الأمثال العربية[1] والكلمات الدارجة ونشرها مع ترجمتها.

وقد ذاعت شهرته بتأليفه كتاب «مكة» فعرضت عليه (جامعة كمبردج) كرسي أستاذ للغة العربية فرفض ذالك، كما رفض ماعرض عليه من هذا القبيل في (ألمانيا) و (ليدن) وفضل أن يمضي في دراساته الإسلامية في جزائر الهند الشرقية، التابعة لهولندا فعين سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٩م) مستشارًا للشؤون الشرقية الإسلامية هناك، فأقام في (جاوة) سبع عشرة سنة في مقاطعة (آشي) وألف كتابًا كبيرًا حافلًا عنها، وعرف في (جاوة) كثيرًا من الحضارم، استفاد منهم معلومات ضمنها رسالة ألفها عن (حضرموت) وفي عام (١٩٠٦م) أحيل إلى التقاعد فعين أستاذًا للدراسات العربية في (جامعة ليدن) حتى عام (١٩٢٧م) وتوفي سنة ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) عن عمر يناهز الحادية والثمانين عامًا.

ومن مؤلفاته: (١) «الحج إلى مكة» (٢) «مكة» (٣) مقالات وأبحاث نشرت في ستة مجلدات عن الإسلام، وفي اللغة العربية والأمثال والحكم العربية أفرد في مجلد، وقد جمع أغلب مادته أثناء إقامته في الحجاز، ويعد من الدراسات الجيدة للهجات سكان مكة، ونشر أبحاثًا في حدود اختصاصه في كبريات المجلات.

ولقد كان (سنوك) يجيد اللغة العربية، ومع ذالك أمضى في جدة خمسة أشهر يتعلم اللهجة المحلية، وغادرها إلى مكة فوصلها في شباط سنة (١٨٨٥م) ويربط الدكتور قاسم السامرائي بين مجيئه إلى مكة وبين حضور أمين المدني الحلواني مؤتمر المستشرقين الذي عقد في (ليدن) سنة (١٨٨٣م) ومعه مجموعة نفيسة من المخطوطات العربية، باع بعضها في (برل)

(١) أذكر أن أحد موظفي (السفارة الهولندية) قدم لي مجموعة من الأمثال التي جمعها ونشرتها في جريدة «اليمامة».

واشترت (جامعة ليدن) و (جامعة برنستن) بأمريكا قسمًا منها، فحدث تعارف بين الاثنين، ونشر (سنوك) انطباعات الحلواني عن المؤتمر مترجمة عن جريدة «البرهان» القاهرية مضيفًا: من المحتمل أن أمين المدني قد أبان الطريق لدخول (سنوك) مكة، والثابت تاريخيًّا أنه أظهر الإسلام احتيالًا، واستمر يمثل هذا الدور في مكة، وفي (أندونيسيا) طيلة حياته. انتهى.

مكث (سنوك) في (مكة) ستة أشهر ونصف، يختلف إلى مجالس العلماء، باسم (عبدالغفار) فوطد علاقاته بهم وبعلماء (جاوة) و (سومطرة) و(آشي) أما كيف خرج من مكة فيورد الأستاذان المعربان قصة طويلة تتعلق بالحجر الأثري الذي عثر عليه (شارل هوبر) في (تيماء) ونقله إلى (متحف اللوفر) في (باريس) وتقدم الكلام عن هذه المسألة، أما كيف الربط بين تلك القصة وإخراج (سنوك) من مكة فينقل المعربان الكريمان عن المصدر الذي أورد قصة (حجر تيماء) بالصورة المتقدمة عنه: إنه ظهر في جريدة «الزمان» مقالة بالفرنسية عن مقتل (هوبر) ومحاولة سرقة الحجر من قبل (سنوك) فنقلت ذالك جريدة «استانبول» العثمانية وأن هناك هولنديًا يدعى (عبدالغفار) يحاول الحصول على نقوش أثرية، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد (سنوك) فأخرج من (مكة) مخفورًا بجنديين إلى (جدة) وغادرها إلى هولندا).

ويتوسع مُعَرِّبَا الكتاب في الحديث عن إسلام (سنوك) ومع إيرادهما لرأي الدكتور قاسم السامرائي بأن (الثابت تاريخيًّا أن (سنوك) أظهر الإسلام احتيالًا، واستمر يمثل هذا الدور طيلة حياته) مع ذالك أنهيا الحديث بما يفهم منه التردد في الأمر[1]: (وبانتظار مايسفر عنه كشف الوثائق والرسائل الخاصة[2] بـ(سنوك) عام ١٩٩٤م يبقى إسلامه ومايتعلق به مشكلة تثير الجدل بين مؤيد ومعارض).

(١) – ص ٢١ – من المقدمة.

(٢) وقد بعث إليَّ الدكتور السامرائي كتابًا في ٣/ ٥/ ١٤١٨هـ تحدث فيه عن فتح أوراق سنوك بتفصيل مجمله أنها لا تلقي جديدًا على صحة إسلامه أو كذبه.

ثم يشغل حديث المعربين الفاضلين عن التبشير والاستعمار بعنوان (هورخرونيه في الميزان) حيزًا واسعًا من المقدمة من (ص ٢١ إلى ص ٣٢) محاولين إبراز جوانب من موقف (سنوك) حيال ذينك الأمرين، مع الاكتفاء بعرض ماقيل عنه بقولهما: (هذا هو سنوك هورخرونيه كما يصفه الأصدقاء والخصوم نضعه بين يدي قارئنا.. ومن الجدير بالذكر أن هذه المغالطات التي ذكرت لم يرد منها في هذا الكتاب سوى ملاحظتان[1](؟) تتعلقان بمثالية نشر الشريعة الإسلامية واستحالة تطبيقها، وكذالك إبراز خطر العلماء في الثورة ضد المستعمر وإتهامهم بالتعصب ضد كل ماهو غير مسلم، لا نقول ذالك دفاعًا عن هذا الكتاب، وإنما لأنه يرصد حياة الناس العامة، ولذالك جاء الدس قليلًا محدودًا وقد نبهنا عليه).

مجمل أبحاث كتاب «مكة»:

ألف الكتاب باللغة الألمانية وطبع في (لاهاي) في عامي ١٨٨٨ و ١٨٨٩ في مجلدين الأول يتضمن دراسة مفصلة لتاريخ مكة وحكامها في أربعة أقسام:

١- الموقع الجغرافي لمكة.

٢- مكة في العهد الإسلامي - عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والنظم الإسلامية للنواحي الاجتماعية والاقتصادية والإدارية ونشأة العلوم الإسلامية.

٣- تسلسل تاريخي لأهم الأحداث وعلاقة الحجاز بنجد بعد قيام الدولة السعودية الأولى، وماحدث من أحداث بعد ذالك.

٤- مكة في عامي ١٨٨٦ و ١٨٨٧م حيث انتهى من إعداد هذا الكتاب، وقد ألحق بهذا القسم خمسة ملاحق - باللغة العربية - مع ترجمة أربعة منها

(١) كذا والصواب (ملاحظتين).

إلى الألمانية، تحوي وثائق تاريخية مستمدة من تقارير الدولة عن ذالك العهد وخريطة (طبوغرافية) عن (بيركهارت) مع إضافة بعض التصحيحات وخريطة المسجد الحرام في تلك الفترة.

وهذا الجزء قام الدكتور علي عودة شيوخ بتعريبه من اللغة الألمانية وسينشر قريبًا على ماذكر الأستاذ السرياني[1].

أما المجلد الثاني فأقسامه أربعة أيضًا:

١ - الحياة العامة في مكة - الإدارة وحياة السكان وأعمالهم ومختلف حرفهم.

٢ - الحياة العائلية وبناء الأسرة ومايتعلق بذالك.

٣ - الحياة العلمية، الكتاتيب، وطرق التدريس في الحرم، وموضوعات الدراسة والمدارس الفكرية في العالم الإسلامي، والمذاهب المختلفة - مع التوسع بما يتصل بالحرم من حيث نظام التدريس، ومركز شيخ العلماء، والإعانات المخصصة للمدرسين.

٤ - سكان مكة ويفصل الكلام عن (الأندونيسيين) القادمين من جزر الهند الشرقية (الهولندية) في مختلف أحوالهم.

وأُلْحِقَ بهذا الجزء ملحق يحوي أناشيد شعبية مما يردده السكان في مناسبات الزواج وغيره. وأُتْبِعَ الكتاب بمجموعة من الصور لبعض الأماكن والأشخاص من مختلف الطبقات صُوِّرَت بالآلة بمساعدة طبيب مكي، منها ما ألحقه المعربان بالجزء الذي عرباه.

ولم تَفُت المعرِّبَيْنِ الكريمين الإشارة إلى أمرين يتعلقان بالكتاب هما تأليفه باللغة (الألمانية) ولغة المؤلف (الهولندية) واحتواؤه وصف الحياة الاجتماعية في (مكة) خلال اثني عشر شهرًا يومًا بعد يوم، وإقامته فيها ستة شهور، فمن أين استقى معلومات المدة الزائدة على مدة إقامته؟

(١) المقدمة ص ٤٢.

لقد قرر (سنوك) قرر اختيار اللغة الألمانية التي يجيدها كلغته، لتكثير قراء كتابه[1]، وأوضح الدكتور قاسم السامرائي أن الذي زوده بتلك المعلومات هو (رادين أبو بكر) فهي موجودة بخطه باللغة العربية، ومحفوظة مع كتاب (سنوك) مع رسالة من (رادين) ولم يعترف (سنوك) بفضله عليه بكلمة واحدة[2].

وخلص المعربان للحديث عما أثار كتاب «مكة» من اهتمام في دوائر الاستشراق، لاعتماد مؤلفه على السماع المباشر، والمشاهدة الحية، بخلاف ماورد في كتب الرحالين الذين لم يمكثوا في مكة سوى بضعة أيام خلال موسم الحج، فجاءت معلوماتهم لا تعدو معلومات سطحية ينقصها العمق.

وأشارا إلى أن الجزء الثاني من كتاب «مكة» ترجمه إلى اللغة الإنجليزية (هـ. موناهان H. Monahan) قنصل بريطانيا في (جدة) وطبعت هذه الترجمة سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) في (ليدن) فنالت شهرة واسعة واعتمد عليها أكثر من كتب عن مكة في العصر الحديث.

ويسوق الأستاذ محمد بن محمود السرياني قصة طريفة حدثت له في (لندن) سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) عن تعلقه بهذا الكتاب حتى تمكن من مطالعته في (مكتبة جامعة متشغن) بترجمته الإنجليزية، فقرأ فيه الكثير الممتع النافع، وخطر في ذهنه اقتراح الدكتور عبداللطيف بن دهيش في محاضرته القيمة التي ألقيت في (مؤتمر تاريخ الجزيرة) الذي عقد في (الرياض)

(١) مقدمة الجزء الأول من الكتاب بالألمانية ص ٢٢ وانظره ص ٣٦ من مقدمة المعربين.

(٢) «الاستشراق» - ص ١٣٠، أما (رادين) فهو نبيل أندونيسي، نزل (سنوك) في بيته بعد انتقاله من مقر (القنصلية) في جدة، واتصلت الصلة بينهما، وكان (رادين) يجل صاحبه ويصفه في الرسائل التي يبعثها إليه (محبنا ومولانا الشيخ عبدالغفار) انظر (المقدمة) ص ٢٠ -.

جمادى الأولى سنة ١٣٩٧هـ عن (سنوك هورخرونيه) واقتراح تعريب كتابه عن مكة، وثنائه عليه، والإشارة إلى عدم خلوه من الدس على الإسلام، لعدم فهمه على الوجه الصحيح، وخلص الأستاذ محمد السرياني إلى القول بأنه عرض فكرة التعريب على الأستاذ معراج بن نواب مرزا فتحمس لهذه الفكرة فكان الشروع في العمل متشارِكَيْنِ متعاونين حتى أنهياه.

ويأتي الحديث عن عمل الأستاذين الكريمين محمد بن محمود السرياني ومعراج بن نواب مرزا اللذين ترجما هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وهو عمل لا يُنكِر فضله، ولا يَغْمِطُ قَدْرَ القائمين به سوى جاهل بما نحن بأشد الحاجة إليه مما يقال عنا، وماتوصف به بلادنا وبما ينطبع في أذهان الآخرين وأفكارهم عن مختلف أحوالنا، إن حقًّا أو باطلًا، لنتخذ الموقف الملائم له على هُدًى وبصيرة من أمرنا، ولا يذهب بنا سوء الظن، أو الغرور، بأن كل ذالك مما لا نحتاج إليه، وأنه جميعه سيء، فما دمنا لانزال عالة على الغربيين بجميع ما تقوم عليه أسس حياتنا الحاضرة، فما المانع من أن نجد فيما يعرضون لمعالجته من أحوالنا بآرائهم، وبطريقتهم في المعالجة ما يجمل بنا أن نستفيد به، وأن نسير عليه حين نتصدى للدراسة والبحث مما نستزيد به علمًا ومعرفة لنصل إلى حقائق الأمور، فيما لا يؤثر في أفكارنا، أو بما لا يتفق مع معتقداتنا.

إنَّ المعربين الفاضلين قدما لجميع الباحثين في الأحوال العامة لبلدة (أم القرى) من اجتماعية واقتصادية وثقافية وتاريخية وغيرها خلال الفترة التي تصدى المؤلف للكتابة عنها، ولغير الباحثين من القراء ممن لا يحسن لغة الكتاب، مصدرًا حافلًا بالمعلومات التي لا توجد في المؤلفات الأخرى، تفصيلًا وشمولًا، وعمق دراسة، بأسلوب واضح جذاب، يستهوي القارئ ويجذب إليه الاسترسال في القراءة، ولم يكتفيا - وفقهما الله - بتقديم النص

على علاته، بل أضافا - في الهوامش - ماقد يزيده إيضاحًا- أو يُقَوِّم عِوَجَهُ أو يصحح خطأه، أو يلفت النظر للوقوف عنده، لملاحظة ما فيه بحسب إدراك القارئ غير متأثر بالنص!.

١- قد يقال: إن التعريب لم يكن عن اللغة التي اختارها المؤلف لكتابه، وهي (الألمانية) بل عن ترجمتها (الإنجليزية) ومايدرينا أن المترجم تصرف في الكتاب بما يتلاءم مع هواه، فحذف أو حرَّف أو غَيَّر، وملائمة هذه الترجمة وإن وصفها المعربان بأنها: (نالت شهرة واسعة عند قراءة الإنجليزية، واعتمد عليها أكثر من كتب عن تاريخ مكة في العصر الحديث)[1] - إذ من المعلوم أن تلك الشهرة وذالك الاعتماد لايدلان على مطابقتها للأصل، وكثيرًا ما اتُّخِذَ مُخْتَصَرُ أي كتاب مصدرًا مغنيًا عن الرجوع إلى الأصل، متى وُثِق بالمطابقة، أليس من الممكن للمعربين الفاضلين عرض عملهما على من يحسن لغة الأصل، للاستنارة برأيه؟! حقًّا لقد وضع فوق غلاف ترجمتهما: (راجعه د. محمد إبراهيم أحمد علي، أستاذ مشارك بكلية الشريعة - جامعة أم القرى) ومفهوم هذه الجملة لا يؤدي إلى معنى مطابقة ترجمته على لغته الأصلية، ومهما يكن فهذا الأمر لا يؤثر بقيمة الترجمة العلمية من حيث التعويل عليها مصدرًا مهمًّا في موضوعه.

٢- أما التصرف الذي اضطر إليه المعربان الفاضلان إزاء ما وقع في الأصل من استطرادات تؤثر في نسق الكلام، فَقَدَّمَا بعض الفقرات أو أَخَّرَاها، فما دام هذا التصرف لا يؤثر من حيث المعنى فلا أهمية له، ولكن الاجتزاء ببعض التفصيلات عن إيرادها كلها التي منها ما يراه القارئ العربي من الأمور البدهية، هذا الأمر يثير تساؤلًا: ولم لا يكون بعض القراء ممن يرغب أن يقدم له

---

(١) المقدمة - ص ٣٨ -.

النص كاملًا، ففي هذا حفاظ على الأصل وهذا مما تقضي به الأمانة العلمية، وإثبات لطريقة عرض المؤلف لبعض الآراء التي قد تعد من البدهيات عند غيره، مما لا ضرر من ذكره، كالجمل والعبارات التي لا تليق بقداسة (مكة) وحرمتها، فكان أن حذفت، وحبذا لو وضعت أرقام صفحات الأصل بما يقابلها من صفحات الترجمة، مع الإشارة إلى مواضع الحذف ليتمكن المختصون من الباحثين ممن لا يخشى عليهم التأثر بالكلام المحذوف من الاهتداء إلى موضعه بسهولة، كما فعل مُعَرِّبًا «رحلة في بلاد العرب» لـ (بركهارت).

٣- ولعل مراعاة المعربين الكريمين الاهتمام بالمعنى دون التقيد باللفظ، إذ أَوْضَحا أن هدفهما التقيد بالمعنى المراد دون الابتعاد عن عبارات المؤلف- يقصدان المترجم الإنجليزي - ولكنهما على هذا اضطرا لإعادة صياغة بعض الفقرات بغية نقل المعاني، لعل هذا مما يشفع لهما أمام من يرى أنهما قدما للقراء خلاصة وافية عما ألفه (هورخرونيه) عن هذه المدينة، لا جميع مايحويه هذا الكتاب الذي فيه من الطيب المستجاد، ماتم تيسير الاستفادة به، ومن (العُجَرِ) و (البُجَرِ) ما لا داعي لإشغال الأذهان بعرضه، وإن كان يسيرًا.

٤- أما اختيار عنوان للكتاب هو في رأيهما أوضح دلالة في تسمية مؤلفه، فيحسن الوقوف عند هذا إذ الاسم الذي اختاره وهو «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» لا ينطبق على مايحويه الكتاب، الذي ليس تاريخًا بالمعنى المفهوم من كلمة التاريخ، وإنما هو وصف لجميع الأحوال في تلك البلدة الكريمة في فترة غير محددة الزمن، إلَّا في مواضع يسيرة.

٥- وحسنا فعلا من إرجاع النصوص العربية التي استشهد بها إلى أصلها مع إضافة معلومات تتعلق بكثير مما طرقه المؤلف مما له صلة بهذا البلدة الطاهرة.

(شارل هوبر) مكتشف حجر تيماء

لقد دعت مناسبة ذكر هذا السائح الفرنسي أثناء حديثي عن المستشرق الهولندي (سنوك هورخورنيه)[١] وعن قصة اخترعها، محاولًا تمويه سبب إخراجه من مكة المكرمة - دعت تلك المناسبة إلى إلحاق نبذة تتعلق بذكر زيارة (شارل هوبر) لشمال الجزيرة، وكان مما ينبغي التوسع في ترجمته، إلا أنني ليس لدي من المصادر مايمكنني من ذالك، فعولت على ماتحدثت به عنه في كتاب «في شمال غرب الجزيرة»[٢] وللتوسع في معرفة ما عثر عليه من الآثار يحسن الرجوع إلى ذالك الكتاب.

فقد طلبت الحكومة الفرنسية من السلطنة العثمانية التوسط لدى ابن رشيد بالسماح لعالم أثري ليقوم بزيارة شمال الجزيرة لدراسة آثارها، فكان أن تم ذالك، فقام (Charles Huber شارل هوبر) برحلته إلى الجزيرة سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٤م فزار مدينة حايل ثم تيماء وتبوك فيما بين ١٦ شباط (فبراير) إلى أول نيسان(ابريل) من سنة ١٨٨٤م، وزار كذالك (العلا) في تلك المدة، وسجل كثيرًا من مشاهداته فجمعت بعد وفاته في كتاب بلغت صفحاته (٧٨٠) صفحة عدا الخرائط التي بلغت (٢٤) وهو باللغة الفرنسية[٣]، وكان أهم ماعثر عليه (حجر تيماء) وهو حجر يبلغ وزنه (١٥٠ كيلو غرام) وقد وصل إلى تيماء في ١٦ شباط، ونزل عند شخص يدعى عبدالعزيز العنقري، يظهر أنه من رجال ابن رشيد، وعرف أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان. وزاره في بيته مرات، وتناول عنده طعام العشاء، كما دعاه الشيخ فهد المطلق أيضًا، وهو عندما يتحدث عن تيماء أثناء زيارته يقسمها ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر ص ١٨٠ من هذا الكتاب.　　(٢) ص ٣٥٠ - ٣٥٥.

(٣) نشر هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٨٨م باسم (Gournal D, Un Voyage en Arabia - 1883 - 1884- , Puble Par La Societe Asiatique La Societe De Geograbhie Sous Les Auspices Du Ministere De L,In Struction Publique, Paris 1891).

النص كاملًا، ففي هذا حفاظ على الأصل وهذا مما تقضي به الأمانة العلمية، وإثبات لطريقة عرض المؤلف لبعض الآراء التي قد تعد من البدهيات عند غيره، مما لا ضرر من ذكره، كالجمل والعبارات التي لا تليق بقداسة (مكة) وحرمتها، فكان أن حذفت، وحبذا لو وضعت أرقام صفحات الأصل بما يقابلها من صفحات الترجمة، مع الإشارة إلى مواضع الحذف ليتمكن المختصون من الباحثين ممن لا يخشى عليهم التأثر بالكلام المحذوف من الاهتداء إلى موضعه بسهولة، كما فعل مُعَرِّبًا «رحلة في بلاد العرب» لـ (بركهارت).

٣- ولعل مراعاة المعربين الكريمين الاهتمام بالمعنى دون التقيد باللفظ، إذ أَوْضَحا أن هدفهما التقيد بالمعنى المراد دون الابتعاد عن عبارات المؤلف- يقصدان المترجم الإنجليزي - ولكنهما على هذا اضطرا لإعادة صياغة بعض الفقرات بغية نقل المعاني، لعل هذا مما يشفع لهما أمام من يرى أنهما قدما للقراء خلاصة وافية عما ألفه (هورخرونيه) عن هذه المدينة، لا جميع مايحويه هذا الكتاب الذي فيه من الطيب المستجاد، ماتم تيسير الاستفادة به، ومن (العُجَرِ) و (البُجَرِ) ما لا داعي لإشغال الأذهان بعرضه، وإن كان يسيرًا.

٤- أما اختيار عنوان للكتاب هو في رأيهما أوضح دلالة في تسمية مؤلفه، فيحسن الوقوف عند هذا إذ الاسم الذي اختاره وهو «صفحات من تاريخ مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري» لا ينطبق على مايحويه الكتاب، الذي ليس تاريخًا بالمعنى المفهوم من كلمة التاريخ، وإنما هو وصف لجميع الأحوال في تلك البلدة الكريمة في فترة غير محددة الزمن، إلّا في مواضع يسيرة.

٥- وحسنا فعلا من إرجاع النصوص العربية التي استشهد بها إلى أصلها مع إضافة معلومات تتعلق بكثير مما طرقه المؤلف مما له صلة بهذا البلدة الطاهرة.

(شارل هوبر) مكتشف حجر تيماء

لقد دعت مناسبة ذكر هذا السائح الفرنسي أثناء حديثي عن المستشرق الهولندي (سنوك هورخورنيه)[١] وعن قصة اخترعها، محاولًا تمويه سبب إخراجه من مكة المكرمة - دعت تلك المناسبة إلى إلحاق نبذة تتعلق بذكر زيارة (شارل هوبر) لشمال الجزيرة، وكان مما ينبغي التوسع في ترجمته، إلا أنني ليس لدي من المصادر مايمكنني من ذالك، فعولت على ماتحدثت به عنه في كتاب «في شمال غرب الجزيرة»[٢] وللتوسع في معرفة ما عثر عليه من الآثار يحسن الرجوع إلى ذالك الكتاب.

فقد طلبت الحكومة الفرنسية من السلطنة العثمانية التوسط لدى ابن رشيد بالسماح لعالم أثري ليقوم بزيارة شمال الجزيرة لدراسة آثارها، فكان أن تم ذالك، فقام (Charles Huber شارل هوبر) برحلته إلى الجزيرة سنتي ١٨٨٣ و١٨٨٤م فزار مدينة حايل ثم تيماء وتبوك فيما بين ١٦ شباط (فبراير) إلى أول نيسان(ابريل) من سنة ١٨٨٤م، وزار كذالك (العلا) في تلك المدة، وسجل كثيرًا من مشاهداته فجمعت بعد وفاته في كتاب بلغت صفحاته (٧٨٠) صفحة عدا الخرائط التي بلغت (٢٤) وهو باللغة الفرنسية[٣]، وكان أهم ماعثر عليه (حجر تيماء) وهو حجر يبلغ وزنه (١٥٠ كيلو غرام) وقد وصل إلى تيماء في ١٦ شباط، ونزل عند شخص يدعى عبدالعزيز العنقري، يظهر أنه من رجال ابن رشيد، وعرف أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان. وزاره في بيته مرات، وتناول عنده طعام العشاء، كما دعاه الشيخ فهد المطلق أيضًا، وهو عندما يتحدث عن تيماء أثناء زيارته يقسمها ثلاثة أقسام:

---

(١) انظر ص ١٨٠ من هذا الكتاب. (٢) ص ٣٥٠ - ٣٥٥.

(٣) نشر هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٨٨م باسم (Gournal D, Un Voyage en Arabia - 1883 - 1884- , Puble Par La Societe Asiatique La Societe De Geograbhie Sous Les Auspices Du Ministere De L,In Struction Publique, Paris 1891).

١- سوق العلي: للشيخ ثويني بن رمان.

٢- سوق الماضي: للشيخ فهد المطلق.

٣- سوق الحميدة: للشيخ طالب العلي.

ويظهر أنه يقصد محلات البلدة.

ويتحدث في يوم ١٨ شباط بأنه ذهب هو والأمير عبدالعزيز، ومعه مملوكه وشخص آخر للبحث عن الحجر، وأنه طلب من عبدالعزيز أن يأتيه بالحجر بأي ثمن كان، ثم يكتب باللغة العربية: (وحمدًا لله على الحصول على هذا الحجر!!).

ثم يتحدث بأنه بينما كان الأمير عبدالعزيز وشيوخ تيماء الثلاثة موجودين وجدها فرصة ليقول لعبدالعزيز: بأنه يرغب الحصول على ذالك الحجر الذي فوق قصر يعرف بـ (بيت الطليحان) عن طريق هدم الجدار بقوة، ويذكر بعد ذالك أن عبدالعزيز زاره في يوم ١٩ شباط بعد الظهر، وأنه ألح عليه باحضار الحجر، فوافق، وذكر أنه دفع لعبدالعزيز كيسًا من النقود لم يبين مقدار ما فيه، وأن عبدالعزيز بعد ذالك قال: إن الحجر في قصر صاحبه، يحتاج إلى مقابل، ويقول (هوبر): بأنه دفع كيسًا آخر. أما (فلبي) فيقول: بأنه حصل عليه مقابل شلنات قليلة، ولكن (فلبي) لا يفوته أن يقول: إن القوم في تيماء مازالوا يذكرون (هوبر)، الذي كان يدفع مثلي ضعف ماكان يتفق عليه مع السكان مقابل القيام بأي عمل من الأعمال.

ويتحدث (هوبر) كيف أن عبدالعزيز ذهب ومعه مملوكه وشخص يدعى محمود، وأحضروا له ذالك الحجر الذي عبر عن سروره عندما أحضر إليه، ثم بدأ يفكر في طريقة نقله، فهو حمل جمل، وهو بحاجة إلى الحفاظ عليه، لئلا ينكسر أو تنمحي بعض الكتابة أو الصورة أثناء السير، ثم يذكر بأنه طلب من عبدالعزيز استئجار أربع من الإبل لإيصاله إلى تبوك، فتظهر له صعوبة في

ذالك من أجل أن قبيلة الشرارات وقبيلة بني عطية هما أقرب إلى تبوك من تيماء، ومعنى هذا أنه معرض فيما لو استأجر من تيماء لتعرض بعض رجال هاتين القبيلتين أو لقبيلتي الفقير من عنزة وبني عطية الواقعتين بالقرب من تيماء وتبوك.

لا يعنينا من كل هذا إلا التعبير عما قاساه (هوبر) من مشقة للحصول على هذا الحجر، وهي مشقة سببت فيما بعد القضاء على حياته.

لقد زار (هوبر) شمال الجزيرة، إبَّان حكم محمد بن رشيد، وقد زار حايل، واجتمع به وأهدى له سيوفًا وأسلحة وغيرها، وأرسل معه مرافقين لزيارة كل البلاد التي كانت تحت نفوذ ابن رشيد في شمال الجزيرة، ومن بين من أرسل معه شخص يدعى حمود بن مجراد، ولايزال أهل حايل يذكرون السيوف الهوبريات.

سار (هوبر) وتجول في جبال أجأ، بل في شمال الجزيرة، وأنهى رحلته بعد حصوله على حجر تيماء، ونقله إلى (متحف اللوفر) في باريس، بطريق (سكة حديد الحجاز) من العلا إلى دمشق فما بعدها.

وكأن (هوبر) لم تطب نفسه بذالك، فأعاد الكرة مرة أخرى وزار ابن رشيد في حايل، ومعروف أن ابن رشيد يظهر الخضوع للدولة العثمانية التي يظهر أنها هي التي يسرت لـ (هوبر) رحلاته، ولكنه بقدر ما وفق في رحلته الأولى خالفه التوفيق في الثانية، ذالك ان ابن رشيد بعث في أثره رجلا يدعى (ابن شميلان)، من أهل (الحليفة) القرية التي في منطقة حايل من شيوخ قبيلة (بني رشيد)، وأمره بأن يسير بسيره، حتى يصل إلى بلدة العلا منهيًا رحلته، وخارجًا من حدود إمارة ابن رشيد، وحينئذ يقتله ويحرق كل أوراقه، وما معه ماعدا الأشياء التي يحتاج إليها من متاع وزاد ولباس، فهذه لابن شميلان نفسه، وقد نفذ الرجل أمر سيده.

ويظهر أن ابن رشيد كان سيء الظن بالرجل، وأنه كان يخشى من أن يكون جاسوسًا، أو إنسانًا كلف بعمل من شأنه امتداد النفوذ الأجنبي إلى جزيرة العرب.

والغريب في الأمر أن ابن رشيد لم يكتف بذالك، بل أرسل أناسًا يتتبعون المواقع التي علم بأن (هوبر) نقل منها كتابات، وكان مرافقوه عندما يشاهدونه ينقل الكتابة يظنون أنه يكتبها هو في الأحجار، ذالك أنه يستعمل بعض الوسائل التي توضح الكتابة، فنقلوا لابن رشيد أنه يكتب في الجبال وفوق الأحجار، فأرسل أناسًا أمرهم بتكسير كل الأحجار التي فيها كتابة، مما نقله (هوبر).

وهكذا الجهل، فما الذي يضير ابن رشيد لو أمر بحفظ أوراقه وما نقل من آثار أو ابقى على بعض الكتابات التي شاهدها؟!

يحوي حجر تيماء – وهو الآن في متحف اللوفر في باريس – نقشًا من أهم النقوش التي كشف عنها حتى الآن قيمة أثرية، ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وهو مكتوب باللغة الآرامية، وفيه أن أحد الكهنة استقدم إلهًا جديدًا إلى تيماء يدعى (صلم هجم) فانشأ لهيكل الإله المعبود وقفا، وعين له كهانة وراثية، ولقد مثل الإله في زي الأشوريين، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد هذا النصب.

وقد أراح الله بلادنا من الأصنام وعبدتها، وطهرها ببعثه سيدنا محمد – عليه الصلاة والسلام – الذي نسخ الله بشريعته جميع الشرائع، وأيد شريعته السمحة.

***

«رحلة إلى الرياض»

(للسياسي الإنجليزي لويس بلي Lewis Pelly)[١]

تمهيد عن صاحب الرحلة:

قد لا يعني الباحث معرفة العنوان الذي اختاره الرحالة لما كتب عن زيارته لمدينة الرياض، فقد وضع لها عناوين تدل على اتفاق المعنى، وإن اختلفت ألفاظها[٢]، وأنَّ ما يعنيه معرفة الغاية التي حملته للقيام بتلك الرحلة، وهذا يتطلب إيضاح جوانب من أعماله وتصرفاته، قبل قيامه برحلته تلك وبعدها، إذ بدون إيضاح تلك الجوانب تصبح الغاية من رحلة هذا السياسي البارع غير واضحة، وهذا ماحاول الجَمْجمة عنه دون الإفصاح فيما كتب، وتلك سجية ليست غريبة على ممتهني السياسة، ولاسيما من الإنجليز.

فَمن هُو بِلي؟

الرائد بلي كما عربه مترجمو «دليل الخليج» أو (اللفتانت كولونيل) لويس بلي كما وضع الاسم مُعَرَّبًا. إنه ذو أثر بارز في السياسة الإنجليزية في بلدان الخليج العربي، وفي بلاد (عُمَان) و (زَنْجَبَار) بل في كل مايتصل بهذا الخليج، وقد أشار إلى كثير من مواقفه مؤلف كتاب «دليل الخليج» ومن هنا فهو جدير بتفصيل الحديث لإبراز ماهو مرتبط بأثار تصرفاته وقت تمثيله لحكومته البريطانية حين كانت مسيطرة على ذالك الخليج.

(١) تنطق اللام مخففة في (بلي) وإن ظهرت في الصورة الإنجليزية (Pelly) فهي لا تنطق مشددة، ولهذا ينبغي كتابة الاسم (بلي) بلام واحدة، لا كما ورد في كثير من الكتب ومنها «دليل الخليج» بهذه الصورة (بيللي).

(٢) هي كما في تعريب الرحلة: ١- تقرير عن رحلة للرياض. ٢- تقرير عن رحلة للرياض في وسط شبه الجزيرة العربية. ٣- تقرير عن رحلة للرياض، عاصمة الوهابيين في وسط شبه الجزيرة العربية واختار كلمة (رحلة إلى الرياض).

ويظهر أن ابـن رشيد كان سيء الظـن بالرجـل، وأنه كان يخشى مـن أن يكون جاسوسًا، أو إنسانًا كلف بعمل من شأنه امتداد النفوذ الأجنبي إلى جزيرة العرب.

والغـريب في الأمر أن ابن رشيـد لم يكتف بـذالك، بل أرسل أنـاسًا يتتبعـون المواقع التي علم بأن (هوبـر) نقل منها كتابات، وكـان مرافقوه عندما يشـاهدونه ينقل الكتابة يظنون أنه يكتبها هو في الأحجار، ذالك أنه يستعمل بعض الوسائل التي تـوضح الكتابـة، فنقلـوا لابن رشيد أنـه يكتب في الجبـال وفوق الأحجـار، فأرسل أناسًا أمرهم بتكسير كل الأحجار التي فيها كتابة، مما نقله (هوبر).

وهكذا الجهل، فمـا الذي يضير ابن رشيـد لو أمر بحفظ أوراقـه وما نقل من آثار أو ابقى على بعض الكتابات التي شاهدها؟!

يحوي حجر تيماء - وهو الآن في متحف اللـوفر في باريس - نقشًا من أهـم النقـوش التي كشف عنهـا حتى الآن قيمـة أثـرية، ويـرجع تـاريخـه إلى القـرن الخامس قبل الميلاد، وهو مكتوب باللغـة الآرامية، وفيه أن أحد الكهنة استقدم إلهًـا جديـدًا إلى تيمـاء يدعى (صلم هجم) فـانشأ لهيكل الإلـه المعبود وقفـا، وعين له كهانة وراثية، ولقـد مثل الإله في زي الأشوريين، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد هذا النصب.

وقد أراح الله بلادنا من الأصنـام وعبدتها، وطهرها ببعثه سيـدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - الذي نسخ الله بشريعته جميع الشرائع، وأيد شريعته السمحة.

***

«رحلة إلى الرياض»

(للسياسي الإنجليزي لويس بلي **Lewis Pelly**)[١]

تمهيد عن صاحب الرحلة:

قد لا يعني الباحث معرفـة العنوان الذي اختاره الرحالـة لما كتب عن زيارته لمدينة الـرياض، فقد وضع لها عناويـن تدل على اتفاق المعنى، وإن اختلفت ألفاظها[٢]، وأنَّ ما يعنيـه معرفـة الغايـة التي حملته للقيـام بتلك الرحلـة، وهذا يتطلب إيضاح جوانب من أعماله وتصرفاتـه، قبل قيامه برحلته تلك وبعدها، إذ بدون إيضـاح تلك الجوانـب تصبح الغايـة من رحلة هـذا السياسي البـارع غير واضحة، وهـذا ماحَـاول الجَمْجمة عنـه دون الإفصاح فيما كتـب، وتلك سجية ليست غريبة على ممتهني السياسة، ولاسيما من الإنجليز.

فَمن هُو بِلي؟

الرائد بلي كما عربه مترجمـو «دليل الخليج» أو (اللفتانت كولونيل) لويس بلي كما وضع الاسم مُعَرَّبًا. إنه ذو أثـر بارز في السيـاسة الإنجليزيـة في بلدان الخليج العـربـي، وفي بـلاد (عُمَـان) و (زَنْجَبَـار) بل في كل مـايتصل بهـذا الخليج، وقـد أشار إلى كثير مـن مواقفه مـؤلف كتاب «دليل الخليج» ومـن هنا فهـو جديـر بتفصيل الحديث لإبـراز ماهـو مرتبط بآثـار تصرفـاته وقت تمثيلـه لحكومته البريطانية حين كانت مسيطرة على ذالك الخليج.

---

(١) تنطق اللام مخففة في (بلي) وإن ظهـرت في الصورة الإنجليزية (Pelly) فهي لا تنطق مشددة، ولهذا ينبغي كتابة الاسم (بلي) بلام واحدة، لا كما ورد في كثير من الكتب ومنها «دليل الخليج» بهذه الصورة (بيللي).

(٢) هي كما في تعريب الرحلة: ١- تقرير عن رحلة للرياض. ٢- تقرير عن رحلة للرياض في وسط شبه الجزيرة العربية. ٣- تقرير عن رحلة للرياض، عاصمة الوهابيين في وسط شبه الجزيرة العربية واختار كلمة (رحلة إلى الرياض).

ولا يتسع المجال لتناول هذه الجوانب في هذه العجالة التي يراد بها التحدث عن رحلته إلى الرياض بصورة مفصلة، وإنما الاكتفاء بإشارات موجزة.

لقد تحدث مؤلف «دليل الخليج»[1] أن بلي بعد عودته من زيارة الرياض التي حاول من ورائها مناقشة القضايا السياسية فلم يتمكن، تجدد ضغط الدولة السعودية على سلطنة عُمان، وقال بأنه حدث اعتداء خطير من جانبهم، أصاب رعايا الهند البريطانيين في (صُور)[2] ضمن من أصاب، وأنه حدثت إغارة أخرى على ساحل سلطنة عمان، وَوُجِّه إنذار بريطاني إليهم، في أوائل سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٦م) أي في السنة التي توفي فيها الإمام فيصل - رحمه الله - وأُعِدَّتِ الترتيبات في حالة عدم تَلَقِّي جواب للإنذار بأن تقوم البحرية البريطانية بهجوم على ساحل الأحساء، وفي الوقت نفسه يقوم سلطان عمان بمدد بريطاني من السلاح والذخائر بالهجوم على مواقع الوهابيين في (البريمي)[3] ولكن هذه الخطة لم تنفذ نظرًا لاغتيال سلطان عمان على يد أحد أبنائه، وكان العمل الذي قامت به سفينة بريطانية في القطيف والدمام غير كاف[4]، غير أن المعتدين في (صُور) لقوا عقابًا رادِعًا، بعده بدا رغبة السعوديين في قبول الوساطة البريطانية فيما بينهم وبين سلطان عمان، كما تلقى ممثل بريطانيا في الخليج ضمانا كافيًا، فيما يتعلق بالمستقبل.

(١) «القسم التاريخي» - ج ١ ص ٣٨٥ -.

(٢) (صُوْر) هذه من مدن عُمَان على الساحل الشرقي لاتزال معروفة، واسم صور يطلق على أمكنة أخرى من أشهرها مدينة صور اللبنانية، ويقال بأن الفينيقيين وهي أمة بحرية بنت مدنا متعددة على السواحل التي امتد نفوذها فيها، ومنها صور العُمَانية وصور اللبنانية.

(٣) البُريمي: هي المنطقة التي تنازلت عنها الحكومة السعودية لدولة الإمارات العربية المتحدة ولسلطنة عُمان فاقتسماها.

(٤) سيأتي ذكر ما قامت به هذه السفينة، والدمام هي قاعدة المنطقة الشرقية الآن، وكان فيها قلعة لها شهرة تاريخية - انظر الحديث عنها «قسم المنطقة الشرقية» من (المعجم الجغرافي).

وفي موضع آخر من الكتاب يذكر حادثة (صور) بما نصه[1]: وفي سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٥م) طلب بنو جنابة في (صُور) وكانوا ساخطين على حكم سلطان عُمانَ العونَ من أمير السعوديين[2] في البريمي، فأرسل إليهم شقيقه، على رأس فرقة قامت بنهب سوق (صور) بمعاونة بعض جماعات الساخطين من بني جِعلان، خاصة بني جنابة وبني (بوعلي)، وكانت هناك حامية تحتل قلعة المدينة باسم سلطان عُمَان، ولكنها استسلمت، وقد مُنِي أصحاب المحلات من الهندوك[3] من رعايا الهند البريطانية بالخسارة التي بلغت (٢٧٧٠٠) روبية، كما قُتل واحد منهم، وجرح آخر، وبنصيحة بلي لحكومته تلقى ثويني سلطان عمان بعض الذخائر لمهاجمة البريمي، قاعدة السعوديين في الهجوم على عمان، ولكن السعوديين قاموا بهجوم على (سحام) فطردوا رعايا الهند البريطانية، الذين كانوا فيها إلى البحر، وأغرقوا واحدًا منهم، وأشار المؤلف بعد ذلك إلى توجيه إنذار للسعوديين في (القَطيف) بتقديم اعتذار عما حدث في (صور) إلى جانب دفع التعويضات المستحقة عنه، فلم يتلق الإنجليز ردًّا على هذا الإنذار، وفي ٢٦/ ٩/ ١٢٨٢هـ (١١ شباط سنة ١٨٦٦) رست السفينة البريطانية (هاي فلاير) أمام (صور)، وطالبت بني جنابة بأن يدفعوا مبلغ (٢٧٧٠٠) روبية، فامتنعت القبيلة عن الدفع، ففتحت السفينة النيران فدمرت القلاع، وعددًا كبيرًا من السفن مع إحراق جانب من المدينة.

وفي ٥/ ١٠/ ١٢٨٢هـ (٢٠ شباط سنة ١٨٦٦) وصل إلى بلي كتابان من أمير السعوديين، أولهما: مؤرخ في ١٢/ ٩/ ١٢٨٢هـ (٢٨ كانون ثاني) وفيه:

(١) «دليل الخليج» التاريخي - ج ٢ ص ٧٣٦ -.

(٢) استعمل مؤلف كتاب «دليل الخليج» كلمة (الوهابيين) بدل (السعوديين).

(٣) هم الهندوس الوثنيون، ويعرفون باسم (البانيان).

القبـول بوساطة بلي بينه وبين دولة عمان، أما الكتاب الثاني فهو رَدٌّ على الإنذار البريطـاني، لأن الأمير سيرسل مبعوثًـا يناقش الموضوع مع بلي، وأن بني جنـابة كانوا مخطئين في أحداث (صـور)، وهو كفيل بتحصيل تعويض الأضرار منهـم، ثم وجـه الأميـر اللـوم لحكـومة الهنـد لمطـالبهـا المبـالغ فيهـا في (القَطيف) وصوْر)[1] ولقصر المدة التي حددتها لإجابة المطالبة في كلا البلدين.

وفي المحرم سنـة ١٢٨٣هـ (نيسان ١٨٦٦م) وصل إلى (بوشهـر) وفد يمثل الأمير عبدالله بن فيصل الذي خلف أباه منـذ زمن ليس ببعيد، وتعهَّد إلى جانب تقديم ضمانات عامة كثيرة، بالامتناع مستقبلًا عن مهاجمة القبائل المتحالفة مع البـريطانييـن خاصـة قبـائل عُمَان، مـادامت الـزكـاة المفروضـة عليهم تُـدْفَع، وتعهدت الحكومة البريطانية بضمان دفع تلك الزكاة.

وأشار مؤلف كتاب «دليل الخليج»[2] بأنه في سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٦م) في صيف هذا العام وجه الحاكم السعودي في (القطيف) خطابًا للمقيم البريطاني يطلب أن تقوم السلطات البريطانية بطرد حميد بن مجدل من المنطقة، وبإعادة سفينة كبيرة وخمسـة قوارب، كان حميد قد استـولى عليها من (القطيف) وهَدَّد هذا الأمير في حالـة عدم تنفيذ هذه المطالب بالسمـاح لبني هاجر وغيرهـم من قبائل البدو بارتكاب أعمال القرصنة.

(١) كان ممثلـو الحكومـة البريطـانية في الخليج يشجعـون المواطنين لـلاتصال بهم في بعـض شؤونهم الـداخلية ليتخذوا من ذالك ذريعة لتغلغل نفوذهم، ومن ذالك ما أشار إليه صاحب كتاب «دليل الخليج» - ١/ ٤١٦ -: من أن خميس بن عيسى السيهاتي، سلم إلى المقيم البريطاني في (بوشهر) كتابًا بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٦٦ عن تدمير قارب له وقتل سبعة رجال كانوا على ظهره طالبا استحصال التعويض ممن اتهمهم وسماهم.

(٢) «القسم التاريخي» - - ج ٣ ص ١٤٤٦ -.

يبدو أن هذا الطلب أغضب المقيم البـريطاني، لهذا كانت إجابتـه كما يصفها (لوريمر) مؤلف الكتاب (حاسمة نقلها إليه طَرَّادان من بحرية صاحب الجلالة).

ويضيف المؤلف: وفي سنـة ١٢٧١هـ (١٨٥٤م) ارتكب حميـد بن مجدل عمليـة قـرصنة أخـرى، ويبـدو أنـه استقـر في (عَنك)[1] بـالقرب مـن مدينـة (القطيف) فـاستولى على سفينـة كبيـرة، ورفض إطلاقهـا، رغم طلب ذالك من مندوب بريطاني، فصدرت الأوامر بتحطيم السفينة التي يملكها بالقوة.

وفي صفر ١٢٧١هـ (تشرين ثـاني سنة ١٨٥٤م) وصل اسطـول من السفن البحرية الهندية إلى خارج (عَنك) إذ الوصول إلى (عَنك) بحرًا غير ممكن.

وينهي الخبـر بطلب حميـد بن مجـدل الهـدنـة حيث رفعت سفينتـه العلم الأبيض، واستسلمت السفينة التي أحرقها الأسطول.

وأشار إلى وقـوع تحركات بـريطانيـة في ميناءي (القطيف) و (الدمـام) سنة ١٢٧٦/ ١٢٧٧هـ (١٨٥٩) وإلى طـرد محمـد بن عبدالله مـن (الدمـام) سنـة ١٢٧٨/ ١٢٧٩هـ (١٨٦١م)، من قبل القـوات البريطانيـة، مما أثار احتجـاجًا عنيفًا من الوالي التركي في بغداد على أسـاس أن الدمام تابعة لفيصل بك، قائم مقـام نجـد، ولكن المقيم البريطـاني رد بـاستنكـار زعم تـركيا، وتأكيـد حقـوق بريطانيا في التعامل مباشرة مع الدولة السعودية وأميرها.

وفي سنـة ١٢٨٣ - ١٢٨٤هـ (١٨٦٦م) على أثـر انقطـاع العـلاقـات بين السعـوديين والبريطـانيين، وبعـد مقـابلة مع بلي المقيم السيـاسي، تم إرسـال الباخرة (هـاي فلاير) إلى القطيف، فبلغته في اليـوم الثاني من شباط، وحطَّمت

(١) بلـدة معروفـة في منطقة القطيف، وانظر الحديـث عنها مفصـلًا في «قسم شمال المملكـة» من (المعجم الجغرافي).

الحصن الصغير المعروف باسم (برج أبو الليف) كما دمرت سفينةً، وفي اليوم التالي أُرسِلت قوارب لتدمير قلعة (الدمام)، لكنها فوجئت بوجود حامية فيها أكثر مما كان متوقعًا، ولهذا تراجعوا إلى قواربهم بعد قتل ثلاثة رجال وجرح ضابطين وثلاثة جنود. وفي ١٩/ ٩/ ١٢٨٢هـ اليوم الرابع من شهر شباط هجمت السفينة (هاي فلاير) على (الدمام) وقت ارتفاع الْمَدِّ، ومالت القلعة نتيجةً ما أصابها من طلقات الرصاص والقذائف والصواريخ، ولكنها لم تدمر تمامًا.

أكتفي بعرض ما تقدم من الحوادث المتصلة ببلادنا في عهد هذا الممثل البريطاني، متطلعًا إلى أن يقوم أحد الباحثين من أبناء هذه البلاد بدراسة هذه الجوانب التي لا يزال أكثرها مجهولًا حتى من أولئك الذين تعرضوا للكتابة عن العلاقات بين الدولة السعودية والحكومة البريطانية، كل تلك الحوادث وإن وقعت أثناء ضعف الدولة السعودية الثانية، إلَّا أنها ذات ارتباط وثيق بقيام الدولة السعودية الثالثة، فقد كانت الخطط التي ترسم من قبل الساسة البريطانيين ينظر إليها ممن خلفوهم في توجيه السياسة نظرة اعتبار وتأسي.

وأعود للحديث عن رحلة هذا السياسي البليغ الأثر في تصرفاته أثناء تمثيله لحكومته في هذا الجزء من وطننا.

رحلة بلي للرياض:

لقد تطلعت لمعرفة الكثير عن رحلة بلي منذ أن قرأت في كتاب «جزيرة العرب في القرن العشرين» للشيخ حافظ وهبه - رحمه الله - لمحات عنها، ثم ازداد تطلعي حين قرأت عن نشاط هذا الرحالة في أعماله في عُمَان وفي الخليج، وما علمت بتعريب رحلته إلَّا في عهد قريب، حين أبديت لبعض إخواني ضرورة تعريب هذه الرحلة، ففاجأني بأنها قد عربت وقد نشرت من قبل (جامعة الملك سعود) في الرياض، فكان أن اطلعت على نسخة منها.

لقد قام بنقلها إلى اللغة العربية وتحقيقها والتقديم لها الأستاذان الدكتور عبدالرحمن عبدالله الشيخ والدكتور عويضة بن مُتَيْريك حامد الجهني، من قسم التاريخ بكلية الآداب في تلك الجامعة، وتولت عمادة شؤون المكتبات بالجامعة نشرها، فتم ذالك في سنة ١٤١١هـ (١٩٩١م) وبذل المحققان الكريمان جهدًا متميزًا في الرجوع إلى كثير من المصادر للاستعانة بها على ماقاما به من عمل، وبوضع فهارس مفصلة دقيقة شاملة، وبتعريفِ كثير من المواضع الجغرافية، وأنواع النبات وغيرها.

يضاف إلى كل هذا مقدمة ضافية عن الرحالة، رجعا فيها إلى ماكتب عنه مواطن له يدعى (بِدْوِل) (R. L. Bidwll) بعنوان: (Lewis Pelly (1825 - 1895) In: Pellyroport. P. VI) ولم يكتفيا بذالك، بل وقفا وقفات طويلة لمناقشة آراء الرحالة من أمور تستدعي المناقشة، وفي تزييف بعض آراء تستوجب التزييف، فوفر المعربان الكريمان للباحث وللقارئ مهمة الدراسة والبحث.

وها أنا أعرض اقتباسًا عما كتبا المعربان الكريمان، وصْفًا مجملًا لحياة هذا الرحالة واستعراضًا وافيًا لرحلته هذه.

وقد أحاول في عرض هذه الرحلة الخروج من الرتابة المملة الناشئة عن الاقتصار في الحديث على موضوع خاص، فأستطرد في تحديد بعض الأمكنة، وأتوسع فيما أراه بحاجة إلى التوسع مما يتعرض الرحالة لذكره، أو ماهو بحاجة إلى استدراك أو إيضاح، مما لا بُدَّ منه لأكثر قراء هذا البحث.

وهذا الرحالة عاش بين سنتي ١٢٤١ - ١٣١٣هـ (١٨٢٥ و ١٨٩٥م) وشغل أعمالًا عسكرية وإدارية لحكومة الهند المنضوية في ذالك العهد تحت حكم التاج البريطاني، كما عمل في المفوضية البريطانية في طهران، وقضى فترة قصيرة بوظيفة مقيم سياسي في (زنجبار) ثم أرسل إلى الخليج ليكون مقيمًا بريطانيًّا في (بوشهر) وأخيرًا عين عضوًا في البرلمان البريطاني حتى مات.

وكان للمقيمية البريطانية في (بوشهر) إبَّان عمله فيها صلاة قوية في الخليج في حكومة عُمَان وغيرها، مما دفعه للقيام برحلته إلى مدينة الرياض، وإن كانت هذه (المقيمية) التي أصبحت تابعة لوكالة البصرة ذات صفة تجارية، إلَّا أن نشاط وكالة (بوشهر) لم يقف عند هذا الحد بل كانت تسعى لوضع الخطط والتدابير لحماية الطرق إلى الهند من النفوذ الفرنسي في عهد نابليون.

وبعد ذالك أصبح للمقيمية في (أبي شهر) طابعها السياسي الواضح تحت نفوذ حكومة (بومبي).

وقد تمت رحلة (بلي) وهو المقيم البريطاني في (بوشهر) بعد أن أصبح ذا مركز سياسي في المنطقة، وذا اتِّصال نافذ بحكومة الهند، وبالحكومة البريطانية، قام بالرحلة أثناء وجود صراع بريطاني روسي للسيطرة على أواسط آسيا في الوقت الذي كان نابليون الثالث يتطلع لإنشاء امبراطورية عربية تابعة لفرنسا تضم مصر وشبه جزيرة العرب وجانبًا من افريقية، وسعى لتحقيق هذا الهدف كما هو معروف عن صلته بمصر وبلبنان، ويقال بأنه بعث القس اليسوعي (وليم بلجريف)[1] في مهمة غير واضحة إلى مصر، حيث أجرى مباحثات سرية، ثم ذهب للرياض بمظهر طبيب سوري مسيحي، وبعد ذالك بعامين أرسل نابليون (غوراماني Guarmani)[2] مبعوثًا سِرِّيًا إلى منطقتي جبل شَمَّر والقصيم، وقضى هناك وقتًا طويلًا، وذكر (بلي) أن الفرنسيين اتصلوا بالإمام (يعني فيصلًا) أكثر من مرة، وعرضوا عليه المساعدة وبعد هذا العرض كان على الإنجليز معرفة ما أراده الفرنسيون.

---

(١) رحالة فرنسي قام برحلة استغرقت سنة انظر عنه كتاب «اكتشاف جزيرة العرب» - ص ٢٩٨ - له رحلة مشهورة.
(٢) رحالة إيطالي سافر إلى الشام سنة ١٨٥٠ وألف كتابًا عن الخيل، وله رحلة بعنوان «شمال نجد» ترجمت إلى اللغة الإنجليزية.

وتلخيص لما كتبه باحث إنجليزي عنوانه: In: (Pell (1825 - 1895) Pellyreport. P. VI R. L. Bidwell, Lewis) فقد كان لهذا الرحالة الإنجليزي غاية أخرى غير ما يبدو من ظاهر رحلته مما سيتم عرضه فيما بعد. ويضيف معربا الرحلة الفاضلان: وهناك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها وهي متعلقة بمنطقة الساحل العُمَاني. لقد بلغت الدولة السعودية الثانية في آخر عهد الإمام فيصل أقصى قوتها ونفوذها، وخاصة بعد وصول الأمير عبدالله بن الإمام فيصل على رأس جيشه إلى منطقة (البريمي) سنة ١٢٦٩هـ (١٨٥٣م) وقد استطاع أن يثبت نفوذ الدولة في تلك الأماكن بإجبار حكام مسقط وصحار على زيادة الأموال التي يدفعونها للدولة السعودية، واستطاع نائبا هذه الدولة في (البريمي) أحمد ابن محمد السديري وابنه وخليفته تركي بن أحمد أن يحافظا على نفوذ الدولة قوية في منطقة الساحل العماني وفي الأحساء حتى نهاية عهد الإمام فيصل.

في ظل تلك الظروف حين كان للدولة السعودية صوتها المسموع كانت رحلة بلي هذه التي لم يعرها الباحثون اهتمامًا، ولعل ذالك ناشئ أن الإمام فيصلًا توفاه الله بعد مغادرة بلي للرياض بشهور قلائل - في رجب عام ١٢٨٢هـ (كانون أول ١٨٦٥م) وبذالك استشرت الفتن والفوضى من بعد وفاته، مما كان عائقًا للحكومة البريطانية عن تنفيذ توصيات بلي، ولعلها ظلت فيما بعد دَرْسًا واضحَ المعالم لتلك الحكومة بأن السعوديين في الداخل هي القوة المتماسكة التي بإمكانها تنفيذ ما تَعِدُ به من استقرار في المنطقة، ومن هنا كان التعامل معها أكثر جدوى من التعامل مع كيانات صغيرة، وهي السياسة التي طبقتها بريطانيا بحذافيرها عند قيام الدولة السعودية الثالثة.

لن أسترسل في عرض ماساقه المعربان الكريمان في مقدمة تعريب هذه الرحلة لإبراز مالها من قيمة وأثر في السياسة البريطانية - فيما بعد - أو سياق

بعض شواهد من نصوص كلام الرحالة لإيضاح غاياته، مما ورد في تلك المقدمة مما هو أمام القارئ.

ويتحدث مؤلف كتاب «دليل الخليج» عن رحلة بلي إلى الرياض بما نصه[1]: وكان هدفه من هذه الرحلة هو القضاء على العداوة التي سببتها أعمال البريطانيين في قمع تجارة الرقيق، وفي إحباط السياسة الوهابية على الساحل العربي، وكان الرائد بلي يهدف أيضًا إلى إثبات أنَّ وسط جزيرة العرب ليس منطقةً يصعب اقتحامها على ضابط بريطاني يؤدي وظيفته.

ابتدأ هذا الرحالة رحلته من الكويت في شهر رمضان – شوال ١٢٨٢هـ (شباط سنة ١٨٦٥) بعد أن أقام في هذه البلدة أسابيع، منتظرًا إذن الإمام فيصل له بالقدوم، وقد أمضى تلك الأسابيع في ضيافة الشيخ يوسف بن بدر، فتمكن كما يقول من إدراك الحياة الداخلية اليومية في بيت شيخ عربي، ليس ثَمَّةَ إنجليزي راقٍ في مقدوره أن يكون أكثر من الشيخ يوسف بن بدر كياسةً وكرمًا[2]، وقد بلغ الثانية والسبعين من عمره، وتحدث عن كثرة زواجه، وعما يحظى به من احترام من قبل أبنائه الكُثْر، وقد أمضى أسبوعًا معهم في البرية في أحد حصونهم في (الجهراء) يستمتعون بالصيد بالصقور، ومشاهدة أفراسهم الجميلة، ووصف اهتمام الشيخ يوسف بالخيول التي تجلب له في مجموعات من قبائل الجزيرة، ومن نجد، فيجمعها في اسطبلات مُسَوّرة، ويُعِدُّهَا للتصدير إلى (بومبي) مشحونة بحرًا من الكويت، وتحدث بتوسع عن هذا الشيخ العربي الكبير الذي ورد له ذكر في كتاب «أصول الخيل الحديثة»[3] وأنه كان ممن يشتري الخيل، وقد أفاض في الحديث عما شاهده في ضيافته، وعما أُعجب به من أخلاقه وكرمه، وما استفاده منه من معرفة أصول الخيل الحديثة.

(١) القسم التاريخي – الجزء الثالث – ص ١٦٦٥ –.
(٢) «رحلة إلى الرياض» – ص ١٤ – وما بعدها.
(٣) ص ٢٦١ تأليف حمد الجاسر.

سافر بلي في قافلة تضم حوالي ثلاثين بعيرًا مصحوبًا بحرس من الجنود الهنود، وبطبيب (المقيمية) وبعالم في علم طبقات الأرض وعلم النبات، وبمترجم يدعى (لوكاس) مسيحي من أهل الموصل ادَّعَى الإسلام، وتسمى باسم عبدالله، ومجموع من معه نحو ثلاثة وثلاثين رجلًا.

بدأ رحلته في ٢ شوال ١٢٨٢ اليوم السابع عشر من شهر شباط سنة ١٨٦٥ بعد – أن ترك سفينة (المقيمية) في الانتظار في ميناء (العُقَيْر)[1]، وكان طريق الرحلة حسب ما رسم يمر بـ (الوفراء)[2] ثم وَبْرَة[3] (ثبرة قديمًا) ثم بـ (الرُّمْحِية)[4] ومنها إلى (سدوس)[5] حيث كان الهبوط في (وادي حنيفة) إلى (الرياض) وكان الوصول إليها في اليوم السادس من شهر مارس، بعد إحدى عشر يومًا من مغادرة (الكويت).

لقد سجل بلي رحلته بشكل مذكرات موجهة منه إلى المقيم السياسي للحكومة البريطانية.

أبدى في المذكرة الأولى المؤرخة في ١ محرم ١٢٨٣هـ (١٥ أيار سنة ١٨٦٦) أسفه الشديد لما حدث من تأخير، في تقديم تقرير عن زيارته للرياض التي قام بها في ربيع الماضي، وعلل ذلك بأنه بعد عودته بثلاثة أيام أو أربعة وُجِّهَ للنظر في مساعدة سلطان (مسقط) فيما يواجه من متاعب مع السلطات

(١) الميناء المشهور قديمًا بمنطقة الأحساء، انظر عنه مفصلًا، (قسم المنطقة الشرقية) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».
(٢) الوفراء: موضع بقرب الكويت اشتهر بوجود حقل من النفط، وانظر الحديث عنه الكتاب المتقدم ذكره.
(٣) منهل كان يعرف قديمًا باسم (ثبرة) له ذكر كثير في الأشعار القديمة، ويقع في أسفل الصمان ويبعد عن الكويت نحو مئة وأربعين ميلًا إلى الجنوب الغربي، وانظر رسم (ثبرة) و (وبرة) في الكتاب المذكور.
(٤) منهل في وادي الطوقي غرب منهل رماح، قد أصبح الآن قرية تبعد عن رُماح خمسة وعشرين كيلًا، وعن مدينة الرياض نحو مئة كيل شرقها.
(٥) سدوس: البلدة المشهورة منذ القدم سيأتي الحديث عنها.

السعودية، ومن (مسقط) توجه إلى (بومبي) ثم إلى إنجلترا، وبعد عودته بُعِثَ إلى (مسقط) لمساعدة السلطان (الذي كانت حكومته في ذالك الوقت عرضةً لخطر وشيك ممثّل في أن يقذف السعوديون بها في البحر).

وأضاف: ومنذ هذا التاريخ كنت: إما في إبحارٍ غير منقطع، أو منشغلًا في أمور الساحل، وأكثر من هذا، فإن الأهداف التي وضعتها في اعتباري عند زيارتي عاصمة السعودية لم يكن من بينها كتابة تقرير مفصل، وإنما كانت هذه الأهداف كما يلي:

الهدف الأول والأساسي: يتمثل في إبعاد أيَّة مشاعر عدائية، يحملها الأمير (يقصد الإمام فيصل) والتي ترسمت في عقل سموه إزاء إجرآتنا ضد الرق في الساحل الشرقي لإفريقيا وهجماتنا على الساحل البحري، وبذل قُصارى جهدي لاستبدال هذه المشاعر العدائية بعلاقات الصداقة لصالح تنمية تجارة المنطقة، ولأكون قد أدَّيْتُ عملي على نحوٍ مُرْضٍ كمقيم معتمد سياسي للحكومة.

ثم أشار إلى ماكان لرحلته هذه لدى (الجمعية الجغرافية) التي كانت تعتقد أنه ليس في إمكان أي أوروبي الوصول إلى عاصمة نجد دون احتمال فقدان حياته.

ثم وصف ماقام به من تَحَدٍّ ناجح أمام هذا الاعتقاد، وأنه تمكن من أن يعرف كثيرًا عن جغرافية وسط شبه الجزيرة، مما مكنه من رسم خريطة أوضح فيها مسارَ رحلته، ومن تحليل كثير من العينات الجغرافية، وجمع قائمة من أسماء نباتات الجزيرة مصنفة وفق فصائلها الطبيعية، مع وصف للطريق من الكويت إلى الرياض، وللطرق إلى الأحساء والعقير ولمراحل الطريق، وبيان أسمائها من الكويت إلى القطيف، ثم إلى الأحساء.

مع ذكر المسافات بين المناطق والمدن في نجد من ناحية، والرياض العاصمة من ناحية أخرى، والمسافات بينها جميعا وبين ميناء الكويت.

وعما يستخدم في الرياض من موازين ومكاييل وعملة.

وعن أسماء مناطق نجد، وعدد سكانها التقريبي، وعوائدها السنوية، وماتستطيع كل منطقة أن تقدمه من رجال مقاتلين.

وعن تقرير يوضح أسماء قبائل نجد البدوية، وعدد أفرادها بشكل تقريبي، والعوائد السنوية التي يدفعونها للأمير.

ثم شرع في وصف رحلته إلى الرياض موردًا نبذة موجزة عن قيام الدولة السعودية الأولى لمناصرة الدعوة الإصلاحية التي دعا إليها الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - حتى استطاع السعوديون ضم كل شبه الجزيرة تقريبًا سوى اليمن وساحل حضرموت، ثم ذكر تعرض التحالف السعودي للغزو وأنه هُزم على يد الباشوات المصريين مضيفًا قوله: (بينما كنا نحن نهاجم التحالف السعودي على طول ساحل المحيط الهندي والخليج).

وأشار إلى الإنكماش في الحكم السعودي الداخلي بمنطقة نجد، وأن الأمير (يعني فيصلًا) قدم في أيام ضعفه عروضًا ليعقد مع حكومتنا معاهدة ارتباط، لكن عروضه لم تلق قبولًا، ومضى الزمن وخرج الباشوات المصريون من شبه جزيرة العرب، وأصبحنا نحن أنفسنا ليس لنا وجود كقوة برية في الخليج، وأصبح أي جهد يمكن أن تبذله مشيخات الساحل العربي نحو إحباط التحالف السعودي محكومًا عليه بالفشل، بسبب الحزازات والصراعات الدموية بين هذه المشيخات، وكانت سلطنة (مسقط) التي تزعزعت بموت قائدها المقتدر والمعروف لدينا بالإمام سيد سعيد، قد تم تقسيمها وإضعافها بعد ذالك، بسبب التحكيم الذي جرى على أيدينا في سنة ١٢٧٨ - ١٢٧٩هـ (١٨٦١م).

ثم أشار إلى استعادة الدولة السعودية قوتها بما اتصف به فيصل - رحمه الله - من قدرة وحسن تصريف للأمور، وأشار إلى أن ابنه الأكبر عبدالله خدم والده بكفاءة، كقائد عسكري، ثم ضم الأحساء والقطيف وهي منطقتان غنيتان،

وقـد أدى هذا إلى أن أصبح تحـالف السعـوديين قوة على سـاحل الخليج، وتم استرضاء الحكومة التركية بدفع إتـاوة اسمية عن طريق تابع لها هو شريف مكة، كما تم الاتفاق مع قبائل شَمَّر والظفير على سياسة عدم الاعتداء.

ثم ذكر ما للدولة السعودية من سمعة حسنة انتشرت حتى بلغت الهند وبلاد أخرى، وحـذر من أنهم بلغوا من القـوة درجة تمكنهم من بسط سيطـرتهم على منـاطق (مسقط) ومشيخـات السـاحل، مضيفـا: إن هذا تحقيق مـا شـرحـه لي فيصل في لقـائه عن توحيـد المملكـة التي تمتـد من الكويت إلى رأس الحِـدِّ، وربما وراء ذالك.

وأوضح أنه بصفته ممثل بـريطانيا في الخليج، كان عليه أن يقـوم بدور لعقد هدنة بحرية بين المشيخات المستقلـة على الساحل العربي، التي وصفها بأنها (دُمَى) على نَحْـوٍ مَّا، في أيـدي قوة نجـد الـداخلية العظيمـة التي تضغط على طـول الحـدود البريـة لهـذه المشيخـات وتتلقى منهـا مايـدل على التبعيـة[1]، ووصف امتـداد النفـوذ السعودي على خط السـاحل الشـرقي من الكـويت إلى رأس الحِـدِّ بأنـه مـرادف للقـرصنـة على نطـاق واسـع، وذالك في الخليج إلى (عُمان) وفي المحيط الهندي.

ولم يفته التصـريح بما يكمن في العقل العـربي من كراهيـة للإنجليـز، لسوء تصـرفهم في مستعمراتهم وأن العـلاقات بيـن المقيمية البـريطانيـة وأمير نجـد (يقصد الإمـام فيصل) قد قطعت، بينما كـل الجماعات قـد اعترفت به حـاكمًا عادلًا وصارمًا، وقـد حقق نجاحًا في كبح جماح القبائل التابعـة له وكف أيديها عمـا جبلت عليه من نهب وسلب، وكـان راغبًا في أن يغـرس في نفوسهـا حب الاستقرار والتوجيه للعمل في مجالي الـزراعة والتجارة، وقال: ولم يكن يبدو أن

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٢ -.

أحدًا يحب الأمير، وإن بـدا الجميع معجبين به، ويتحدث الناس عنـه بنوع من الرهبة يمتزج فيها الاحترام بالكراهية.

وذكر أنـه وجه مذكرة رقيقـة مهذبة للأميـر، يعبر عن رغبته في تكوين عـلاقة صداقـة، وأنه سعيد بـزيارته في عـاصمته، وقال: وكـان رده مقتضبًا جافًّـا، وهو يعكس بهـذا مـوقفه ممن شغل منصب المقيـم البريطـاني قبلي، ولقـد منحت نفسي فرصة أخرى لمراسلته مؤكدًا لـه أنه رغم إظهار عدم تفهمه لمشاعري، إلَّا أنني مع ذالك أرغب أن أسجل تقـديري لحكمـه العادل بين القبـائل، ومع هذا لم أتلق ردًّا على خطـابي، وقد علمت مـؤخرًا أن الأميـر ذكر أنني إن حضـرت، فلن أقـدم شيئًا سـوى التمنيات الطيبة، ولهـذا فقد قـررت في النهايـة أن أذهب لعقد اجتماع صداقة معه.

ثم ذكـر أنـه عبر الخليج إلـى الكويت، وأن مشـايخ الكـويت قـرروا أن من الأفضل التريث لتوفيـر الجمال المناسبة والمرشـد المناسب ولتحسس الأخبار في نجـد، فنـزل ضيفًا علـى الشيخ يوسف البـدر، وتحـدث عن هـذا الشيخ[1] حديث المقدر له.

وأتى بنبذة موجزة عن خليج الكويت وسكنى شيـوخها القدماء في (أم قصر) ووصف مشاهـداته في مدينة الكـويت ومايسود بين السكـان من صلات، وعن نشاطهم في التجارة، وفي صناعة السفن والقوارب، وعن الحياة الاجتماعية.

بدء الرحلة من الكويت إلى الرياض:

ثم تلقى أخيـرًا من رسولـه العائد مـن الريـاض ملاحظـة مقتضبة من الأميـر بالسماح له بالقدوم ولم يكن ثمة مـرشد أو مندوب، وكان قد ذكر قبل ذالك أنه

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٣ -.

مـر بالكـويت رجل سعودي ذو شأن في طـريقه إلى بغـداد معه ثـلاثة جمـال، تحمل وسم الأميـر فيصـل، وأن لـديـه تعليمـات بأن يقـدم لـه أحـد الجمـال الموسومـة بعلامة الأمير، فإذا ما ضـايقه أحد فما عليه إلَّا أن يظهـر تلك العلامة وساعتها سيلقي البدو السلام عليه من بعد، ولكنه لم يطمئن إلى هذا.

كـان زاد الـرحلـة من الحسـاء المعلب، واللحـوم، وبعـض التمـور والأرز فحسب، وأخذ معه ثلاثة آلاف ريال وصنـدوقين مملوءين بالهدايا، مع عدد من الآلات المستعملـة في القيـاسات المختلفـة لمعـرفـة الطول والعـرض ومـدى الارتفاع وغير ذالك[1] مما يحتاجه المعني بدراسة مناخ الصحراء وجغرافيتها.

وفي ٣ شـوال ١٢٨٢هـ (اليـوم الثـامن عشـر من شبـاط) غـادرت قـافلتـه الكـويت بالاتجـاه إلى (مَلَح)[2] وهـو مورد مـاء مشهور، يقع إلى الجنـوب من مدينـة الكويت بنحو خمسـة وثلاثين كيلًا تقريبًـا، ووصف الموقع بوجـود قلعة فيه، تقع في دائرة الحدود البـرية لهذه المشيخة الصغيرة، وحـولها بعض العيون وزروع قليلة وبعض الأكواخ المؤقتة.

استمر (بِلِي) في وصف رحلتـه التي بدأها مـن الكويت، وكان قـد بلغ موقع (مَلَح) فوصفه، وتحدث عن طبيعة أرضه، وتوسع في هذا، وتلك طريقته في كل موضع مُسَمًّى يمر به، فهـو يُعْنَى عناية تامة بتحديـد الموضع الجغرافي ووصفه وصفًا تامًـا، وذكر ما يشاهـده فيه من معالم، إذ هو في ذالك يُعْنَى بـرسم مصور جغـرافي (خـريطـة) لا ليعـدَّها لـرحلتـه هـذه فحسب، بل لكي تستفيـد منهـا (الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية).

---

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٢٢ -.

(٢) مَلَح: هـو الموضع الـذي حـدثت فيه الـوقعـة بين عبدالله بن فيصل وبين العجمـان في شهـر رمضان سنـة ١٢٧٦، فصل خبرها ابن عيسى وغيره ولا يزال الموضع معروفًا.

وذكـر أنه بعـد مسير سـاعـة ونصف الساعـة من مـوقع (مَلَح) أصبح داخل الحدود السعـودية مبـاشرة، مضيفـا: كان ثَمَّـة جبل مخروطيٌّ يقـال له (وارة)[1] وبقربه مـوضع يدعى (الصَّبِّيَّة) ووصف مـا اعترض طريقه، وماحـدث بينه وبين رفـاقه من حيث اختيـار الطـريق إلى الريـاض، وأنـه لحق به شيخ سُبَيعي كـان اشترى منـه حصانًا في الكويت للسيـر معه، وهو أحد أتبـاع عبدالله بن فيصل، وذو مقـام في قبيلتـه، فـدفع لـه (بلي) خمسيـن دولارًا أي خمسين ريـالًا (فرنسـاويًّا)، أجـرة الاستفادة منـه، وذكر أن ابنا مضيفـه يوسف بن بـدر كانـا قد رافقاه، ولكنهمـا في صباح ٤ شوال ١٢٨٢ (اليوم التـاسع عشر) تركـاه عائدَيْن، معبِّرًا عن سروره بكياستهما وكرمهما.

و (بلي) ليس حسن الظن بمن يلْتَقي بـه في أثناء رحلتـه من العرب، وقـد لا يتورع عن وصف بعضهم بالأشرار، وآخرين بالكلاب، وبالغلظة وبالفضول.

وفي ٦ شوال ١٢٨٢ (اليوم الحادي والعشرين) مـن الشهر المذكور بلغ منطقة (الشَّقّ)[2] بعـد مـروره قبلهـا بمكـان يعـرف بـاسم (لقيط)[3] ثم النـزول في (تَلّـة الكِبْرِيت)[4] في (الشق)، ووقع هذا الاسم محرفًا إلى (دلة الكبريت) - بالدال -.

وفي ٨ شوال ١٢٨٢هـ (اليوم الثالث والعشـرين) مَرَّ بمنطقة (الْـوَرِيعَة)[5]

---

(١) وارة: هو المعـروف قديمًـا باسم (أوارة) وانظر عنـه قسم (المنطقة الشـرقية) من «المعجم الجغـرافي للبلاد العربية السعودية».

(٢) الشق: بالفتح والقاف المشـددة أرض منخفضة واسعة في الجنوب الشرقي من الباطن وانظـر عن تحديدها (قسم المنطقة الشرقية) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

(٣) نقل المعربان الكـريمان عن «دليل الخليج» - ١/ ٣٣ - لقيط: مورد ماء يقع على بعد خمسـة وعشرين ميلا من الساحل إلى الجنوب الشرقي من بلدة الكويت، وتبدأ من هذه النقطة طريق تعبر الصحراء إلى الزلفي في نجد.

(٤) وقع في التـرجمة (دلة الكبـريت) وأرى الصواب (تلـة الكبريت) بـالتاء، وهو مـا يعرف قـديمًا بـاسم (أبرق الكبريت). وله ذكر في أيام العرب القديمة وأشعارهم حيث أسر فيه قيس بن عاصم المنقرى التميمي وانظر (المصدر السابق).

(٥) من المواضع القديمة المشهورة له ذكر في الأخبار والأشعار القديمة وانظر عن تحديده (المصدر السابق).

التي وصفها بقوله: الوريعة بمثابة عَتبة مستهلٍّ لِلصَّمَّان حيث تصبح الأرض تدريجيًّا أكثر تقطعًا، وتكسوها الحصوات المتناثرات، والنَّبكاتُ الترابية، لمسافة تبلغ ثمانية عشر ميلًا، يعني منطقة (الوريعة) ثم الدخول بمنطقة (الصَّمَّان)، ومر ببيوت بعض أبناء البادية، وذكر أنهم أهدوه خروفًا وأحضروا له مهرًا من سلالة العُبَيَّة للبيع، فدفع مقابل ذالك دولارين، أي ريالين.

ويلاحظ أنه وقع اضطراب في ذكر مراحل الرحلة، فقد ورد ما نصه[1]: في يوم ٦ شوال ١٢٨٢هـ (٢١ من شهر شباط سنة ١٨٦٥) غادرنا (وَبرة) وسرعان ما عبرنا تلال (دَلَّة)؟ لندخل منطقة (الشّق) ثم ذكر بعدها بلوغ (دَلَّة الكبريت) في (الشق) والصواب (تَلَّة الكبريت).

والواقع أن (وبرة) في النص المتقدم خطأ، فهو لم يصل (وبرة) إلَّا بعد ذالك بثلاثة أيام، كما يتضح من قوله[2]: وفي ٩ شوال ١٢٨٢ (اليوم الرابع والعشرين من شباط) غادرنا الأراضي التي اتخذناها مستراحا متوقعين أن نصلَ (وبرة) في زمن يتراوح بين الساعة والساعتين. وقال في الكلام على هذا اليوم: سرنا صُعدًا عبر بعض التلال، وفي غضون نصف ساعة انحدرنا إلى الوادي الذي كانت تقع فيه آبار (وبرة).

ولا أدري منشأ هذا الاضطراب، لقد وصف (بلي) (وبرة) بأنها تشكل المركز الرئيس لتجمع القبائل، والمستراح للقوافل المتجهة إلى ساحل الخليج والعائدة منه، وقال[3]: (لقد كان هناك مايزيد على مئة بئر، تتزاحم جميعًا في مساحة تبلغ أربع مئة ياردة مربعة) ووصفها بالقدم[4]، ووصف الطريق الممتد إلى (المجمعة) في (سُدَيْر) أنه يتجه منها جنوبًا بغرب ثم يتجه للغرب، وأن الطريق المباشر للرياض يخرج في اتجاه الجنوب والغرب.

---

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٣٠ -.　　(٢) و (٣) المصدر السابق ٣٤ و ٣٥.

(٤) وَبرة هي (ثَبْرَةُ قديما) وانظر عنها (قسم المنطقة الشرقية) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

كان (بلي) يرغب سلوك الطريق المفضي إلى (سُدَيْر) فحدث بينه وبين دليله مناقشة فاتضح لـه بأن هذا الطريق الذي يرغب سلوكه يتطلب التزود بالماء مدة خمسة أيام، ثلاثة في (الصَّمَّان) ويومان في (الدَّهناء)، وليس لدى القافلة من أواني لنقل الماء، سوى ثماني قِرَبٍ، وليست كلها صالحةً لحفظ الماء.

يضاف إلى هذا أن الطريق يُشبه أن يكون مهجورًا تعترضه تلال رملية هائلة، لا يؤمن للمسافرين الضلال خلال اجتيازها، وهو في الوقت نفسه يزيد على الطرق الأخرى مسيرة خمسة أيام لبلوغ الرياض، وتحت إلحاح مرافقيه تخلى عن الرغبة في سلوك هذا الطريق، وقرر أن يذهب مع طريق آخر، يمر بمنطقة (المِحْمَل) ثم بـ (سَدُوس) التي وصفها بقوله[1]: (كنقطة ملائمة لإخبار الأمير بوصوله قريبًا).

يستطرد (بلي) وهو يتحدث عن مراحل رحلته، في الكلام عن أمور أخرى، أبعد ماتكون عن وصف الطريق، ولعل منشأ هذا أنه لم يسجل هذا التقرير ليكون وصفًا لرحلته، ولكن لتقرير يوجه إلى المعنيين في دولته، ومن الممكن استخلاص ما في هذا التقرير وترتيبه بطريقة تمكن الاستفادة منه، ولهذا يحرص على أن يسجل ما يَعِنُّ له من أفكار في هذا التقرير ولو بصفة غير مرتبة، مادام سيدرس وسَتُسْتَخْلَصُ عناصره فيما بعد.

ومن أغرب ما وقع من استطراداته السيئة قوله[2]: (إن قبائل نجد خلا أربع قبائل (سُبَيْع) و (مُطَيْر) و (عَنَزَة) و (شَمَّر) يقيمون صَليبًا يعلق عليه قماش أحمر، على باب الخيمة، عند إجراء عملية الختان، كدلالة على الدعوة للحفل) ثم يضيف: (ويقول العرب إن (الصَّلَب) قد أخذوا عنهم فكرة الصليب

---

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٣٤ -.　　(٢) المصدر السابق - ص ٤٢ -.

المغطَّى بالقماش، بينما يذكر (الصَّلَبُ) أنهم الأصل في هذه الممارسة، وأن العرب أخذوها عنهم، والفريقان كلاهما يُرْجِعان هذه العادة لزمن ما قبل الرسول ﷺ.

لا أدري على أي أساس أتى بهذه الخرافة، وإن شئت فسمِّها دسيسة، وأغرب مافي الأمر أن يبدو هذا الرحالة السياسي قبل العناية بتسجيل مايشاهد على حقيقته يأتي بملاحظات مبنية على أسس خرافية.

سَأُغِذُّ السير مع القافلة، وإن كان فيما استرسل في ذكره استطرادًا حين ذكر بعض القبائل محاولا النيل من نسبتها للإسلام، بل ذكر ماهو أسوأ من هذا، وأدْعى للسخرية، كحديثه عن أهل (حوطة سُدَير) بأنهم تحولوا من الوثنية إلى (الوهابية) على يد فيصل مباشرة، خلال الأربعين سنة الأخيرة، وأنه توجد هناك حتى الآن كهوف منحوتة في جبل (طُوَيْق) المطل على (سُدَيْر) هي بمثابة معابد لدين (الحوطة) القديم. قال هذا بعد تأكده - بزعمه - من مصادر عربية مسؤولة حسنة الاطلاع، كذا قال!

ثم يضيف: (وأفادت تلك المصادر: أن الناس في (الحوطة) مازلوا يصونون هذه الكهوف، ويمنعونها من انتهاك الغرباء، وقد أكدت لي المصادر نفسها وغيرها أنه بالقرب من بلدة (جُلَاجِل) إلى الشمال قليلًا من (حوطة سدير) يوجد جبل في قمته لاتزال توجد معابد منحوتة لأماكن عبادة قديمة)، ثم ما وصف به ديانة إحدى القبائل الكريمة الصحيحة الاعتقاد بما هي منه بريئة.

وقد علق المعربان الكريمان على هذا بما نصه: (يجب ألا تؤخذ هذه المعلومات عن أهل (سُدير) ومعابدهم الوثنية على ظاهرها، دون التثبت من مصادر أخرى، فقد تكون هذه الأماكن من النوع الذي وجد بين المجتمعات الإسلامية المتأخرة، وخاصة في المناطق المعزولة مثل نجد، حيث يسود الجهل) إلى آخر ما أورداه في التعليق من الإشارة إلى ماذكر ابن غنام مما يتعلق بتقديس بعض الأمكنة.

والواقع أن كل ما ذكره (بلي) هنا لا أصل له، فأهل (حوطة سدير) وغيرهم من أهل نجد ما كانوا من عبدة الأوثان، منذ أن شمل الإسلام بدعوة المصطفى عليه الصلاة والسلام الجزيرة، ثم هم وغيرهم من أهل (سدير) كانوا من أوائل من سارع لقبول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من حيث تطهير العقيدة السلفية، قبل عهد فيصل بنحو مئة عام، بل إقليم (سُدير) نفسه وجد فيه علماء قبل دعوة الشيخ - رحمه الله - ولم يعرف في هذا الإقليم شيء من المعابد الوثنية منذ أن طهره الله بالإسلام، فأكرم أهله باعتناقه.

ومن المعروف أن كثيرًا من الغربيين تطغى العاطفة في كثير من كتاباتهم، حتى هاؤلاء الذين يُعَدُّونَ من الساسة لا تخلو اتجاهاتهم وأفكارهم من محاولة التأثير من قريب أو بعيد بأفكار سيئة تتلاءم مع ما يطغى على عواطفهم من أغراض يسعون ما أمكنهم السعي لتحقيقها بمختلف الوسائل.

لقد اجتازت قافلة (بلي) منطقتي (الصَّمَّانَ) ثم (الدهناء).

وفي ٤ شوال ١٢٨٢هـ (أول شهر أذار سنة ١٨٦٥) بلغت منطقة (العَرمَة) وفي طرفها الشرقي في أحد أوديتها تقع الآبار المعروفة باسم (الرُّمْحِيَّة) حيث مرت القافلة.

وفي صبيحة اليوم الثالث من مارس اجتازت (عُرَيق بَنْبان) وبعده كان الوصول إلى سهل منخفض من تلال العارض حيث تقع مدينة (الرياض) من هذا السهل في اتجاه الجنوب، وهو الاتجاه المباشر للقافلة، ولكن (بلي) كان راغبًا في زيارة بلدة (سدوس) فكان السير وفق رغبته، وكان الوصول إلى سلسلة مرتفعات العارض عن طريق (وادي وَتَر)[1] الذي يقطع هذه المرتفعات من

(١) (وادي وتر) يعرف الآن باسم (وادي صلبوخ) ورد فيه قول الشاعر القديم:

يذودها عن زَغَري بوتر   صفائح الهند وفتيان غُيُرْ

والزَّغري: نوع من التمر الجيد. والغُير: الكثيرو الغيرة لحماية أوطانهم.

جانب إلى الجانب الأخر، قال[1]: (وبعد مسير حوالي ثلاث ساعات وصلنا إلى منطقة صغيرة برقاء فيها جدول صغير، يجري حيث كان أول ماء يجري رأيناه في جزيرة العرب، كانت هناك بالقرب من الجدول رقعة صغيرة مزروعة وبعض أشجار النخيل، وحصن صغير، وكان كل ذالك أول ما نشاهده منذ أن غادرنا الكويت) وهو يقصد بهذا (حُزْوَى) من قرى (سدوس).

وصف سدوس وآثارها[*]:

وفي المساء توقفت القافلة في (سَدُوس) وقد وصف البلدة بأنها مجموعة قرى صغيرة، وجميلة ولطيفة، مجتمعة حول حصن صغير، وزاد من بهجة المكان عدد من بساتين النخيل المتفرقة، وبعض الأراضي المزروعة، ومن ضواحي هذا الحصن يمكنك أن تطل غربًا إلى (المِحْمَل) ومن ثم تعبر بنظرك إلى سلسلة (طُوَيْق) الشامخة، وأنا أصفها بالشموخ من الناحية النسبية، فليس بين سلاسل جبال نجد ماهو شامخ على الإطلاق.

ولم يُعْنَ (بلي) بوصف طبيعة الأرض من الناحيتين الجغرافية والجيولوجية فَحَسْبُ، بل قد يورد بعض لمحات موجزة في وصف الآثار استطرادًا أثناء كلامه كأن يقول[2]: (ولقد وصف لِي رِجَالُنَا خرائب أطلال القلعة المسماة (ثاج)[3] الواقعة إلى الجنوب الشرقي منا على مسافة تبلغ قرابة مسير ثلاثة أيام من (القَطِيف) وقد قرروا أن قلعة (ثاج) كانت في الأيام الماضية المدينة الرئيسة في (الأحساء) وكانت من حجارة بيض ضخام، وأضافوا قائلين: إن

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٦٤ -.

(*) انظر الحديث عنها مفصلًا ص ٢٤١.

(٢) الرحلة - ص ٣٧ -.

(٣) ثاج بلدة لاتزال معروفة انظر عنها (قسم المنطقة الشرقية) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية». وعن آثارها القديمة «العرب» السنة الثانية ص ٦٢٩.

قواعد جدرانها يمكن تتبعها لمسافة ميل أو أكثر طولًا ولمسافة تبلغ حوالى نصف الميل عرضًا، ومازالت الأطلال والمياه إلى جوارها - إلى آخر ما ذكر، مما ينبغي النظر إليه نظرة تثبت وتحقيق، فهو قد ينقل عن بعض مرافقيه وغيرهم أقوالًا خرافية كقوله[1]: وقد جلب لي أحد الجمالة نباتًا ذا جذور بصلية نزع لحاءه، وقد ذكرتني هذه النبتة بمظهرها الخارجي وبقلبها الداخلي وبطعمها بالبندق البرازيلي، وينمو الحُمَّاض بوفرة، ويذكر البدو أن خورشيد باشا قد استجلبه إلى نجد من مصر، وأن أكله الآن شائع بينهم.

لعل ما قدم له مرافقه من نوع البصل البري المعروف باسم (العُنْصل) أما الحُمَّاض فهو معروف في هذه البلاد، منذ أقدم العصور قبل عهد (خورشيد باشا) بأحقاب من الزمن، والغاية من الإشارة إلى هذا عدم الثقة بما ينقل كثير من هاؤلاء الغربيين عن بلادنا.

ثم وصف الأثار القديمة في بلدة (سَدوس) بما يحسن إيراده، إذ هو وصف مشاهدة لها قبل أن تزال، قال[2]: (تقع بالقرب من حصن (سَدوس) رابية مكونة من ركام وأنقاض، ما قد كان مبان عظيمة في زمن مضى، وينتصب على تلك الأنقاض عمود رائع من الحجر المنحوت. لقد كان رأسه مكسورًا، ولكن اسطوانة العمود نفسه مازالت ترتفع إلى حوالي عشرين قدمًا. وكانت الكتل الحجرية مستديرة، حيث كانت كل كتلة متناسقة في الحجم مع حجم العمود، الذي ربما كان يبلغ قطره حوالي ثلاثة أقدام، وكانت القاعدة والقوصرة، والأخيرة مربعة، مقطوعة أيضًا من الحجر، وبحجم مناسب لارتفاع العمود وقطره، لقد كان سكان القرية يستخرجون الحجارة والتربة من الأطلال المجاورة، كما كانوا يأخذونها أيضًا من قاعدة العمود نفسه، وفي الوقت

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٣٦ -.

(٢) المصدر السابق - ص ٦٥ -.

الحاضر فإن أساس العمود مُهَدَّدٌ بالانهيار نتيجة الحفر، لدرجة أن تحريات عدد قليل من الأحجار من القاعدة سينتج عنه سقوط العمود.

يبدو أن الناس لا يعرفون شيئًا عن تاريخ هذا العمود، كما أن الأمير الذي سألته فيما بعد لم يستطع أن يعطيني أية معلومات فيما يتعلق بأصله، ولا يبدو أن هذا العمود قديم، كما كان الملاط في المواضع المثبتة إلى بعضها من الطين، ومع هذا بدا أن الجميع متفقون على أن تاريخه يعود إلى فترة سابقة لعصر الرسول (ﷺ) ومن المؤكد أنه لا يوجد في الوقت الحاضر في نجد من يستطيع تخيل أو تنفيذ بناء رائع كهذا)[1].

لكن هذا الرحالة المسيحي الديانة لحاجة في نفسه لا تخفى على القراء أضاف قائلًا: (لقد كان هناك صليبان محفوران على أسطوانة العمود. فهل يكون هذا بعض بقايا إحدى الطوائف النصرانية، التي دخلت إلى الجزيرة العربية خلال القرون الأولى للمسيحية؟ ومهما كان أصل هذا البناء فإن انتصاب رمز للنصرانية في قلب البراري (الوهابية) يبدو نسبيًا الآن أقل غرابة من وجود هذا العمود المتناسق معماريًا بين مباني نجد. وقد أرفقت رسمًا تخطيطيًا للعمود، رسمه السيد ديوز بعد زيارتنا له بوقت قصير).

كان نزول القافلة بقرب الحصن الرئيس، وقد وصف (بلي) السكان بأنهم كانوا مهذَّبين وهادئين، ولكنهم بدو فقراء جدًا، وأنهم أهدوه بيضًا وطيورًا، وأضاف: ومع هذا فإن (سدوس) تعد في نجد مكانًا مرغوبًا جدًا، وكنت قد سمعت على ساحل البحر عن جمال حدائق نخيلها التي تزهو بها أعطاف الوادي، وعن خضرة المزارع، وترقرق المياه العذبة طول أيام السنة[2].

(١) انظر صورته ص ٢٤٢.

(٢) «رحلة إلى الرياض» – ص ٦٧ –.

كان الاتجاه في ٨ شوال (الرابع من آذار) من (سدوس) والنزول من الهضبة بحيث كانت (الرياض) تقع في اتجاه الجنوب الشرقي، وكان الطريق يمر بمنحدر رافد من روافد (وادي حنيفة) حيث يبلغ أطلال بلدة (العُيَيْنة) ووصف هذه الأطلال، كما وصف مجرى (وادي حنيفة) في هذه المنطقة بتوسع، وذكر بعض الآبار المزروعة في (العيينة) ووصف فلاحيها بأنهم مهذبون، شربوا عندهم حليبًا من الإبل، واستراحوا مدة ساعة، ولكنهم حينما عرفوا بأنهم إنجليز، ذاهبون لمقابلة فيصل، بدا عليهم عدم القدرة على فهم تلك المقابلة.

وبعد السير وانحراف الوادي إلى جهة الجنوب سلكت القافلة شعبة فرعية متجهة نحو الشرق في مدخلها مسجد ومزرعة صغيرة وجدول ماء على الوادي الأصغر، فكان النزول لقضاء الليل.

وفي صباح اليوم الخامس من آذار كان السير صُعُدًا في هضبة (العارض) للاتجاه إلى (الرياض) وكان المرور على مدينة (الدرعية) وأطلالها.

ومما يدل على جهل (بلي) زعمه أن الحكومة الوهابية عند استيلائها على (الرياض) من قبيلة بني دواس (كذا قال) أقامت عاصمتها هناك، هدمت بلدان (وادي حنيفة) القديمة، ومنها (الدرعية) لإجبار السكان على الهجرة إلى العاصمة الجديدة، وعندما هوجموا فيما بعد من قبل الأتراك تركوا الرياض موقتا إلى الدرعية)[1].

وكما سبقت الإشارة إلى أن (بلي) في تقريره عن رحلته لم ينسِّق فيه الموضوعات التي تطرق للحديث عنها، بل كان يورد كثيرًا منها استطرادًا ولو كان ذا أهمية تجدر بأن يفرده بالحديث، ومن ذالك ما ذكر عن الدولة السعودية

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٧٣ –.

في عهد فيصل، من حيث حدودها ووارداتها وتصريف أحوال الرعية فيها، فقد يعرض لبعض ذالك استطرادًا، ولعل من الملائم وهاهو قد أوشك أن يقابل رئيس هذه الدولة الإمام فيصل - رحمه الله - إيراد لمحات مما ذكر في هذه الرحلة، ليكون لدى القارئ إلمامٌ تامٌّ بما تعرض له هذا السياسي الإنجليزي من أحوال هذه الدولة، وإن كان فيما ذكر ليس ذا اطلاع واسع، وإنما الغاية عرض رأي كاتب معاصر في موضوع تاريخي.

يبدو من لمحات وردت في رحلة (بلي) أن الدولة التركية تَدَّعِي بسط نفوذها على بلاد نجد في ذالك العهد، فقد سبقت الإشارة إلى أن فيصلًا - رحمه الله - كان يقدم لشريف مكة مبلغًا من المال استرضاءًا للدولة التركية[1]: (وتم استرضاء الحكومة التركية بدفع إتاوة اسمية رمزية عن طريق تابعها شريف مكة) كذا قال، ويبدو أن الإمام فيصلًا لم يكن مرتاحًا إلى موقف هذه الدولة منه، كما يتضح مما نقل (بلي) عنه أثناء اجتماعه به.

وأشار (بلي) في تقريره إلى امتداد نفوذ الدولة بحيث بلغ بلاد عُمَان، فقد كان سلطان (مَسْقط) يدفع للإمام زكاةً اثني عشر ألف ريال[2]، ولكن فيصلًا لم يرض بهذا، بل طالب أن يكون المبلغ أربعين ألف ريال، ولما امتنع أمر نائبه في (البُريمي) بالتقدم لغزو أراضي (مسقط) ويختم (بلي) كلامه بقوله: (فإن الإمام نفسه هو الذي يمسك بالرسن) وتقدم قوله[3]: (شرفتني الحكومة مرة أخرى بإرسالي إلى (مسقط) من أجل مساعدة السلطان التي كانت حكومته في

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٠ - وقد ذكر الشيخ أمين بن حسن الحلواني في مختصر كتاب «مطالع السعود» أن والده كان مبعوث الشريف ابن عون إلى فيصل لهذا الشأن.

(٢) الرحلة - ص ٤٩ -. والريال هنا هو ريال (ماري تريزا) المعروف بين العرب باسم الريال الفرنسي، وليس فرنساويًا، ولكن الصورة التي فوقه تحمل اسم (فرانسو جوزيف).

(٣) الرحلة - ص ٢ -.

ذالك الوقت عرضةً لخطر وشيك ممثل في أن يقذف الوهابيون بها في البحر) وقال عن عهد فيصل[1]: (لقد وجد الوهابيون فيه زعيمًا أكثر قدرةً على بث الرعب في قلوب البدو، وأكثر قدرةً على دمج المناطق التابعة تحت حكم واحد، يسوده الأمن والرخاء) إلى آخر ماذكر من إخضاع القبائل وضم المنطقة الشرقية إلى حكمه، مما يحسن، بالقارئ، الرجوع إليه في محله.

ولم يفت (بلي) أن يتحدث عن واردات الدولة في ذالك العهد، إذْ أَوْرَدَ بيانًا عن كل ما تدفعه مناطق المملكة في نجد والأحساء والقطيف مجموعه ثمان مئة ألف وستة آلاف ريال[2] عدا ما يستوفى من الحجاج مما يقارب خمسين ألف ريال.

ومهما يكن الأمر فهو لا يعدو عرض ما يمثل نظرة سياسي إنجليزي إلى حكومة هذه البلاد، مما يهتم به من يعنى بدراسة الصلات السياسية الخارجية عنها، لا أَنَّهُ يمثل الواقع من كل وجه.

في مدينة الرياض:

بعد أن ذكر (بلي) مشاهدته - ولعلها عن بُعْدٍ - أطلالَ مدينة الدرعية قال[3]: (وقبل الوصول للرياض بحوالي ساعة مررنا بمنزل ريفي ومزرعة للأمير، وأَعْقَبَ ذالك مباشرة بعد أن سرنا منحدرين رؤية البلدة (الرياض) أمامنا على اليمين منا، لقد بنيت على مرتفع من الأرض، لا يبعد كثيرًا عن (وادي حنيفة) بدت لنا البلدة فسيحة، ولطيفة، دون زخرف أو تجمل، فقد كان بنيانها باللبن، أما ضواحي البلدة فقد أنعشتها حدائق النخيل القليلة والبهيجة.

إن كلمة (رياض) تعني بصيغة الجمع الحدائق أو الأراضي المزروعة، وكان

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٠ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٥١ -.

(٣) نفس المصدر - ص ٧٣ -.

ثمة أراض مزروعة في المناطق المجاورة للرياض، حيث كانت تسقى زروعها من آبار يبلغ غور مياهها سبعة وأربعين قدمًا، وعلى العموم فإن البلدة وضواحيها تَبْدُوَانِ في حالة جيدة، كما يبدو أنَّ هناك من يرعاها).

قابل (بلي) مبعوثٌ خارج البلدة من فيصل مرحبًا، وذهب به إلى بيت معزول، تحفه مزرعة، كان مخصصًا للترك وغيرهم، وبعد قليل جاءه محبوب - سكرتير فيصل - الذي كان موضع ثقته، قال (بلي): وأخبرني أنهم رأوا من الأفضل إبقاءنا بعيدًا عن البلدة لأننا ندخِّن (المخزى) مما قد يعرِّضنا لاعتداء أحد علينا، وقدَّمْتُ رفاقي إلى السكرتير، الذي عبر لي عن المرارة الشديدة التي تشعر بها حكومته، تجاه من سبقني في منصبي بـ (المقيمية)[1].

قدم (بلي) الهدايا التي أحضرها معه لفيصل وابنه، كما قدم هدية أو اثنتين للسكرتير الذي وصفه بأن كان يسيطر عليه رعبٌ شديد من فيصل، وقد خاف أن يأخذ نصيبه من الهدية، بل لقد خاف من مجرد رؤيته للهدايا، إذ نهض فجأة وغادر مسرعًا ذاكرًا أنَّ ثمة جواسيس يراقبونه.

أما محبوب هذا فقد سبق أن تحدث عنه قائلاً[2]: لقد دار الحديث عن خادم الأمير أو حاجبه المدعو محبوب، الذي كان أبوه عبدًا حبشيًّا مشهورًا من عبيد الأمير، ثم إن الأمير أعتقه ووهبه إحدى جواريه، التي كان الأمير قد جلبها معه من مصر، ويقال إنها تنتمي إلى أصول كرجية من (جُورجيا)، كذا قال، وقد ذكر بلجريف الذي زار الرياض في آخر سنة ١٢٧٩ (١٨٦٢) في زي تاجر مسلم طبيب، ذكر أن جوهر كان أحد عبيد الإمام تركي بن عبدالله وقد أُعتِقَ ثم أصبح

(١) يقصد وظيفته السياسية التي كانت تعرف بهذا الاسم.
(٢) «رحلة إلى الرياض» - ص ٥٢ -.

من كبار موظفي الإمام فيصل، وأمين خزانته، أما محبوب فقد كان له نفوذ عظيم في القصر، ولقبه بلجريف بكبير الوزراء، وقَدَّرَ عمره بحوالي ٢٥ سنة[1] ومحبوب هو ابن جوهر المذكور، ويبدو أن (بلي) لم يك مرتاحًا إلى محبوب هذا، إذ لا تَمُرُّ به مناسبة ذكره دون أن ينال منه، فيصفه بالرعونة والفضول الزائدين عن الحد وأنه يبدي تصنعًا أمام سيده مرددا العبارات الدينية، ويضيف إلى ذالك وصفه بأمور أخرى[2] سيئة.

مقابلة الإمام فيصل:

وفي صباح ٩ شوال ١٢٨٢ (اليوم السادس من آذار سنة ١٨٦٥) بعد الظهر بقليل أرسل الإمام من يقول: إنه سوف يستقبله في المكان الذي يصلي فيه في قصره،فذهب ومعه مترجمه، ولم يكن القصر بعيدًا إذا كان يقع في وسط البلدة، وأمامه ميدان واسع، وبعد بوابة القصر يوجد عدد قليل من المدافع القديمة، وكان مكان الاستقبال قاعة سفلية طويلة، ذات أعمدة خشبية كانت قد قطعت بطريقة بدائية، وكان الدخول للقاعة عن طريق سلَّم مُعْتِم، فوجد الإمام جالسًا في صدر القاعة، على سجادة صغيرة جميلة، مسندًا ظهره إلى وسادة، وكان ابنه الأصغر جالسًا بالقرب منه، وكان سكرتيره محبوب موضع ثقته، يجلس على مسافة منه في مكان منخفض عن ذالك المكان الذي يجلس فيه قال: وعندما اقتربت من الإمام نهض بصعوبة، وصافحني وتحسَّس كل يدي ببطءٍ، ثم طلب مني الجلوس بالقرب منه على السجادة، لقد كان كفيف البصر تمامًا، لكنَّ ملامح وجهه كانت عادية، تمثل الهدوء والصرامة، ورباطة الجأش والطمأنينة.

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٥٢ - حاشية.
(٢) نفس المصدر - ص ٧٩ -.

لقد كان يبدو متجاوزًا السبعين من العمر، يرتدي ملابس فاخرة تنم عن ذوق، إذ كان يلبس فوق الكوفية العربية عمامة مطوية من الكشمير الأخضر، لقد كان حديثه ينساب انسيابًا حسنًا كما كانت عباراته هادئة وموزونة، لقد كان جليلًا إلى درجة قريبة من الوداعة، ومع هذا تشعر أنه يمكن أن يكون قاسيًا عديم الرحمة، وبعد تبادل التحيات عبرت له عن سروري لمقابلته، فأجاب مشيرًا إليَّ – ولكن بعبارات أقل صراحة من عبارات سكرتيره في الليلة السابقة-: بأنني أعلم أن الرياض مكان غريب بالنسبة لزائر أوروبي، فلم يسبق أن سُمِحَ لأوربي بدخولها[1]، ولكن الأمور ستتيسَّر بسبب ثقته بي.

وقال (بلي): لقد أكدت له بأنني قمت بعدد من الزيارات لحكام (آسيا) ولا أشك في أن مقابلتي له سوف تحقق قدرًا مساويًا من النجاح لما حققته زياراتي، وسوف يزول أقلُّ قدر من عدم الارتياح مما خامر ذهنه بسبب أحداثٍ سابقةٍ، ثم أثنى (بلي) على الحكومة البريطانية وأنها تود أن ترى جميع سكان الجزيرة يعيشون في سلام ورفاهية تحت رعاية حكامها، وأن فيصلًا أجاب: إن علاقاته قليلة مع الدولة الأجنبية بالرغم من أن له وكلاء في كل بلد، يطلعونه على كل مايحدث من أمور، ونقل عنه قوله: (هذه الجزيرة العربية من (الكويت) إلى (القطيف) إلى (رأس الخيمة) إلى (عُمَان) إلى (رأس الحِدِّ)[2]، وما وراءه هي التي أعطانا الله) مضيفًا دائمًا وهو يتكلم عن نفسه بصيغة الجمع.

كان مِمَّا نقل عن فيصل: أَنَّ الأتراك قد استولوا على بعض المناطق التابعة له في وقت سابق، وهو لا يخاف منهم، ولكنه سأله: (إذا كُنَّا نميل إلى مساعدته

(١) ولكن وليم بلجريف سبق (بلي) إلى زيارة الرياض في أواخر عام ١٢٧٩ (١٨٦٢) وهو مُتَنكر بزي تاجر مسلم طبيب انظر «اكتشاف جزيرة العرب» – ص ٢٩٨ – وما بعدها.

(٢) رأس الحد: هو ملتقى خليج عمان بالبحر.

في محاربتهم أو محاربة غيرهم)، ولكن (بلي) تملص بالقول: (ينبغي أن لَا نسمح لأنفسنا بالمساعدة على العدوان).

من الصعب الاطمئنان إلى أن ما نسب (بلي) إلى فيصل من أقوال كلها صحيحة من جميع الوجوه، وخاصة ماله ارتباط بسياسة فيصل الخارجية، فـ(بلي) لا يحسن العربية لينقل الكلام بنصه، وأنَّ ما نقل هو ما قاله له مترجمه وهو ليس من أهل هذه البلاد ليحسن لهجة أهلها، يضاف إلى هذا أن (بلي) أورده في تقرير موجه لحكومته، وهو يود أن يبدو أمامها بما يحب، ثم بعد ذالك أتت الترجمة العربية لكلام (بلي).

لقد حاول فيما تناول بحديثه ما يتصل بالحكومة الإنجليزية وأن أحد أصدقاء فيصل من باشوات مصر وصفها بأنها من الناحية السياسية منظمة، وأنها أقلُّ مخادعة من الحكومة الفرنسية، مضيفًا لما نسب إلى فيصل قوله: إن هناك فرقًا بين الدين والسياسة، ففي الدين الجميع أعداء، أما في السياسة فهناك استثناءات، كذا نقل وهذا على جانب من الحق.

وعن صلة فيصل بالحكومة الفرنسية زعم (بلي) أن فيصلًا قال: بأن سفينة حربية فرنسية قدمت إلى (مَسْقط) وعرضت على السلطان مساعدة في حربه معنا، ولكن (بلي) أكد له عدم علمه بهذا، مع اعتقاده بأن هذه المعلومات خاطئة. وأضاف فيما نسب إلى فيصل بأنه تلقى رسالة من سنوات من سفينة فرنسية تعرض عليه مساعدة بحرية أو برية فلم يُجِب على هذه الرسالة. وإن من سنتين وردت إليه رسالة في الموضوع نفسه مع طلب إرسال الجواب للقنصل الفرنسي في (دمشق) فأجاب شاكرًا موضحًا أنه ليس في حاجة إلى أية مساعدة.

أما صلة فيصل بالدولة التركية فكما سبقت الإشارة إلى تأثره منها، وأعاد (بلي)[1] القول فيما نسب إلى فيصل: إذا كنا سنساعده في حربه مع أعدائه، أو

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٧٩ –.

إذا كنا نميل مع تحالف ضد تركيا قال (بلي): فضحكت وكررت القول بأنه يسعدنا أن نرى رعيته يتاجرون في المناطق التابعة لنا، ولكننا لا نستطيع الاعتداء.

وكان مما أثار (بلي) الحديث حوله (عُمَان) ومما نسبه إلى فيصل من أن السلطان السابق السيد سعيد يفهم الأمور ويسير وفق الاتفاقات، ولكن ابنه ثويني أصبح وضعه مختلفًا إلى آخر ماتحدث عنه.

والغريب حقًّا موقف (بلي) من هذا الأمر الذي يمثل فيه حكومته بصفته المقيم السياسي في الخليج مع قوله[1]: لقد بدا من الواضح أن الإمام كان يتوقع مني أن أشير إلى النزاع مع مسقط، وإلى اقتراح السلطان بأن أقوم بالتحكيم في هذا النزاع، لكن اعتبرت نفسي غير مُلِمٍّ إلمامًا تامًّا بتفاصيل المسألة، مما يجعلني غير مؤهل للمقامرة بإبداء أية ملاحظة، وأن ما يقال في هذا الشأن يجب أن يكون تحت إشراف الحكومة البريطانية وموافقتها، مع أنه يعترف في موضع آخر بما بين حكومة فيصل وبين سلطنة عمان ومشايخ دول الخليج من صلات قائمة على تراض واتفاق، إذ يقول[2]: إن التحالف الوهابي يسيطر على الساحل الغربي للخليج وساحل عمان، ويتلقى الزكاة سواءً أكانت عينية أو نقدية من شيوخ (البحرين) و (أبو ظبي) و (دبي) و (أم القيوين) و(عجمان) و (الشارقة) و (رأس الخيمة) وهو يقيم مركزًا متقدمًا في (البريمي) التي تفصل بين هاؤلاء الشيوخ وسلطنة مسقط، التي تدفع له الزكاة أيضًا. كذا قال، وفي عهد هذا المقيم لم تتورع حكومته مما لا بُدَّ أن يكون بمشورة منه من مهاجمة سواحل الحكومة السعودية - كما تقدم.

ولكنه حينما يريد منه سلطان مسقط التدخل بالسعي لإصلاح هذا الأمر لحل هذا النزاع يقف هذا الموقف، فكأنه يود توسيع هوة الخلاف وتقويته، وتلك سياسة

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٨٢ -.

(٢) نفس المصدر - ص ١٠٧ -.

حكومته في ذالك العهد مع حكام البلاد العربية سيرًا على نهج (فَرِّقْ تَسُدْ).

تلك أهم الموضوعات التي تعرض (بلي) للحديث عنها في تقريره[1].

وعندما سأله الإمام فيصل: هل لديه أي موضوع يجب أن يبحثه على انفراد؟ أجاب بالنفي، وأن هدفه من الزيارة الرغبة في توثيق التعارف الشخصي، إذ كل واحد يرمي إلى هدف مشترك هو حفظ السلام في منطقة الخليج، ولهذا يجب الاحتفاظ بصداقة مشتركة.

وبعد أن استرسل في هذا الحديث أضاف: ويظهر أن الإمام كان مرتاحًا لكل ما قيل فقد أنهى المقابلة قائلًا: إن هذه الزيارة كانت مجرد مقابلة رسمية وأنه يأمل أن أعود مرة أخرى بمفردي لإجراء محادثة خاصة.

فيصل يسعى للاستفادة من وسائل الحضارة الحديثة:

لقد عاد (بلي) في صباح اليوم الثاني لزيارة الإمام بعد تحديد الموعد ومعه مترجمه فقط قال: وعندما وصلتُ لم يكن الإمام قد أكمل ارتداء ملابسه، فاستقبلني السكرتير، ثم أفاض في حديث غير حسن عنه كعادته حين يذكره مضيفًا[2]: وبعد قليل فتح باب بالقرب من السجادة، وظهر الإمام معتمدًا على جاريتين، وعندما تخطى العتبة تسلمه عبدان لزم كل واحد منهما أحد جنبيه وقاداه إلى مكان جلوسه، ووصف هذا الاستقبال بأنه كان وديًّا جدًّا، وأن فيصلَ كان متفهمًا حُرَّ التفكير، تحدثنا في موضوعات شتى فمن بين موضوعات أخرى تحدثنا عن مشروعنا (البرقي) الجديد، لقد قال: إنه يخشى أن نواجه مشكلات كثيرة مع العربان، وأضاف: إنه منذ سنوات حاول (عباس باشا)[3] في مصر أن

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٧٧/ ٧٨ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٧٩ -.

(٣) هو عباس بن طوسون بن محمد علي الذي تولى حكم مصر بعد عمه إبراهيم وكان ممن هيأ لفيصل وابنه عبدالله وأخيه جلوي وابن عمهم وسيلة الهرب من الأسر من مصر وله بفيصل صلة صداقة.

ينشئ اتصالًا بريديًّا مع نجد، لكنه عندما وجد أن مضايقات القبائل، وأضرارهم لا تنتهي أُجْبِرَ على التخلي عن محاولته تلك،مضيفًا: رغم أنه في البداية قد أوقع بالعربان المعتدين أشد العقوبات، وبعد ذالك أفاض في الحديث عن إدراك فيصل للأحوال الطبيعية والسياسية لشبه الجزيرة العربية ورغبته في تحضير القبائل ونقلها إلى حياة الاستقرار وقال[١]: وفيما بعد أمر بإجراء اتصالات معي عن طريق سكرتيره بأنه سيكون مسرورًا إذا أمكن جلب بعض الآلات إلى ضواحي العاصمة، لرفع المياه، مما هو أفضل من استعمال الطريقة الشائعة في رفعه، فأكدت له أنني سأكون سعيدًا في أن أسهم في عمل حكيم كهذا، وقد تمَّ الاتفاق في النهاية على أن أقيس عُمْقَ الماء في الآبار، وأن أحصل له على زوج من المضخَّات المطورة، أو أية آلات أخرى، وقد رصدت وزارة الخارجية البريطانية مئتين وخمسين جنيهًا لشراء مضخَّات لتقديمها للإمام، إلا أن الأحداث اللاحقة حالت دون تقديمها في وقتها، مضيفًا: لكن قد تبقى حقيقة الفوائد العظيمة ممثلة في ادخال الطاقة المائية المطورة إلى نجد.

ونقل أن الإمام اختتم كلمه بقوله: إنَّ بلادنا مهما كان بها من عيوب فهي بلادنا، وقد تستغربون كيف نعيش هنا هكذا منقطعين عن بقية العالم، واسترسل في وصف جوانب من سياسته الداخلية التي وصفها بالشدة والصرامة ولكنها عادلة.

وطلب (بلي) من فيصل السماح له برؤية سلالة خيله، فأجاب: بأن كل الخيول ترعى في (السَّيْح) في (الخرج) في ذالك الوقت، وأشار بأنه سمح له بالذهاب إلى أي مكان في البلاد، وعبر عن رضاه عن هذه الزيارة، وأنه يرجو أن تفتح صفحة جديدة من الصداقة قال: وقد أرسلت إليه بندقية وساعة ذهبية

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٨٠ –.

وبعض الأقمشة من الجوخ الأحمر، ومسدسًا مذهبًا، وسيفًا مصنوعًا حسب الطريقة العربية ويبدو أن السيف قد حاز الإعجاب أكثر من أي شيء آخر.

عاد (بلي) إلى منزله وزاره سكرتير الإمام الذي وصفه بأنه يضع المعوقات في طريق رحلته إلى (الخرج) بل توسع في الحديث إذ قال: لقد أدرك أنه حدث في هذا اليوم ما سبب في انقلاب مكانته في الرياض إلى حالة سيئة تَذَكَّرَ معها أنه وهو في الكويت حُذِّر بشدة من المكث في الرياض أكثر من يومين، مع وصف أهلها بصفة منفرة[١]، في كلام لا يمكن تصور حدوثه، ولكنه مما أثر في نفس (بلي) مما دفعه للقول: لقد كان كثيرًا مما رأيت وسمعت أثناء ذالك اليوم ينذر بأن هناك تغييرًا يجرى الآن، ثم نسب هذا إلى من يحيط بفيصل، الذي وصفه بالوعي والخبرة، ولكنه كان كفيفًا وكان يعتمد على سكرتيره في كل ما يتعلق بتسيير الأمور حوله، ومن المحتمل أن يصور هذه الأمور لتسير في اتجاه تعقيدات خطيرة.

وكان مما قال (بلي): إنَّ السكرتير أخبره بأن الإمام قد فوضه لعقد معاهدة، يستثنى بمقتضاها عرب (عُمَان) و (صور) والخليج مما نَدَّعيه لأنفسنا من حَقِّ مصادرة شحنات الرقيق، مع الحصول على التعويضات التي قدمناها لسلطان (زنجبار) عندما عقدنا اتفاقًا معه، مما فُهِمَ منه اعترافنا بتجارة الرقيق، وأن هذه المعاهدة تلتزم بمنع عرب عُمَان والخليج من النهب أو إلحاق الضرر بمنشآتنا (البرقية) ولكن (بلي) يقول: بأنه رفض هذا الطلب رفضًا باتًّا، ونال من الرجل كعادته.

لقد توقع حدوث تعقيدات نحو رحلته كتعرض أمتعته للتفتيش أو وقوع حادثة له مما دفعه لإحراق صورة للأمير ومخطط لبلدة (الرياض).

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٨٣ –.

اتجه في اليوم الثامن مع مترجمه إلـى قصر الإمام لوداعه، بعد أن صمم على السفـر، ووصف الإمـام بأنه كـان ودودًا وصـادقًا من حيث رغبتـه في العمل في سبيل السـلام العام، وذكـر أنـه اقترح تمـديد فتـرة الـزيارة إلَّا أنَّ (بلي) أجـاب بتصميمه على الرحيل وقال[1]: بأن الإمام أسهب في الحديث عما جلبته زيارته لـه من سرور، وأنـه رغم معيشته الآن في الصحـراء، إلا أنه مع ذالك قـد شاهـد الحياة المتحضرة، فعندما كان أسيـرًا في مصر كان يرى ممثلي (أوربا) الأجانب عندما يـزورون الباشا ويعجب لسلوكهم المهذب، وتطرق إلى جـوانب لها صلة به، وأنـه أهداه فرسين كـان رغب في إهداهما لباشـا بغداد، وهما مـوجودان في (القطيف) في انتظار الشحن، وغادر القصر ليبدأ رحلته لمغارة (الرياض).

العودة من الرحلة:

أصيب (بلي) بخفة من أثـر ما تخيله بـالنسبة إليه غير طبيعي، وتـوهم أشياء قد لا يكون لهـا حقيقة، مما دفعه إلى الاستعجال في العـودة محاذرًا أن يحدث له مالا يَحْمَدُ عقبـاه، مما دفعه إلى إتلاف أشياء كانت ثمينـة لديه، قال[2]: (من المحتمل جدًّا أن يصـور هذا الهجين الطـائش والحقود الأمور لتسيـر في اتجاه تعقيدات خطيرة، ولهذا قررت ألَّا استمر في التزلُّج على جليد بالغ الرقة كهذا).

كان وصول (بلي) إلى مـدينة الرياض في ٨ شوال ١٢٨٢هـ اليوم الخامس من شهر آذار سنـة ١٨٦٥ وغادرها في آخر اليـوم الثامن منه، ولم يفته أن يـذكر أنه أثناء التحرك للمسيـر قدم إليه رجل معه ساعة الإمام الـذهبية، وسَمَّى نوعها، وقال: إن السـاعة تعطلت، وإن الإمـام سيكون ممتنًـا إذا تمكنت من إصـلاحها له، وأنـه وافق على ذالك، وتم إصلاحهـا في (إنجلترا) وأُعيدت إلى الـرياض،

---

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٨٦ –. (٢) المصدر السابق – ص ٢٣ –.

كما أشار إلى أنـه مدة إقامته في الرياض لم يتمكن من رصـد النجوم قائلًا: (إذ حالت المراقبة المستمرة المفـروضة علينا دون التمكن من ذالك). وأنه استطاع في صبـاح أحد الأيـام تحديـد خط الطول، ولكنـه قوطع قبل الظهـر، فبقي خط العـرض دون تعيين، ولم يتم لـه هذا إلَّا بعـد اجتيـاز ضواحـي الريـاض بقليل، ولعله بات في الضواحي لهذا الغرض.

في صباح اليـوم التاسع استأنف مسيره إلى الأحساء مجتـازًا (العان)[1] مارًّا بـ(العرمة) متحدثًـا عنها كعـادته بتـوسع، في وصف طبيعة كل مكـان يمرُّ بـه، وبعـدها كـان اجتياز هضبـة (وثيلان) ومنهـا تشاهـد قمم (النفود) البعيـدة، ثم الوصـول إلى ماء يراه المعـربان الكريمـان منهل (رَمْلَان) في حضن (الـدَّهناء) في مفيض وادي (وُثَيْـلان)، وهـو المنهل الـذي يـرده من أراد سلـوك (طـريق مِخْيَط) إلى الأحساء وهو الطريق الذي سلكه (بلي).

لا داعي للسير معه في استطـراداته الطويلة في وصف ما يمرُّ بـه، فقد اجتاز (الدهناء) في ١٦ شوال اليوم الثالث عشر من آذار.

وفي صبـاح ٢٠ شوال (اليوم السـابع عشر مـن آذار) كانت مشـاهدة رؤوس النخيل في بلاد الأحسـاء، ثم الوصول إلـى بلدة (الهفهوف) حيث حل بقـافلته في بستان يقع على الجانب الجنوبي من هذه البلدة التي وصفها بقوله[2]: (لقد بـدت البلدة أكبـر من الـرياض، والأحسـاء – مع ميناءيها القطيف والعُقيـر – تشكل إلى حد بعيد أكبر المراكز التجاريـة في بلاد الوهابيين، ففي هذا المكان تصنع العباءات وبعض أسلحتهم، أما بقية الأسلحة فتأتي من دمشق ونجران أو

---

(١) استعصى على المعربين الكريمين فهم هذا الاسم فأثبتاه بصورته(Al - Aun) والعان هذا هو ما يعرف باسم (خشم العان) أي أنف العان، وكلمة العان يقصد بها الجبل لغويًّا، وقد أدركا ذالك فأوضحاه في التعليق.

(٢) «رحلة إلى الرياض» – ص ١٠١ –.

البصرة، ويوجد هناك - على ما اعتقد - سبعة قصور في منطقة الأحساء تحتوي كل منها على حامية صغيرة من الجند، ومنطقة الأحساء غنية بالمياه حيث تغذيها العيون الجارية، التي تتدفق بغزارة من باطن الأرض، ثم تسيح على شكل جداول في كل الاتجاهات بين البساتين، وأحواض الحشائش والحقول، والمنطقة التي تروى بهذه الطريقة تتخذ شكلًا بيضاويًا غير منتظم، وتمتد حوالي خمسين ميلًا طولًا وخمسة عشر ميلًا عرضًا على الأكثر.لقد قابلنا كثيرًا من الفلاحين الذين كانوا يجلبون المحصولات إلى البلدان على حمير جيدة، سريعة الخَبَب، محملة بنوع من السلال الأسبانية، وعلى العموم لقد كان هناك مظهر من البهجة والحركة في المكان لم يسبق لنا رؤيته في أي مكان آخر من مناطق الوهابية.

ووصف أمير الهفوف[1]: بأنه كان مُهَذَّبًا وأنه أرسل لهم مُؤنًا، ولكن لم يَقُمْ أحد بزيارتهم كما كان الحال حقيقة في الرياض.

وأضاف قوله[2]: الناس هنا يَبْدُون مَرِحِين بطبيعتهم، ومكرسين أنفسهم للتجارة والزراعة، فهم يلبسون الحرير، كما يباع التبغ علنًا في الأسواق).

لم يفت (بلي) كعادته بوصف سكان هذه المنطقة بضعف الولاء للدولة السعودية مُعَلِّلًا ذالك، بأنهم يلبسون الحرير، ويباع التبغ علنًا في الأسواق، وأن مبعوثين وشيوخًا من الرياض أرسلوا إلى الأحساء للإنكار على الناس حياتهم المنحلة، ولكنهم صرفوا فجأة عن مهامِّهم بإشارة من الأمير، وعلل هذه الإشارة تعليلًا مضحكًا.

(١) كان أمير الأحساء في أواخر أيام الإمام فيصل، هو: محمد بن أحمد السديري، الذي قتل عام ١٢٩٠ في وقعة طلال، انظر «عقد الدرر» - ص ٤١ و ٤٤-.

(٢) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٠٣ -.

لم يُقِمْ في الهفهوف يومًا كاملًا، بل أمضى جزءًا منه مع صباح ٢١ شوال عشر اليوم الثامن عشر من آذار في اجتياز الطريق بينه وبين ميناء (العُقَيْر) حيث وجد الباخرة راسية في عرض البحر تنتظره، وبها كان الإبحار إلى (البحرين) ثم العبور إلى (بوشهر).

ولقد ألحق بما تقدم ملاحظات حول مصادر المياه في وسط الجزيرة وشرقها موضحًا[1]: أن السيول التي تسقط في نجد، وتنحدر مع الأودية من مرتفعات اليمامة تغذي آبار تلك المنطقة ثم تفقد أغلب مياهها في رمال الدهناء. منتهيًا إلى القول: بأن جميع هذه الحقائق تشير إلى أن المياه تتجمع من مرتفعات نجد كمصدر عام، ثم تتخلل باطن الأرض في اتجاه شرقي وجنوبي، وفي النهاية تندفع تلك المياه من خلال صخور الخليج المرجانية مشيرًا إلى الينابيع العذبة التي تنبع في عرض الخليج بقرب (البحرين) و (رأس تَنُّوْرَة) وغيرهما.

وأعاد القول عن الأحوال السياسية لحكومة الوهابيين التي وصفها بأنها عبارة عن تحالف من عدة قبائل، تكتلت أساسًا عن طريق الإخضاع والتي تتماسك مع بعضها بواسطة فكرة دينية، وأن هذا التحالف يسيطر على الساحل الغربي للخليج وساحل عمان، ويحتفظ بعلاقات صداقة غير محددة المعالم مع قبائل سماها، ولم يفته كعادته محاولة الدس بوصف بعض المناطق التي ضمها هذا التحالف بالفتح بعدم الإخلاص، وسماها، وأضاف إليها مشيخات الساحل وسلطنة (مَسْقط) مبديًا بعض البواعث والأسباب في زعمه.

ولم تفته الإشارة إلى أنه لقب الحاكم مرة بالإمام، ومرة بالأمير دون تفريق، وأوضح أن اللقب السائد بين اتباعه هو لقب الإمام، وعاد للحديث عن فيصل

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ١٠٥ -.

فوصفه بأنه قد ضعف جسميًا وكف بصره حين قابله، وهبط إلى حالة من الشلل بعد ذالك، وتخلى عن تدبير الأمور لابنه عبدالله الذي لم يقابله في الرياض، وعلل هذا بقوله: يبدو أن عبدالله خاف من أنني إذا قابلته، وتعرفت على هناته وسلوكه، فإنه يمكنني في المستقبل أن أمارس تأثيرًا غير مناسب على تصرفاته، ثم ذكر أن فيصلًا توفي بـ (الكوليرا) في ١٣ رجب سنة ١٢٨٢ الموافق للثاني من كانون أول سنة ١٨٦٥[١]، وخلفه ابنه عبدالله.

وقال[٢]: لقد أحدث تسلم عبدالله لمقاليد الأمور تغييرًا خطيرًا في وضع سكرتير الأمير المتوفى محبوب، فصودرت بعض ممتلكاته، إذ لم يكن على وفاق مع عبدالله، وقد علمت أنه الآن ينتظر فرصة مواتية للهرب، لقد قلت له في الربيع الماضي: إن المسلك الذي تنتهجه ربما يسوقه إلى (المقيمية) في (بوشهر) ويظهر أنه الآن سيقبل مسرورًا هذا المصير، أو أنه سينتهي إلى مكة. وعلق المعربان على هذا: بأن محبوبًا انضمَّ إلى الأمير سعود الخارج على أخيه، فكان معه في الأحساء عام ١٢٨٨، وبعد استيلاء سعود على الرياض في السنة نفسها أرسل محبوبًا على رأس حامية صغيرة إلى (البريمي) ومكث هناك ممثلًا لآل سعود حتى عام ١٢٩٠ التي تضعضع فيها موقف سعود بعد وقعة طلال، فسلم محبوب زمام الأمور في (البريمي) لبعض رؤساء المنطقة وغادرها)[٣] واسترسل (بلي) في الحديث عن عبدالله وسعود ابني فيصل مضيفًا قوله: وحسب سير الأمور الآن فإن الحكومة الوهابية ربما تبقى هادئة لبعض الوقت، وحذر من (سيطرة التحالف الوهابي سيطرة مباشرة على شيوخ ساحل القراصنة). كذا سماه، مضيفًا: (وإنَّ كل شرق الجزيرة من الكويت حتى رأس الحد سيسقط في النهاية طائعًا أو مكرهًا تحت النفوذ الوهابي).

---

(١) يذكر ابن عيسى في «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد» - ص ١٧٧ - أن فيصلًا توفي لتسع بقين من رجب سنة ١٢٨٢، وكذا في «عقد الدرر» ولاشك أن ابن عيسى في تحديد وفاة فيصل - رحمه الله - أوثق من (بلي).

(٢) «رحلة إلى الرياض» - ص ١١٠ -.

(٣) المصدر: «الدولة السعودية الثانية» - ص ٢١٠ -.

ثم أعاد الحديث عن النزاع بين الوهابيين و (مسقط)، وأنه بعد عودته إلى (بوشهر) حاول إصلاح الأمور بين سلطان مسقط والأمير الوهابي، وأنه سافر إلى مسقط فاقترح السلطان أن يتوسط لإنهاء الحرب على أي شروط يعتقد أنها عادلة، وأنه سلمه تعهُّدًا مكتوبًا وأرسل هذا الاقتراح إلى الحكومة الوهابية، فلم يتلقَّ ردًا على ذالك، وسافر إلى إنجلترا بينما واصل الوهابيون غزوهم لمناطق (مسقط) وقطاعات أخرى، وأنهم قاموا بقتل بعض الرعايا البريطانيين ونهبهم في ميناء (صور) وعندما عاد إلى الهند رأت حكومته أن الخطر الذي يهدد سلطان (مسقط) عظيمًا، وقد حان الوقت لمساعدته، وفي النهاية استسلم الأمير الوهابي وأرسل مبعوثين قدموا عروضًا للسلام، وقدم بيانًا مكتوبًا منسجمًا مع رغبات حكومة الهند.

ثم ذكر ما وقع من اغتيال سلطان مسقط مِن قبل ابنه الذي أرسل إلى الحكومة البريطانية يلتمس تأييدها، ولكنها ترددت في الاطمئنان إلى رجل قتل أباه، وختم تقريره بأنه: (اتجه لمعاقبة سكان بلدة (صور) الساحلية التي نهب الوهابيون فيها أو ألحقوا الضرر بالهنود من الرعايا البريطانيين) ووصف (صور) بأنه وكر القراصنة، وأنه تلقى درسًا سيقتنع العرب بأنه ليس في استطاعتهم الإضرار بالرعايا البريطانيين، ووصف أهل (صور) بأنه أشجع وأشرس البحارة العرب، وأنهم كانوا المحرضين على مؤامرة استهدفت قتله في مملكة السلطان الزنجبارية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وُجِّهَتِ السفينة البريطانية لغزو ميناءي (القطيف) و (الدمام) كما تقدم، مع أنه لم يمض على زيارة (بلي) التي وصفهابأنها فاتحة عهد صداقة وسلام سوى وقت قصير.

ما تقدم هو عرض سريع لرحلة (بلي) إلى الرياض التي ساقها أثناء تقرير مقدم منه بصفته المقيم السياسي للحكومة البريطانية في الخليج إلى وزير

الدولة في (بومبي) بتاريخ ١ محرم ١٢٨٣ (خمسة عشر أيار سنة ١٨٦٦)، أي بعد تلك الرحلة التي بدأها من الكويت في ٢٣ رمضان ١٢٨٢ (١٨ شباط سنة ١٨٦٥)، وعاد منها في ٢٢ شوال ١٢٨٢ (١٩ آذار من العام نفسه).

من هنا يتضح أن ما تحويه تلك الرحلة من معلومات لم تكن مقصودة بحد ذاتها، إذ كانت الغاية ما تخلل التقرير من ملاحظات، ذات ارتباط بالجوانب السياسية المتعلقة بالدولة السعودية في ذالك العهد، وهو تقرير يمكن أن يكون مستوفى لو أُلحق به ما يرتبط به من تقارير أخرى تكررت الإشارة إليها أثناءه.

أما الإضافات (الملاحق) عن الطرق شرق الجزيرة، وعن تعداد سكان مناطق نجد وباديتها، وما تحويه من معلومات ليست مستقاة من مصادر موثوق بها، فكلها ليس بذي أهمية.

وقد يفيد الملحق المتعلق بالنبات مع غرابة بعض الأسماء فيه المعنيين بهذا العلم.

وعما كتبه (بلي) وألحقه بتقريره عن (الصلبة) الذي حاول فيه تعليل الاسم بغرسهم صليبًا خشبيًّا في بعض الاحتفالات، فمع بطلان هذا، إلَّا أن من الباحثين من تأثر بمجرد الاسم فظنهم صليبيين، وكل هذا تخرص لا أساس له، ومثله القول بأن الاسم مشتق من الصلب (الظهر) لأن هذه القبيلة تمثل العمود الفقري للعرب، وأكثر الأعراق نقاءً، إذ هذه الصفات لا تنطبق عليها.

وقد تأثر بمثل هذا آخرون استدلوا على صحته بكونهم من أعرف قبائل العرب بطرق البلاد، وتعليل هذا أنهم يعيشون بين العرب بغاية الأمن والاطمئنان إذ لا أحد يتعرض لهم لضعفهم وقيامهم بصناعة الأدوات التي يحتاج إليها السكان وعدم تعرضه للأذى.

وعن القول باتجاههم للنجم القطبي، فليس من باب التقديس له، ولكن

النجم القطبي يتخذ منه السائرون في الصحراء وسيلة للاهتداء إلى ما يقصدون، وهم كغيرهم من العرب في ذالك، إذ النجوم هي أوضح وسيلة للاهتداء في السير في الصحاري في الليل ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾ والصلبة لفيف من أجناس الناس من العرب وغيرهم، وهم كـ (الغجر) في البلاد الأخرى.

ومجمل القول عن هذه الرحلة:

أنَّ الأستاذين الدكتور عبدالرحمن عبدالله الشيخ، والدكتور عويضة بن متيريك الجهني، من قسم التاريخ بكلية الآداب (جامعة الملك سعود) قد يَسَّرا للقارئ بتعريب هذه الرحلة الاطلاع على مصدر ذي قيمة علمية في زمنه، يمثل وجهة نظر الساسة البريطانيين لهذه البلاد، وفي الوقت نفسه يُمِدّ القراء بمعلومات لا توجد في غيره، وهما بما قاما به من توثيق المعلومات، وبيان المصادر التي يمكن الرجوع إليها للتثبت منها، مع الإشارة إلى ما وقع في كلام كاتب الرحلة من أخطاء، ووضع فهارس مفصلة، كل هذا من الأمور التي ينبغي أن تقابل من المعربين الكريمين بحسن الاستقبال والتقدير، وهما- وفقهما الله- يدركان قبل غيرهما أن كاتب الرحلة (لويس بلي) قدم هذه البلاد وفي ذهنه عنها وعن أهلها تصورات سيئة برزت آثارها في كثير من آرائه مما يناقض قوله في أول التقرير[1]: (سأكون قادرًا على تقديم أكثر الصور صدقًا عن هذه الرحلة).

لقد وَصَمَ من سماهم (الوهابيين)[2]، وهو يعني اتباع العقيدة السلفية الصحيحة التي جدد الدعوة للتمسك بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه

(١) «رحلة إلى الرياض» – ص ٢٣ –.

(٢) استعمل (بلي) في رحلته كلمة (الوهابيين) وأضاف إليها المعربان الكريمان (السعود يين).

الله - بقوله[١]: (ومن المعروف أن الوهابيين لا يعتبرون السنة أو الشيعة مسلمين حقيقيين) وحين عزم على التوجه إلى الرياض من الكويت كان معتقدًا أنه سيقدم على قوم لا يطمأن إليهم، إذ قال[٢]: (كنت حُذِّرْتُ بشدَّةٍ في الكويت بأنه لا ينبغي لي أن أمكث في الرياض أكثر من يومين لتفادي الحوادث، ولأن العرب كما أعيد على مسمعي غدّارون للغاية وآراءهم عرضة للتقلب).

ولعله كان للمعاملة التي عومل بها ساعة وصوله من (محبوب) من الأثر ما عمق في ذهنه تلك التصورات، فقد وصف البيت الذي أنزل فيه لكونه منفصلاً[٣] عن المدينة: (كان مخصصًا للترك وغيرهم من الكفار).

ثم ما ادعاه من أنه قوبل من أبرز رجل في الدولة بعد رئيسها، وهو مستشاره وأمين سره الخاص بما قوبل به.

من هنا ورد كثير من عباراته في رحلته ينضح بما انطبعت عليه تصوراته من كراهية وبغض، لا من حيث وصف المحيطين بفيصل - رحمه الله - من أنهم من أشد ما يمكن أن يقابل المرء من البشر تهيجًا وتجردًا من المبادئ الخلقية وخطرًا وتعصبًا[٤].

ما تقدم يحمل القارئ إلى عدم الاطمئنان بكثير مما أبداه من أفكاره الخاصة مما يتعلق بهذه البلاد وأهلها.

وهذا لا ينبغي أن يكون حائلًادون قراءة تلك الرحلة - أو التقرير بمعنى أصح - والاستفادة مما يمكن الاستفادة منه، وحبَّذا لو تصدَّى أحد المعنيين بدراسة الجوانب السياسية للدولة السعودية الثانية لتعريب تقارير هذا السياسي الإنجليزي التي لها صلة بهذه الدولة في ذالك العهد، ليصبح لدى القارئ صورة متكاملة في الموضوع.

---

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٤٨ -.
(٢) نفس المصدر - ص ٨٣ -.
(٣) نفس المصدر - ص ٧٤ -.
(٤) نفس المصدر - ص ١٠١ -.

بلدة سدوس
آثارها ولمحات من تاريخها

بلدة (سدوس) واقعة على طريق يعد من أهم الطرق القديمة التي تخترق الجزيرة من اليمن إلى الشام، باجتياز جنوب اليمامة (فَلَج الأفلاج) ثم وادي العِرض، وفي أعلاه بلدة (سدوس) ثم منطقة سدير.

ولوقوع بلدة (سدوس) على هذا الطريق الهام ولِقِدَمِهَا عُرِفت فيها بعض الآثار المجهولة التاريخ، قال علامة اليمن ومؤرخه الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (٢٨٠/ نحو ٣٥٠هـ) في كتابه «صفة جزيرة العرب»[١]: (ثم تمضي بفرع العرض و (العُيَيْن) وهي لبني عامر[٢]، وعن يسارها (ثنية الأحيسَى)[٣] ثم تمضي في رأس العارض، ويحبس عليك العرض فترد (القُرَيَّة) من وراء (الأَبْكَيْنِ) وهما قرنان جبيلان (قُرَيَّة بني سدوس) بن ذهل بن ثعلبة[٤]، وهي قَرية جيِّدة، وفيها قصر سليمان بن داود عليه السلام، مبني بصخر منحوت عجيب خراب، وبقيت القصبة، ثم تطلع منه إلى نَقِيل[٥] (قُرَّانَ) و (رَيْمان) مكان وأودية) و (وَتَر). إلى آخر ما ذكر، وهذا النص من أقدم ما اطلعت عليه في ذكر تلك الآثار، أما نسبه القصر إلى سليمان فعلى عادة العرب إذا رأوا أثرًا عجيبًا من بناء أو غيره نسبوا عمله إلى مردة الجن الذين سخرهم الله سبحانه وتعالى لسليمان بن داود عليه السلام، أو كما قال المعري[٦]:

---

(١) ص ٢٨٥ - ط. دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.
(٢) بنو عامر هاؤلاء من بني حنيفة.
(٣) ضبطها ياقوت في «معجم البلدان» بفتح الهمزة وكسر الحاء بعدها ياء ساكنة وسين مهملة وألف القصر، وأورد قول الشاعر:

وبالجِزْع من وادي الأَحِيْسَى عصابة ... سُحَيْمِية الأنساب، شتى المواسم

ومنها طلع خالد بن الوليد على مسيلمة الكذاب.
(٤) ابن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل من ربيعة.
(٥) النقيل: يقصد العقبة.
(٦) «شرح سقط الزند» - ص ١٠٤ -.

وقد كانَ أربابُ الفصاحة كلما رَأوا حَسَنًا عَدُّوه من صَنْعَةِ الجن

والواقع أن الله سبحانه وتعالى قد وهب بعض المتقدمين من القوة وإحكام الصنعة مالا يستغرب فيما يُرى في آثارهم من إجادة وإتقان.

أما القصبة التي ذكرها الهمداني فهو يقصد عمودًا طويلًا مرتفعًا في السماء، مبنيًا من حجر مستدير، كان باقيًا إلى أن شاهده السياسي الإنجليزي (لويس بلي) الذي زار البلدة سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) ورسمه أحد مرافقيه (انظر الصورة) وانظر قول بلي في وصفها[(١)].

مخطط لعمود سدوس بريشة ديبوز Dawes كما نقل بلي في رحلته

(١) «رحلة إلى الرياض» - ص ٦٥ -.

ولكون هذا الإنجليزي مسيحيَّ الديانة فقد أضاف إلى وصفه قائلًا: (لقد كان هناك صليبان محفوران على أسطوانة العمود، ثم تساءل عن أصل البناء وعن صلته بالمسيحية، وهل نُصِب ليرمز للنصرانية في قلب البراري؟!).

وأضيف جوابًا لتساؤله: إذا صح وجود صليبين محفورين على الأسطوانة، فلم لا يكون أحد الإفرنج المسيحيين الذين زاروا المكان هو الذي رسمهما؟!

أما صلة المسيحية قبل الإسلام بهذه البلاد فهو من الأمور المعروفة، فقد وردت الإشارة في بعض كتب التاريخ إلى وجود كنيسة في هذه المنطقة في بلدة (قُرَّان) المجاورة لبلدة (مَلْهم)، ولكنها هدمت في أول الإسلام كما هدمت المعابد الوثنية الأخرى[(١)].

ولقد بقي هذا العمود قائمًا إلى عهد قريب حيث ذكر السيد محمود شكري الألوسي في كتابه «تاريخ نجد»[(٢)] ما نصه: (وأول ناحية العِرْض حُرَيْمِلة ثم سدوس، وفي قربها أبنية قديمة، يظن أنها من آثار حِمْيَر، وأبنية التبابعة، ونقل لي بعض الأصحاب الثقات من أهل نجد: أن من جملة هذه الأبنية شاخصًا كالمنارة، وعليها كتابات كثيرة منحوتة في الحجر ومنقوشة في جدرانها، فلما رأى أهل قرية سدوس اختلاف بعض السياحين من الإفرنج إليها هدموها ملاحظة التداخل معهم) انتهى.

(١) نقل البلبيسي في كتابه في الأنساب الذي جمع فيه بين كتابي الرشاطي وابن الأثير عن أبي عبيدة مَعْمر بن المثنى قال: الأقعس بن سلمة بن عبيد، وأوصل نسبه إلى سحَيم، قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني سُحَيْم فأسلم وأسلموا، وردَّهم إلى قومهم وأمرهم أن يدعوهم إلى الإسلام، وأعطاهم إداوة من ماءٍ قد نقل فيها أو مَجَّ، لينضحوا بها مسجدهم، وليرفعوا بها رؤوسهم إذ رفعها الله تعالى، فما اتبع مسيلمة الكذاب منهم أحد، ولا خرج منهم خارجي قط، والمسجد الذي أمروا بنضحه كان بيعَةً فأمرهم رسول الله ﷺ بكسره وجعله مسجدًا، وذكر ابن حجر في ترجمة الأقعس بن سلمة من أهل اليمامة واسمه الأقيصر الحنفي السُّحيمي وكان في وفد بني سُحيم: أنه جاء بالإداوة التي بعث بها رسول الله ﷺ فنضح بها في مسجد قُرَّان. انتهى، والشائع عند المتأخرين أن قُرَّان هو ما يعرف الآن باسم القرينة، وقد درست قُرَّان القديمة وعمرت القرينة حديثًا.

(٢) - ص ٢٨ -.

وقد حدثني بعض الإخوة من أهل بلدة (سَدُوس) حين زرتها لافتتاح أول مدرسة فيها سنة (١٣٦٩هـ) أن أحجار ذالك العمود كانت معروفة في القرية إلى عهد قريب، وهي أحجار كبيرة مستديرة، وقد أشرت إلى هذا الأثر في كتاب «مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ».

ولهذه البلدة الكريمة تاريخ حافل ينبغي الاهتمام بدراسته والاعتناء بتدوينه، ويحسن إيراد لمحات موجزة منه في صدر الإسلام.

قبل ظهور الإسلام بنحو ثلاثة قرون انتشرت قبائل من بكر بن وائل من ربيعة ثم من عدنان، انتشرت في (اليمامة) فاستوطنت بنو حنيفة وادِيَيْن من أهم أوديتها، هما العِرض (عرض بني حنيفة) المعروف الآن باسم الباطن، أو (باطن الرياض) والوادي الثاني هو (وادي قُرَّان) المعروف الآن باسم (الشَّعِيب) أو (شَعِيب مَلْهَم) (وَادِي أبي قَتَادة) وجاور بني حنيفة في بلادها تلك، بطونٌ كثيرة من بني بكر بن وائل كبني قيس بن ثعلبة، وبني يشكر وغير هذين في جنوب تلك البلاد وفي شمالها بامتداد الأودية، وممن كان يسكن وادي (قُرَّان) بنو سُحيم بن مُرَّة بن الدُّوَلِ بن حَنيفة، قوم هوذة بن علي ملك اليمامة، عند ظهور الإسلام، وجاور هاؤلاء فيما بين هذا الوادي ووادي حنيفة بنو ذُهْل بن ثعلبة بن عُكَابة بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وبنو حنيفة هم بنو لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل.

ومن بني ذهل هاؤلاء بنو سدُوْس - بفتح السين - وبهم سميت تلك البلدة المعروفة، وكانت تدعى (القُرَيَّة) بالتصغير، قال الحطيئة[1] وهو من أهلها:

إنَّ اليمامة خَيْرُ ساكِنِها   أَهْلُ (القُرَيَّةِ) من بني ذُهْلِ

(١) ديوانه ص ٨١ تحقيق نعمان أمين طه - الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ.

وعندما غضب عليهم حين نفوا نسبه قلب البيت من المدح إلى الهجاء[1]، ولا يتسع المجال للإفاضة في الحديث عن بني ذهل، أو عن بني شيبان، وإنما أكتفي بذكر موقف مُشَرِّف لأهل هذه البلدة، بعد انتشار الإسلام، فقد بعثوا بإسلامهم وفدًا إلى الرسول ﷺ ذكر خبره بعض متقدمي المؤرخين، فقد جاء في كتاب «أسد الغاية في معرفة الصحابة»[2] في ترجمة عبدالله بن الأسود السَّدُوْسِي قال: خرجنا إلى رسول الله ﷺ في وفد بني سدوس من (القُرَيَّة)، ومعنا تمر من البر[3].. حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فنشرنا التمر على نِطع بين يديه فقال: «أيُّ تمر هذا؟» فقلنا: الجذامي. فقال: «اللهم بارك في الجذامي، وفي حديقة خرج منها»، ثم نقل عن قتادة وهو سَدُوْسِيٌّ وإمام جليل من مشاهر التابعين، قال: هاجر من ربيعة أربعة: بشير بن الخَصَاصِية، وعمرو بن تغلب، وعبدالله بن الأسود وفُرَاتُ بن حَيَّان، وتفصيل أسماء هذا الوفد:

١ - بَشير بن الخصاصِيَة، والخصاصية إحدى جداته من قبل أبيه وكان اسمه زَحْمًا، وسماه رسول الله ﷺ بَشيرًا، وهو بشير بن يزيد بن معبد بن شراحيل ابن سبع بن ضُبَارِيِّ بن سَدُوس بن شيبان بن ذهل السَّدُوسي، والخصاصِيَة أُمُّ جَدِّ بشير الأعلى ضُبَارِي بن سدوس، واسمها كبشة، وقيل ماوية، ولبشير ترجمة مفصلة في «الاستيعاب» و «الإصابة» وفي «أسد الغاية» وغيرها، وقال ابن الأثير: روي عن النبي ﷺ أحاديث صالحة وهو من المهاجرين.

٢ - خَمْخَام: وهو لقب واسمه مالك بن الحارث بن خالد، نقل ابن حجر في «الإصابة» في ترجمته عن ابنه قال: هاجر أبي خمخام إلى النبي ﷺ في وفد بني بكر بن وائل مع أربعة من سَدُوس وهم بشير بن الخصاصية، وفرات بن حيان وعبدالله بن أسود، ويزيد بن ظبيان وذكر نحو هذا ابن الأثير[4].

(١) لمعرفة سبب غضب الحطيئة انظر مجلة «العرب» س ٢٣ ص ٣٢.
(٢) - ج ٣ ص ١١٧ -.
(٣) كلمات غير واضحة ولعل منها (من البرني).
(٤) «أسد الغاية» - ج ٢ ص ١٢٤ -.

٣- عبدالله بن الأسود بن شعبة بن علقمة بن شهاب بن عوف بن عمرو بن الحارث بن سَدوْس أورد الحافظ ابن حَجَرٍ من حديثه ما أخرجه البزار والطبرانيُّ وغيرهما قال: خرجنا إلى النبي ﷺ في وفد بني سَدُوْسٍ فأهدينا له تمرًا فقربناه إليه على نِطْعٍ فأخذ الحفنة من التمر فقال: «أيش هذا؟» فجعل يسمى له فذكر الحديث. وساق ابن الأثير في «أسد الغابة» الخبر بأطول من هذا، وقد تقدم.

٤- عمرو بن تغلب: اختلف في نسب هذا فقيل: من عبدالقيس، وقيل: من بكر بن وائل، وقيل: من النَّمِرِ بن قاسط، قال ابنُ الأثير: وجميع ما ذُكِرَ في نسبه يرجع إلى أسد بن ربيعة، فهوَ رَبعِيٌّ على الاختلاف الذي فيه ، ونقل عنه حديثًا نصه: (لقد قال لي رسول الله ﷺ كلمة ما أُحِبُّ أن لي بها حمر النعم[1]، أُتي رسولُ الله ﷺ بشيءٍ فأعطَى قومًا ومنع قومًا فقال رسول الله ﷺ: «إنا نعطي قومًا نخشى هلعهم وجزعهم، وَنكِلُ قومًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الإيمان منهم عمرو بن تغلب، وإِنَّ من أشراط الساعة أن تكثر التجار، ويظهر القلم». يعني أن التجار يكثرون بكثرة المال ويكثر الذين يكتبون، إذ الكتابة كانت قليلة في العرب، وقال قتادة: هاجر من بكر ابن وائل أربعة رجال، رجلان من بني سَدُوس أسود بن عبدالله من أهل اليمامة، وبشير بن الخصاصية، وعمرو بن تغلب من النَّمِرِ بن قاسط، وفُرات بن حيان من بني عِجْل، وهذا فيه نظر فإن من يكون من النَّمِرِ لا يكون من بَكْرٍ إلَّا أن يكون حليفًا، ولم يذكر أنه حليف أخرجه الثلاثة). وذكر ابن حجر أنه عاش إلى خلافة معاوية.

(١) «أسد الغابة» - ج ٤ ص ٩٠ -.

٥- فُرَاتُ بن حيَّان العِجلي: وهو فرات بن حيان بن ثعلبة بن عبدالعُزَّى بن حبيب بن حية بن ربيعة بن سعد بن علي بن بكر بن وائل، كان ممن هاجر إلى النبي ﷺ وسكن الكوفة وابتنى بها دارًا، وله عقب فيها، وأقطعه الرسول ﷺ أرضًا بالبحرين، ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن منكم رجالًا نِكِلُهُمْ إلى إيمانهم، منهم فرات بن حيان**» وكان عَيْنًا لأبي سفيان في حروبه، ثم أسلم، فحسن إسلامه، وقال المرزبانيُّ: كان ممن هجا رسول الله ﷺ ثم مدحه فقبل مدحه.

ونقل عن ابن حِبَّان: كان من أَهدى الناس بالطريق، وعن ابن السكن: أن فرات بن حيان أسلم وفَقُه في الدين، وأقطعه النبي ﷺ أرضًا باليمامة تُغِلُّ أربعة آلاف ومئتين، وذكر ابن الأثير أنه كان حليفًا لبني سهم، وأنه أحد الأربعة الذين أسلموا من ربيعة. وكان هاديًا في الطريق بعث رسول الله ﷺ سريَّةً مع زيد بن حارثة ليعترض عِيرًا لقريش، وكان دليلُ قريشٍ فراتَ بن حَيَّان، فأصابوا العِير وأسروا فراتَ بن حيان، فأتوا به رسول الله ﷺ فلم يقتله، فمر به حليف له من الأنصار فقال: إني مسلم، فقال الأنصاري: يارسول الله: إنه يقول إنه مسلم، فقال: «إن فيكم رجالًا نَكِلُهُمْ إلى إيمانهم، منهم فرات بن حيان» وأطلقه، وذكر إقطاعه أرضًا باليمامة وأن الرسول ﷺ سيَّره إلى ثُمامة بن أُثال في قتل مُسَيْلِمَةَ وقتاله.

٦- يزيد بن ظبيان: تقدم ذكر يزيد هذا مع الوفد في ترجمة خمخام، ولم يزد ابن الأثير سوى الإشارة إلى ما تقدم، ومثله ابن حجر في «الإصابة» إذ قال: يزيد بن ظبيان السَّدُوسي تقدم ذكر وفادته في ترجمة الخمخام.

وعُرف من بني سَدوس عدد من المشاهير منهم من العلماء التابعي الجليل قتادة بن دعامة السدوسي من أئمة العلماء وحفاظ الحديث.

وأبو فيد مؤرج صاحب الخليل بن أحمد وهو القائل:

رُوِّعْتُ بِـالْبَيْنِ حتَّى مـا أُرَاعُ بِـهِ ... وَبِـالْمَصَـائِبِ فِي أَهْلِي وإِخْـوَانِي
لَمْ يَتْرُكِ الـدَّهْـرُ لِي عِلْقًا أضِنُّ بِـه ... إِلَّا اصْطَفَـاهُ بِنَـأْيٍ أَوْ بِهُجْـرَانِ

ومن سَدُوس خالد بن مُعَمَّر بن سُلْمِي من بني الحارث السَّدُوسي، الذي قال الشاعر فيه لمعاوية[1]:

مُعَاوِيَ أَكْـرِمْ خَـالِـدَ بْنَ مُعَمَّـرِ ... فَإِنَّكَ لَـوْلَا خَـالِـدٌ لَمْ تُـؤَمَّـرِ

ومن شعرائهم عِمران بن حِطَّان الخارجي، وهو من فحول الشعراء المكثرين.

ولا يتسع المجال لأكثر من هذا.

* * *

(١) الشاعر هو: الأعور الشني من عبدالقيس وانظر طرفا من أخبار خالد هذا في «توضيح المشتبه» - ج ٨ ص٢٢٥ - و «الوافي بالوفيات» - ١٣/ ٢٦٤ -.

كتاب «شمال نجد»

للمستشرق التشيكوسلوفاكي الويس موزل

عالمان غَربيَّان عُنِيا بالكتابة عن الجزيرة وأهلها، وما يتصل بهما من مختلف جوانب الحياة، عناية متميزة، أولهما (ألويس موزل) التشيكوسلوفاكي (Alois Musil) وثانيهما الشيخ عبدالله فلبي (هاري سنت جون فلبي H. St. J. B. Philby).

ولم يتهيأ للأول منهما من الظروف والوسائل ما تهيأ للثاني بحيث تمكن من التجول في جميع أجزاء البلاد.

ولئن كانت كتابات الأخير منهما ألصق ببلادنا، وبأحوال سكانها بصفة عامة، فإن أبحاث الأول ودراساته في مؤلفاته أغزر معرفةً، وأعمق دراسةً، وأعمُّ شمولًا من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وهو مع ذالك أدقُّ ملاحظات، وأوثق معلومات، لسعة اطلاعه، ولتخصصه فيما تصدَّى للتأليف عنه.

وكنت حين أنشأت «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» في منتصف عشر التسعين من القرن الماضي حاولت أن أقوم بنشر بعض المؤلفات الغربية مُعَرَّبًا، ومنها مؤلفاتهما، وكان أن اتصل بي أثناء ذالك الأستاذ عمر حَلِيق الذي كان يعمل مع وفد حكومتنا في (هيئة الأمم المتحدة) قبل ذالك، وكنت عرفته مما كان يبعث به إليَّ من مقالات نَشَرْتُ بعضها في مجلة «اليمامة» في سنتيها الأوليين، وطبعت له أحد مؤلفاته في (مطابع الرياض)[1]، وقد أبدى لي رغبة في المشاركة فيما أفكر بالقيام به من نشر بعض الكتب المتعلقة ببلادنا، مما أُلِّف بغير اللغة العربية، فأبديت الموافقة، بعد أن كتب إليَّ من (ألمانيا) وكان استقر هناك، بأنه استطاع الحصول على تفويض من ورثة (فلبي) بالسماح

(١) هو كتاب «أهداف العمران في المملكة العربية السعودية». وانظر عنه «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» ج ٢ ص ١٠١١.

رُوِّعْتُ بِالْبَيْنِ حَتَّى مَا أُرَاعُ بِهِ ... وَبِالْمَصَائِبِ فِي أَهْلِي وَإِخْوَانِي

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ لِي عِلْقًا أَضِنُّ بِهِ ... إِلَّا اصْطَفَاهُ بِنَأْيٍ أَوْ بِهِجْرَانِ

ومن سَدُوس خالد بن مُعَمَّر بن سُلْمِي من بني الحارث السَّدُوسي، الذي قال الشاعر فيه لمعاوية[1]:

مُعَاوِيَ أَكْرِمْ خَالِدَ بْنَ مُعَمَّرٍ ... فَإِنَّكَ لَوْلَا خَالِدٌ لَمْ تُؤَمَّرِ

ومن شعرائهم عِمران بن حِطَّان الخارجي، وهو من فحول الشعراء المكثرين.

ولا يتسع المجال لأكثر من هذا.

* * *

(١) الشاعر هو: الأعور الشني من عبدالقيس وانظر طرفا من أخبار خالد هذا في «توضيح المشتبه» - ج ٨ ص٢٢٥ - و «الوافي بالوفيات» - ١٣/ ٢٦٤ -.

كتاب «شمال نجد»

للمستشرق التشيكوسلوفاكي الويس موزل

عالمان غَربيَّان عُنِيا بالكتابة عن الجزيرة وأهلها، وما يتصل بهما من مختلف جوانب الحياة، عناية متميزة، أولهما (ألويس موزل) التشيكوسلوفاكي (Alois Musil) وثانيهما الشيخ عبدالله فلبي (هاري سنت جون فلبي H. St. J. B. Philby).

ولم يتهيأ للأول منهما من الظروف والوسائل ما تهيأ للثاني بحيث تمكن من التجول في جميع أجزاء البلاد.

ولئن كانت كتابات الأخير منهما ألصق ببلادنا، وبأحوال سكانها بصفة عامة، فإن أبحاث الأول ودراساته في مؤلفاته أغزر معرفةً، وأعمق دراسةً، وأَعمَّ شمولًا من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وهو مع ذالك أدقُّ ملاحظات، وأوثق معلومات، لسعة اطلاعه، ولتخصصه فيما تصدَّى للتأليف عنه.

وكنت حين أنشأت «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» في منتصف عشر التسعين من القرن الماضي حاولت أن أقوم بنشر بعض المؤلفات الغربية مُعَرَّبًا، ومنها مؤلفاتهما، وكان أن اتصل بي أثناء ذالك الأستاذ عمر حَلِيق الذي كان يعمل مع وفد حكومتنا في (هيئة الأمم المتحدة) قبل ذالك، وكنت عرفته مما كان يبعث به إِليَّ من مقالات نَشَرْتُ بعضها في مجلة «اليمامة» في سنتيها الأوليين، وطبعت له أحد مؤلفاته في (مطابع الرياض)[1]، وقد أبدى لي رغبة في المشاركة فيما أفكر بالقيام به من نشر بعض الكتب المتعلقة ببلادنا، مما أُلِّف بغير اللغة العربية، فأبديت الموافقة، بعد أن كتب إِليَّ من (ألمانيا) وكان استقر هناك، بأنه استطاع الحصول على تفويض من ورثة (فلبي) بالسماح

(١) هو كتاب «أهداف العمران في المملكة العربية السعودية». وانظر عنه «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» ج ٢ ص ١٠١١.

بتعريب مؤلفاته، وفي أثناء تلك الفترة قامت (دار العلم للملايين) في بيروت بنشر بعض تلك المؤلفات مُعَرَّبًا، وأعقب ذالك انقطاع الصلة بيني وبين عمر حليق، فكان أنِ اتجهت لاختيار ما أراه جديرًا بالتعريب من مؤلفات (موزل) وهما «شمال نجد» (Northern Najd) و «الرولة: أخلاقهم و عاداتهم» (The Manners and Customs of the Rwala Bedouins) واتفقت مع الأستاذ عمر الديراوي[1] على تعريب الأول، ورغبت من ابني محمد[2] - رحمه الله - وكان طالبًا في (الجامعة الأمريكية) في بيروت أن يُعَرِّب بعض فصول الثاني التي وقع عليها اختياري بعد أن عرفتها، فأكمل الديراوي عمله، ونشرتُ كثيرًا من فصول ذالك الكتاب في مجلة «العرب»[3] واستفدت كثيرًا منه عند تأليفي القسم المتعلق بشمال المملكة[4] من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» وخاصة في تحديد منازل الحج من (النجف) إلى (بلاد الجبلين)، فقد كانت دراسة (موزل) لتلك المنازل - بالنسبة لما عُرِفَ عنها من دراسات - تبدو من أوثقها وأصحها وأعمقها، كعادته في كثير مما يتعرض لتحديده من المواضع، فهو مع رجوعه إلى المصادر العربية القديمة المتاحة له، يتتبع تلك المنازل بالمسير فيها، ومشاهدتها منزلة منزلة، مع قياس المسافات بينها، ومطابقتها على ماورد في تلك المصادر.

لقد كان اتجاهُ (موزل) في أول اهتمامه بهذه الدراسات الغاية منه وضع مصور

(١) هو أستاذ فلسطيني كان يقيم في بيروت في تلك الفترة وكان يعرف بهذا الاسم، وله اسم غيره وقد نُشِرَتْ له ترجمة في مجلة «الأديب» ذكر فيها اسمه. وسيأتي ذكره في الحديث عن (فلبي) ومؤلفاته.

(٢) أتت عليه حوادث بيروت، فتوفي - رحمه الله - في حادث طائرة احترقت يوم الثلاثاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٩٥ (٣٠/ ٩/ ١٩٧٥م).

(٣) انظر «العرب» س ٧ ص ٨٤٧، ٨٥١ و س ٨ ص ٢٠، ٩٧، ١٩١، ٢٧٠، ٣٦٧، ٥١٤، ٦٦٣، ٩١٣ و س٩ ص ٩٠، ١٨٩، ٣٣٧، ٥٦٣، ٦٧٧، ٨٨٢، ٩٥٣ و س ١٠ ص ١٢٧، ٤٢٥، ٥٥٦، و س ١١ ص ٩٦.

(٤) صدر هذا القسم في ثلاثة أجزاء.

جغرافي (خريطة) عن المواضع المشهورة الأثرية وغيرها في شمال الجزيرة، فعني عناية خاصة بما ورد فيها في المؤلفات القديمة ومختلف المصادر كـ «التوراة» والمؤلفات اليونانية وغيرها، كما يتضح هذا جليًّا في كتابه «شمال الحجاز» الذي قام الدكتور عبدالمحسن الحسيني[1] بتعريب القسم المتعلق بالمواضع منه.

وقد ذكر الدكتور الحسيني في مقدمة هذا: أن موزل في سبيل تحقيق المواضع قام بسلسلة من الرحلات بين عامي (١٨٩٦ و ١٩١٥م) بدأها في عام ١٨٩٦م بارتياد الجزء الذي كان يعرف قديمًا باسم (بلاد العرب الحجرية Arabia Petra) وانتهى منه في عام ١٩٠٢ ثم ثَنَّى بعد ذالك بارتياد بادية الشام عام ١٩٠٨/ ١٩٠٩م وتوغل فيها حتى (تَدْمُرَ) وفي عام ١٩١٠م قام برحلته الثالثة وارتاد الجزء الشمالي من الحجاز، وفي عام ١٩١٢م قام بالرحلة الرابعة وفيها ارتاد إقليم تَدْمر مرة ثانية، وخرج منه إلى أواسط الفرات والجزء الجنوبي الشرقي من بادية العراق، وفي عامي ١٩١٤ و ١٩١٥ قام بالرحلة الأخيرة وارتاد فيها الجزء الباقي من بادية العراق، وبادية السماوة والجزء الشمالي من نجد. انتهى.

والأستاذ موزل تشيكوسلوفاكي الأصل، ولعلماء (تشيكوسلوفاكيا) عناية بالدراسات الشرقية منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي[2]، وقد أُنْشِئَ في (براغ) معهد للدراسات الشرقية تابع لـ (مجمع العلوم التشيكوسلوفاكي) وأُنشئ في (جامعة براغ) قسم للدراسات الشرقية الصينية و التركية والعربية، وكان ممن تخرج من هذه الجامعة ودرس في ذالك القسم (موزل) ثم أصبح أستاذًا للغات السامية ومشرفًا على الدراسات العربية هناك.

(١) هو عالم فلسطيني متخصص في الدراسات الجغرافية وكان أستاذًا في (كلية الآداب) في جامعة الاسكندرية، وتوفي منذ أكثر من عشرين عامًا.

(٢) «المستشرقون» ص ١٠٣٣.

ويقول الأستاذ سليمان موسى عنه: درس اللغة العربية عند الأباء اليسوعيين ببيروت، وعاش سنين طويلة في لبنان، وجعل منه منطلقًا إلى رحلاته الدراسية في الجزيرة العربية، فكتب عن قبائلها أبحاثًا قيمة، وقد عرفناه عالمًا بجغرافية الجزيرة العربية، وأحببنا فيه وداعته و إخلاصه للعلم[1].

ويصفه (فلبي) فيقول: من بين جميع المكتشفين كان (موزل) الوحيد الذي استطاع استكشاف القسم الجنوبي من (حِسْمَى) ولكن قابله سوء الطالع، وهو مشرف على نهاية رحلته، بهجوم أفراد من قبيلة (بني عطية) وقد لعبت نساء هذه القبيلة الدور الرئيسي في مهاجمته شخصيًّا، والاستيلاء على الأشياء القليلة التي يحملها، و إبادة السجلات التي كان يدونها[2].

ومن قرأ كتابه «شمال نجد» أدرك جانبًا مما قاساه في سبيل العلم من شظف العيش، وشدة النصَب، والجوع والخوف، إنه سيجد هذا العالم الأوربي متقشفًا بدويًّا يَفْلِي ثيابه من القمل، ويتراكم الوسخ فوق جسمه لعدم وجود الماء الذي يستحم به، ويصاب بالمرض فتبلغ درجة الحرارة عنده فوق الأربعين، حتى يصاب بالإغماء، ويمكث ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام من المرض، ويهاجمه الأعداء بإطلاق الرصاص عليه، ويحاول بعضهم إسقاءه السم، ومع كل ذالك يدأب في سبيل العلم، ويواصل عمله ويطالع المؤلفات القديمة من عربية وغيرها بتعمق وجَلَد وصبر، حتى قدم للباحثين من مؤلفاته وأبحاثه عن البلاد العربية مالم يقدمه غيره.

لقد ولد (موزل) سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م) ورحل إلى الشرق ودخل (معهد الأداب الشرقية) في بيروت، ثم أصبح مدرسًا في (مدرسة الكتاب المقدس

(١) «غربيون في بلاد العرب» ص ١٩٩.

(٢) «أرض الأنبياء» ص ١٨٤ و ١٨٥.

للأباء الدومنكيين) في القدس سنة ١٣١٣ (١٨٩٥م) وقد قام برحلات كثيرة في البلاد العربية، منقبًا عن الآثار ومحققًا لبعض المواضع الواردة في المؤلفات القديمة في طريقي الحج الساحلي من (العقبة)، والعراقي من (النجف)، واكتشف (قصر عَمْرة) في جهات الشام، ومع أن دراسته دينية، وأكثر أبحاثه تكاد تتركز على هذه الناحية فقد عين برتبة (لواء) في آخر رحلة قام بها إلى الشرق فيما بين سنتي ١٣٣٣ - ١٣٣٤هـ (١٩١٤ - ١٩١٥م) وعاش زمنًا بين قبائل (الرُّوَلَة) حتى عُرِف باسم (الشيخ موسى الرويلي) وكان صديقًا لرئيس هذه القبيلة النوري بن شعلان.

وقد دَوَّن مشاهداته وتحقيقاته في رحلاته في مجلدات باللغة الألمانية ثم بالإنجليزية، وله مقالات في التعريف بكثير من المؤلفات العربية، وقد عُيِّنَ عضوًا في (المجمع العلمي العربي) بدمشق.

وقد اكتسب (موزل) صداقة كثير من العرب، منهم النوري الشعلان شيخ مشايخ (الرولة) الذي طالت صحبته له، وقويت صلته به، حتى كان يدعوه (أخاه) و (صديقه)، وعودة أبو تايه شيخ (الحويطات) عرفه سنة ١٣٢٨هـ (١٩٠٩م)، وعالج جرحًا في يده حتى شفي، وهايل بن فايز شيخ بني صخر الذي قتل سنة ١٣٢٨هـ (١٩٠٩م).

واجتمع ببعض أمراء العرب في الجزيرة، وكاتب بعضهم، وسعى للإصلاح بينهم كما يتضح ذالك في مؤلفه «شمال نجد» وغيره، وقد ألف مؤلفاتٍ منها[1]:

١ - «بادية العرب» (الصحراء العربية).

٢ - «بلاد العرب الحَجَرية» (مملكة تدمر).

(١) «المستشرقون» ص ١٥٣٦.

٣- «الجزيرة العربية».

٤- «خصائص البدو».

٥- «الرولة، أخلاقهم وعاداتهم».

٦- «شمال الحجاز».

٧- «شمال نجد».

٨- «العراق وسورية».

٩- «الفرات».

وتوفي المستشرق (موزل) في سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م) عن ٧٨ عامًا، أما ما وقع في مقدمة كتابه عن (الرولة) تعريب الدكتور محمد بن سليمان السُّدَيْس من أنه توفي سنة ١٣٧٦ فهو سبق قلم، وقد قامت (الجمعية الجغرافية الأمريكية) بمساعدة (المجمع العلمي التشيكوسلوفاكي) والسيد (شارل كراين) المعروف بصداقته للعرب، بطبع أشهر هذه الكتب، ولم ينقل إلى العربية من مؤلفاته سوى «شمال الحجاز» الذي قام الدكتور عبدالمحسن الحسيني بنقل القسم الخاص منه بالتحقيقات العلمية التي انتهى إليها في تحديد المواضع القديمة، تاركًا من ذالك الكتاب القسم المتعلق بوصف الرحلة، إذ هذا - في رأيه - يمكن الاستغناء عنه بالخريطة التي وضعها (موزل) وضمنها جميع مراحل رحلته[1]، وكان في نية الدكتور الحسيني ترجمة مؤلفات موزل على هذه الطريقة، ويلحق بها بالخريطة العامة للمناطق التي كتب عنها، ويفرد لها جزءًا خاصًا في وصف أقسامها وتفصيل أجزائها، غير أن الأجل عاجله - رحمه الله - قبل أن يكمل ما بدأ به، إذ لم نطلع إلَّا على كتاب «شمال الحجاز» المطبوع سنة ١٣٧١ (١٩٥٢م) في الاسكندرية في (١٨٧) صفحة مع مقدمة في (٦) صفحات، وترجم الأستاذ سليمان موسى من القسم المتعلق بالرحلة ماله صلة بالأردن، من أول الرحلة إلى عودته من (العقبة) إلى (دمشق) ثم وصف طريق الحج من (دمشق) إلى (الحِجْر)[2].

---

(١) مقدمة كتاب «شمال الحجاز» ص (هـ).

(٢) «غربيون في بلاد العرب» من ص ٣٠ إلى ص ٥٥ والأستاذ سليمان موسى من مشاهير مثقفي الأردن المعروفين.

وكتاب «شمال نجد» ككتاب «شمال الحجاز» يقع في قسمين: الأول يتضمن وصف رحلة المؤلف، وهو أثْرَى الأقسام بالمعلومات عن مشاهداته، وانطباعاته عن الأرض وعن السكان، وعن كل ما يتصل بهما، والقسم الثاني يحوي المعلومات الجغرافية التي استنتجها من خلال دراساته للنصوص القديمة، المتعلقة بالمواضع التي حاول تحديدها، وإبراز ما يتعلق بها من معلومات، مدعمًا تلك الدراسات القائمة على المشاهدة الدقيقة بملاحظاته وآرائه حولها، وهذا القسم يقع في فصول أضَافها ملاحِقَ للقسم الأول، ومنها على سبيل المثال: (طريق الحج الكوفي، تَيماء وآثارها، فَيد، بُزَاخة، تاريخ بيت ابن سعود، تاريخ بيت ابن رَشِيد، الجفاف في الجزيرة) وقد نَشَرتُ أكثر هذه الفصول في مجلة «**العرب**»، وفصولًا سبعة مما يتعلق بالرحلة التي وقعت في عدة فصول، ولكن هذا لا يعني أن ما نشر في المجلة يفي بالغرض من الاستفادة من هذا الكتاب، ولا أنه يغني عن تعريبه كاملًا مرتبًا فهو - في رأيي - من أمتع ما أُلِّفَ عن شمال هذه البلاد أسلُوبًا، وأغزره بالمعلومات، وليس معنى هذا أن كل ماحواه هذا الكتاب مما ينبغي قبوله بمعنى خلوه من كل المآخذ، فهذا الأمر مما لا يصح وصف أي كتاب به سوى كتاب الله عز وجل والثابت الصحيح من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولقد مَرَّت بي أثناء قراءة بعض فصول الكتاب معلومات تتعلق ببعض الأفراد وغيرهم اضطررت إلى حذفها، لعدم ثقتي بصحتها، وهي مما يمكن تداركه عند تعريب الكتاب تعريبًا تامًّا، إمَّا بالتعليق عليها أو الإشارة إلى حذفها، ومن الأمانة العلمية عدم الحذف والاكتفاء بالتعليق إذا أمكن هذا.

و (موزل) في رحلاته وخاصة في كتابه الأخير وهو «شمال نجد» لم يقتصر على جوانب البحث العلمي فحسب، بل كان ذا اتصالات ببعض حكام

العرب، قد تكون سبب إدخال الريبة في نفوس بعض ممن كتبوا عنه في الصحف العربية في ذالك العهد كحالة (فلبي).

وفي بعض مؤلفاته مايشير إلى استمالة بعض أُولئك الحكام لعدم الولاء للسلطنة العثمانية في ذالك العهد.

وممن تنبغي الإشارة إليه أنه كان ذا نظرة إلى الملك عبدالعزيز - رحمه الله - تدل على عمق إدراك وبُعدِ تصور لعواقب الأمور، فقد تحدث عنه خلال سنة ١٣٤٦/ ١٣٤٧ (١٩٢٧م) فبعد أن ذكر أنه ولد سنة ١٢٩٣ (١٨٦٧م) قال في وصفه: هو ذو ثقافة جيدة نسبيًا، يطالع كثيرًا، شريفًا، نشيطًا، ورعًا، يتعشق الحرية، وكان خجولًا، متواضعًا، يسهل القرب منه، سخيًّا في تصرفاته، وهو أقوى شخصية اليوم في شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن أشار إلى بعض مواقف أتباع الملك عبدالعزيز - رحمه الله - وصفهم بأنهم يتهمونه الآن لكونه معتدلًا جدًّا تجاه المسلمين الآخرين، وخاضعًا للأوربيين، وعدم رضاهم عن هذا الموقف في ازدياد، بسبب إدخاله إصلاحات مختلفة، وإرساله أبناءَهُ إلى أوربا أو مصر، وكانت كل حركة تُعَدُّ ثورية في اتجاهها، وسوف يحارب هاؤلاء أي إصلاح يجدونه معارضًا لأرائهم[1]. بل توقع ماحدث فعلًا، حيث قال قبل هذا: (وسيصبحون مصدر قلاقل داخلية).

وأكتفي بهذا القدر في الكلام عن هذا الكتاب، أما الكتاب الثاني فله حديث آخر.

(١) «العرب» س ١١ ص ٢٧٧ وما بعدها.

الرولة: أخلاقهم وعاداتهم

للمستشرق التشيكوسلوفاكي الويس موزل تعريب د. محمد بن سليمان السديس

تحسن الإشارة إلى أن آثار (موزل) تكاد تنحصر في موضوع أفرد كل جانب من جوانبه لدراسة ناحية خاصة من ذالك الموضوع، هو الدراسات الجغرافية وما قد يتصل بها من آثار، فَمُؤَلَّفُهُ عن «شمال نجد» يرتبط ارتباطًا وثيقًا بما كتب عن (البتراء) بلاد العرب الحَجَرِيَّة، وعن بادية الشام، وعن بادية العراق، وعن شمال الحجاز، وهذا ما أوضحه الدكتور عبدالمحسن الحسيني مستخلصًا أن (الخريطة) التي وضعها المستشرق عن تلك الدراسات هي تلخيص دقيق واضِحٌ لجميع ما أورده في الأقسام الأُوَلِ من أَجزاء تلك السلسلة من مؤلفاته.

ولقد كان الدكتور الحسيني ذا أمل واسع فقد وعد بأنه بعد أن ينتهي من ترجمة القسم الأول من جميع أقسام السلسلة وهو قسم (التحقيقات العلمية) كما وضع المؤلف لتلك الأقسام وأرادَهُ فيها، فسيتناول بالدراسة (الخريطة) التي يراها الدكتور الحسيني تلخيصًا وافيًا لكل ما ورد في الأقسام الأولى من كل جزء من أجزاء السلسلة كان هذا ما اتجه إليه - رحمه الله - وأوضحه سنة ١٣٧٠/ ١٣٧١هـ (١٩٥١م)[1] أي قبل أكثر من أربعين عامًا، ولكن المنية عاجلته ولم يَرَ النُّوْرَ من ذالك سوى (قسم التحقيقات) من «شمال الحجاز».

ولعل لدى زوجته الأستاذة الكريمة التي كانت تعمل معه في (كلية الآداب) في جامعة الأسكندرية إلى ما بعد وفاته، لعل لديها من معرفة ما وصل إليه عملُ زوجها ما تُمدُّ به الباحثين وأن ما خلفه مما لم ينشر مما فكر في القيام به من عمل قد يستفاد به في مواصلة السعي للاستفادة من تلك المؤلفات.

(١) مقدمة «شمال الحجاز» ص (هـ).

وليس من المبالغة القول بِأنَّ ما فكر فيه الدكتور الحسيني من هذا الأمر مما ينوء بالعصبة أولي المعرفة من ذوي الاختصاص، فضلًا عن الأفراد.

أما كتاب «الرولة: أخلاقهم وعاداتهم» فيختلف في موضوعه عن مؤلفات (موزل) الأخرى التي اتخذ منها أُسُسًا لدراساته الجغرافية والأثرية، فقد اتجه بذالك الكتاب ليدرس حالة متميزة من حالات الإنسان الذي يعيش فوق تلك الأرض، على نمط من الحياة خاصٍّ به، منذ حقبة من الزمن لا يعلم مداها إلا الله، حتى هذا العهد الذي غيرت فيه وسائل الحضارة كل شيء على وجه البسيطة سوى هذه القلة الباقية ممن ندعوهم (البدو) وسرعان ما بدأ التغيير يجرفهم بتياره الذي سيأتي على أية قوة تعترضه.

إنه كتاب في الواقع لا يختص بِمَن أُلِّفَ عنهم، بل يشمل وصف حياة جيل يُكَوِّنُ أغلب سكان الجزيرة، مِمَّن يُعَدُّ المادة الأصيلة لأولئك السكان جميعهم، خلال قرون متطاولة، منذ عُرِفَت هذه الأمة التي ينتسب إليها حتى أَذَنَتْ شمسُ تلك الحياة بالأفول شيئًا فشيئًا، فبدأ التغيير منذ أواخر عشر الثلاثين من القرن الماضي حين قرر مؤسس هذه المملكة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أن يوجه ذالك الجيل إلى حياة أَعَمَّ نفعًا، وأبعد مما أَلِفَ من شقاء وعداء وفرقة لحياة حبٍّ وأُلْفَة واتِّحاد، لكي يستفاد به في توطيد دعائم الحكم في هذه البلاد، فهيأ لأولئك من مواطن الاستقرار ما عُرِفَ باسم (الهُجَر)[1] - جمع هِجْرَة- للتعبير عن هَجْرِ الحياة الأولى بالانتقال إلى حياة جديدة هي حياة الاستقرار والتحضر، لِتُطوَى حالة البداوة، تلك الحياة التي بطولها، وعمق تأثيرها، وتنوُّعِ أنماطها ووسائلها المختلفة، شغلت ثقافة الأمة، وشُغِلَتْ بها

(١) انشئت الهجرة الأولى فوق آبار الأرطاوية عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م) - «قلب جزيرة العرب» فؤاد حمزة، وبعدها تتابع إنشاء الهجر التي زادت على خمسين ومئة.

تلك الثقافة، حتى أصبحت أساسًا من أسسها، وركنًا ركينًا من تاريخها، لا غنى لِمن يُعْنَى بدراسة جميع أحوال تلك الأمة من معرفته من جميع جوانبه.

من هنا تتضح شدة الحاجة إلى مثل هذه الدراسة التي قدمها (موزل) ممثلة في هذا الكتاب، وهذا ما ألمح إليه الدكتور محمد بن سليمان السُّدَيْس بقوله عن هذا الكتاب: قد بَهَرنا ما بين دَفَّتَيْهِ منذ قراءتنا له قبل عشرين عامًا، لا عن العشيرة موضع الدراسة وممارساتها ومنهج عيشها وحسب، بل وعن قبائل أخرى عديدة سواها، تشاركها في الموطن من وصف مفصل، عما دَقَّ وجل، عن كل من الناس وما يفعلون، والأرض وما يظهر عليها[1].

لقد عمد (موزل) بتناول (الرولة) بهذه الدراسة العامة الشاملة لكل أحوال البادية في مختلف بلادها لأن (الرولة) - في رأيه - وهو رأي قام على أساس كونه لم يتمكن من التجوال داخل الجزيرة ليعرف عن قبائلها ما عرفه عن القبيلة التي وصفها بأنها (العشيرة البدوية القُحَّة الوحيدة في شمال بلاد العرب)، فقد أقام بينهم أكثر من سبع سنوات، وسار معهم في حلهم وترحالهم، وأَلِفَهُم، واختلط بهم فأحبهم، وبذالك استطاع التمكن بعمق من معرفة مختلف أحوالهم.

كان الشيخ فوزان السابق[2] (١٢٧٥؟/ ١٣٧٣هـ) قبل أن يكون وزيرًا مفوضًا لبلادنا في مصر - من أشهر التجار المتنقلين بين نجد والشام و مصر، المعروفين باسم (عُقَيْل) المتاجرين ببيع الإبل، قد عرفه (موزل) أثناء اجتماعه

(١) ص (م) من مقدمة كتاب «أخلاق الرولة وعاداتهم» المعرب.

(٢) هو فوزان بن سابق بن فوزان آل عثمان الدوسري ولد في أوائل عشر الثمانين والمئتين والألف في مدينة بريدة وتوفي سنة ١٣٧٣هـ في القاهرة، وقد ناهز المئة أو تجاوزها، واشتغل بتجارة الخيل والإبل وكان من ذوي الصلة القوية بالملك عبدالعزيز منذ قيامه بتوحيد المملكة، وقد عينه معتمدا لبلاده في دمشق ثم في القاهرة - انظر «الإعلام» للزركلي.

به في (دمشق) فنصحه عندما علم برغبته في التجول في شمال الجزيرة أن يتصل بشيخ (الروَلة) النوري بن شعلان، وكان من عادته أن يقيم في دمشق فترة من الزمن - ليطلب (أخُوَّتَهُ) فتم لـ (موزل) ذالك، وَحظي لدى النوري بمنزلة أهلته ليدعوه (أخاه)، وليعهد إليه بالاتصال عنه لدى بعض حكام العرب في ذالك العهد ببعض أموره العامة، وقد توثقت عرى الصداقة بين الرجلين، حتى أن النوري قال في مدح صاحبه قصيدة بالغ في وصفه فيها بصفات تدل على علو المنزلة عنده[1]، ولقد مكنت (موزل) إقامته الطويلة مع الرولة بأن تكونَ دراسته عنهم قائمة على أسس من الإدراك الواسع، والمعرفة التامة، وبأسلوب هو في ترتيب المباحث على جانب من الإمتاع والشمول، بحيث يصح أن تعد فريدة في موضوعها، لتناولها جميع أحوال القبائل البدوية في قلب الجزيرة بصفة عامة، فتلك القبائل تتفق في مظاهر حياتها الاجتماعية، وفي أسس هذه الحياة وفي أنماطها، وفي وسائل المعيشة وإن اختلفت منازلها وبلادها.

ويتضح هذا جليًا من استعراض فصول هذا الكتاب وهي اثنا وعشرون هاهو تفصيلها:

١- الأجرام السماوية والطقس. ٢- الحيوانات. ٣- بنية المجتمع.

٤- بيت الشِّعَر وأثاثه. ٥- الطعام. ٦- اللباس والسلاح.

٧- عادات الزواج. ٨- الأطفال.

(١) يقول فيها:

الشيخ موسى [اللّي] علومه شفيَّه حافظ علوم من دهور مزمنات
ما جابت الخفرات مثله حليّه ولا له شبيه بشيوخ البداوات
حاكم وزير عارف كل شيَّه ولا له مثيل كود أبا زيد بصفات

انظر القصيدة ص ٣٥٥ في كتاب «أخلاق الرولة وعاداتهم) الجزء الأول المعرَّب.

٩- الغرباء (الجيران والباعة والرقيق والحدادون).

١٠- الشِّعْر. ١١- الإبل. ١٢- الخيل. ١٣- التشاؤم.

١٤- آثار الطبيعة. ١٥- الأرواح كالجن وأحوال القبور.

١٦- القضاء. ١٧- الحماية. ١٨- الضيافة.

١٩- الصفات الخُلُقِيَّة. ٢٠- العداوة.

٢١- الحرب - وهذا من أطول فصول الكتاب إذ يقع في (١٥٨) صفحة.

٢٢- قوانين الوراثة. ٢٣- الموت وما بعده.

ويلاحظ أن كل فصل من هذه الفصول التي تكون مباحث الكتاب العامة ذات فروع متعددة مرتبطة بموضوعه، حاول المؤلف أن تشملها الدراسة بطريقة تستدعي العجب من حرصه في محاولة الاستيعاب والشمول لما له ارتباط بتلك المباحث مما يعد مكملًا لها، ومن دقة نظرته نحو بعض الأشياء التي قد لا يلقى لها القارئ العربي بَالًا، أو قد يعدها من البدهيات في نظره، ولكن المؤلف حينما يتناولها بالبحث والتحليل تبدو صلتها القوية بجوهر الموضوع، وأنها مما لابد منه لاستيفاء جميع جوانبه.

وقد اتجه أستاذان فاضلان في (كلية الآداب) من (جامعة الملك سعود) لنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وهما الدكتور عبدالله بن علي الزيدان، من (قسم التاريخ) والدكتور محمد بن سليمان السُّدَيْس في (قسم اللغة العربية) ليتولى كل واحد منهما تعريب قسم منه، فعني الدكتور السديس بشطره الأول، من أوله إلى نهاية الفصل العاشر، ويقابل هذا من الطبعة الإنجليزية للكتاب في (نيويورك) سنة ١٣٤٧هـ (١٩٢٨م) من الصفحات (٣٢٨) وما بقي وهو ثلاثة عشر فصلًا في (٣٥٦) صفحة، وهو ما يعمل الآن الدكتور عبدالله الزيدان لإعداده للنشر، مع تعاونهما في عملهما بصفة عامة.

ولقد قام (مركز البحوث) في (كلية الآداب) جامعة الملك سعود بنشر القسم الأول فكان الحلقة الـ (٥٠) من منشوراته، وصدر عام ١٤١٥هـ (١٩٩٤م) كما يبدو من تاريخ المقدمة، لا كما طبع في الغلاف (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ووقع هذا الجزء في (٤٤٢) صفحة في طباعة حسنة.

ولاشك أن مما يبعث الطمأنينة في نفس القارئ أن يُحِسَّ بما بين المعرب وبين كاتب الأصل من التوافق في الغاية، من حيث إدراك ما لها من قيمة، وهذا ما يُلْمَحُ من وصف الدكتور السديس لمؤلفات موزل، إذ قال: (تتسم بصفة عامة بالعلمية والجدية والروح المتجردة).

وقد صدَّرَ الدكتور السُّدَيْس هذا القسم بمقدمة أوضح فيها أنه يدرك - كغيره - أن أي كاتب غربي يتصدى لمعالجة شأن من شؤون العرب بالدراسة والبحث، لا تكاد تخلو آراؤه من المآخذ، إذ يقول: (لَسْتَ تتوقع من عين أوربية أن ترى الأمور بعينك، ولا من ذهن أجنبي يعي كل ما توصله إليه حواسه، عما حوله في محيط غريب عليه، بمجرد ممارسته العيش بين القوم سنوات معدودات).

ولهذا ينفي الدكتور السديس عن نفسه استحسان كل ما في الكتاب، مما اعترضه أثناء عمله، وهذا ما حمله على مناقشة المؤلف في بعض ما هو من هذا القبيل، وليس كله إذ هذا في رأيه يتطلب عملاً آخر، هو الدراسة لا التعريب، ويمثل ببعض المآخذ التي أضفى عليها من الإيضاحات بما أضاف، مما يزيد الكتاب قيمة علمية، وهو مع ذالك لا يتورع عن حذف بعض الجمل وأسماء القبائل، حيث لم يجد بُدًّا من ذالك، مع بذل الجهد لنقل مضمون النص بصورة أدنى ما تكون إلى الأصل.

ثم يضيف إلى مقدمته الموجزة مقدمة مؤلف الكتاب، وهي أكثر إيجازًا، التي أوضح فيها عن دراسته، أنها لا تختص بقبيلة (الرُّولة)، بل أضاف ما عرفه

عن (السُّبَعَة) إذ هم كـ (الرولة) جيرانهم، وتنتمي القبيلتان إلى (عَنَزَة) ثم يوضح حرصه على محاولة كتابة الكلمات والجمل من الشعر وغيره، بدقة كما تُنطق، وإن كتبها بحروف لاتينية، رسم صورها، وكثيرًا ما يتبع فصول الكتاب بحواشي وإيضاحات، ويفسر ما يورد من الأشعار على كثرتها، بحيث تعد ذخيرة طيبة لمن يعنى بدراسة لهجات القبائل.

والمعرب الكريم لا يوافق المؤلف - دائمًا - في شروحه وتعليقاته ولهذا استدرك كثيرًا مما وقع من الأوهام منه، في صفحات ألحقت بالكتاب، تقارب الأربعين، مما يعبر عن حرص المعرب على إبراز عمله حيال هذا الكتاب بصورة رأت فيها (جامعة الملك سعود) من آثار الجهد النافع، ما دعاها إلى نشره، لتمد المعنيين بدراسة جانب مهم من حياة أمتنا، ممثلًا في أبناء البادية بمصدر ذي قيمة علمية عن حياتهم، وأكتفي بما قَدَّمتُ بها هذا الجزء - لعل فيها ما يفيد القارئ -:

الدراسات الواسعة التي قام بها المستشرقان الغربيان ألويس موزل Alois Musil التشيكوسلوفاكي وسنت جون فلبي ST. J. B. Philby الإنجليزي عن بلادنا، في شمولها وتنوع أهدافها، وغزارة معلوماتها، وريادتها في كثير من جوانب المعرفة، تعد المصادر الأولى لكل من حاول تناول ناحية من نواحي البحث والتأليف عن هذه البلاد من الغربيين، حتى بعد أن أصبحت هذه البلاد مفتحة الأبواب للوافدين إليها من مختلف أنحاء المعمورة، منذ أول النصف الثاني من القرن الماضي، حين عثر فيها على النفط، وستبقى دراسات هذين الرائدين الغربيين مصدرًا أصيلًا ومرجعًا لكل مَعْنِيٍّ بالبحث والتأليف، في أي جانب من جوانب المعرفة، مما حاولا بحثه، وهما - وإن اختلف نهجاهما في تلك الدراسات ووسائل البحث - قد اتفقا غايات وأهدافًا، أو كادا يتفقان - ولاسيما

في محاولة الشمول والاستقصاء، وبذل الجهد، مهما كلفهما ذالك من مشقة وعناء، وعلى الرغم مما تعرضا له من مخاطر في سبيل بلوغ ما توخياه من غايات.

ولهذا طالما تمنيت أن تُعَرَّبَ جميع مؤلفاتهما على عِلَّاتِها - أي على ما هي عليه بدون تحوير أو تصرف - لِعَرضِ أوضح صورة لما قاما به من مغامرات أثناء رحلاتهما الشاقة في ارتياد النواحي المجهولة من بلادنا، ودراسة مختلف أحوالها، في وقت ما كان يخطر ببال أحد قبلهما المرور بهذا البلاد، فضلًا عن التوغل داخلها لدراسة طبيعتها ومعرفة أحوال سكانها.

لست أجهل كثيرًا من البواعث والدوافع لأكثر من اتجهوا لدراسات أحوال أمتنا من الغربيين، منذ محاولاتهم الأولى ارتياد مختلف أنحاء الجزيرة، في خلال القرون الثلاثة الماضية، ولست ممن ينظر إلى ما قاموا به من دراسات وأبحاث، وما قدموه وما توصلوا إليه من نتائج، نَظَرَ من لا يدرك ما ينطوي عليه كلُّ ذالك من مقاصد، ما كان يراد بها كلها وجه العلم وحده، وخاصة من عني منهم بالمباحث الدينية، قبل (موزل) و (فلبي) ثم ماتوخاه هذان المغامران الغَربِيَّانِ - أول ما توخياه - من اتجاههما نحو هذه البلاد، في زمن كانت أعاصير الفتن الداخلية، والتيارات السياسية الخارجية، تعصف بأهلها ذات اليمين وذات الشمال، بعنف وقوة، فيسارع الأعداء لبسط نفوذهم حول هذه البلاد، بتتبع مكامن الضعف من أهلها، واهتبال الفرص المواتية للسيطرة عليهم، والاستحواذ على خيرات بلادهم، وتمزيق وحدتهم، وتفريقهم إلى دويلات وشعوب، ليسهل التغلب عليها، وتوجيهها الوجهة التي يريد أولئك الأعداء المسيطرون.

ولكنني أدرك أن من أسس قوة أولئك، بلوغهم أسمى مراتب العلم بأحوال هذا الكون، وتعمقهم بإدراك أسرار طبيعته، وما قامت عليه نواميس الحياة فيه،

حتى استطاعوا بعملهم وبمخترعاتهم، وبآلاتهم الحديثة أن يسيطروا على وسائل الحياة كافة - إنهم لم يمتازوا على غيرهم من شعوب هذا العالم بعقولهم ولا أفهامهم، ولكن بالجد والمثابرة والصبر، وقوة التحمل والدأب، حتى بلغوا من الغايات ما يطمحون إليه، وبذالك يكمن سِرُّ تفوقهم.

لقد كان لنا وللغربيين نمطان في حياتنا، لقد عشنا عيشة شظف وشدة وفقر، ومن لازم ذالك أن نكون أقوى صبرًا، وأشد جلدًا على تحمل المشاق من أولئك الذين عاشوا عيشة ترف ورخاء، ونعمة، ولكن الأمر بعكس ذالك بالنسبة لما يقوم به علماؤهم وباحثوهم في سبيل الوصول إلى نتائج علمية، ولاسيما ما يتعلق منها بارتياد المجهول، والتوغل في الصحاري، فالعالم منهم إذا اتجه لذالك، يفطم نفسه عن جميع مأربها، ويبدو بحالة من الإقدام والعزيمة متحملًا جميع ما يعترض طريقه من مشاق في سبيل إدراك غاياته، وما هكذا تكون حالة الباحث منا!

إن من يقرأ كتاب «شمال نجد» لـ (ألويس موزل) يدرك الكثير مما قاساه في سبيل العلم، من شظف العيش وشدة التعب والجوع والخوف والمرض، ومع كل ذالك فقد دأب مستهينًا بما أصابه في سبيل العلم، يواصل عمله ويطالع المؤلفات القديمة من عربية وغيرها بتعمق وجلد وصبر، حتى قدم للباحثين من خلال مؤلفاته وأبحاثه عن البلاد العربية ما لم يقدمه غيره من قبله.

ها هو في اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩١٥ وهو يجتاز رمال الدهناء يصف حالته: (وظننت أنه لم يعد بإمكاني البقاء في الرَّحْل أطول من ذالك، لقد كنت أشعر بالمرض، وقاسيت الكثير من القيء والمغص والحمَّى، وكانت حرارة جسمي ترتفع في الليل إلى (٧, ٤٠) درجة وكانت نوبات المرض شديدة إلى درجة جعلتني غير قادر على تناول الدواء، وصار

البول يخرج مختلطًا بالدم). ومضى له ثلاثة أيام لم يتناول فيها طعامًا، بحيث أعدَّ له أصحابه فراشًا مددوه فوقه، وغطوه، وكانوا يأتون بين حين وآخر ليروا إذا كان لا يزال يتنفس – «**العرب**» ٨/ ٢٧٣ و ٧٣١ و ٧٩١ –.

وقبل ذالك في رحلته الأولى إلى شمال الحجاز هجم عليه أفراد من قبيلة (بني عطية) واستولوا على ما كان يحمل، و أبادوا جميع مذكراته وكانت النسوة يضربنه حتى لا يرين فيه حِرَاكا، فيتوهمنه قد مات – «أرض الأنبياء» The Land of Midian ١٨٤ –.

ولا يعوز القارئُ إيرادَ الشواهد على ما قاساه (فلبي) في رحلاته في مجاهل بلادنا، ففي كتابه «النجود العربية» Arabian Highlands وغيره من مؤلفاته الأمثلة الكثيرة في وصف ما قاساه من مشقة، وما أصابه من تعب، وما حل به من مرض، من جَرَّاءِ تسلق واجهات الجبال الشامخة، وأعالي الصخور، لينقل ما فوقها من نقوش. لقد كان يزحف أثناء محاولاته الوصول إلى بعض الصخور فيصاب وجهه وأنفه بخدوش، ويتزلغ جلد يديه وأصابعه، وتنتشر الأورام في جسده، بحيث يشل المرضُ طاقاتِه وقدرتَهُ عن العمل، فلا يجد أية إسعافات طبية يستعملها لتضميد جراحه وأورام جسده – ٤٠٤ «النجود العربية Arabian Highlands».

إننا إن لم نكن بحاجة إلى ما يقدمه لنا هاؤلاء الغربيون من آراء وأفكار تتعلق ببلادنا – ولا أعتقد أن من بيننا من يرى هذا الرأي – فنحن في أشد الحاجة لكي نستفيد من تجاربهم، ونتخذ من مثابرتهم وصبرهم ودأبهم نهجًا نسير عليه في حياتنا العلمية، وفي دأبنا على الدراسة والبحث، ولا ضير علينا أن نتعلم من أساليب حياتهم التي قد أغرقتنا.

ولقد غمرني السرور حين علمت باتجاه الأستاذين الدكتور محمد بن سليمان السُّدَيْس والدكتور عبدالله بن علي الزيدان لتعريب كتاب «أخلاق

الرولة وعاداتهم» لألويس موزل، وازداد سروري حيث رأيت الدكتور السديس وقد أكمل القسم الأول من تعريب ذالك الكتاب بطريقة تمنيت أن يسير عليها المعنيون بتعريب جميع المؤلفات. إنه – زاده الله قوة ونشاطًا – لم يكتف بتعريب النص وحده، بل أضاف إليه من التعليقات والإيضاحات ما قَوَّمَ كثيرًا من النصوص التي هي بحاجة إلى التقويم، وأصلح من الأخطاء ما هو بحاجة إلى إصلاح، وبهذا أدى مهمتين جليلتين: تقديم ما جمعه هذا الرحالة من معلومات، لا شك أن الباحثين بحاجة إلى أن يقدمها لهم، مما يتعلق بحياة هذه القبيلة الكريمة بلغة سهلة واضحة.

والمهمة الثانية: أن ثقته بعلم ذالك الرحالة لم تدفعه إلى الاكتفاء والاعتماد علىَ علمه، بل أضاف إلى ذالك التنبيه على ما وقع في كتابه من هفوات، لا يستغرب وقوعها من مؤلف لم تمكنه معرفته هذه القبيلة من إدراك كثير من أحوالها على حقيقتها.

وهذه الطريقة التي سار عليها الدكتور السديس هي الطريقة المثلى التي نحن بأشد الحاجة إليها فيما يقدم لنا هاؤلاء العلماء والباحثون من الغربيين الذين قد تحول ظروفهم دون تعمقهم في معرفة جميع أحوالنا، مما قد يكون سببًا لوقوع كثير من الأخطاء في أفكارهم وآرائهم، مما يتعلق بحالة أمتنا ووصف بلادنا.

أما مؤلفات (فلبي) فمما يحزن حقًا أن إحدى دور النشر عهدت إلى مترجم معروف القيام بتعريب بعضها، ولكن بطريقة ليست أمينة، ولا يصح التعويل عليها، فقد كان يعرب الصفحة من الكتاب بأجر متفق عليه، ثم يقدمها للمسؤولين في تلك الدار، فيغيرون فيها، ويحذفون منها لتكون ملائمة ومقبولة لدى جمهور من القراء مما يعنون بذالك الكتاب. ومن أمثلة ذالك تعريب-

كتاب «العربية السعودية»[١] Saudi Arabia فلم يكتف المعرب بتغيير الاسم، بل حذف المقدمة التي حوت ذكر مصادره وخلاصة وافية تتعلق بمؤسس هذه المملكة الملك عبدالعزيز – رحمه الله – في نظر (فلبي) بل إن كثيرًا من آراء المؤلف في أثناء الكتاب قد حذفت منه.

كذا كتابه عن «أرض مَدْيَن» The Land of Midian فقد سُمِّيَ خطأً «أرض الأنبياء أو مدائن صالح»[٢] – مع اختصاصه ببلاد مَدْيَنَ، وعدم صلته ببلاد (الحِجْر) التي تسمى خطأً (مدائن صالح).

ولهذا فإنَّ ما عُرِّبَ من أشهر مؤلفات (فلبي) لا يصح التعويل عليه.

وما أحوجنا إلى معرفة ما في تلك المؤلفات عن بلادنا لنستفيد مما فيه فائدة، ولندرك ما فيها من أوهام فيما نسب إلينا خطأ فنطرحه ونوضحه، فقد ينظر إليه غيرنا باعتباره صحيحًا ما لم نوضح وجه الصواب فيه، فتلك المؤلفات ينظر إليها الباحثون الغربيون أنها من أوثق المصادر عن بلادنا.

إنني وأنا أتصفح ما قدمه لي الدكتور السديس من عمله وهو النصف الأول من كتاب موزل أتمنى أن أرى هذا العمل الوافي إزاء كثير مما تزخر به مكتبتنا من مؤلفات غربية عن بلادنا، وإن كنت لا أُحْسن اللغة التي كتب بها هذا الكتاب إلا أنني ارتاح كثيرًا لسهولة عباراته، ولدقة ملاحظات معربه الكريم، متمنيًا له ولشريكه في التعريب دوام التوفيق.

ولقد أعاد الدكتور السُّدَيس طبع هذا الجزء، فأضاف إليه تصحيحات واستدراكات، وقد نشرت مجلة **«العرب»** س ٣١ ص ٥٤٦ تعليقًا لأحد قرائها على الطبعة الأولى، رجع إليه الدكتور السُّدَيْس.

(١) سيأتي الحديث عنه ص ٢٧٠ و ٢٩١.

(٢) انظر الحديث عن هذا الكتاب مفصلًا ص ٢٩٥.

الحاج عبدالله (فلبي) H. ST. JOHN PHILBY
ومؤلفاته

لي جار كريم، يتعهدني في بعض المناسبات بإكرامي بالزيارة، وبإتحافي ببعض ما قد أتطلع إليه من الكتب النادرة، التي لا تقع تحت يدي، إنه السري[١] الوجيه الشيخ فراج بن شاكر العسبلي، وقد كان من آخر ما أتحفني به نسخة من كتاب (فلبي) المعنون خطأ بـ«تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية» في طبعته الثانية التي صدرت عام ١٤١٤هـ عن (مكتبة مدبولي) في القاهرة.

وقد سبق أن تحدثت عن هذه الترجمة حين صدرت عن (دار العلم للملايين) بما خلاصته: أنه لا يصح التعويل على هذه الطبعة لما تحويه من أخطاء شنيعة، لا في أسماء الأعلام من مواضع وقبائل، بل من الحذف المتعمد الذي حدثني به معربها السيد عمر الديراوي، فقد كنت في بيروت حين طبع الكتاب، فعرض عليَّ الديراوي بعض تجارب الطبع (البروفات) فأرشدته إلى كثير مما وقع فيها من التحريف، فأشار في آخر الكتاب إلى أن أحد المؤرخين من أبناء نجد اطلع على هذه الترجمة، والكتاب لا يزال تحت الطبع فصحح بعض أسماء الأمكنة والأعلام فيه، وساق بعضها.

إلَّا أن المعرِّب لم يكن دقيقًا فيما نقل عني، ولهذا وقع في الأسماء المصححة – على قلتها – أخطاء أيضًا، مع حذف الكثير منها، وفضلًا عن ذالك فقد أخبرني الأستاذ عمر الديراوي نفسه بأن أصحاب (دار العلم للملايين)

(١) سري القوم سيدهم، وهو المتصف بحميد الصفات، وجمعه (سَراة) بفتح السين، قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

كتاب «العربية السعودية»[1] Saudi Arabia فلم يكتف المعرب بتغيير الاسم، بل حذف المقدمة التي حوت ذكر مصادره وخلاصة وافية تتعلق بمؤسس هذه المملكة الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في نظر (فلبي) بل إن كثيرًا من آراء المؤلف في أثناء الكتاب قد حذفت منه.

كذا كتابه عن «أرض مَدْيَن» The Land of Midian فقد سُمِّيَ خطأً «أرض الأنبياء أو مدائن صالح»[2] - مع اختصاصه ببلاد مَدْيَن، وعدم صلته ببلاد (الحِجْر) التي تسمى خطأً (مدائن صالح).

ولهذا فإنَّ ما عُرِّبَ من أشهر مؤلفات (فلبي) لا يصح التعويل عليه.

وما أحوجنا إلى معرفة ما في تلك المؤلفات عن بلادنا لنستفيد مما فيه فائدة، ولندرك ما فيها من أوهام فيما نسب إلينا خطأ فنطرحه ونوضحه، فقد ينظر إليه غيرنا باعتباره صحيحًا ما لم نوضح وجه الصواب فيه، فتلك المؤلفات ينظر إليها الباحثون الغربيون أنها من أوثق المصادر عن بلادنا.

إنني وأنا أتصفح ما قدمه لي الدكتور السديس من عمله وهو النصف الأول من كتاب موزل أتمنى أن أرى هذا العمل الوافي إزاء كثير مما تزخر به مكتبتنا من مؤلفات غربية عن بلادنا، وإن كنت لا أُحسن اللغة التي كتب بها هذا الكتاب إلا أنني ارتاح كثيرًا لسهولة عباراته، ولدقة ملاحظات معربه الكريم، متمنيًا له ولشريكه في التعريب دوام التوفيق.

ولقد أعاد الدكتور السُّدَيس طبع هذا الجزء، فأضاف إليه تصحيحات واستدراكات، وقد نشرت مجلة **«العرب»** س ٣١ ص ٥٤٦ تعليقًا لأحد قرائها على الطبعة الأولى، رجع إليه الدكتور السُّدَيْس.

(١) سيأتي الحديث عنه ص ٢٧٠ و ٢٩١.

(٢) انظر الحديث عن هذا الكتاب مفصلًا ص ٢٩٥.

الحاج عبدالله (فلبي) H. ST. JOHN PHILBY ومؤلفاته

لي جار كريم، يتعهدني في بعض المناسبات بإكرامي بالزيارة، وبإتحافي ببعض ما قد أتطلع إليه من الكتب النادرة، التي لا تقع تحت يدي، إنه السري[1] الوجيه الشيخ فراج بن شاكر العسبلي، وقد كان من آخر ما أتحفني به نسخة من كتاب (فلبي) المعنون خطأ بـ «تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية» في طبعته الثانية التي صدرت عام ١٤١٤هـ عن (مكتبة مدبولي) في القاهرة.

وقد سبق أن تحدثت عن هذه الترجمة حين صدرت عن (دار العلم للملايين) بما خلاصته: أنه لا يصح التعويل على هذه الطبعة لما تحويه من أخطاء شنيعة، لا في أسماء الأعلام من مواضع وقبائل، بل من الحذف المتعمد الذي حدثني به معربها السيد عمر الديراوي، فقد كنت في بيروت حين طبع الكتاب، فعرض عليَّ الديراوي بعض تجارب الطبع (البروفات) فأرشدته إلى كثير مما وقع فيها من التحريف، فأشار في آخر الكتاب إلى أن أحد المؤرخين من أبناء نجد اطلع على هذه الترجمة، والكتاب لا يزال تحت الطبع فصحح بعض أسماء الأمكنة والأعلام فيه، وساق بعضها.

إلَّا أن المعرِّب لم يكن دقيقًا فيما نقل عني، ولهذا وقع في الأسماء المصححة - على قلتها - أخطاء أيضًا، مع حذف الكثير منها، وفضلًا عن ذلك فقد أخبرني الأستاذ عمر الديراوي نفسه بأن أصحاب (دار العلم للملايين)

(١) سري القوم سيدهم، وهو المتصف بحميد الصفات، وجمعه (سَراة) بفتح السين، قال الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

كانوا يتصرفون في بعض نصوص الكتاب، فما توقعوا منها أنها قد تكون سببًا في عدم السماح بنشره في بعض الجهات، حذفوه أو غيروه، وأنه كان يقدم لهم الصفحة معرَّبة فيُجْرِي أحدُهم - بهيج عثمان أو سهيل إدريس - قَلَمَهُ على ما يريد حذفه وبعد ذلك يُهيَّأُ للطبع.

ومما حذف من الكتاب مقدمته الضافية، التي تحوي حديثًا عن إعجاب (فلبي) بالملك عبدالعزيز - رحمه الله - وعن وصفه له بقوة الشخصية، وذكر من يحيط به ممن قد يرجع إلى رأيهم من المستشارين أو العلماء أو غيرهم، ونيله من هاؤلاء وأولئك، وعن موقف الملك نفسه منهم، ثم ذكر خلفه الملك سعود، ووصفه وصفًا كان محلًا لمؤاخذة فلبي، وعدم السماح له بالعودة إلى البلاد، والإقامة في بيروت فترة من الزمن، وكان ذلك إثر مقال نشر في مجلة «الشؤون الخارجية» الأمريكية، (Foreigh Affairs) التي تصدر في واشنطن في ربيع سنة ١٩٥٤م، يحوي نحو ما ورد في مقدمةالكتاب، فأبرق بخلاصته السفير أسعد الفقيه للملك سعود، فحدث لـ (فلبي) ما حدث حتى عُفِي عنه.

وتحوي المقدمة أيضًا بيانًا وافيًا عن المصادر التي رجع إليها في كتابه المعرَّب، وقد حذفت جميعها[1].

ومن التحريف أيضًا تغيير اسم الكتاب فهو باللغة الإنجليزية (Saudi Arabia) وتعريبه «العربية السعودية» أي تاريخ البلاد السعودية.

من هنا فإن ذلك التعريب بطبعته البيروتية الأولى المذكورة ليست صحيحة، بل إن ما اعتراها من التحريف، يجعلها ليست محل ثقة يحسن الرجوع إليه والاطمئنان بما ورد فيه.

---

(١) وتبلغ الصفحات التي حذفت نحو خمس عشرة صفحة.

أما هذه الطبعة الجديدة لتلك الترجمة التي أكرمني الجار العزيز الشيخ فراج فهي أسوأ من سابقتها، فقد وضع في طرتها: (تعريب عمر الديسراوي) فحرف اسم المعرب وزيد فيه (س)، فهو عمر الدَّيْراوي، أحد إخواننا الفلسطينيين، ولا يزال حيًّا يرزق، يعيش في الأردن الآن، وقد عرفته حق المعرفة، وكان مما عرب لي كتاب «شمال نجد» لـ (ألويس موزل)[1]، وعمر الديراوي ليس اسمه الحقيقي، بل هو اسم الشهرة - كما يقال - وله اسم آخر[2]، ورد في سياق بحث نشر في مجلة «الأديب»[3] عن مشاهير العلماء و الأدباء الفلسطينيين.

لقد كانت مناسبة طيبة، حين أكرمني الشيخ فراج بهذا الكتاب للحديث عن فلبي ومؤلفاته، فهو من أعرق الباحثين الغربيين صلة ببلادنا، ومن أوسعهم اطِّلاعًا، ومعرفة بأحوالها في العهد الأخير، ومن أكثرهم مؤلفات تناول فيها كثيرًا من تلك الأحوال، بالبحث والدراسة بعمق وتقصي، ولهذا كان كثير من الإخوة يسألونني عن (فلبي) وعن مؤلفاته.

والواقع أن من لم يقرأ تلك المؤلفات بلغتها الأصلية (الإنجليزية) لا يستطيع الحكم عليها، ولا أن يتبين مدى ما يتصف به (فلبي) حيال ما يبديه من آراء، أو يعرضه من أفكار، تتعلق بمشاهداته في أثناء تجواله في مختلف أجزاء المملكة، واختلاطه بجميع طبقات سكانها، وتغلغله في محاولة إدراك ما يتطلع إليه الباحث الغربي عن بلاد شرقية عربية، لم يسبق لأبناء جنسه معرفتها، معرفة تامة من جميع أحوالها، خلال فترة طويلة من الزمن.

---

(١) تكلمت عنه ص ٢٥٠.

(٢) هو عمر أبو حجلة، عمل موظفًا في (أرامكو) في الظهران فترة من الزمن.

(٣) مجلة «الأديب» صاحبها الأستاذ البير أديب، وكان منزلي في بيروت بقرب منزله، الذي كانت فيه إدارة المجلة، وكنا نتبادل الزيارة، وآخر عهدي به وبالمجلة مغادرتي بيروت أثناء الحوادث، وقد توقفت «الأديب» عن الصدور في شهر إيلول ١٩٨٣م وتوفي صاحبها في ١٢ محرم ١٤٠٦ (٢٦/ ٩/ ١٩٨٥م) - انظر «الشرق الأوسط» عدد ٥٤١٦ في ١٠/ ٤/ ١٤١٤ (٢٦/ ٩/ ١٩٩٣م) وفيها ترجمة وافية عنه ص ٢٠.

من هنا فإن ما أتي به لا يعدو أن يكون معلومات موجزة، وانطباعات خاصة عن الرجل وعن مؤلفاته، غير متعرض لاتجاهاته السياسية، ولا للكلام عن صلاته المتعلقة بهذه الاتجاهات، وما أُبديه من كل ذالك قد لا يَعْني المتخصصين بالدراسات الاستشراقية، أو من عرفوا فلبي معرفة تامة من مؤلفاته بلغتها الأصلية[1].

ويحسن إيراد نبذة موجزة عن حياة الرجل، مما نشر عنه في المؤلفات العربية التي تعرضت لترجمته.

ولد (فلبي) في جزيرة (سيلان) عام ١٨٨٥م (١٣٠٢هـ) وانضم إلى (كلية اللغات الشرقية) في (جامعة أكسفورد) وهو في الثالثة والعشرين من عمره، ثم عمل موظفًا في حكومة الهند في السنة التي تليها، ومكث نحو سبع سنين، وعمل في العراق بعد ذالك سنة، فرأس البعثة البريطانية في الجزيرة العربية فترة، عاد بعدها مستشارًا في وزارة الداخلية في العراق، فرئيسًا للبعثة البريطانية في الأردن، حيث مكث أربع سنوات، وتقلب في وظائف عديدة[2]، ولم يكن أثناء قيامه بأعماله السابقة منقطع الصلة عن أحوال هذه البلاد، التي اتخذها

(١) ومن حسن الحظ أن هناك من الغربيين وغيرهم من قرأ تلك المؤلفات وكتب عنها كتابات وافية، ومن تلك الكتابات باللغة الإنجليزية مؤلف (اليزابيث مونرو (Elizabeth Monroe) «فلبي: الجزيرة العربية» "Philby of Arabia" المطبوع في لندن سنة ١٩٧٣م يقع في نحو ٣٠٠ صفحة، وقد ذكرت بأنها اتخذت من مصادر كتابها أوراق فلبي التي في (كلية سنت انطوني) في (جامعة اكسفورد)، وجورج رينتز (George Rentiz) في بحثه (فلبي كمؤرخ للعربية السعودية) الذي قدمه في ندوة (دراسات تاريخ الجزيرة العربية) ونشر في الجزء الثاني من الكتاب الأول ص ٢٩ وما بعدها.

ومن أوفى الدراسات النقدية بحث نشر بعنوان (فلبي كمرجع في تاريخ المملكة السعودية في بداية القرن العشرين - دراسة نقدية) نشر في مجلة (Middle Eastern Studies. Vol. 21, 1985. pp. 223 - 143) وعربه الدكتور جهاد صالح العمر مدير مركز الدراسات الإيرانية في جامعة البصرة ونشر في مجلة «الخليج العربي» السنة الـ(١٦) المجلد الـ(٢٠) العدد الـ(٤) سنة ١٩٨٨م.

(٢) ما تقدم نقلًا عن «موسوعة المستشرقين» ص ١١٦.

فيما بعد مستقرًّا له، فبصرف النظر عما له في تلك الأقطار التي عمل فيها من الصلات التجارية وغيرها فالرجل كان طُلَعَةً، قد عرف الكثير عن أحوال البلاد، مما قرأ من كتابات المستشرقين الذين زاروها، ومن خلال الصلات القوية بينها وبين العراق والأردن، إبَّان عمله فيهما، وهناك من أبناء جلدته من الإنجليز من كان ذا صلة قوية بهذه البلاد مثل (الكابتن: وليم هنري آرفن شكسبير[1] (William Henry Irvine Shakespear) وغيره، مما لا داعي للاسترسال في الحديث عنه.

وكان قدوم (فلبي) إلى البلاد في اليوم السابع عشر من تشرين الأول سنة ١٩١٥ (٩ ذي الحجة ١٣٣٣هـ) عن طريق البصرة إلى البحرين، ومنها إلى ميناء العُقَيْر[2]، حيث سار إلى الأحساء، ومنها اتجه إلى الرياض، حيث اجتمع بالملك عبدالعزيز. وقد فصل ذالك في كتابه «أيام بلاد العرب Arabian Days» الذي قام بتلخيصه الأستاذ خيري حماد، في كتاب دعاه «عبدالله فلبي قطعة من تاريخ العرب الحديث»، نشر في بيروت سنة ١٣٨١هـ[3] (١٩٦١م) والأستاذ خيري حماد أديب فلسطيني، عمل في سفارة المملكة العربية السعودية فترة من الزمن، يشرف على نشرة كانت تصدرها في بيروت.

وكتب الأستاذ الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بحثًا ضافيًا عن حياة (فلبي)، يعد من أوفى الدراسات وأوثقها عنه، عول فيه على كتاب أُلِّف باللغة

(١) قُتِلَ في وقعة (جراب) سنة ١٣٣٣هـ.

(٢) العُقَير كان من أشهر موانئ المنطقة قديمًا، ومن بعده (عينين) - الجبيل الآن - قبل اكتشاف النفط في الظهران وجهات القطيف، حيث استعملت موانئ أخرى.

(٣) نشر في بيروت، قال عنه الأستاذ الزركلي: وفيه كثير من فصول وتعليقات ترجمها عن كتب فلبي غير المنقولة إلى العربية، إلا أنه ذهب مع القائلين بجعل فلبي عند عبدالعزيز أكبر مما كان. انتهى. ويلاحظ أن الأستاذ الزركلي ترجم فلبي في حرف الهاء (هاري سانت جون فلبي) أو الحاج عبدالله فلبي. «الأعلام» ٨/ ٦٣ و٦٤. ترجمة يبدو أنه فيها كان متأثرًا بنظرة صديقه الشيخ يوسف ياسين وهو أحد من كان فلبي ينال منهم - كغيره من المستشارين.

الإنجليزية بعنوان (فلبي جزيرة العرب Philby of Arabia) تأليف إليـزابث مونـرو (Elizabeth Monroe) صدر حـديثًا وبحث الـدكتور عبدالله نشـر في مؤلف عـربه وعلق عليه – نشر سنة ١٤١٧ بعنوان «بعثة إلى نجد» ألفه (فلبي) عن البعثة التي رأسها إلى نجد عـامي ١٣٣٦ و ١٣٣٧ (١٩١٧، ١٩١٨م) يصف فيه رحلته إلى هذه البلاد، وهو أول كتاب دونه (فلبي) عن الملك عبدالعزيز وعن المملكة.

وقـد هيأ الملك عبـدالعـزيز – رحمـه الله – لفلبي مختلف الـوسـائل، لكي يتجـول في مناطـق المملكة، ويـرتـاد مجاهلهـا، فقـام بـرحلات متعـددة، إلى جهات من غيـر السهل الوصـول إليها لمن لم تُهَيَّأْ لـه الوسـائل التامـة، وكانت حصيلة تلك الـرحلات مـؤلفاته المعـروفة، التي شحنها بـالمعلومـات المتعلقة بـوصف جميع مـا شـاهده مـن أحوال السكـان المختلفـة، ومن وصف البـلاد جغرافيًا وطبَقِيًـا (جيلوجيا)، ومن تسجيل ما رآه من آثار ومن مظـاهر طبيعة تلك البلاد بصفة عامة، وما عرفه من أحوال السكان، في مختلف جوانب حياتهم.

من المعروف أن (فلبي) أخـذ نفسه على حالة من التقشف وخشـونة العيش، حينمـا استقر في بـلادنا، لأنـه قد مـارس قبل ذلك أثناء رحـلاته الطـويلة، مـا يضطره إلى أن يتخـذ نمطًا خـاصًا في حياتـه، ليقوم برحـلاته في صحـاري هذه البلاد، ذات الأجواء المتقلبة صيفًا وشتاءً، من البرد القارس، إلى القيظ الملتهب.

ثم هو في الـوقت نفسه بحاجـة إلى أن يمارس من الأعمـال ما يستلزم تقـوية جسمه، ليتمكن من تسلق الجبال الشامخـة، وليستطيع المشي مسافات طويلة، أو قطع بعض المسافات الأخرى على ظهور حيـوانات لم يعتد ركوبها، وليقاسي من أنـواع التعب مـا يحـدث لـه كثيرًا من الآلام فـي جسمه، ممـا عبر عنـه في مواضع من كتبه، مما يـدل على قوة عزيمته وتصميمه واستهانتـه، بما يتعرض له من المتاعب، أثناء رحلاته في تلك المناطق المتباعدة، التي لم تعبد بعد طرقها.

يقول في رحلة قطعها هو ومن معه علـى ظهور الحمير، في منطقة بلاد وادعة وقبيلــة الــوعلــة[١]: (كـــان التسلق بين الصخور المفككة المهلهلة لهذه المنحدرات الشاهقة، فـي غاية الصعوبة، مما أثر في يـدي بكثير من الخدوش والكدمات، ومن جـراء السير بين الصخور (الجرانيتية) الحـادة، الذي أثر على باطن قدمي بشكل كبير).

ويضيف في موضع آخر[٢]: (إن الزحف والتسلق الشاق المنهمك بين الصخور الـذي أحدث خـدوشًـا في وجهي وأنفي، وتشققًـا في أصابعـي، وظهور يـدي، كل ذالك سبب لي مشكلـة خطيـرة، فقـد أدركت أن كل ذالك مـن أسبـاب الإهمـال والغفلـة، إذ حـدث لي بعض الأورام المنتشـرة فـي جسـدي، ممـا أحـدث لي شَلَّ طاقـاتي، وقدرتي على العمل، ولم يكن لـدي أية إسعافـات طبية من عـلاج، سوى بعض الضمادات، إلا أن ذالك لم يكن ليخفف مما واجهته من مشاق وصعوبات).

هي أمثلة مما كان يقاسيه أثناء رحلاتـه، المقصود منها الإشارة إلى ما أخذ به نفسه، من التكيف بصفة القوة، للحفاظ على صحته، ليقوم بمواصلة أعماله.

وكان مع ذالك فيما يبدو بصحة جيدة، إِلَّا أنه لم يمتع في الحياة طويلًا، حيث لم يتجاوز الخامسـة والسبعين من عمره، وتوفي في شهـر ربيع الآخر ١٣٨٠هـ (اكتوبر ١٩٦٠م) في بيروت إثر مرض لم يمهلـه سوى بضعة أيام، إذ كان يتردد على تلك البـلاد، فقـد عُيِّنَ منـذ سنـة ١٣٧٧هـــ (١٩٥٧م) أستـاذًا زائرًا في الجامعة الأمريكية.

لقـد كان من أثـر مـا عـرفه الملك عبـدالعـزيـز – رحمه الله – من إخـلاص (فلبي) ونصحه له في شـؤونه المتعلقة بصلاتـه بالحكومة الإنجليـزية، وإدراكه

---

(١) «النجود العربية» ٤١٠ من الأصل الإنجليزية.

(٢) المصدر السابق ص ٤١٣.

من أحوالـه، ما حمله إلى أن يُهيِّئ لـه جميع وسائل الاستقـرار في البلاد، فأدرك (فلبي) من ذالك العطف، ومن تلك الرعاية مازاده تعلقًا ورغبة في البقاء، وأعلن بعد ذالك إسـلامه، الـذي قوبل بارتيـاح ورضا، مع وجـود من يبدي شكًـا حيال هذا الأمـر، لعدم ظهور (فلبي) بأداء الـواجبات الدينيـة والمحافظة عليهـا، فيما يبدو لبعض من لهم صلة به، والرجل قَدِمَ على ما قَدَّمَ مما لا داعي للخوض فيه.

ولكن هـذا لا يمنع من الاقتناع بصحـة إسـلامه، لمعـرفتـه بكثير من حقـائق الإسلام، وقـد ألف كتابًـا دعاه "The Background of Islam" طبع سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) سيأتي الحـديث عنـه ولا صلة لـه بـالمـوضوع، وقـد حـدثني الشيخ صـالح بن عبـدالله العنقـري[١]– رحمه الله– الذي عين مرافقًا لـ (فلبي) بعد أن أعلن دخوله الإسلام، ليتـولى تعريفه بواجباته الدينية، أنـه كان على معرفة بتلك الواجبات، وعندما يحاول الشيخ صـالح مرافقته أثناء أداء مناسك الحج، يفهمه (فلبي) أنـه ليس بحـاجة إلى من يبينهـا لـه، بل كثيرًا مـا يحـاول (التملص) من مرافقتـه، وتزوج سيدة مسلمـة من أهل البلاد[٢] واستقر في مـدينة الـريـاض، في بيت منحه إيـاه الملك عبدالعزيز في الحي الـذي كان يعرف قديمًا بـاسم (حِلَّة الأجناب) وتلك بيـوت كانت تستأجر لسكنى الـوفود، في الجـانب الجنوبي من مدينة الرياض، وقد كان له من هذه الزوجة المسلمة أبناء لا يزالون أحياء.

وله ابن كبير من زوجته الأولى[٣] يدعي (كيم فلبي Kim Philby) أذكر أنه زار الريـاض سنة ١٣٧٥هـ، فاتصل بي أحـد موظفي (الشعبة السيـاسية) وكنت إذ ذاك أصدر صحيفة «اليمامة» وأخبرني بأن ابن فلبي سيزور الصحيفة، ومعه أحد

(١) تولى فيما بعد وظائف قضائية في الخبر وغيرها.

(٢) أصلها من نسـاء القصر من (بلوشستان) واسمهـا (فيروزة) إلا أنه سمَّاهـا (روزي) وله منها ابنان، همـا خالد الذي كان في الحادية عشرة من عمره لما توفي أبوه، وفارس الذي كان في السنة التاسعة.

(٣) وتدعى (دورا)، وقـد بقيت في عصمته، إلى أن تـوفِّيَتْ عام ١٣٧٧ (١٩٥٧م) في لنـدن، ولها منـه بنات هن (بات وديانا وهيلان).

موظفي الـديوان الملكي، فأتى ومعـه الأستاذ عبدالعـزيز بن إبـراهيم بن معمر[١]، أحـد مستشاري الملك سعـود، ووجه إلـيَّ بعض أسئلة تتعلق بـالعمل الصحفي، أجبت عليها، ومنها ما يتعلق بحـرية الصحافة، فأخبرته بالحقيقـة، وبالواقع الذي كـانت تتمتع به الصحيفـة من ذالك، فنشـر مقالًا في مجلـة «الايكونـومست The Economist» يثني على الصحافـة في بلادنا، وأنهـا على خير حالـة تحظى بها في العالم العربي، وذكر بعض عناوين لمقالات نشرتها «اليمامة» ومنها (احذروا وعي الجماهير) و (أغلقها وأرِحنا). وعلمت فيمـا بعد أنه امتهن أسوأ مهنة، وذهب إلى (الاتحاد السوفيتي) و مات هناك منذ بضع سنوات.

لم أكن قـوي الصلة بـ (الحـاج عبدالله فلبي) – كمـا كان يـودُّ أن يُدْعَى – إذ إقامتي في الرياض حدثت في وقت متأخر في عام ١٣٦٨هـ، وقد أردت الالتقاء به حينما طلب مني الأستاذ ناصر بن حمـد المنقور – وكان المشرف على جامعة الـريـاض – طلب مني التحـدث إلى طـلابهـا عن مـؤرخي نجـد، وبعـد إلقـاء المحاضرة الأولى من هذا الحـديث وذالك في مساء يوم السبت ٣/ ٧/ ١٣٧٩، وَعَـدتُّ المستمعين بأنني سأتحـدث عـن مـؤرخي نجـد في العصـر الحـديث كالـريحاني، وفـؤاد حمزة، وحـافظ وهبـه، و (فلبي) في المحاضـرة التاليـة، مما حملني على أن أطلب من أحد الإخـوان وهو الأستـاذ عبدالعزيـز بن إبراهيم بن معمر أن يهيئ لي فرصة الالتقاء بـ (فلبي).

(١) هو عبدالعزيـز بن إبراهيم بن محمد بن معمر، كان والده رئيس الديوان الملكي في عهـد الملك عبدالعزيز، ثم عُيِّن وزيرًا مفوضًا في بغداد فترة، ثم نقل (قائم مقـام) في مدينة جدة في عشر الستين من القرن الماضي، وله عدد من الأبناء منهم عبدالعزيز الذي عمل بعـد إكمال دراسته في عدد من الشركات وقام بتأسيس إدارة مصلحـة العمل والعمال في الـدمام بعـد صدور المـرسـوم الملكي (١٣٧٢) المتعلق بها – انظـر جريـدة «اليوم» عـدد ٦٩٦٥ في ١٠/ ١/ ١٤١٣ – ثم عمل في الديـوان الملكي مستشارًا للملك سعـود، ثم سفيرا للمملكة في سويسرا، كمـا عمل قبل ذالك مترجمًا لدى الملك عبدالعزيـز في بعض الفترات، توفي في يوم الأربعاء ١٥/ ١/ ١٤٠٥ (٢٦/ ١٠/ ١٩٨٤) إثر سقوطه من سيارة نقل (حافلة) في الدمام.

وفي صبيحة يوم من الأيام، قبل طلوع الشمس، مرَّ بي الأستاذ عبدالعزيز وأخبرني بأن (فلبي) في الانتظار، فذهبت معه إلى بيته، وكان باب البيت مقابلًا للمحلة التي تدعى (شِلَّقا) يفصل بينهما شارع ضيق، فطرقنا الباب، فكان الفاتح هو (فلبي) نفسه، وقد كانت مقابلته جافَّة، عرفت فيما بعد أن بينه وبين صاحبي عدم انسجام، فكثيرًا ماكان يحدث بينهما لجاج في بعض المسائل السياسية وغيرها في مجلس الملك سعود، وكان عبدالعزيز بن معمر يسيء الظن بفلبي، ويَصِمُهُ بأنه هو الذي وقف عثرة في سبيل انتشار التعليم الحديث في نجد، منذ عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - بل كان يصرح بهذا، وبأن (فلبي) نصح الملك بعدم إدخال التعليم في البلاد.

ولا أدري ماهو مبلغ هذا الكلام من الصحة.

فتح لنا الرجل الباب وأشار لنا باتباعه، وصعدنا معه إلى غرفة صغيرة جلس هو فوق كرسي أمامه منضدة، وأشار لنا فجلسنا على كرسين بقربه، وأوقد (السَّمَوَّر)[1] واشتغل عنا بالكتابة في أوراق أمامه، وتركنا جالسين صامتين.

فما كان مني إلَّا أن توجهت إليه بهذا السؤال: ما الذي شغل الحاج عبدالله عن ضيوفه؟ فالتفت إليَّ وقال: أنا أُؤَلِّفُ كتابًا أُوَضِّح فيه أن (بلقيس) ملكة سبأ لم تجتمع بالنبي (سليمان). فقلت له: سبق أن طرق هذا الموضوع كاتب لبناني يدعى جورج حبشي الأشقر، ألف قصة عن بلقيس في جزءين في الأول منهما توسع في الحديث عن عدم صلتها بالنبي سليمان. فقام والغرفة مملوءة جوانبها الثلاثة برفوف الكتب، فتناول الكتاب وأرانيه، وقال: هذا؟ فقلت: نعم. قال: قد قرأته. فقلت: إذن على م تعتمد في إثبات رأيك؟

(١) السَّمَور: إناء مدور مستطيل بشكل زخرفي، مصنوع من الصفر، مجوف باطنه، يوضع الماء في تجويف يحيط بشكل أنبوبي، يملأ فحمًا، وعندما توقد فيه النار ويغلي الماء، يفرغ من صنبور في إناء الشاهي، منتشر في بلاد الشام، ولعل الكلمة تركية.

قال: على أمرين - وكان يتكلم اللغة الفصيحة التي لا لكنة فيها -: الأمر الأول: الآثار التي اكتُشِفَت في اليمن، وفيها ما يحدد زمن بلقيس.

الأمر الثاني: اعتمدت على سلسلة النسب عند العرب. فاستوضحت منه: على من يعول في معرفة الأنساب؟ فقال: على ابن الكلبي برواية ابن هشام في «السيرة». فقلت له: لماذا لم ترجع إلى مؤلفات ابن الكلبي بدون واسطة؟ فأجاب: مؤلفات ابن الكلبي مفقودة. قلت: منها كتابان وافيان بأنساب العرب، لا يزالان موجودين، أحدهما النصف الأول من «جمهرة النسب» في (المتحف البريطاني) والثاني النصف الثاني من كتاب «نسب معد واليمن الكبير» في مكتبة (دير الإسكوريال) في أسبانيا، ولديَّ مصورتا المخطوطتين ومن الممكن إعارتك إياهما.

تناول من أمامه كتاب «تاريخ الأدب العربي»[1] لبروكلمان، ويبدو أنه رأى صحة ما ذكرت، فالتفت إلى عبدالعزيز قائلًا: هذا حمد الجاسر؟ فقال: نعم. فقال: لِمَ لَمْ تعرفني به؟. والتفت إليَّ قائلًا: الناس في هذه البلد يكرهونني ويكرهونك. فقلت له: قد يكون الأمر صحيحًا بالنسبة لك، أما أنا فكلهم يحبونني. فقال: لا !! الملك يكرهك والناس هنا تبع له. وكان سعود - رحمه الله - في تلك الأيام متأثرًا من بعض ما كنت أنشره في «اليمامة» بتأثير من المحيطين به - كالمشرف على شؤون الصحافة - وغيره، ثم توجه إليَّ بعد أن أكمل عمل (الشاهي) وقدم لنا كوبين مِنِه - قائلًا: وما هو المقصود من زيارتك لي؟ فقلت: أريد أن أعرف شيئًا عن الحاج عبدالله فلبي وعن مؤلفاته عن بلادنا، لأنني سأتحدث إلى طلاب (الجامعة) عن ذالك. فوقف بجوار أحد

(١) عُرِّبَ هذا الكتاب في عدة أجزاء.

الرفوف، وأشـار إلى مؤلفاته، وصار يعـددها، فأخبرته بأنني قد عـرفت أسماءها وإن جهلت محتوياتهـا، فقال: أتريد أن تعرف جميـع ما يتعلق بي منذ أكملت دراستي وبـدأت أعمـالي؟! وأشـار لي ولصاحبي بـأن نتبعه، فنـزل إلى الـدور الأرضي، وفتح لنا غرفة مستطيلة مملوءة بـالإضبارات المرتبة بأرقام متسلسلة، لا أبالغ إذا قلت: إنَّ الغـرفة بجميع جـوانبها مملوءة بهـا وقال: منذ بـدأت حياتي السياسية إلى يومك هذا وأنـا أسجل جميع ما يمرُّ بي في هذه الإضبارات، التي تحوي أشيـاء كثيرة، تقـارير ومكـاتبات سيـاسية، ودراسـات أثريـة وجغرافيـة، ورحلات، إلى غير ذالك مما عرض لي في جميع الأيام التي مَرَّت بي.

ثم مرَّ بنـا على حجرة صغيرة فيها صِـوَانَانِ (دولابان كبيران) مملـوءان بالكتب فقال: هذه كتب مخطوطة كـانت تهدى لي من بعض أهل القرى التي أمر بها ومن بعض الأفراد، وأنا لا أحسن محتوياتها، فأرجو أن تنظر فيها لكي تخبرني عنها.

كان نور المكان ضعيفًا، والـوقت ضيقًا. فقلت: الأمر يحتاج إلى وقت أطول من هذا، قد أزورك فيه. قال: وأنـا أرغب زيارتك في بيتك. فأخبرته بأن صاحبي يعـرفه. فقـال: أنا مـدعو لحضـور (مؤتمـر المستشرقين) في (مـوسكو) وبعـد عودتي آمل أن تتم لي زيارتك.

ثم ذهب لحضور ذالك المؤتمـر وبعد عودته تـوفي في بيروت في شهر ربيع الآخر ١٣٨٠ (اكتوبر سنة ١٩٦٠) وكنت إذ ذاك في أمريكا حين علمت بوفاته.

وماذا كان مصير تلك الإضبارات:

تقدم ذكر الحجـرة التي تحوي الكثير من الإضبارات ممـا جمع فيها (فلبي) تقاريره الرسميـة وأخبار تنقله في وظائف سياسية لحكومتـه الإنجليزية، ثم أنباء رحلاته وتنقلاته في أنحاء مختلفة من الجزيرة.

ويبدو أن هاجس (فلبي) نحو آثاره كان ينتابه شيء من عدم الاطمئنان، فبعد

أن يذكر ما جرى لـ (ألويس موزل)[1] عندما هوجم في شمال الحجاز وأبيدت السجلات التي كان يـدون فيها معلوماته يقول: وأكثـر الأمور مشقة على النفس في الجزيرة أن يفقد المرء ما سجله أثنـاء تجواله الشاق في مجاهل البلاد، ولما كانت لي خبرة بشؤون الاكتشافات في الجـزيرة كنت أبلغ مرافقي بأنه لو حدث لي حـادث سوء فإنهم أحرار فـي التصرف بـالمـال الذي أحملـه، أمـا الكتب والأوراق التي معي فلعلها تدر عليهم أضعـاف ما يؤملون لـو أنهم أوصلوها إلى أقرب قنصلية بريطانية، أو مؤسسة بريطانية في البلاد[2]. انتهى.

ولقد بلغني أنـه أوصى بكل ما خلفه من كتـابات ليوضع في جـامعة (لوفـانو) في (بلجيكا) حيث كان صديقه العالم الأثري (ركمنز) يعمل في تلك الجامعة.

ولعل موتـه المفاجئ لم يمكنه من تحقيق ذالك، فقـد توفي أثناء عـودته من (مؤتمر المستشـرقين) الذي عقد في (مـوسكو) سنة ١٩٦٠م عندمـا مر ببيروت في طريقـه إلى الريـاض، وليس الأمر كما يفهم ممـا ورد في «الأعلام» لـلأستاذ الـزركلي من قـولـه[3]: (ويظهـر أن «يـوبيل الجـزيـرة العـربيـة» أغضب بعض المنتقدين فيـه من رجال الدولة السعـودية، بعد وفـاة الملك عبدالعزيز مبـاشرة فصودرت نسخ الكتاب، وأبعد فلبي عن المملكـة وتوفي ببيروت) انتهى، إذ تأثر سعود – رحمه الله – كـان قبل ذالك بفترة طويلة، والكتاب المـذكور صدر قبل وفاة الملك عبدالعزيز، فتأثر سعود كـان ناشئًا عما ورد في الكتاب المذكور وما كتبـه (فلبي) إثر وفـاة الملك عبـدالعزيـز في مجلـة «الشـؤون الخارجيـة» التي تصدر في أمريكـا وقد رضي عنه سعود وعاد (فلبي) إلى الريـاض وأقام فترة من الزمن وسافر لحضور المؤتمر، وعند عودته توفي في بيروت.

---

(١) وقد أشار فلبي إلى ماحدث له بعد اكتشاف القسم الجنوبي من (حسمى) من هجوم أفراد مـن قبيلة بني عطية، وأن نساء من هذه القبيلة هاجمنه وأبادت السجلات التي كان يدونها. – «أرض الأنبياء» ٨٤ – ٨٥.

(٢) «أرض الأنبياء» ص ١٨٤ – ١٨٥.

(٣) ج ٨ ص ٦٤ طبعة (دار العلم للملايين) بيروت.

ولقد كان بين (فلبي) وبين بعض مستشاري الملك سعود - رحمه الله - نفرة، فأظهر هاؤلاء للملك أنه قد يكون في هذه الاضبارات مما يتعلق بالملك مالا يحسن، فنقلت من بيت فلبي حيث ركمت في دهليز واسع يوصل إلى مقر (الشعبة السياسية) في الناصرية وهذا آخر العهد بها. وبعد نشر ما تقدم تحدث الأستاذ محمد رضا نصر الله عن الموضوع، ومما قال تعليقًا على قولي[1]: (ولكنني اطلعت على معلومة تتعلق بزاوية أخرى من مكتبة فلبي وإضباراته ووثائقه، وردت في كتاب «أربعون عامًا في الكويت» ألفته فيوليت ديكسون، التي قامت بزيارة المملكة وفي حديثها عن زيارتها لزوجة فلبي بعد وفاته بشهور قليلة، قالت: في غضون ذلك كان (جورج رنتز) و(هومر) من شركة (أرامكو) يتباحثان مع عبده العنزي صديق العائلة، للمفاوضة على ثمن شراء المكتبة كلها، فتم الاتفاق على عشرة آلاف دولار، لقد ملأت الكتب والوثائق ثمانية وثلاثين صندوقًا كبيرًا، تم شحنها إلى مكتبة (أرامكو) بالظهران). وعلق الأستاذ محمد رضا قائلًا: (إذن فمكتبة فلبي وبعض وثائقه قد لا تكون كلها مركونة في ديوان الشعبة السياسية، وإنما موجود بعضها لدى مكتبة أرامكو، حيث اعتادت الشركة البحث عما يتعلق بتاريخ المملكة وجغرافيتها للاحتفاظ به). إلى آخر ماذكر.

وقد وصفت السيدة فيوليت ديكسون مكتبة (فلبي) بقولها[2]: (وكان منزل فلبي في الرياض يضم مكتبة هائلة، بالإضافة إلى مجموعة مهمة من الأوراق، وكان فلبي طيلة حياته حريصًا جدًّا على الاحتفاظ بكل رسالة يتلقاها، وكذلك المذكرات التي ألف منها كتبه العديدة، وبروفات الناشرين وكانت شركة أرامكو ترغب في شراء كل مكتبته وأوراقه، وكان جورج رنتز من قسم العلاقات بـ(أرامكو) يتولى المفاوضات بهذا الخصوص) انتهى.

(١) جريدة «الرياض» عدد ١٠٤١٢ تاريخ ١٧/٨/١٤١٧هـ.
(٢) «أربعون عامًا في الكويت» ص ٣٣١.

ثم كتب الأمير تركي بن عبدالله بن عبدالرحمن للأستاذ محمد رضا نصر الله كتابًا خلاصته: (يوجد جزء كبير مما خلفه (فلبي) من أوراقه الشخصية في (مركز الشرق الأوسط) في (كلية سانت انتوني St. Anthony) بجامعة أكسفورد، وحسبما أظن وصلت هذه الأوراق عن طريق أسرته، وتحتوي هذه الأوراق على كم كبير من الآراء والمعلومات والوثائق، ومن أهم أقسامها:

١- ملاحظات تشمل زيارات المسؤولين البريطانيين، خطوط سكك حديد، الأوضاع الإدارية في المنطقة، الاجتماعية السياسية مثل اجتماع (كوكس) مع الملك عبدالعزيز.
٢- كتب لم تنشر ويصل عددها إلى سبعة كتب.
٣- رحلاته: الإعداد والكتابة عنها مثل رحلة الربع الخالي.
٤- مقالات وبروفات بعض كتبه المنشورة) انتهى.

وقد نشر الأستاذ محمد رضا نصر الله الكتاب في جريدة «الرياض»[1]
وقد جرى الاتّصال بـ(أرامكو) للاستيضاح عن تلك الأوراق، ولكن لم يعثر في مكتبة قسم البحث والترجمة في شركة (أرامكو) - على ما بلغني - إلَّا على مؤلفات (فلبي) المطبوعة، وبعض كتب أخرى قد تكون مما كان يقتنيه، أما الإضبارات فلا وجود لها، وأكاد أجزم بأن الكتب التي رغبت (أرامكو) بشرائها من ورثة (فلبي) بواسطة (رنتز) و (هومر) هي الكتب المطبوعة التي كانت تحويها غرفة الاستقبال التي قابلني فيها (فلبي)، فهي مملوءة بالكتب والمصادر التي كان يرجع إليها في كتابة أبحاثه.

أما الإضبارات الكثيرة التي كانت تملأ حجرة مستطيلة واسعة، فقد شاهدتها مركومٌ بعضها فوق بعض دون ترتيب في الدهليز الموصل للشعبة السياسية في قصر الناصرية - شاهدتها مرارًا، وكان يتساقط من بعض

(١) عدد ١٠٤٦٦ في ١١/١٠/١٤١٧هـ.

الإضبـارات من الأوراق ما يتناوله بعـض المارّين بذالك الدهليـز، وفيهـا بعض الصور، وأتوقع أنهـا بقيت فترة، شُغل الملك سعود - رحمه الله - خلالهـا وسافر للعلاج، وتفـرق مستشاروه الـذين نصحوا بإحضـارها. وهنـاك من يقول بأنـه أمر بإحراقهـا، ولكنني أستبعد هذا، ومادام الأميـر تركي بن عبدالله أشار إلى أنهـا قد تكـون وصلت عن طـريق أسـرة (فلبي) إلى كليـة (سـانت أنتـوني) بجـامعـة (اكسفورد)، فلا أستبعـد أن تكون هي الإضبارات التي كانت فـي مدخل الشعبة السياسيـة، وأن ورثة (فلبي) طلبوهـا فأعيدت إليهم. ويستأنس لهذا بكثـرة مافي كليـة (سانـت انتوني) من الـوثـائق، فقـد اتصل الابن الكريـم الأستاذ سليمـان الجـاسر الحـربش بـالدكتـور (روبـرت مابـرو Robert Mabro) الأستاذ في تلك الكلية، ومدير معهد دراسات الطاقة، فقدم له بيانًا مفصلًا يقع في (١٧) صفحة بتلخيص محتويات تلك الأوراق التي تقع في نحو (٥٠) صندوقًا. وعند مروري بلنـدن في أول جمـادى الأولى ١٤١٨هـ طلبت من السيـدة الجليلة الـدكتـورة أهداف سـويف في (مؤسسة الفـرقان) الاتصال بجـامعة أكسفورد في المـوضوع فافضلت بذالك بتـاريخ ٩/ ٧/ ١٩٩٧م بالكتابة إليَّ بما نصـه: (عدت للتو من اكسفورد وقـد تحدثت هناك مع الأستاذ روبـرت مابرو فقال: إن في حـدود علمه أوراق فلبي الموجودة في كلية سانت انتـوني جاءت من أرامكو في المملكة. أما الدكتور ديريك هو بوود رئيس مركز الدرا سات الإسلامية في اكسفورد والذي قام بإعداد القوائم بتلك الأوراق فقد أكد لي أن الأوراق المـوجودة في سانت انتوني هي أوراق فلبي كلها وأنه لم يتبق أية أوراق له في المملكة). انتهى.

وما تقدم يحمل على اطمئناني إلى نقل الأوراق جميعها من الـرياض ولاشك أن الخبر اليقين في هذا لدى أسرة (فلبي).

مؤلفات فلبي:

الحقيقة التـي يجب أن أن تقال هي أن (فلبي) أسـدى للجزيـرة العربيـة يدًا قصر عن مـدِّها إليهـا من سواه، وقد مكنتـه حضوته لـدى الملك عبدالعـزيز -

رحمـه الله - وما بـذله لـه من مختلف أوجـه العون، ممـا لم يحظ به غيـره ممن حاول أن يكتب عن هـذه الجزيرة كتابـات وافية في مختلف نواحيها التـاريخية والجغرافية، ولكن (فلبي) بـزَّهُ في ذالك، بحيث أصبحت كتبه مصدر كل دارس غربي لتلك النواحي على اختلافها.

لقـد ألف (فلبي) كتبًـا عديـدة، جُلُّهـا تتعلق بالجـزيـرة العـربية، في ارتيـاد مجاهلها ودراسة آثارها، وتسجيل ما تمكن من تسجيله من تلك الآثار، ومنها ما قام بنقله إلى المتحف البريطاني أو غيره.

أما قيمـة هذه المؤلفات من النـاحية العلمية، فلاشك أنهـا كغيرها مما يـؤلفه الغربيـون، إلا أن استقرار الـرجل في هـذه البلاد، واختلاطـه بذوي الحـل والعقد فيهـا، ومشاركتـه في بعض قضـايـا تتصل بها، كل ذالك ممـا هيأ لـه خبـرة تامـة واطلاعًـا واسعًا، ولكن مما يـؤسف القارئ العربي أنـه ليس بين يديه منهـا كتاب معرب، يطمئن إلى صحة ما فيه، ولهذا فليس ثمة من الدراسات العربية المتعلقة بها مـا يمكن الرجوع إليهـا والاستفادة منه في هـذا الجانب. وهناك بـاحث غربي هو (يعقـوب كولـد برك) تصـدى لتلك المؤلفـات بالنقد والتحليـل، وكتب عنها بحثًا مفصـلًا بعنوان (فلبي كمـرجع في تاريخ المملكـة - دراسة نقـدية) نشـرته مجلة عربيـة، فعربه الدكتـور جهاد العمر[1]، مدير مركز الـدراسات الإيرانية في جامعة البصرة، يحسن بكل مهتم بكتب (فلبي) عن المملكة الاطلاع عليه.

وهاهو بيان أهَمِّ مؤلفاته:

١ - «Harun Al - Rashid هارون الرشيد» طبع سنة ١٩٣٣.

٢- «Arabia of the Wahhabis جـزيرة العـرب في عهـد الوهـابيين»[2] طبع في

(١) نشره في مجلة «الخليج العربي» س ١٦ مج ٢٠ عدد ٤ سنة ١٩٨٨.

(٢) يلاحظ أن هذا اللقب كان يُطْلَق - في أول الأمر - على اتباع الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - وعلى مناصري دعوته، من قبيل التنفير عن اعتناق تلك الدعوة السلفية إلّا أنه فيما بعد أصبح لقبًا من الألقاب.

لندن سنة ١٩٢٨م ويقع في ٤٤٢ صفحة وصفه الدكتور عبدالله الصالح العثيمين بأنه مشابه لكتاب «قلب جزيرة العرب» منهجًا وأسلوبًا[1].

٣- «Forty Years in The Wilderness أربعون سنة في القفر» طبع في لندن سنة ١٩٥٧م ويقع في ٢٨٦ من الصفحات قال عنه الدكتور العثيمين: لا يختلف عن كتاب «أيام عربية» منهجًا وأسلوبًا، على أن عنوان الكتاب الثاني غير دقيق، صحيح أنه قد مر أربعون عامًا بين مجيء فلبي إلى جزيرة العرب، وتاريخ صدور الكتاب، لكن تلك الأعوام لم تكن كلها في البلاد العربية، ناهيك عن أن تكون في قفارها، ولعله راعى ما للعنوان الذي استعمله من جاذبية، خاصة لدى القارئ الغربي[2].

٤- «Saudi Arabia العربية السعودية» طبع في لندن سنة ١٩٥٥ ويقع في ٣٩٣ صفحة.

٥- «Arabian Jubilee اليوبيل العربي» طبع في لندن سنة ١٩٥٤ في ٢٨٠ صفحة. سيأتي الحديث عنه مفصلًا[3].

٦- «The Heart of Arabia قلب جزيرة العرب» طبع في نيويورك سنة ١٩٢٣ ويقع في جزءين، وصفه الدكتور عبدالله العثيمين بأنه[4] نشر سنة ١٩٢٢م في جزئين، يشتمل كل جزء منهما على وصف لمناطق متعددة من وسط الجزيرة والأوضاع السائدة فيها.

٧- «Nijran Inscriptions نقوش نجران» طبع في لندن سنة ١٩٤٤ في ١٢٩ صفحة.

٨- «Three new Inscriptions from Hadhramaut ثلاثة نقوش جديدة من حضرموت» طبع في لندن سنة ١٩٤٥ في ١٢٣ صفحة.

---

(١) «بعثة إلى نجد» ص ٦٦.
(٢) «بعثة إلى نجد» ص ٦٧.
(٣) سماه الزركلي «يوبيل الجزيرة العربية» وقال: ترجمه خيري حماد. - «الأعلام» ٨/ ٦٤ - وهذا خطأ كما سيأتي فيما بعد.
(٤) «بعثة إلى نجد» ص ٦٦.

٩- «The Recent History of Hijaz تاريخ الحجاز الحديث» طبع في لندن سنة ١٩٢٥ في ١٧ صفحة.

١٠- «Sheba,s Daughters بنات سبأ» طبع في لندن سنة ١٩٣٩ ويقع في ٤٨٥ صفحة.

١١- «The Queen of Sheba ملكة سبأ» طبع في لندن سنة ١٩٨١ في ١٤١ صفحة.

١٢- «A Pilgrim in Arabia حاج في بلاد العرب» طبع في لندن سنة ١٩٤٦ في ١٩٨ صفحة، قال الدكتور عبدالله العثيمين[1]: كثير من الحديث في هذا الكتاب وصف مفصل لحجه سنة ١٩٣١ وهي السنة التي تلت اعتناقه للإسلام، ويتضمن الكتاب فصلًا عن رحلة فلبي إلى بلاد فارس، بعد عزله من عمله في بغداد سنة ١٩٢١م.

١٣- «Arabian Days أيام عربية» طبع في لندن سنة ١٩٤٨ في ٣٣٦ صفحة، وصفه الدكتور العثيمين بأنه[2] سيرة ذاتية من بداية حياته إلى زمن كتابته ولكنه يحوي أمورًا عامة متصلة بتاريخ المملكة.

١٤- «The Land of Midian أرض مدين» طبع في واشنطن سنة ١٩٥٥ في ٢٨٦ صفحة، وسيأتي الحديث عنه عند ذكر المؤلفات المعربة.

١٥- «Arabian High Lands النجود العربية» طبع في نيويورك سنة ١٩٧٦ في ٧٧١ صفحة، وسيأتي الكلام عنه مفصلًا.

١٦- «Arabian Oil Ventures صفقات الزيت العربي» قال عنه الدكتور عبدالله الصالح العثيمين[3]: وفي عام ١٩٦٤م - أي بعد وفاة فلبي بأربع سنوات، صدر في واشنطن كتابه «صفقات الزيت العربي» وهو يشتمل على ذكر ما حدث بالنسبة لإبرام حق امتياز التنقيب عن النفط في منطقة الأحساء، الذي توصلت إليه المملكة مع السيد (هولمز) عام ١٣٤٢ (١٩٢٣م)

---

(١) «بعثة إلى نجد» ص ٦٦.
(٢) المصدر السابق ص ٦٧.
(٣) المصدر السابق ص ٦٩.

ومنح حق امتياز التنقيب عنه لشركة (ستاندر أويل أوف كاليفورنيا) سنة ١٣٥٢ (١٩٣٣م)، وهو مفيد جدًا لمن يريد أن يؤرخ عن هذه الثروة العظيمة التي منَّ الله بها على هذه البلاد، فأصبحت من أكبر النعم التي ساعدت على التوصل إلى ما توصلت إليه من تقدم حضاري، ورقيٍّ عمراني، في مختلف جوانب الحياة.

١٧ – «The Background of Islam» سماه صاحب «موسوعة المستشرقين»[١] «أسس الإسلام» وكذلك في «الموسوعة العربية العالمية»[٢] وهو اسم لا صلة له بموضوع الكتاب.

أما الدكتور جواد علي فسماه «سناد الإسلام» وقال عنه[٣]: صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) مطبوعة في (الاسكندرية) في مصر، وقال عنه: تختلف طبيعة هذا الكتاب عن كتب (فلبي) الأخرى، فهو كتاب تاريخي بحت، تناول فيه تاريخ العرب قبل الإسلام، من حيث هو الأساس الذي قامت عليه دعائم الإسلام، فلم يضمنه شيئًا من مخاطراته ورحلاته واستكشافاته، وإنما قصره على تاريخ العرب القحطانيين، ولم يتعرض لتاريخ القسم الثاني من العرب الذين ظهر الإسلام في ديارهم.

إلى أن قال: وهذا الكتاب هو في الواقع تاريخ لليمن من أول مملكة عرفت فيها إلى ظهور الإسلام، ولذلك لا ينطبق عنوان الكتاب على ماجاء فيه.

وكان حَرِيًّا أن يدعو كتابه بـ«تاريخ اليمن القديم» أو «تاريخ القحطانيين في اليمن» أو ما شاكل ذلك من عناوين لها صلة مباشرة بمادة الكتاب.

ويضيف الدكتور جواد علي قوله: ويدل الكتاب في الحقيقة على أن المؤلف قد بذل مجهودًا كبيرًا في استقصاء تاريخ اليمن القديم، وفي

(١) ص ١١٦. (٢) ج ١٧ ص ٣٩٤.

(٣) «مجلة المجمع العلمي العراقي» ج ١ س ١ (ذو القعدة ١٣٦٩ - ايلول ١٩٥٠) ص ٣٧٢.

تنسيق المعلومات المتناثرة التي لم تنظم تنظيمًا علميًّا حتى الآن، وعلى رجوعه إلى مراجع كثيرة تكونت منها مادة هذا الكتاب.

وأشار إلى ورود نظريات في الكتاب تكلم فيها المستعربون ولم يتوصلوا إلى نتائج إيجابية مثل (نظرية الأبجدية) و (علاقة الخط المسند بالأبجدية الفينيقية)، و (نظرية موطن إبراهيم) ورأي العرب القدامى فيه، وهل كان جدًّا للساميين، وماذا كان يقال له عندهم.

وأبدى الدكتور جواد ملاحظات حول الكتاب يحسن الرجوع إلى مقاله حولها.

١٨ – «The Empty Quarter الربع الخالي» طبع في لندن سنة ١٩٣٣ في ٤٣٣ صفحة.

ولـ (فلبي) مقالات كثيرة جغرافية وأثرية وتاريخية، نشرات في عدد من المجلات التي تعنى بدراسات الشرق الأوسط بصفة عامة منها: بحث عن الربع الخالي وجنوبي الجزيرة العربية نشر في المجلة الإنجليزية English Review في شهر أذار ١٩٣٦م (ذو الحجة ١٣٥٤هـ) وبحث عن علاقة أفريقية بالجزيرة العربية في «المجلة الإفريقية الملكية» في لندن عدد كانون ثاني ١٩٣٩ (ذو الحجة ١٣٥٨هـ) وسجل لبعض لقاءاته بالملك عبدالعزيز في مجلة «آسيا الأمريكية» عدد كانون أول ١٩٣٨ (شوال ١٣٥٧هـ)، وبحث عن علاقة بريطانيا بالجزيرة العربية في مجلة «لندن الربع سنوية London Quarterly» ومجلة الشؤون الخارجية الأمريكية Foreign Affairs وغيرها من المجلات.

المعرَّب من مؤلفاته:

لم تنل مؤلفات (فلبي) ممن يعنى بتعريب آثار الغربيين ما نالته مؤلفات أقل منها من الناحية العلمية، فيما يتعلق بدراسة أحوال الجزيرة العربية بصفة عامة.

وقد استفاد كثير من الباحثين الغربيين الذين كتبوا عن بلاد العرب من مؤلفاته، استفادة جُلَّى، بل هناك من انتحل كثيرًا من آرائه وادعاها، كما أشار

إلى هـذا مؤلف كتـاب «موسـوعة المستشـرقين»[1] إذ قـال بعد ذكـر مؤلفـات (فلبي): وقد انتحل بعضها بعض الذين كتبوا عن العرب.

وممـا يـؤسف أن كثيـرًا من القـراء الذيـن لا يحسنون اللغـة الإنجليـزيـة لم يستفيدوا الفائدة التامـة من مؤلفاته، لعدم تعريبها، وعدم انتشـار ما عرب منها، ومنها كتابه عن «المملكة العربية السعودية».

ولعل من أسبـاب عدم تعـريبهـا أن (فلبي) كغيره مـن الغربيين يحـرص على تـدوين جميع ما يشـاهد، أو يسمع، أو يـلاحظ من حـالات السكان وأخـلاقهم وتقاليـدهم، وهو مع ذالك يجهل كثيـرًا من عاداتهم وطبـاعهم، وقد يكـون فيما كتب عنهم ما تأباه نفوسهم، وتنكره أخلاقهم، ومثل هذا لا يستساغ نشره بينهم.

وأذكـر أن في سنـة ١٣٧٤هـ أُنْشِئَ مجلـس دعي (المجلس الأعلى للثقـافـة والعلوم والآداب) في وزارة المعارف، وكنت أحد من ضُمَّ إليه، فكان مما تحدثت عنه في أولى جلسـاته: ضرورة إيجـاد ما أُلِّف عن المملكـة العربية السعـودية من جميع المؤلفـات في مكتبة تنشأ لهـذا المجلس، وأن يعرب ما يمكن تعـريبه، وأن يبـدأ بمـؤلفات (فلبي)، لأن بعض الكتـاب الغـربيين اتخـذوا منها مصـدرًا فيمـا يكتبون عن بعض أحوال هذه البلاد، إلَّا أن رأيي هذا لقى اعتراضًا شديدًا، بحجة أن مؤلفات (فلبي) تحتوي على أشياء باطلة وأشياء لا يصح أن تنشر.

وأذكر أنني حين أنشأت «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» وكنت إذ ذاك في بيـروت، حضر عنـدي الـدكتور عمـر حليق، وهـو من إخواننـا الفلسطينيين الواسعي الثقـافة، وقد عـرفته قبل ذالك فيما قـرأت من بعض كتاباتـه التي تنشر في الصحف، ومن ذالك مقال لـه نشر في جريدة «الأهـرام» يتعلق بملاحظات حول الاتفاقية التي وقعها وزير الماليـة الشيخ عبدالله السليمان مع شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣م).

---

(١) ص ١١٦.

ثم بعد ذالك بفترة أصبح رئيسًا لوفد بلادنا لدى (منظمة الأمم المتحدة) في نيو يـورك، وعندما أصـدرتُ صحيفة «اليمامـة» سنة ١٣٧٣هـ صار يبعث إليَّ بمقالات نشـرت كثيرًا منهـا في أعداد السنتين الأوليين من الصحيفـة، كما بعث إليَّ كتابًا يدعى «أهداف العمران في المملكة العربية السعودية» قمت بنشره.

لقد بحث معي الدكتـور عمر في موضوع قيامه بتعريـب ما يقع الاختيار عليه من المؤلفـات المتعلقة بتاريخ الجزيـرة وجغرافيتها، وأن نَقوم بالتشـارك في نشر ذالك، وحَبَّـذَ البداءة بمؤلفـات (فلبي) وذكـر أن لديه مـوافقة من بنـاته اللـواتي يُقِمْنَ في لنـدن، ولكنـه بعـد ذالـك أدرك أنني لست على درجـة مـن المقـدرة والسعة كما يتصور، حين أفهمته بأنني لا أستطيع الانفراد بتحمل تكاليف النشر، مالم يكن هناك تشـاركًا تامًّا، وأن مسألة التعـريب من الممكن الاتفاق على من يتولاها، ومن هنا توقف الأمر، إذ لم يَعُدْ إليَّ الدكتور عمر حليق بعد هذا.

ومعروف أن المعنيين بالتعريب إما أن تكـون رغبة أحدهم الاستفادة المادية، وهو يـدرك أن كتابًا يعربـه لا يلقى الرواج في البلاد التي يتعلق بهـا، فمن هنا لا يقدم على تعريبه.

أمـا من لديهم رغبـة علمية بحتـة، فليسوا من القـوة والمقدرة بـالحالـة التي تمكنهم من تعـريب مثل تلك الكتب، التي لا تلقى الـرواج، مع مـا يحـاذر من جراء ذالك.

١ – **«المملكة العربية السعودية Saudi Arabia»:**

سبق أن أشرت إلى ما يتعلق بهذا الكتـاب من قيام (دار العلم للملايين) في بيروت من تعريبه بصورة سيئة.

وأذكر أن أحد المعنيين بـالزراعة من إخواننـا الفلسطينيين، وكان يعمل لدى وجيه من وجهاء هذه البلاد له صلة بـ (فلبي)، وكثيرًا مايحدث بينهما من النزاع ما يفضي إلـى اللجاج، فتوقع هـذا الوجيـه أن يكون (فلبي) ذكـره في كتابـه هذا

الـذي أهدى لـه نسخة منـه، فأمر المـوظف الفلسطيني بأن يقـوم بترجمتـه إلى العـربية، فتم لـه ذالك، وإن لم يكن بأسلـوب عـربي سليم، إلا أنـه فيما يبـدو حافظ على الأصل، بحيث يصح وصف الترجمة بأنها حـرفية، وقد قدم لي أحد إخواني وهـو الأستاذ عبدالله بن سليمـان المزروع - رحمه الله - نسخـة من هذا التعريب في مجلدين، فقدتهما مع كتبي التي فقدتها في بيروت.

أمـا التعـريب الـذي نشرتـه (دار العلم للمـلايين) في بيـروت، فقـد سبق الحديث عنه، وعن ذالك التعريب السيء نُشِرَتْ طبعة أخرى هي طبعة (مكتبة مدبـولي) في القاهـرة وهي ما أكـرمني جاري الكـريم الشيخ فراج بنسخـة منها وتقدمت الإشارة إلى ذالك.

وقال الـدكتور عبـدالله الصالح العثيمين في وصف هـذا الكتاب[1]: (وبعد صدور كتاب «الذكرى العربية» بثلاثـة أعوام صدر له في لندن كتاب «المملكة العربيـة السعوديـة» وهو في جزء كبيـر، منه إعـادة صياغـة وتنقيح وتصحيح لما اشتمل عليه كتـابه السابق «جـزيرة العـرب» من تاريخ المملكة، ولكنـه بطبيعة الحـال لا يقتصر على ذالك، وإنمـا يواصل الكتـابـة فيه عن التـاريخ إلى زمن صدوره، وقد اعتمد فيه - بدرجة كبيـرة - على المصادر المخطوطة والمطبوعة، التي ألفها المـؤرخون من أهل وسط الجـزيرة العـربية، ولم تكن متـاحة لـه عند تأليفـه كتـابـه الأول، ومن هنـا فإنــه ليس من المستغـرب وجـود آراء في بعض المسائل، قـد لا تتفق مع آرائه السابقة، وذالـك نتيجة لحصولـه على ما حصل عليه من معلـومات، ومع أن الكتـاب أوفى كتابات مـؤلفة عن تـاريخ المملكة، وأقـربهـا إلى الدقـة، فإنـه يظل في حـاجـة إلى تقويـم ودقة مـلاحظـة من قبل المؤرخين المختصين، شأنه شأن غيره من الكتابات التاريخية الكثيرة. انتهى.

(١) «بعثة إلى نجد» ص ٦٨.

٢ - «الذكرى العربية Arabian Jubilee»:

ومن الكتب التي عـربت «اليـوبيل العربي» الـذي سمي «الـذكـرى العربيـة الذهبية» وقـام بتعريبه الدكتـور مصطفى كمال فايد، المـدرس في كلية التجارة جـامعة القـاهـرة، وتولَّى نشـره الشيخ عبـد الرؤوف الصبـان[1]، وقدمـه للملك عبدالعـزيز - رحمـه الله - وصدر في سنـة ١٣٧٣هـ في آخـر أيام حيـاة الملك عبـدالعـزيز، إذ كـان الملك إذ ذاك مـريضًـا في الطائف، وقـام الشيخ الصبـان بتقديمـه لسعود قبيل وفاة الملك عبـدالعزيـز، فَبُعِثَ إليَّ من ديوانه بنسخـة منه لأبـدي رأيي حيالـه، وتوفي الملك عبـدالعـزيز في تلك الأيـام، فاستعيـد مني الكتاب دون أن أكتب عنه شيئًا، وعلمت فيما بعد بأنه صدر الأمر بعدم نشره[2]، ولعل سبب ذالك أن في الكتـاب مالا تتسع له صـدور كثير من القـراء، فقد ورد في ص ٢٩٣ من النص العربي من قول فلبي: (إنـه صديق ابن سعود لأكثر من ثلاثين سنة، بكل ما للصديق من حق في أن يخالف رأي صديقه، وفي أن ينتقد سياسة حكومته، فضلًا عما لي من كامل الحرية في إبداء آرائي الخاصة عن كل مسألة تعرض، مهما كانت، حتى إذا كانت مخـالفة لآراء جلالته، ووجهة نظره) انتهى، وهذا هو مـا يسير عليه فلبي في مؤلفاته، ولعلـه من الأسباب التي حالت دون تعريبها والاستفادة منها.

(١) الشيخ عبدالـرؤوف الصبان من مـواليد مكة المكـرمة سنـة ١٣١٦هـ، من أسرة ثـرية مشهـورة، تلقى تعليمه الابتدائي في مكـة، ثم في مصر، بعد استقـرار أسرته هنـاك، وتخرج من (دار العلوم) وعـاد إلى مكة، وانضم إلى (الحـزب الحجازي)، ثم عَفـا عنه الملك عبـدالعزيـز - رحمه الله كغيره، سنـة ١٣٥٤هـ، وعُيِّـنَ رئيسًا لمجلس المعارف، وعضـوًا في مجلس الشورى، كما تـولى إدارة الأوقاف (وأمانـة العاصمة)، وقـد توفي في آخر عشر السبعينات من القرن الماضي في لبنان. انظر «أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر» ١/ ٣٢٣.

(٢) وقد قال الأستاذ الزركلي - «الأعلام» ٨/ ٦٤ -: ويظهر أن «يوبيل الجزيرة العربية» اغضب بعض المنتقدين فيه من رجال الدولـة بعد وفاة الملك عبدالعزيز مباشرة، فصـودرت نسخ الكتاب، وأُبعد فلبي عن المملكة، وتوفي في بيروت. انتهى، والواقع أن فلبي سُمِح له بالعودة، ووفاته في بيروت بعد ذالك.

وقد ورد في الكتاب أشياء ماكان يستساغ نشرها، فقد كان مؤلفه يحضر مجالس الملك الخاصة، وقد يحدث فيها من الأحاديث مالا يدرك (فلبي) حقيقته لجهله بكثير من العادات والتقاليد، ولكنه مع ذالك ينقل ما يسمع.

ويعد هذا الكتاب بالنسبة لتاريخ الملك عبدالعزيز سجلًا لفصول من ذالك التاريخ، بقلم كاتب غربي، أدرك كثيرًا من تلك الحوادث عن مشاهدة ومعرفة مما تفيض صفحات الكتاب بالتعبير عنه من إجلال وتقدير. وقد صُدِّرَ بعد كلمة إهداء الناشر، وصورة الملك عبدالعزيز بصورتين لسعود وفيصل - رحمهما الله - ثم مقدمة المعرب الدكتور مصطفى كمال فايد عن صلته بالشيخ عبدالرؤوف الصبان، واتفاقه معه على تعريب الكتاب، مسترسلًا في الثناء على الملك عبدالعزيز وأسرته الكريمة، ثم مقدمة (فلبي) التي قال فيها: (ليس لي أن أَدَّعِي أن هذا الكتاب الحافل سجلٌّ تاريخيٌّ مكتمل الأسباب لحكم ابن سعود الطويل، إنه أقرب لأن يكون عرضًا لأعماله ونواحي رسالته، في لوحات متتابعة تبين الفترات التي تميز به حكمه وأسلوبه). مشيرًا إلى تتبعه للبحث عن الوثائق التاريخية في السجلات القديمة، والاستعانة ببعض المهتمين بالتاريخ، كالأمير مساعد بن عبدالرحمن، الذي أمده بكتاب «عنوان السعد والمجد» جمع عبدالرحمن بن ناصر، و «عقد الدرر» لابن عيسى تكملة تاريخ عثمان بن بشر، مع الإشارة إلى آخرين، وشكرهم ممن سماهم، معرفًا بنواحي ما أمدوه به من مساعدة.. وما تقدم من مقدمات يقع في ستة عشر صفحة، تتلوها صفحات الكتاب، وهو يحوي ثمانية عشر فصلًا مع ملاحق وملاحظات وأبرز تلك الفصول: (بزوغ الشمس، المغامرة الكبرى، اتصالات مبكرة ببريطانيا، الحرب وما بعدها، مؤتمر العُقير، فتح الحجاز، صعاب متزايدة، القصر في مكة، فترة في الرياض، الأجانب لدى الباب، العلاقات مع اليمن، الأخ صاحب الأردن، مشكلة فلسطين، غروب الشمس).

أما الملاحق فعن الدوحة السعودية، وأسرة السُّدَيري، ويحوي مجموعة من الصور الفريدة التي لها صلة بحوادث تلك الأيام.

والقارئ - أي قارئ - يدرك أن الكاتب الغربي في تسجيل ما يعن له من أفكار ومشاهدات ووصف أحوال، يختلف عن الباحث العربي الذي يتحاشى التعرض لبحث كثير من الأمور، التي قد لا يرى ما يدعو لبحثها أو تسجيل ما يعن له حيالها، إلا أن كتاب (فلبي) مع كل ذالك يطفح بالثناء، وتسجيل ما للملك من مزايا وخلال ومآثر.

ويقع الكتاب المعرب في ٣٨٦ من الصفحات، وما قيل عن رداءة تعريب كتاب «المملكة العربية السعودية» يصح أن يقال عن هذا ولكن بصورة أهون وأخف، هذا من حيث التحريف السيء في الأسماء، مع أن المعرب ذكر أن الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد - رحمه الله - قام بمراجعة الأسماء الواردة فيه، وبعض الوقائع، إلا أن كثيرًا منها بدى محرفًا، والشيخ محمد بن بليهد حينما كان في القاهرة حين طبع الكتاب - لم يكن على درجة من الصحة تمكنه من تصحيح ذالك الكتاب، بل كان يبعث بتجارب الطبع (بروفات) كتاب «صفة جزيرة العرب» إلى الأستاذ عبدالله عبد الجبار مراقب البعثة العلمية - ليتولى تصحيحها.

٣- «أرض مدين **THe Land of Midian**»:

وقد عرَّب هذا الكتاب خطأ باسم «أرض الأنبياء» أو «مدائن صالح»، عربه الأستاذ عمر الديراوي الذي سبق أن عرَّب لـ (دار العلم للملايين) كتاب «المملكة العربية السعودية»، وقد طبع كتاب «أرض مدين» في بيروت، سجل فيه (فلبي) رحلة زار خلالها بلاد خَيْبَر وتيماء، وكشف كثيرًا من آثارها وفصل الحديث عنها، فقد كان يحرص على جمع ما يشاهده من الآثار، قال: (ولم

يكن من الصعب أن يجد المرء بين خرائب تيماء القديمة الكثير من الأشياء الأثرية، وكسر الحجارة المنقوشة، وبقايا أواني الخزف، وقطع النقود، وما أشبه ذالك، وقد جمعت منها مجموعة لا بأس بها، ثم عرضتها في متحف جدة، وقد احتفظت بملء علبة كبريت من قطع النقود التي وجدتها، لأقدمها هدية للمتحف البريطاني في لندن، ووجد الأستاذ (جون ووكر) المسؤول في دائرة النقود الأثرية بينها قطعتين نادرتين تعودان إلى زمن مينان (Minaean)، في القرن الأخير، الذي سبق عهد المسيحية). انتهى كلام فلبي.

وحدثني الثقة وهو فضيلة الشيخ محمد الصالح الغفيلي[1] قاضي تيماء حين زرتها في شهر صفر سنة ١٣٩٠هـ - أن (فلبي) استحوذ على حجر ذا قيمة أثرية، قال لي الشيخ: عندما زار (فلبي) هذه البلاد كان سخيًّا في بذل النقود لكل من أتاه بحجر أو أثر ذي كتابة، وكان فلان - سماه لي وأنسيته - قد نثل بئرًا قديمة، فوجد في جوفها حجرًا فيه صورة وكتابة، فأهمله في النثالة مدة، ثم احتاج إلى أن يضعه نصيبة قبر، وعندما زار (فلبي) البلدة، ورأى صاحب الحجر ما يدفع (فلبي) في سبيل الحصول على الآثار تذكر الحجر، قال: فأتيت به إلى (فلبي)، فلما رآه أخذته الرعشة من شدة الفرح، وصار يقلبه بين يديه، ويكرر قوله: ما عندك غير هذا؟

فأجيبه بالنفي. وأخيرًا قال لي: ماذا تريد أن أدفع لك؟ فاجبته: الذي تريد.

(١) هو من أسرة آل الغفيلي من آل أبي الحصين من العجمان من يام، أهل الرس ولد في هذه المدينة سنة ١٣٣٤ وتلقى العلم عن علمائها، وأسندت إليه وظائف دينية وقضائية، حيث عين قاضيًا سنة ١٣٧٣ في إحدى محاكم تهامة، وقام بنشاط مشكور في توجيه أهل تلك البلدة وجهة الخير والصلاح، كما عمل في محكمة ظهران الجنوب سنة ١٣٨٠، وفي عام ١٣٨٣ نقل إلى قضاء تيماء حتى توفي فيها في ١٣٩٧/٤/١٨، كان- رحمه الله - يتصف بدماثة الخلق وبالتحبب إلى الناس وحسن العشرة، وقد سررت بالاجتماع به لما شاهدت من لطفه وفضله.

فقال: أنت وحظك. وكان يضع النقود في جيبه، وهي من الفضة ومن الريالات الفرنساوية (هم يسمون ريال ماري تريزا النمساوية بهذا الاسم) فأدخل يده في جيبه وأخرجها ومدها إليَّ فوضع في يدي سبعة ريالات.

قال: فكدت أطير من الفرح، ثم بعد أن كرر عليَّ السؤال: هل لدي غيره؟ وأجبته بالنفي، وهو يقلبه بين يديه. قال: أوصله للخيمة، وسلمه لفلان وتعال معه. وفعلًا قمت بذالك، ولما عدتُ قال: هل تريد أجرة؟ فقلت: الشيء الذي تتفضل به منك. فأعاد قوله: أنت وحظك. وأدخل يده في جيبه مرة أخرى، ثم أخرجها ومدَّها إليَّ فإذا فيها تسعة ريالات، فكدت أطير فرحًا، ستة عشر ريالًا مقابل حجر لا قيمة له، وكان ذالك المبلغ في وقته ذا قيمة كبيرة.

ولكن (فلبي) نفسه لم يذكر شيئًا عن هذا الحجر، وتلك طريقته، فقد يكون يخشى أن ينال من يقدم له شيئًا من الآثار شيئًا من العقاب، وقد يكون الأثر ذا أهمية تاريخية فيبعثه إلى من يعنى بدراسته، أو غير ذالك من الأسباب.

ثم زار (فلبي) آثارًا على مقربة من تبوك تعرف باسم (القُرَيَّة) ووجد هناك نقوشًا ثمودية كثيرة، ومقابر في مغارات، وصفها، وسدًّا للمياه وغير ذالك من مظاهر الحضارة، وامتدت رحلته إلى أرض مَدْيَنَ، وهي الأرض الواقعة بين ميناءي ضبا[1] والعقبة، فكتب عن آثارها وعن مشاهداته كتابات ذات قيمة علمية، تعد من أوفى المصادر عنها، وقد رجعت إلى هذا الكتاب في كتابي «في شمال غرب الجزيرة» واستفدت كثيرًا مما فيه، فهو ليس خاصًا بالمنطقة التي سمي بها، وهي أرض مدين، بل شامل لدراسة الآثار في شمال المملكة باستثناء آثار الحِجْرِ، ولعله ترك الحديث عنها لشهرتها ولكثرة الدراسات حولها.

(١) تكرر كتابة اسم (ضبا) في مصادر قديمة وحديثة بالحرفين (الضاد) و (الظاء) ولعل كتابتها بالضاد أصوب.

ومجمل القول عن تنقيب (فلبي) عن آثار بلادنا: هو أنه مع كل ما تقدم استطاع العثور على الكثير منها، وأن كتابه «أرض مدين» من أوفى ما كتب عن تسجيل أهم المواقع الأثرية في شمال المملكة، امتدادًا من بلاد خيبر وانتهاءًا بـ (القرية) في شمال تبوك، ثم مرورًا بأودية حِسْمَى ومايتصل بها من بلاد مَدْيَن، التي فَصَّل الكلام عن آثارها، لا من ناحية معرفة الآثار نفسها، وإنما من حيث إيضاح مواقعها.

إلَّا أن الكتاب المعرَّب ليس محل ثقة، لأن الجهة التي قامت بنشره قد سبق لها أن نشرت كتابًا غيره لـ (فلبي) بصورة غير مطابقة للأصل.

وسبق أن تحدثت عن (فلبي) من خلال ما قرأته معرَّبًا من هذا الكتاب، فكان مما قلت عنه[1]:

١- إن فلبي ليس من المتخصصين في دراسة الآثار، ويمكن أن تقف مقدرته عند حد نقل ما يشاهده من النقوش، وهو نقل قد يعتريه الخطأ، إذا لم يستعمل آلة التصوير.

٢- إنه جاهل بتاريخ الجزيرة وجغرافيتها، ذالك لأن حياته كانت في الاتجاه السياسي منذ كان موظفًا في الهند، ثم في بغداد، ثم في شرق الأردن، ثم في المملكة العربية السعودية، ولهذا فهو حينما يقرأ الكتابات العربية في المؤلفات المعروفة لا يقيم القراءة، فيقرأ مثلًا اسم (العِصَامِيِّ)[2] بالياء المشددة التي هي ياء النسبة يقرأها (العصَامَى) باعتبارها مَدَّة للميم

(١) «في شمال غرب الجزيرة» ص ٢٧٦.

(٢) نقل فلبي ص ١٩ من الأصل الإنجليزي خبر سيل في مكة عن العصامي.

المفتوحة، وحينما رأى في إحدى المخطوطات الحديثة كلمة (تنيف) - أي تزيد - والتعبير عاميّ، قرأها (شنيف)[1] وظنه شخصًا، ومن ثم عَدَّهُ قائدًا.

٣- إنه عندما يجد اسم موضع أو قبيلة يقرب هذا الاسم إلى اسم قديم يسارع إلى الربط بين الاسمين، فهو عندما وجد من قبائل (حِسْمَى) وما حولها قبيلة تدعى (العِمْران)، بادر إلى الاستدلال بالآية الكريمة (آل عِمْران) وحملها على هاؤلاء الحديثي العهد، قائلًا: واسم القبيلة يذكر المرء بـ (آل عِمْران) وهي العشيرة التي انحدرت من آدم ونوح وإبراهيم.

٤- وعندما أتى إلى جبل (مأْسل) في العِرْض (منطقة القويعية) ونقل ما فوقه من نقوش، تحدث عنها وعن منطقة العِرْض، التي تقع فيها، قال: غير أنه توجد منطقة ليست بعيدة عن العرض تسمى (دَاحِس)، وهي مشهورة بتاريخها كحروب قبائل ما قبل الإسلام. وكأنه يشير بهذا إلى ما وقع من حرب داحس والغبراء، الفرسَيْنِ اللتين كان السباق عليهما سببًا في حروب تسمى بهذا الاسم، بين قبيلتي عَبْس وذُبْيَان من غطفان، وموقع السباق كان في عالية نجد، غرب وادي الجَرِيب (الجرير الآن)، وداحس قرية صغيرة، يبدو أن الاسم حديث، إذ لم يرد له ذكر في المؤلفات القديمة، وهي غرب بلدة القويعية، داخل جبل العِرْض شرقَ جبل مأسل.

٥- إنه يجهل حالة الشعوب القديمة، ولهذا عندما لا يشاهد كتابات عبرية في بلاد خيبر يؤول ذالك بقوله: (التفسير الوحيد لذالك أن اليهود كانوا

(١) جاء في ص ٢٣١ من الأصل الإنجليزي أن في خريف سنة ١٨٨٦م حدثت مشاكل في الخرج فاستعان أهل البلد بسالم السبهان، فأرسل مجموعة من الجند بقيادة شنيف للقيام بالأمر. إلى آخر ماذكر. وهذا الخبر نقله فلبي عن كتاب «عنوان السعد والمجد» لابن ناصر، ونص ما فيه في ذكر حوادث سنة ١٣٠٣هـ: في أخرها وقع الشقاق بين أولاد سعود - رحمهم الله - وبين بعض أهل الخرج، فاستعدوا سالم بن سبهان، فسار في جماعة من الخيالة تنيف على العشرين، وقتل أبناء سعود الثلاثة محمد وسعد وعبدالله - رحمهم الله -. انتهى كلام ابن ناصر، وقرأ فلبي كلمة (تنيف على العشرين) (شنيف) وظنه قائد السرية.

متقدمين أكثر من العرب في ذالك الوقت، ولذالك فإنه من المحتمل أن يكونوا استعملوا سعف النخل أو رقّ الغزال، أوغير ذالك من المواد السريعة التلف في تدوين ماشاؤوا من تاريخهم ومراسلاتهم، ومن الطبيعي أن مثل هذه الأشياء لا تعمر طويلًا، وخاصة إذا كانت مدفونة في أراضي الواحات التي تشبه المستنقعات). كذا قال.

وقد فاته:

أ- أن أكثر من يسكن هذه الواحات كانوا من الطبقة الجاهلة من الفلاحين.

ب- أن اليهود ماكانوا يكتبون بالعبرية، وإنما كانوا يكتبون بلغة البلاد التي يعيشون فيها، ويصونون الكتابة العبرية صيانة تحول دون ابتذالها، وهذا شيء معروف لدى علماء الآثار.

٦- إنه كان يرافقه بعض المرشدين، ومنهم من لا يعرف كثيرًا من الجهات التي يسير فيها، و (فلبي) طُلَعَةٌ يسأل عن اسم كل مكان يمر به، وعن كل جبل يشاهده، وعن كل واد يقطعه في طريقه، والويل لمرشده إذا أجابه بعدم معرفته لاسم أي موضع مما سأل عنه من ذالك، وأقل عقوبة ينالها طرده ورجوعه إلى رئيسه الذي كُلِّف من قبل جهات أعلى منه بأن يقدم لـ(فلبي) كل عون، ولهذا فإنَّ المدة الطويلة التي مكثها (فلبي) في الجزيرة جعلت هذا الأمر معروفًا عنه، معرفة دفعت كل شخص تحتم الظروف عليه مرافقته أن يسعى لنيل رضاه، بأية وسيلة كانت، فكان أذكى هاؤلاء المرشدين هو من يقدم للشيخ عبدالله (فلبي) جوابًا سريعًا عما يسأل عنه، فيبادر إلى تسجيله، إن حقًّا وإن باطلًا، ولهذا جاء كتابه عن «أرض مدين» محشوًّا بأسماء هي أقرب إلى الخَيال منها إلى الواقع، وماذا يفعل المرشد المحتاج أكثر من أن ينال رضا من قد يبذل له من المكافأة ما يطمح إليه؟!

٤- «النجود العربية The High Lands of Arabia»:

يعد هذا الكتاب من أوفى مؤلفات (فلبي) وأوسعها وأغزرها معلومات وصفه الدكتور جواد علي بقوله[1]: (وهذا الكتاب من أحدث ما أخرجته المطابع من مؤلفات (فلبي)، طبع في عام ١٣٧١هـ (١٩٥٢م) في مطابع (Vdilballou) بمدينة (نيويورك) بنفقة (معهد الشرق الأوسط The Middle East Institute) بـ(واشنطن)، وأشرفت مطابع (كورنل) على طبعه، وهو في (٧٠٨) صفحات، عدا الملحقات والفهارس التي تبلغ (٦٣) صفحة، وقد ألحقت بالكتاب (خارطة) دقيقة كبيرة بمقياس ١/١٠٠٠٠٠٠ ضمت أسماء المواضع والقبائل التي وردت في الكتاب، وجملة خوارط صغيرة، ومخططات وصور تتعلق بالفصول.

والكتاب وصف وملاحظات لرحلات قام بها المؤلف الرحالة في سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) و ١٣٥٥هـ (١٩٣٦م) و ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) في النجاد العربية، والأماكن التي مر بها: مثل (وادي بيشة) و (الخرمة) و (رنية) و (نجاد عسير) و (وادي تثليث) و (حبونة) و (صبيا) و (جيزان) و (تهامة) وغير ذالك مما يطول ذكره.

وقد عرض في أثناء وصف رحلاته للنواحي الاقتصادية والسياسية والتاريخية والاجتماعية والدينية لتلك الأماكن، فكشف عن نواحي مجهولة عند العالم العربي والغربي عن جزيرة العرب، والجزيرة مجهولة لدى أبنائها جهلًا يكاد يكون تامًّا، وإلى المؤلفات الإنكليزية والألمانية والفرنسية والطليانية، يلجأ الباحثون العرب في تعرف أحوال بلادهم ويا للأسف!

وقد انصرف المؤلف في الأيام الأخيرة إلى الاهتمام بالدراسة التاريخية لجزيرة العرب، فقام برحلات خاصة في الحجاز ذات صلة بالكتاب، واتصل

(١) «مجلة المجمع العلمي العراقي» الجزء الأول، السنة الأولى (ذو القعدة ١٣٦٩هـ - إيلول ١٩٥٠م) ص٣٦٥ وسماه «النجاد العربية».

بكبار علماء العربيات من المستشرقين لترجمتها ومعالجتها، واستقدم إليه المستشرق (رايكمنس) العالم البلجيكي، واستصحبه إلى ديار ثمود لقراءة نصوص جاهلية فيها.

وتجد في كتابه هذا بحثًا تاريخيًّا قيمًّا عن (كعبة نجران) و (الأخدود) وتعذيب النصارى في اليمن، كما تجد فيه إشارات تاريخية لها علاقة بالمواضع التي مر بها، وقد سبق أن تحدثت عن كتابه القيم «سناد الإسلام» في المجلد الأول من هذه المجلة.

وهذا الكتاب هو – في رأيي – من خيرة ما ألفه (فلبي) من كتب، جمع فيه بين فن الرحلات والعلم والتدقيق وقوة الملاحظة، ترى فيه حياة الملوك والأمراء، وحياة البدو وفقراء المملكة، وتفكير البدوي ومعيشة الأعراب، إنه كتاب أدب وعلم، لمؤلف سلخ ما ينيف على ربع قرن من عمره في الجزيرة).

انتهى كلام الدكتور جواد علي.

ويعرفه في مقدمته مُؤلِفُهُ بما تعريبه: (يتمم هذا الكتاب وصفًا للعربية السعودية، جنوب الخط الممتد عرض شبه الجزيرة، من العقير الميناء الواقع على ساحل الخليج.... ويمر من الرياض العاصمة، ومن ثم إلى مكة وجدة، وكانت معظم المناطق الواقعة تحت هذا الخط وقت زيارتي الأولى للجزيرة قبل سبعة وعشرين عامًا هي مجهولة، مع قيام الرياديين المبكرين بالتسلل بين حين وآخر إلى أطرافها).

ثم يضيف قائلًا: (واستطيع أن أقول: إنني أنا الذي قمت بتثبت معظم هذه المنطقة على الخارطة، وقد شارك آخرون في هذا العمل) وسمى عددًا من المستشرقين، مشيرًا إلى بعض أعماله التي وصفها بأنها متوفرة لدى الناس عامة في سلسلة من مؤلفاته عن «وسط الجزيرة العربية The Heart of Arabia» سنة

١٩٢٣ – ١٣٤١هـ – و «الربع الخالي The Empty Quarter» سنة ١٩٣٣م – ١٣٥٢هـ – و «بنات سبأ Sheba's Daughters» سنة ١٩٣٩م – ١٣٥٨هـ –، ويعد كتابه هذا متممًا لجزء من ذالك العمل على الأقل.

ويضيف أيضًا: (بأن القراء سيجدون في هذه الكتب وصفًا لرقعة عظيمة من الأرض، قدر مساحتها بمئة وخمسين ألف ميل مربع، على شريط عريض لمسافة ثلاث مئة ميل، من ساحل البحر الأحمر الشرقي، عبر سهل تهامة).

وفي المقدمة الأخرى التي كتبها في مكة وأرخها في ١٦ ايلول ١٩٥١م – ١٥ ذي الحجة ١٣٧٠هـ – يشير إلى أنه مضى له نحو خمسة وعشرين عامًا، منذ أن قام بالرحلتين اللتين جمع خلالهما مواد هذا الكتاب، وشكر بعض من ساعده في تحضير بعض مواده، كجورج رنتز[١] وبيلي وندر الأمريكيين وغيرهما من أفراد وجمعيات.

ويقع الكتاب في أصله الإنجليزي المنشور في نيويورك سنة ١٩٧٦م – ١٣٩٦هـ – في ٧٧٠ صفحة، ويحوي ستة أبواب، في كل باب عدد من الفصول، **الباب الأول** في ثلاثة فصول هي: ما بعد الربع الخالي، ووادي بيشة، وطريق الفيل[٢].

والباب الثاني: فيه سبعة فصول هي: في المخيم الملكي، الخرمة، رنية، بيشة، خميس مشيط، مرتفعات عسير، وادي تثليث.

---

(١) عرفت هذا الرجل وكان بيني وبينه اتصال وتزاور، حين كان يعمل رئيسًا لقسم البحث والترجمة في (ارامكو)، وقد أَلَّف كتابًا عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله – به نال إجازة (الدكتوراه)، يُعَدُّ من مصادر الغربيين في دراساتهم عن الشيخ.
وقد جمع (رنتز) مواد علمية كثيرة تتعلق ببلادنا عن اللهجات وأنساب القبائل وجغرافية جنوب الجزيرة، ولا أدري مآل ما جمع.

(٢) هذا الطريق يعرف باسم (طريق أسعد الكامل)، فهو أول من عَبَّدَه وسار فيه بجيوشه، لإخضاع بعض القبائل النجدية سنة ٥١٤م تقريبًا، ومن بعده بنحو خمسين عامًا سلكه أصحاب الفيل، إذ هو الطريق المعبد الصالح للسير، الذي صار فيما بعد طريق حجاج اليمن إلى عهد قريب.

وفي الباب الثالث: (عن منطقة يـام): بداية نجران، كعبـة نجران، الخطوات الأولى في نجران، الأُخدود، الحياة في نجران، زيارة نجران الثانية.

والباب الـرابع: (عن النجـد المرتفع) فصـولـه: الطـريق إلى حبونـة، وادي حبونـة[1]، وطن المكـارمة، تثليث الأعلى، مصـادر وادي حبونـة العليا، النجـد الحدودي، عودة إلى الشراقب.

وفي الباب الخامس: وادي بَيْش، مقاطعـة صبيا، جـازان، مرتفعات تهـامة، المرتفعات الحدودية.

والباب السادس: (عن أراضي تهامة المنخفضة): التلال السفحية الحدودية سهل تهامة، السهل الحدودي، الطريق الساحلي، إقليم جازان، إقليم القنفذة.

ثم أتبع الأبواب بأربعة ملاحق، **الأول**: علامات الحدود بين المملكة العربية السعودية واليمن.

والملحق الثاني: المسافات على طرق السيارات.

الملحق الثالث: سلسلة نسب دعاة المكارمة في نجران.

والملحق الرابع: قائمة بالقرى في عسير والمنطقة الحدودية.

وقد رجعت في ذكر مـايحويه الكتاب إلى نسخة معربـة اتحفني بها الأستاذ الكـريم محمـد بن عبـدالله بن حُمَيِّد رئيس نـادي أبهـا الأدبي وعضـو مجلس الشورى سابقًا، شكر الله له وأكرمه، وهذه النسخة المعربة لم تطبع.

ولا تقف القيمة العلميـة لهذا المؤلَّف على ما فيـه من تفصيل، عن المناطق الجنـوبية في بـلادنـا، كوادي تثليـث، وبلاد نجـران، ووادي حبـونة (حبـونن)،

(١) هو المعـروف في المؤلفات العـربية القديمـة باسم (حبـونن) و (حبونا) وانظـر بحثًا مفصلًا عنـه في مجلة «العرب» س ٢٨ ص ١ وما بعدها.

فـ(فلبي) – والحق يقال، وإن كان قـد أفرغ جهده، بأن يكتب عنها من مختلف نواحيها، من جغرافية وأثرية واجتمـاعية واقتصادية، وأن يكون من الرواد في هذا المجال – إلَّا أن القـارئ ينظر إلى الـرجل من خلال ذالك نظـرة إكبار وتقـدير، حين يحس ويدرك ماتكبده من الصعاب، في محاولة التغلغل لكي يقدم وصفًا صادقًـا، أو مطابقًا – مـا أمكن – للحقيقة، في شدة تقصيـه وتعمقه في البحث، مستهينًا بكل ما يعترضه من مصاعب، فهو يتسلق قمم الجبال الشامخة، ويسير المسافـات الطويلة، في أراض يصعب السير فيهـا، ويصبر على مايقـاسيه من مختلف الآلام في سبيل ذالك، وكل هـذا لا يحـول دون القـول بأنـه كغيـره من سائر البشر.

ومن هنا ففي هذا الكتاب من بعض الآراء مالا يستغرب من كاتب غربي، لا يرى غضـاضة في أن يسجل جميع أفكـاره دون تحرج، مهما كـان موقعهـا لدى مختلف القراء.

ولن تفـوت الإشارة إلى اهتمـام (فلبي) بالآثـار، فقد عثـر على كتابـات نقل بعضها، ولعله بعث بها إلى من يتولى فك رموزها، إذ لم يتحدث عنها، في كتابه هذا، ولم ينقل صورها فيه.

٥- «بعثة إلى نجد ١٣٣٦ - ١٣٣٧هـ (١٩١٧ - ١٩١٨م)»:

هـذا الكتاب من أحـدث ما عـرب ونشر من مـؤلفات (فلبي)، قـام بتعريبـه والتعليق عليه وكتابة مقـدمة ضافية له الأستاذ المحقق الـدكتور عبدالله الصالح العثيمين، الذي قال عنه[1]: (ولعل تقريره الذي كتبـه عن البعثة التي رأسها إلى نجد عـامي ١٣٣٦، ١٣٣٧هـ (١٩١٧، ١٩١٨م) أول كتابة يـدونها عن الملك

(١) ص ٧ و ٨.

عبدالعزيز والبلاد السعودية، ولكونهـا كذالك لها أهميتها، إيجابًا وسلبًا، فبعض المعلومـات التي وردت فيها مفيـدة، وبعض الآراء التي اشتملت عليهـا تحتاج إلى تقـويم. وكنت قـد ترجمت ذالـك التقريـر - بتـوجيه من صـاحب السمـو الملكي الأمير سلمان بن عبـدالعزيز - قبل عامين تقريبًا، لاشتمـاله على ما قد يفيد المـؤرخ والقارئ، وأصبح لنشر تلك التـرجمة مـا يبرره على أني رأيت من المستحسن أن أقدم لنص ذالك التقرير المتـرجم بلمحة تاريخية عن المملكة، قبل كتابة فلبي تقريره المشار إليه، ثم بحديث موجز عن ذالك الكاتب، ورأيت من المستحسن أيضًـا - وربمـا من الضـــروري - أن أعلق على مـا يحتـاج إلى تعليق من ذالك التقـريـر، تعـريفًا بـالأسمـاء، وتحـديـدًا لـلأمكنة، وإيضـاحًـا للمسـائل، أو تصحيحًـا لهـا). كما وصفـه بأنـه أول كتـابـة منشـورة لفلبي عن التاريخ الحديث لهذه البلاد[1].

ومـا أضافـه الدكتـور العثيمين وألحقـه بهذا الكتـاب يغني عن التفصيل في الحديث عنه، وقد نشر سنة ١٤١٧هـ في نحو (٢٨٧) من الصفحات.

* * *

(١) «بعثة إلى نجد» ص ٦٥.

إضمامة لها صلة بالرحلات

سفر نامه
أقدم رحلة شرقية مدونة

[كنت كتبت تعليقًا على رحلة ناصر خسرو «سفر نامة» حين صدور تعريبها الأول للدكتور يحيى الخشاب سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٥م) ونشر في مجلة «المنهل» في المجلد ٦ ص ٤٠٠ سنة ١٣٦٥هـ، وقد رأيت إيراده بنصه كما نشر، وإن كنت قد أدركت فيما بعد أن بعض ماذكرته من ملاحظات بحاجة إلى مزيد من التحقيق والتثبت ككلمة (الثريا) وكلمة (الجزع) وملاحظات أخرى قد تمر بالقارئ الكريم، وهاهو نص ذالك التعليق كما نشر].

قد أحسن - وأيم الحق - معهد اللغات الشرقية بكلية الآداب في الجامعة المصرية صنعًا حين كانت باكورة عمله في ميدان النشر العلمي، طبع «رحلة ناصر خسرو» وأحسن صنعًا الدكتور يحيى الخشاب الأستاذ بكلية الآداب بمصر، حينما نقل ذالك الكتاب من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية فذالك الكتاب أو تلك الرحلة أثر قيم نفيس من الآثار الشرقية يضاف إلى تراثنا العلمي الفذ، وليس المجال مجال إبراز مميزات تلك الرحلة أو الكلام عن صاحبها الرحالة الشهير، فقد كفينا ذالك وتصدى للقيام به علامتان محققان هما الأستاذ نقولا زيادة المدرس بالكلية العربية ببيت المقدس في كتابه «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» والأستاذ الدكتور زكي محمد حسن في كتابه «الرحالة المسلمون في العصور الوسطى» وإنما نريد أن نلمع إلماعة موجزة عن تلك الرحلة وما ورد فيها عن بلادنا بصفة مجملة، كما نشير إشارة مجملة إلى بعض ملاحظات لاحظناها في المقدمة التي كتبها المترجم الفاضل، أو في نفس الترجمة ولنا من رحابة صدر حضرته ومن محبة البحث عن الحق وإبرازه ما يشفع لنا ويوضح حسن قصدنا.

تقع حوادث هذه الرحلة بين سنتي ٤٣٧ هـ و ٤٤٤ هـ جاس الرحالة في خلالها كثيرًا من البلاد الفارسية والشام ومصر والحجاز ونجد والاحساء والعراق ووصف كل بلد بما شاهده فيه وصف مدقق لا يترك شاردة ولا واردة تستحق الذكر إلا ذكرها.

فمما لاحظنا في (الترجمة) وقوع تحريف في أسماء المواضع تحريفًا أعجمها وأبهمها وفي بعض أسماء الأشخاص أيضًا.

فمن أسماء المواضع (الثريا) وصوابه: (تربة) في صفحة ٨٩، وفي الصفحة نفسها: (جزع) والصواب: (الخرمة) وفي الصفحات: (٨٨، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦) (لحسا) والصواب: (الحساء) كما قال ابن مقرب الحسائي:

يا حبذا وادي (الحساء) فإنه   لو ساءني - وادٍ إليَّ محبب

وفي صفحة ٨٥: (وعلى مسافة أربعة فراسخ شمالي مكة ناحية تسمى برقة بها أمير مكة، مع جيش خاص به وهناك ماء جار وأشجار ومساحتها فرسخان طولًا في مثلها عرضًا كنت أظن أن هذا الاسم محرف عن (البركة) ولكنني وجدت مؤرخ مكة الشريف الفاسي ذكره بهذه الصيغة وهو في وادي مر المسمى في هذا العهد (وادي فاطمة) وإليك ماذكره الفاسي: قال في «العقد الثمين» في ترجمة أحمد بن عيسى بن عمران المكي: (وكان ذا ملاءة ووقف أوقافا هي ثلث ما يملكه من العقار، بالتنضب من وادي نخلة الشامية، والزيمة من وادي نخلة اليمانية، وفي البرقة من وادي مر) وقال في ترجمة الشريف حسن بن عجلان: (فذهبوا إلى الوادي ومضوا معه إلى الخيف فقطعوا فيه ثمر نخيل ذوي راجح، وقطعوا بالبرقة نخيلًا لبني أبي سويد، وقطعوا في الروضة الخضراء نخيلًا للأشراف).

وفي ص ٨٠ - في ذكر أبواب الحرم: (يقال له باب الفسانين) والصواب: السُّفْيَانِيين نسبة إلى بني سفيان بن عبدالأسد كما في الأزرقي في كتاب «أخبار مكة» (ص ٧١ ج ٢) وفي صفحة ٨١: (واسمه باب عروة) والصواب (الحزورة) كما قال الراجز:

يوم ابن جدعان بجنب الحزوره   كأنه قيصر أو ذو الدسكره

وفي ص ٧٧: (وعلى مسافة نصف فرسخ من طريق برقة بئر يسمى الزاهد).

والصواب: ... بئر الزاهر - بالراء -.

وفي صفحة ٩٠- في الكلام على أهل الفلج (الأفلاج): (وقد قالوا نحن من أصحاب الرقيم الذين ذكروا في القرآن الكريم) وصواب (الرقيم): (الرس) - كما ذكر ذالك كثير من المؤرخين ومافي هذه الرحلة من تحريف النساخ، إذ الرقيم في جهات الشام وفي الصفحات (٧٧، ٧٨، ٨٧) ابن شاددل أحد حكام اليمن وليس في حكام اليمن المشهورين في تلك المدة التي أشار إليها الرحالة من يسمى بهذا الاسم، ولاشك أن الصواب في ذالك الاسم (ابن زياد) كما يفهم من سياق الكلام.

فآل زياد هم الموالي الذين حكموا اليمن في تلك الحقبة، وهم الذين ورث حكمهم مواليهم الأحباش،ومنهم (الحسين بن سلامة) الذين أجرى الماء إلى عرفات، وذكره الرحالة بقوله: (وقد أنشأ ابن شاددل أحد أمراء عدن مجرى للماء تحت الأرض، وأنفق عليه أموالًا كثيرة، يسقى منه ما على حافتيه من شجر في عرفات). وقال: (وقد أوصل ابن شاددل الذي كان أميرًا لعدن الماء إلى جبل الرحمة من مكان بعيد وأنفق فى ذالك مالًا طائلًا.. وقد بنى هذا الأمير فوق جبل الرحمة طاقًا مربعًا كبيرًا، يضعون فوق قبته كثيرًا من القناديل والشموع ليلة عرفة ويومه. وقيل: إن أمير مكة أخذ ألف دينار من ابن شاددل ليجيز له إقامة هذا الطاق). وقد ذكر الخزرجي في «العسجد المسبوك» (ص ١٠٧ نسخة مكتبة الحرم الخطية): أن الذي بنا فوق جبل عرفات هو الحسين بن سلامة مولى أمير عدن اسحاق بن إبراهيم بن زياد، وهو عبد حبشي ينسب إلى أمه، وقد حكم بعد وفاة سيده من سنة ٣٧١ إلى سنة ٤٠٢ هـ وله مآثر عظيمة في

الحجاز منها إصلاح طريق كراء بتسهيل عقبته الكأداء وتوسيعها، ومنها حفر آبار كثيرة في طريق حجاج اليمن. وذكر الرحالة في صفحة ٧٨: أن أمير صنعاء وزبيد وصعدة عبد حبشي من أبناء شاددل وقد ذكر الخزرجي في تاريخه (ص ١١ إلى صفحة ١٤١) أن آل زياد الموالي حكموا اليمن من سنة ٢٠٤ إلى سنة ٤٠٧ ثم حكم بعدهم مواليهم الأحباش آل نجاح من سنة ٤١٢ إلى سنة ٤٥٥ - فهم حكام اليمن في عهد صاحب الرحلة ولهذا رأينا تحريف كلمة (ابن زياد) إلى كلمة (ابن شاددل).

ومما لاحظناه في المقدمة، قول الدكتور صفحة: س (فاضطر ناصر إلى أن يبيع هذه الكتب التي اضطر من أجلها إلى أن يعود إلى مكة). مع أن المترجم الدكتور نفسه ترجم كلام الرحالة بهذا النص (صفحة ٩٦: فبعت السلتين اللتين كانت بهما كتبي) والكلام واضح في أن ناصرًا لم يبع كتبه. وإنما باع صندوقيهما ولاحظنا في المقدمة صفحة (ث) أن المترجم يعلل تنقل الرحالة بين الطائف والفلج وماحولهما بأن القصد من ذالك التنقل أغراض سياسية ليؤلف بين أعراب تلك الجهات، ويدعوهم إلى الانضواء تحت لواء الخليفة الفاطمي. وهذا تعليل ينقصه الدليل، واستدلال الأستاذ بقوة الصلات بين الصُّلَيْحِيِّينَ حكام اليمن والعبيديين حكام مصر، لا يكفي لإنهاض حجة على ما ادعاه المترجم، لا سيما وأن الحجاز في ذالك العهد ليس للصليحيين فيه نفوذ قوي. كما أن (الأفلاج) تحت سيطرة حكام اليمامة الأشراف الخاضعين لقرامطة الأحساء.

ومما لاحظناه في الترجمة ماجاء في صفحة ٦٧ عن تعليل تسمية (الجحفة) من نزول الحجاج فيها في سنة من السنين، فنزل عليهم السيل فأهلكهم، وأشار المترجم في الحاشية قائلًا: راجع حوادث سنة ٨٠ أيام عبدالملك بن مروان

مشيرًا إلى سيل (الجحاف) المشهور الذي يقول ابن جرير عنه: أن السيل جحف كل شيء مر به وذهب ببعض الحجاج. والحق أنه لا ارتباط بين سيل (الجحاف) وتسمية الجحفة، إذ تسمية الجحفة بذالك الاسم قبل وقوع ذالك السيل بمدة طويلة، فقد ورد اسمها في الحديث النبوي في هجرة الرسول ﷺ قبل فرض الحج بعشر سنوات، وقبل وقوع سيل الجحاف بتسعين سنة.

ورد في الحاشية صفحة ٨٢: أن هارون الرشيد اعتمر وجاور في سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م). وهارون قد توفي قبل تلك السنة بمئة سنة تقريبًا، والصواب: سنة ١٨٩. وورد في صفحة ٩٢: (وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كل منها لإدارة خمس سواق) - يعني عيون الأحساء: وهنا غلط في الترجمة، إذ المفهوم من النص الفارسي: تكفي لإدارة خمس طواحين. أما خمس سواق فلا معنى لها إذ العين الواحدة يتفرع منها أكثر من خمسين من السواقي لا خمسة.

وفي حاشية هذه الصفحة - في الكلام على أمراء اليمامة: أنهم من عائلة طباطبا ورأسهم هو الإمام يحيى الهادي - وهذا غلط فاحش، إذ أمراء اليمامة ليسوا من تلك العائلة، بل هم أشراف آخرون يعرفون بالأخيضريين، أبناء يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد ذكرهم ابن خلدون في تاريخه [ص ٩٨ وما بعدها من الجزء الرابع] والجنابي في «البحر الزاخر»، وابن عِنَبَة في «عمدة الطالب» وغيرهم من المؤرخين. أما أبناء الإمام يحيى الهادي فهم ملوك اليمن.

ومما لاحظنا: عدم ترجمة اسم الرحلة القديمة «سفر نامة»» بكلمة عربية مثل كلمة «رحلة ناصر خسرو» ولم نهتد إلى تعليل نطمئن إليه لإبقاء الاسم الفارسي، وعدم ترجمته.

هذه بعض ملاحظات عنت لنا أثناء مطالعة تلك الرحلة الممتعة وهناك هنات هينات لم نر داعيًا للإشارة إليها.

ولو أن نشر هذه الرحلة القيمة كان من غير المنتمين إلى تلك الكلية العظيمة (كلية الآداب) لما رفعنا رأسًا بما جاء فيها من تلك الأغلاط ولكن الأغلاط الهينة حينما تضاف إلى المنتمي لتلك الكلية تكون عظيمة.

وكما يقال: (السيئة في نفسها سيئة، ومن بيت النبوة أسوأ) نقول (الخطأ في نفسه خطأ، ومن كلية الآداب وعلمائها أخطأ).

«سفر نامة أيضًا»:

[وبعد قيام الدكتور أحمد خالد البدلي - في كلية الآداب في جامعة الملك سعود - بتعريب الكتاب، كتبت بحثًا عن تلك الرحلة، نشر في «العرب» س ٢٠ ص ٤٨٦ و ٦٠٩ (محرم وربيع الأول ١٤٠٦هـ) وهاهو ماكتبت]:

قامت (عمادة شؤون المكتبات في جامعة الملك سعود في الرياض) بنشر كتاب «سفر نامة - رحلة ناصر خسرو القبادياني» ترجمة وتقديم الدكتور أحمد خالد البدلي - مدير معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها، في الجامعة المذكورة. ونشر الكتاب سنة ١٤٠٣ (١٩٨٣م) بطباعة حسنة، مصدرًا بفهرس مجمل لمباحثه، ثم بمقدمة عن ناصر خسرو، وعن رحلته - في ٢٢ صفحة - ثم الكتاب متصل الصفحات بصفحات المقدمة حتى (الصفحة الثانية بعد المئتين).

وقد عُرِّبت هذه الرحلة - قبل تعريب الدكتور البدلي بما يقرب من أربعين عامًا، حيث قام الدكتور يحيى الخشّاب بنقلها إلى اللغة العربية، وكتابة مقدمة ضافية عنها، تكلم فيها بتفصيل عن حياة ناصر خسرو، وعن رحلته، وقام (معهد اللغات الشرقية) في (كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول) بنشر الكتاب، وصدر مطبوعًا بـ(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة سنة ١٣٦٤ - ١٩٤٥م في ٣٠ + ١٣٦ صفحة من القطع الكبير، يحوي تصديرًا بقلم الدكتور عبدالوهاب عزام رئيس معهد اللغات الشرقية في ثلاث صفحات، ثم مقدمة المعرب الدكتور الخشاب، فالكتاب، ففهارس مفصلة أحدها: لأسماء الرجال والقبائل والفرق، والثاني: لأسماء البلاد والأماكن، والثالث: لأسماء الكتب.

ثم بيان المقاييس والموازين والنقود التي جاء ذكرها في الرحلة، ففهرس مباحث الكتاب، فمصور جغرافي (خريطة) لتوضيح مواقع أهم المدن التي مَرَّ بها ناصر خسرو. والدكتور يحيى الخشاب كان ذا اهتمام وعناية بناصر خسرو، وبرحلته، فقد ترجم منها الفصل الخاص بمصر سنة ١٩٣١م ملحقًا لبحث (الماجستير) بتوجيه من أستاذه الدكتور عبدالوهاب عزام، - عميد كلية الآداب - وألف كتابًا باللغة الفرنسية عن ناصر خسرو، نشره المعهد الفرنسي في القاهرة، وما كتبه عنه في مقدمة «سفر نامه» من أمتع الدراسات وأنفعها عن حياة الرجل وعن رحلته من حيث إيضاح غايتها، وبعض ما قد يستشكله القارئ مما ورد فيها. مع الإشارة إلى أنها بنصها الذي ترجم ناقصة، إذ لم تصل الرحلة كاملة في الأصول المعروفة الآن. ويظهر من كثرة استشهاد الدكتور الخشاب بأقوال غني زادة أنه اتخذ مطبوعته التي نشرها محققة سنة ١٣٤١ - في برلين - أصلًا. وكنت اطلعت عليها فنقلت عنها ما يتعلق بمرور الرحالة ببلاد نجد، منذ أن أنهى الحج سنة ٤٤٢ - حتى بلغ البصرة - من ص ١١٦ إلى ص: ١٣٠ - مطبوعة م. غني زادة - نقلت ذالك وأنا لا أحسن اللغة الفارسية.

ثم لما صدر الكتاب مُعَرَّبًا سنة ١٣٦٤ - كتبت عنه كلمة بعنوان (سفر نامه أقدم رحلة شرقية مدونة) نشرت في مجلة «المنهل» في رمضان سنة ١٣٦٥ - في الجزء التاسع من المجلد السادس (من ص ٤٠٠ إلى ٤٠٤).

ويظهر أن الدكتور الخشاب اطلع على ما كتبت، أو ناشرها الذي قيل لي: إنه أشار إلى ذالك في الطبعة الثانية، حيث أخذ ببعض الملاحظات التي أبديتها فيما كتبت، ولم اطلع على هذه الطبعة التي صدرت عن (دار الكتاب الجديد) للدكتور صلاح الدين المنجد، في بيروت قبل عشر سنوات[1].

---

(١) توفي الدكتور يحيى الخشاب وزوجته الدكتورة سهير القلماوي منذ فترة.

تعريب الدكتور البدلي: كان من الوفاء لعالم جليل تولى إدارة هذه الجامعة التي صدرت الترجمة عن أحد فروعها- هو الدكتور عبدالوهاب عزام- أن تشير إلى ما لذالك العالم من فضل السبق بتوجيه أحد تلاميذه لتعريب تلك الرحلة، فإذا فات (المعرب) هذا فما كان ينبغي أن يفوت الذين قاموا بدراسة الترجمة، ثم قرروا نشرها.

وكان من الوفاء لأستاذ كريم هو الدكتور يحيى الخشاب أن لا يتناساه الدكتور البدلي - وهو أحد تلاميذه - في المقدمة التي تعرض فيها لترجمة ناصر خسرو، وقد سبقه الدكتور إلى تفصيل هذه الترجمة، بل بتأليف كتاب عن المُتَرْجَم، ولكن الدكتور البدلي تجاهل - وهذه أسهل من كلمة جهل في هذا المقام - عَمَلَ الدكتور الخشاب، وزاد على ذالك بأن قال: - ص ١٧ المقدمة- وربما تحدثت عن الدور الخطير الذي لعبه... ناصر خسرو... في كتاب خاص، يتناول جوانب شخصيته المتعددة الاتجاهات. وهذا مما يوهم القارئ بأن الموضوع لا يزال بحاجة إلى التأليف. ثم لما أراد الدكتور البدلي إيضاح أن «سفر نامه» في أصلها ربما كانت أكبر حجمًا مما هي عليه الآن - كذا نقل ص ٢١ - وربما اختصرها بعض الوارقين- استدل بما أورده الدكتور الخشاب، أو نقله كما نقله من كلام م. غني زادة. وعندما تحدث الدكتور البدلي عن مؤلفات ناصر خسرو- ضرب صفحًا عن ذكر كتابين لقيا عناية واهتمامًا من الدكتور الخشاب، هما:

١ - «خوان الاخوان» وقد ذكر الدكتور الخشاب أنه نَشر هذا الكتاب، وطبع سنة ١٩٤٠م - في مطبعة المعهد الفرنسي في القاهرة (انظر الحاشية ص١١ من «سفر نامه»).

٢- جزء من كتاب «كشايش ورهايش» عثر عليه الدكتور الخشاب في (دار الكتب) وتحدث عنه في مقدمة «سفر نامه» - ص: خ - في حديثه عن مؤلفات ناصر خسرو. لأدع الحديث عما ورد في مقدمة الدكتور البدلي، وصلتها بمقدمة الدكتور الخشاب، لئلا أخوض فيما هو خارج عن صميم الموضوع الذي أريد الحديث عنه مما يتعلق بالترجمة نفسها.

لقد اتخذ الدكتور البدلي أصلًا لترجمته طبعة قال عنها: (ثم طبعت السَفر (؟) نامه في طهران سنة ١٣١٤... وانفرد محققها العلامة محمود غني زاده بالضبط والدقة - وبعد أن أورد طرفًا من آراء محققها عن أصل الكتاب قال - ص ٢٢ المقدمة-: ومن هنا يتضح لنا أنَّ هذه الطبعة أكثر دقة وضبطًا وتوثيقًا ولذالك اعتمدت عليها، وترجمتها إلى العربية). انتهى.

فهل الدكتور البدلي يقصد مطبوعة برلين التي نشرها الأستاذ محمود غني زادة سنة ١٣٤١ - فوقع تطبيع أوقع القارئ بأن يتصور أن هذا المحقق نشر طبعتين إحداهما في طهران سنة ١٣١٤ - وهي التي اتخذها الدكتور البدلي أصلًا، والأخرى في برلين سنة ١٣٤١ - وهي التي سبقت الإشارة إلى رجوع الدكتور الخشاب إليها، والاستفادة من آراء محققها؟!

لا أرى إلا أنَّ الطبعة واحدة، وأنها في برلين سنة ١٣٤١، وقد اطلعت عليها ونقلت منها، ولو صحَّ غير هذا لكان على الدكتور البدلي أن يرجع إلى عمل المحقق الأخير فيتخذه أصلًا، إذ قد يكون فيه من الآراء ما قد يضيفه إلى ما في عمله الأول. مع أنه صرح في موضع آخر - ص ٢١ من المقدمة - بقوله: اعتمدت في اختياري هذه الترجمة من السفر (؟) نامه على النسخة المطبوعة في مطبعة (كاوياني) ببرلين، وهي - كما أعلم - أحدث وأدق طبعة ظهرت عن السفر (؟) نامه حتى الآن. كذا قال، ومطبوعة م. غني زادة هي التي جاء في طرتها: (برلين - درجابخانة شركة (كاوياني) سال ١٣٤١ بطبع رسيد).

أما قول الدكتور البدلي - ص ١٢ المقدمة-: كل مترجم لأي أثر علمي تحكمه عاطفتان علمية ووطنية، وأنا عندما فكرت في ترجمة هذه الرحلة من الفارسية إلى العربية - رغم وجود ترجمة عربية لها بقلم أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب طبعت سنة ١٩٤٥ - كنت مدفوعًا بهذين العاملين الوطني والعلمي.

فحسب علمي وتتبعي فهذه أول ترجمة عربية مباشرة من الفارسية إلى العربية، أما ترجمة الخشاب فقد كانت من أصل فرنسي. انتهى.

هذا القول من الدكتور البدلي ينبغي الوقوف عنده طويلًا لا لإثبات العاملين الدافعين له إلى تعريف الرحلة فيما عرب، وحده، ولكن لكون (ترجمة الخشاب من أصل فرنسي) ومعذرة فكذا وردت الجملة جافةً من تلميذ لأستاذه، علمًا وسِنًّا وهذا مما لا يعني القارئ.

أترى رئيس قسم الدراسات الفارسية في الجامعة المصرية حقبة من الزمن، الذي عَرَّبَ من تلك اللغة كثيرًا من الأبحاث الأدبية والتاريخية لم يعرب (سفر نامه) عنها: إنَّ من يقرأ المقدمةالضافية التي كتبها الدكتور الخشاب - وخاصة- ص: ل - لا يخامره شكٌ في أنه نقل عن الفارسية، فهو يذكر نصوصًا من الرحلة ينقلها عن الأصل الفارسي، ويشير إلى صفحاتها منه، ثم يذكر ما يقابلها مما عَرَّبَ.

ثم إن الدكتور عبدالوهاب عزام في مقدمته يضيف هذا الكتاب في مقام الإشادة بأعمال أساتذة الآداب الشرقية في كلية الآداب - في جامعة فؤاد - إلى الكتب التي أخرجها اؤلئك الأساتذة من عيون الأدب الفارسي.

لندع كل هذا فحسب القارئ الحصول على رحلة يكفي لإبراز ما لها من قيمة علمية قيام جامعتين عتيدتين من الجامعات العربية بتعريبها ونشرها. إلَّا أن من حق كل قارئ البحث في الوسائل التي توجد في نفسه من بواعث الثقة ما يُهَيِّئُ له الاستفادة من أي كتاب يرغب قراءته.

وهذا - بالنسبة لي - ما سأتناول البحث فيه من جوانب منها:

١ - الاطمئنان بصحة ما تحويه هذه الرحلة من معلومات.

٢ - ما تضفيه وتزود به ذهن القارئ مما يزيده معرفة.

٣ - ملاءمة طريقة العرض بحيث تتم الاستفادة بأيسر الطرق.

الأمر الأول: الاختلاف بين الترجمتين:

يستغرب القارئ حين يمر بعبارات تختلف المعاني فيها باختلاف الترجمة، فهي في ترجمة الدكتور الخشاب لها معنى يخالف معناها في ترجمة الدكتور البدلي، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها، وأكتفي بذكر نماذج منها.

١ - (ص ٢٥ ب)[1]: وسألت الله أن يمنحني الغنى.

وفي (ص: ١١ خ): و دعوته تعالى أن ييسر لي أمري.

ويظهر أن العبارة الأخيرة أقرب إلى الصواب، فالرجل لم يكن فقيرًا ليسأل الغنى، بل كان ذا جاه ومنصب وأملاك فخرج من كل ذالك بحثًا عن راحة النفس، قال (ص: ٢ خ): وتركت أموالي عدا القليل الضروري منها و (ص٢٦ ب): وتخلصت من أملاكي إلا الضروري الذي لا بُدَّ منه. ثم إنه كان من كبار رجال الديوان السلجوقي المسؤولين عن الأموال والأعمال السلطانية.

وقد تكرر مثل هذا المعنى في تعريب الدكتور البدلي (ص: ٦٠): صليت في مقام التوبة، وسألت الله التوفيق... وطلبت منه سعة الرزق. ولم ترد الجملة الأخيرة في تعريب الدكتور الخشاب (ص: ٢٣).

٢ - (ص: ٢٨ ب): وبيعت كيلة الشعير بدرهمين.

وفي (ص: ٣ خ): حتى بيع المن من خبز الشعير بدرهمين.

٣ - (ص: ٢٨ ب): قزوين مدينة عظيمة، ولها سور حصين، ذات (؟) شرفات ومراقب. وفي (ص: ٤ خ): قزوين مدينة عظيمة، ذات حصن مكين، عليه شرفات. فكلمة (ذات شرفات) إذا كانت وصفًا للسور فصوابها (ذو شرفات) لأنه مذكر.

٤ - (ص: ٣٠ ب): ولقد ذرعت مساحتها طولًا وعرضًا فوجدتها ألفًا وأربع مئة ذراع. وفي (ص: ٥ خ): وقد قست طولها وعرضها فكان كل منهما ألفًا وأربع مئة قدم.

---

(١) يرمز لتعريب الدكتور البدلي بحرف (ب) وتعريب الدكتور الخشاب بحرف (خ).

٥- (ص: ٣٣ ب): ومدينة الأخلاط هي الحد الفاصل بين ديار الإسلام وديار الكفر. وفي (ص: ٦ خ): مدينة أخلاط... وهي على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن.

٦- (ص: ٣٤ ب): وَتَتِمُّ معاملات الناس هنا بالأوراق النقدية.

وفي (ص: ٧ خ): والمعاملة هنا بالنقود النحاسية.

٧- (ص: ٣٥ ب): يحيط بالمدينة سور عظيم من الأحجار البيضاء ويزن كل حجر خمسين رطلًا.

وفي (ص: ٨ خ): وميًا فارقين محاطة بسور من الحجر الأسود، الذي يزن الحجر منه خمس مئة مَنٍّ.

٨- (ص: ٣٥ ب): - عن ميًا فارقين-: وللمدينة مسجد جمعة يجل عن الوصف، ولو أردت وصفه لاستغرق صفحات كتاب كامل.

وفي (ص: ٨ خ): ويطول وصف مسجد الجمعة بها لو ذكرته، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شيء أتم الشرح، وقد قال: إن للميضأة. الخ.

وعلق الدكتور الخشاب: هذه الجملة - كما يبدو - من وضع ناسخ الكتاب، وهي تدلُّ على أن هذا الناسخ أو كاتبًا سواه قد اختصر كتاب «سفر نامه» راجع تعليق الأستاذ غني زادة (ص ١٠) سفر نامه طبعة برلين. انتهى.

وهذه الملاحظة من الناشر م. غني زادة جديرة بأن تجد من الدكتور البدلي انتباهًا وتأمُّلًا، غير أن ترجمته لما يتعلق بها من كلام بَدَا وكأن الكلام تامٌّ ومستقيم، ولا نقص في الأصل.

٩- (ص: ٣٦ ب): ومدينة آمد تقع على مرتفع جبلي، مساحتها طولًا ألفا خطوة، وكذالك عرضها... وقد أحاط بها سور عظيم ذو حجارة سوداء بشكل الآجرّ، وهي في غاية الضخامة.

وفي (ص: ٨ خ): بلغنا آمد التي شيدت على صخرة واحدة، طولها ألفا قدم، وعرضه كذالك، وهي محاطة بسور من الحجر الأسود، كل حجر منه يزن ما بين مئة وألف مَنٍّ.

ويلاحظ هنا - الاختلاف بمقدار المساحة، ومعروف أن الخطوة مقدار ما بين موطئ القدمين أثناء المشي، وهي تقارب ضعف القدم.

أما تَقدير وزن الحجر فلم يرد في ترجمة (ب).

١٠- (ص: ٣٧ ب): - في وصف عين آمد: وفي وسط المدينة عين جارية، تأتي من خلال حجارة رهيفة، وماؤها غاية في العذوبة.

وفي (ص: ٩ خ): وفي وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفي لإدارة خمس طواحين، وهو غاية في العذوبة.

لم يرد في الترجمة الأولى مقدار قوة حركة الماء.

١١- (ص: ٣٨ ب): وفي يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٤٣٨ وصلنا إلى حوران، وذالك يصادف من شهور آب من شهر الفرس. (كذا).

وفي (ص: ١٠ خ): وقد بلغنا حران يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة ٤٣٨... الموافق ٢٢ من شهر دي القديم.

وقد أورد الدكتور الخشاب - في حاشية ص ٢ - أسماء الأشهر الفارسية القديمة فذكر أنَّ شهر (دي) الفارسي يوافق (ديسمبر ويناير) ولم يذكر شهرًا فارسيًّا باسم (آب) ولكن باسم (آبان) وهذا يوافق فيما ذكر (أكتوبر نوفمبر).

وسيأتي في الرحلة (ص ٣٩ ب) أن الشهر الذي يلي (دي) هو (بهمن) وأنه شديد البرودة - ورد هذا بعد مرور سبعة أيام هي آخر جمادى الآخرة ويومان من رجب.

ولا أرى الدكتور البدلي يقصد بترجمته شهر آب السرياني، الذي يوافق شهر أغسطس الرومي - فهذا الشهر يقع في فصل الصيف (برج الأسد).

١٢- (ص: ٣٩ ب): ولحلب قلعة عظيمة... وهي أعظم من قلعة بلخ بمراتب.

وفي (ص: ١٠ خ): وبها قلعة عظيمة... ويمكن مقارنة حلب ببلخ..

فهل تقارن القلعة بالقلعة، أم المدينة بالمدينة؟

١٣- (ص: ١٣ خ): في الكلام على مدينة طرابلس الشام: ومساحة المدينة ألف ذراع مربع. هذه الجملة لم ترد في ترجمة (ب ص: ٤٣).

١٤- (ص: ١٣ خ): وغادرت طرابلس... فرأيت على مسافة فرسخ قلعة تسمَّى قلمون في داخلها عين ماء، وسرت من هناك إلى طرابرزن، ومن طرابلس إليها خمسة فراسخ، ومنها بلغنا مدينة جُبَيْل.

وفي (ص: ٤٤ ب): غادرنا طرابلس... فوصلنا إلى قلعة تسمى قلمون، يقولون: إن في داخلها مياه (؟) كثيرة، واتجهنا إلى مدينة جُبَيْل. ففي تعريب الدكتور البدلي لم يرد ذكر لتحديد المسافة بين طرابلس وقلمون، ولا ذكر لطرابرزن، ولا للمسافة بينها وبين طرابلس. وفي وصف ماء قلمون اختلاف بين الترجمتين.

١٥- في وصف الإيوان الذي شاهده ناصر خسرو في بيروت: (ص: ١٤ خ): وفي الوسط تمامًا الطاق الكبير، يعلوها بخمسين ذراعًا، وقد قِسْتُ كُلَّ حَجَرٍ منه فإذا به ثمانية أذرع طولًا وأربعة عرضًا، وأظنُّ الحجر الواحد يزن سبعة آلاف مَنٍّ.

هذا الوصف لما في وسط الإيوان (الطاق الحجري) لم يرد في تعريب (ب: ص: ٤٤).

١٦- (ص: ٤٥ ب): توجد في عدة أماكن من الشام... ويربو عدد هذه الأعمدة على خمسين ألف.

وفي (ص: ١٤ خ): وفي نواحي الشام أكثر من خمس مئة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع.

١٧- (ص: ٤٥ ب): في وصف مدينة صُور-: وأكثر المدينة داخل في مياه البحر، وتُدهَنُ بيوت المدينة بالقِير حتى تسلم من الصَّدَإ.

وفي (ص: ١٥ خ)-: مدينة صور، وهي ساحلية، وقد بُنِيتْ على صخرة امتدَّتْ في الماء، بحيث أن الجزء الواقع في اليابس من قلعتها لا يزيد على مئة ذراع، والباقي في ماء البحر، والقلعةُ مبنيَّةٌ بالحجر المنحوت، الذي سُدَّتْ فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله.

١٨- (ص: ٤٦ ب): وللسور في الجهة الجنوبية بَوَّابةٌ حديديةٌ ضخمة، تَشُدُّها سلاسل عملاقة مربوطة بطرفي السور. - عن مدينة عكة -.

وفي (ص: ١٥ خ): وحائطاها داخلان في البحر، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح، طوله خمسون ذراعًا، وقد شُدَّت السلاسل بين الحائطين، فإذا أُرِيد إدخالُ سفينة إلى الميناء أُرْخِيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها إلخ.

١٩- (ص: ٤٧ ب): ورأيتُ بالقرب من البوابة الشرقية للمدينة، وعلى يسار الخارج عين (؟) ينحدر إليها الإنسان إلى باطن الأرض على درجات، وتسمَّى عين البقر.

وفي (ص: ١٦ خ): وعند الباب الشرقي، على اليد اليسرى، عين يصلون إلى مائها بنزول ست وعشرين درجة، وتسمَّى عين البقر، ويقال: إن آدم- عليه السلام - هو الذي كشفها، وكان يسقي منها بقرته، ولذا سُمِّيَتْ عين البقر.

وجملة: (ويقال...) التي لم ترد في تعريب الدكتور البدلي وردتْ في كلام كثير ممن تحدثوا عن هذه العين من المتقدمين - كياقوت الحموي في

«معجم البلـدان» في رسم (عين البقـر) والحِمْيَري فـي «الروض المعطـار» في رسم (عكَّـا) وغيرهمـا ممن أشار إليهم الـدكتور الخشـاب عندمـا أورد كلام ناصر خسرو، ولكن عبارات كثير منهم تختلف عن عبارة ناصر.

٢٠- بعد ذكر بروة حيث قبر شمعون في الكلام على (عكة) قال: (ص: ١٦ خ): ومن هناك بلغتُ مغـارك التي تسمَّى دامون فزرت المشهد المعـروف بقبر ذي الكفل - عليه السلام -.

وفي (ص: ٤٧ ب): ومن هناك اتجهـت إلى قبر يدعى دامـون، ويزعمـون أنه قبر النبي ذي الكفل - عليه السلام -.

٢١- (ص: ٤٧ ب): أعيلين، وبها قبر النبي هود - عليه السلام - ورأيت بجانب القبر حظيرة بها شجرة عجوز، زعموا إليَّ أنه (؟) قبر عُزَير - عليه السلام -.

وفي (ص: ١٦ خ): أعيلين، وبهـا قبـر هود - عليـه السـلام- وكـان بحظيرتـه شجرة الخرتوت، وكذالك زرت هناك قبر النبي عُزَيْرٍ - عليه السلام -.

٢٢- في الكلام على قـرية حظيرة من قرى عكـة: (ص: ٤٨ ب): وهناك رأيت قبريـن أحدهما لشعيـب - عليه السلام - والآخـر لابنته التي كـانت تحب موسى - عليه السلام.

وفي (ص: ١٧ خ): قبران متجـاوران أحدهمـا قبر شعيب- عليـه السلام- والثاني قبر ابنته التي كانت زوج موسى - عليه السلام -.

فمن أين أتت كلمة (الحب) في مقام الحديث عن هذين النبيين الكريمين وقد أخبر الله أن موسى تزوج ابنة شعيب، ولم يرد للحب ذكر؟

٢٣- (ص: ٤٨ ب): وفي نهر طبرية أسماك كثيرة، متعددة الألوان والطعوم.

وفي (ص: ١٧ خ): وفي بحـر طبريـة سمك كثير. ولم يـذكر تَعَـدُّدَ الألوان والطعوم!

٢٤- (ص: ٤٩ ب): وسمعت أن في نهر لوط حيـوان (؟) يشبه البقرة، يصطاد من قـاع النهـر، ويقطع قطعًـا صغيـرة ... ... ويـزعمـون أن العطـارين يشترون هذا الدواء، زاعمين أن آفة مـا تتلف بعض الأدوية لا دواء لها سوى هذا الحيوان النهري.

وفي (ص: ١٧ خ): سمعت من أنسـان أن في بحـر لـوط شيئًـا كـالحجـارة السوداء، غير صلب، يشبه البقر، يخرج من قاعه فيأخذه السكان، ويقطعونه... وقيل: إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور، اسمها النقرة.

٢٥- (ص: ١٨ خ):- في الكـلام على طبـريـة-: وفـي الجـانب الغـربي من المـدينة جبل فيـه قطعة من حجـر المـرمر، مكتـوب عليها بخط عبـري أن الثريا كانت على رأس الحَمَل ساعة الكتابة.

لم ترد هذه الجملة في (ب: ص: ٥٠).

٢٦- في وصـف مسجـد القُـدس (ص: ٥٧ ب): وفي أعلى أحـد الأبـواب أن طول المسجـد سبع مئـة وأربعة أمتار، وعـرضه مئـة وخمسة وخمسيـن مترًا بالقياس الملكي الذي يسمونه في خراسان بالشاهاني.

وفي (ص: ٢١ خ): .. طاقًا مكتوبًا علـى حجر منه: أنَّ طُول المسجد أربع وخمسون وسبع مئة ذراع، وعرضـه خمس وخمسون وأربع مئة ذراع، وذالك بذراع الملـك المسمى في خراسـان اكرشايكـان، وهو أقل قليـلًا من ذراع ونصف.

ونقل الدكتور الخشـاب عن (شيفر) أنَّ قنصل فرنسا فـي القدس أرسل إليه النص المكتوب على الجامع وهو: بسم الله الرحمن الرحيم: طول المسجد سبع مئـة وأربع وخمسين ذراع، وعـرضـه أربع مئـة وخمس وخمسين ذراع بذراع الملك.

وأضاف الدكتور الخشاب: وهناك اختلاف بين ما جاء في النص الفارسي وبين ماذكره القنصل، هو أنَّ النص الفارسي المطبوع في برلين... قد سقط منه سهوًا كلمة جهار (جهار صد) في ذكر عرض المسجد... ولعل الفرق بين النَّصين في طول المسجد نتج عن إسقاط النساخ لكلمة (بنجاه) وجهار، وهذا ما نرجحه، وصححنا الترجمة على أساسه وبه يرتفع الخلاف. انتهى كلام الدكتور الخشاب.

٢٧- (ص: ٥٧ ب): وباب المسجد عظيم، وارتفاعه في حدود ثلاثين ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا، ويتصل به بابان عن يمينه ويساره، أقل منه مساحة، وتكثر النقوش في الباب. - إلى آخر الكلام على باب داوود-.

وفي (ص: ٢٢ خ):... فيرى رُوَاقًا عظيمًا جميلًا، ارتفاعه ثلاثون ذراعًا وعرضه عشرون، وللرواق جناحان، وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء- إلى آخر الكلام مما لا يتفق مع الترجمة الأخرى.

ومثل هذا الكلام على ما بين (باب الأسباط) و (باب الأبواب) حيث وصف الخشاب، رواقًا سماه البدليُّ بابًا.

ومثله (ص: ٦٢ ب): ويحف بالمقصورة خمسة عشر بابًا كلها تؤدي إلى ساحة المسجد المكشوفة. وعند (خ: ص ٢٥): وعلى باب المقصورة وحائطها المطلان على الساحة خمسة عشر رواقًا، عليها أبواب مزخرفة، ارتفاع كل منها عشرة أذرع، وعرضه ست.

والجملة الأخيرة لم يوردها (ب).

٢٨- (ص: ٥٩ ب):... باب التوبة، وبجانب الباب مسجد جميل... وهو مُزْدَانٌ بالرياض الجميلة، والقناديل الثمينة.

وفي (ص: ٢٣ خ): وعلى هذا الرواق مسجد جميل... وزينوه بأنواع السجاد، وله خدم مخصوصون.

ولم أُدْرِك معنى كلمة (الرياض) هنا.

٢٩- (ص: ٦١ ب): والمسافة بين كل عمودين اذرعة (؟).

وفي (ص: ٢٤ خ): وبين كل عمودين ستة أذرع.

٣٠- (ص: ٢٨ خ): وبيت الصخرة بيتٌ مثمَّنٌ منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعًا، وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية... وبين كل بَابَيْنِ ضلع، وجميع الحوائط من الحجر المنحوت، وارتفاعها عشرون ذراعًا، ومحيط الصخرة مئة ذراع، وهي غير منتظمة الشكل.

وفي (ص: ٦٦ ب): والقبَّةُ بناء مثمن الأضلاع مساحة كل ضلع ثلاثة وثلاثون أرشا (؟) وللقبة أربعة أبواب يواجه كل باب منها جهة من الجهات الجغرافية الأربع... وبين كل بابَيْن ضلع، ويحيط بجدر القبة حوائط حجرية، وتبعد الصخرة عن الجدر بمساحة مئة شبر، وليس للصخرة شكل هندسي.

ويظهر أن المقصود بكلمة (أرش) ذراع، حيث ورد في وصف القبة التي فوق الصخرة: (ص: ٦٧ ب): وارتفاع هذا الغطاء نحوًا من مئة وعشرين أرشا.

وفي (ص: ٢٩ خ): القبة التي تحتها الصخرة، والتي يبلغ محيطها مئة وعشرين ذراعًا. وفي (ص: ٧٠ ب): وسعة الدرجات المؤدية إلى مقام النبي عشرون أرضا.

وفي (ص: ٣٠ خ): وعرض درجاته عشرون ذراعًا.

ويلاحظ أنَّ الدكتور الخشاب أورد (ص: ٢٩) كلامًا طويلًا عما يحيط بقبة الصخرة من أعمدة ودعائم، لم يذكره الدكتور البدلي (ص: ٦٧).

٣١- (ص: ٦٨ ب):- في آثار الأقدام التي فوق الصخرة-: أنها آثار قدمي إبراهيم واسحاق - عليهما السلام-.

وفي (ص: ٢٩ خ):... آثار قدمي إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام -.

٣٢- (ص: ٦٨ ب): بيت المقدس فهو ثالث الحرمين.

وفي (ص: ٣٠خ): وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله.

وفَرْقٌ بين العبارتين، فالأولى تدل على أن بيت المقدس حَرَمٌ كحرمِ مكة وحرم المدينة، لا يقطع شجره ولا يُصَاد صيده، وله من الأحكام الشرعية ما للحرمين المذكورين.

٣٣- (ص: ٧٣ ب):- عن بيت لحم-: يأتون إليه من رومية، كما رأيت فيه خلقًا كثيرًا من مسيحي إيران... وصلت إلى هذا المكان ليلًا قادمًا من بيت المقدس.

وفي (ص: ٣٣ خ): وهناك يقدم النصارى القرابين.. ويقصده الحجاج من بلاد الروم، وقد بلغته مساء اليوم الذي قمت به من بيت المقدس.

٣٤- (ص: ٧٦ ب): ويقولون: إنَّ المشهد الإبراهيمي لم يكن له وجود. ولم يكن في مقدور الإنسان أن يصل إليه - إلخ.

وفي (ص: ٣٥ خ): ويقال: إنه لم يكن لهذا المشهد بابٌ، وكان دخوله مستحيلًا - إلخ. في العبارة الأولى الإنكار لوجود المشهد، وفي العبارة الثانية إنكار الوصول إليه (الباب) ويظهر من بقية الكلام في العبارتين أن الصواب ما ورد في الأخيرة.

٣٥- (ص: ٨٣ ب): في الكلام على تنيس-: ويكثر في أسواقها شراب الشعير المطبوخ، في الصيف.

وفي (ص: ٣٨ خ): وهناك في فصل الصيف يبيعون الكِشْكاب.

وفسَّر (خ) الكِشكاب بأنه صنف منعش، يشبه ما يسمى في تركيا (آيَرَان) يتكون من اللبن الزبادي المضروب مع الماء، وصنف آخر يتكون من

السوبياء المخمرة، مضافًا إليه بعض العناصر الأخرى، ويسمى هذا الصنف الفقاع، ويقصد ناصر الصنف الأول. انتهى.

٣٦- (ص: ٨٤ ب):- عن عمامة لسلطان مصر نُسِجت في تنيس-: ولقد رأيت تلك العمامة فإذا هي تساوي ألفي دينار ذهبي مغربي.

وفي (ص: ٣٨ خ): وقد رأيت هذه العمامة، ويقال: إنها تساوي أربعة آلاف دينار مغربي.

٣٧- عن تنيس (ص: ٨٤ ب): وحامية المدينة تتكون من خمسين ألف مقاتل، وترابط في ميناء المدينة ألف سفينة حربية.

وفي (ص: ٣٩ خ): وسكانها خمسون ألفًا، ويرابط حولها دائمًا ألف سفينة.

٣٨- (ص: ٨٦ خ): وتحمل كل سفينة من السفن ما يعادل مِئتي طن.

وفي (ص: ٤١ ب): وتصنع بها سفن كثيرة، وحمولة كل منها مئتا خَرْوار.

وفَسَّر (خ): خروار: حمل حمار.

ومعروف أن الحمار لا يستطيع أن يحمل طنًّا، وإنما يحمل عُشْرَهُ، مئة كيل (١٠٠ كيلو جرام).

٣٩- (ص: ٨٦ ب): ينبع نهر النيل من الجنوب.

وفي (ص: ٤١ خ): يخرج ماء النيل من بين الجنوب والغرب.

٤٠- عن النيل (ص: ٨٦ ب): وعندما يفيض النهر فإنَّ مياهَهُ تزداد زيادة كبيرة، تعادل ضِعْفَيْ نَهْرِ جَيْحُونَ بِترْمِذَ.

وفي (ص: ٤١ خ): ويبلغ نَهر النيل في زيادته ضِعْفَ نَهْرِ جَيْحُونَ عند تِرْمذ.

في النص الأول: الزيادة تعادل (ضِعْفَيْ) نَهْر جَيْحون، وفي النص الثاني: (ضِعْفَ) ذالك النهر، وكلمة (ضِعْف) لُغَةً معناها (مِثْل) إلى ما زَاد،

فضعف الشَّيء مثله فما زاد عليه غير محصور إلا من حيث الأقل، وهو المثل، فإذا قلت: لك ضِعْفُهُ، فالمراد مِثْلاهُ، وثلاثة أمثاله، لأنه زيادة غير محصورة، فأقلُّ الضِّعْف محصور، وأكثره غير محصور، وفي الآية الكريمة ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يُجْعَلُ العَذابُ ثلاثة أعْذِبَة، إذْ كان عليها أن تُعذَّب مرة، فإذا ضُوعِفَ ضِعْفَيْنِ صار الواحد ثلاثة – ذكر هذا في «القاموس المحيط» وشرحه.

وأراني أوردت – بدون استيعاب أو حصر – من الأمثلةعلى اختلاف الترجمتين ما يُوَضِّحُ أنَّ القارئ – من جراء هذا الاختلاف – سيقع في حيرةٍ لإدراك الصواب، مالم يكن ذا معرفة باللغة الفارسية، وما كُلُّ القراء بهذه الصفة، وإذَنْ فلا يزال أكثرهم بحاجة إلى ما يُخْرِجهم من تلك الحيرة التي أوقعهم فيها هذا الاختلاف في ترجمتين صادرتين عن جامعتين لهما منزلتهما العلمية السامية.

الجانب الثاني: القيمة العلمية لهذه الترجمة الجديدة:

اتخذ الأستاذ الدكتور البدلي من التأكيد بأن: (من واجب المهتمين بالدراسات التي تتناول الحضارة الإسلامية المشاركة في إبراز نشاط الأعراق المتعددة التي ساهمت في تكوين تلك الحضارة، فيبرز دارسٌ دَوْرَ الفُرْس، وآخر دَوْرَ الهنود، وثالث..) إلخ – المقدمة ص ١ – اتخذ من ذالك ما دفعه إلى أن:

١ – عَدَّ (رحلة ناصر خسرو مصدرًا من أهم مصادر التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية) وألمح بإيجاز إلى بعض ما شملته أو تحدثت عنه، ومن ذالك (أهم أجزاء الجزيرة العربية في الحجاز ونجد، وتناولتْ جانبًا من اليمن) – ص ١٠ – وأضاف: (فحديث ناصر عن مكة المكرمة

والمدينة المنورة وجدة والطائف والأفلاج واليمامة والأحساء ذُو قيمةٍ تاريخية وحضارة كبيرة... فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاريِّ في قَلْبِ نَجْدٍ ما لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين، ولقد أزاح برحلته الستارَ عن جهاتٍ استقرارٍ كثيرة في جزيرة العرب من الطائف إلى الأحساء مرورًا بقلب نجد).

٢ – ولم يقف الدكتور البدليُّ عند هذا الحدِّ، بل بنى عليه اتهام المؤرخين المسلمين (؟) بأنهم يوحون من خلال تناولهم لهذا الجزء من الجزيرة بأنه مُغْرِقٌ في التخلف، ولا عَهْدَ له بِأيِّ درجة من الاستقرار المفضي إلى أيِّ نوع من أنواع الحضارة.

٣ – بل اتَّسَعَتْ نظرةُ الدكتور إلى هذه الرحلة فوصفها بأنها (امتازت من بين الرحلات التي تَلْتَهَا كَرِحْلَتِي ابن جُبَيْر وابن بطُّوطة وغيرهما) – ص ١٢ – كذا بدون أن يلاحظ الدكتور في هذه المقارنة الشاملة لكل الرحلات، لم يلاحظ أنَّ أَيَّةَ مقارنة لا تصح إلَّا بين مُتَمَاثِلَيْنِ أو مُتَقَارِبَيْن في المحتَوَى والمضمون، وكلُّ باحث يدرك ضآلة ما تحويه رحلة ناصر من المعلومات بالنسبة للرحلتين الأُخْرَيَيْن، فضلًا عن امتيازها عليهما. مالنا ولهذا، فهو من اختصاص الباحثين المتعمقين في دراسة الرحلات.

ولكن مما لا شك فيه أنَّ قارئَ هذه الترجمة الجديدة يتوق بعد أن أدرك نظرة المعرب الكريم إليها، ويتمنَّى أن يجد فيها من المتعة والفائدة وغزارة المعلومات ما يقوي في نفسه الثقة والإطمئنان بصواب نظرة الدكتور البدلي إليها.

ولقد كان من المناسب الوقوف طويلًا عند اتهام المؤرخين المسلمين (؟) بدون استثناء بالجهل المطبق بأحوال قلب جزيرة العرب بحيث أبرزوه للقراء مغرقًا في التخلف والبعد عن كل مظهر من مظاهر الحضارة، حتى سجل الرحالة

نــــاصـــــر ما سجل من معلومات (جيدة عما مر به في تلك البلاد). ولكن من المعـروف أن من طبيعة المـرء عـالِمًـا كان أو بـاحثًـا أو عامـلًا في أي مجـال من مجالات العمل أنْ يُبْرِزَ عمله بالصورة التي يختارها، إلَّا أنَّ النظر إلى العمل نفسه – متى كـان منبعثًا عن تجـرد تام من المـؤثرات التي قـد تطمس الحقائق، أو تحـول دون إدراكها – ذالك النظر به وحده يمكن أن تتضح معالم الصورة على حقيقتها، يضـاف إلـى هـذا أنَّ الأسس العلميـة هـي التي تُبْنَى عليهـا الأحكـام، والعلمـاء أنفسهم هم أولى الناس بالبعد عما يصور الأشياء بما لا ينطبق على واقعها.

والأستاذ الـدكتور أحمد البدلي من مثقفي هـذه البلاد الذين نالـوا قسطًا من العلم بدرجـة تحمل على الثقة بهم، والاعتقاد بأن مـا يقدمونـه من أفكارٍ وآراءٍ، تقـوم على أسس صحيحـة، بِحيثُ تُعَـدُّ من روافد الثقـافـة التي تسهم في بنـاء المعرفة وتوسيع مدارك الباحثين في كل ما لـه صلة بهذه البلاد تاريخًا وجغرافية في حدود علمهم.

ومادام الأستـاذ الكريم يرى أنَّ تلك الرحلـة قد أضَافتْ من المعلـومات عن هذه البلاد مالا يوجد في غيرها، و (تحدثت عن بعض أجزاء بلاد العرب بشكل جَيِّدٍ، ولـولا إشارة هذا الرحـالة لظلت المعلومات عن تلك المنـاطق رغم قلتها مشوشةً مضطربةً).

فمما لا شك فيـه أن كل باحث متطلع إلى الاستزادة من المعرفـة سيجد في آراء الأستاذ عـن هذه الـرحلة ما يحفـزه إلى مطـالعتها للاستفـادة مما فيهـا من معلومات (جيدة) ويتطلع برغبة وأملٍ إلى مـا أضفاه وأضافه إليها أستاذٌ من أهل هذه البلاد أدرك ما امتازت به ومـا اختصت من روافد العلم والمعرفة دون غيرها من الـرحلات. فهل يجـد الباحث كل ذالـك في هذه التـرجمة الجـديدة فيمـا أضافـه إليها المعـرب الكريم؟ ثم هل يجـد في الرحلـة نفسها معلـومات جيدة

انفردت بها فأصبحتْ بـذالك مصدرًا يُرْجَعُ إليه في جـوانب مما يتعلق بتاريخ بلادنا وجغرافيتها؟

لقد كنت ممن عُنِـي بقراءة هذه الـرحلة في تـرجمتها الأولى منـذ نحو أربعين عـامًا، قـراءة تَمَعُّنٍ واستفادة، ولكنني لم أَجِـدْ فيهـا مما يتعلق بتـاريخ بلادنـا أو بجغرافيتها سوى معلـومات يسيرة مشوشة مضطربة ناقصـة، وغامضة في كثير من الأحيان، وَتَمَنَّيْتُ أن يتولى دراستها في أصلها الفـارسي أَحَدُ أبناء هذه البلاد ممن نالـوا ثقافـة واسعة، وإلمـامًا تـامًّا باللغـة الفارسيـة، لاسيما وأنَّ هـذه الرحلـة قد خُدِمَتْ من قبل ثـلاثة من العلماء، وقد يكـون هناك غيرهم، أحدهم فـرنسي وهو شارل شيفر (Charles Schefer) الذي نشـر الرحلـة مترجمـة إلى الفرنسيـة محقّقة نشـرة استفاد منهـا الدكتـور يحيى الخشـاب، والثاني: الـدكتور يحيى الخشـاب الذي عَـرَّبها، ورجع إلى تحقيق المستشـرق الفرنسي، وقبلـه الأستاذ م. غني زادة الذي أضاف إلى نشرته باللغة الفارسية معلومات استفاد منها الدكتور الخشاب.

ثم جاء الأستـاذ محمد دبير سياقي فحقق تلك الـرحلة ونشرها نشـرة علمية، بحيث رجع إلى ما عرف مـن مخطوطاتها، وتصدَّى لإيضـاح كثير من الكلمات الغامضة فيها، أو التي وقع اختلافٌ فيها بين المخطوطات، وصدرت نشرته هذه قبل عشرين عامًا.

من هنا كـان التطلع إلى نشرة علمية عربيـة لهذه الرحلة تقوم علـى أساس ما سبق أن قام بـه اؤلئك الباحثون حيالها مـن دراسات، مع إضافة ما هـي بحاجة إلى إضافتـه مما يتعلق ببـلادنا، ومَنْ أَوْلَى من الدكتـور البدلي الأستـاذ في كلية الآداب في جامعة الملك سعود.

إنَّ القارئ يحس بصدمـة عنيفة حين يتصفح ترجمة الـدكتور البدلي، لا من حيث مطـابقـة النص العـربي للنص الفـارسي ممـا سبق أن اطلع القـارئ على نماذج من الاختلاف بينه وبين ترجمة الدكتور الخشاب للرحلة، وهي نماذج أُرِيدَ

منها التمثيل لا الحصر – ولكن الصدمة تحدث حين يجد القارئ أنَّ كثيرًا من المعلومات المشوشة المضطربة وردت في ترجمة الدكتور البدلي بدون إشارة إلى ما فيها من اضطراب أو تشويش، وقد يستغرب المرء المتصفح لترجمة الدكور البدلي حين لا يرى في أية صفحة من صفحات الرحلة أيَّ أثرٍ من آثار من درسوها ممن تقدم الدكتور البدلي، ولا أية إشارة إلى اختلاف النسخ الفارسية، وهو اختلاف لا شك أنه كان عميق الأثر في كثير من النصوص.

وأعجبُ من ذالك كله وقوعُ خَلْطٍ شنيع في تحديد بعض المواقع الجغرافية وتسمية بعضها بغير اسمها، مما لا يُعْذرُ الدكتور البدليُّ بعدم إدراكه والتنبيه عليه وهو من أهل هذه البلاد، كالقول بأنَّ جُدَّةَ تقع إلى الشمال من البحر – ص ١٣٥ – والقول بأنَّ ذا الحُلَيْفَةِ ميقات أهل المدينة المعروف يقع على بُعْدِ منزلتين من المدينة، وأنه ميقات حاج الشام ومصر والمغرب– ص١٢٢ – وأن قبر حمزة يقع جنوب المدينة– ص ١٢٢ – إلى غير ذالك من أخطاء هذه الرحلة التي كان المفروض أن يكون من أولى ما يتنبه إلى تصحيحها أساتذة الجامعة، حتى تخلو المنشورات التي تصدر عن جامعاتنا منها، فذالك الأمر من أوجب ما تقوم به هذه الجامعات، وإيضاح النواحي التي لا تتفق مع الواقع في تاريخ أمتنا وجغرافية بلادنا هو أساس ما يُعْنَى به علماؤنا قبل غيرهم.

وسأحاول بإيجاز عرض نماذج مما تحدث به هذا الرحالة عن بلادنا لكي أُبَيِّنَ أن الأستاذ الكريم الدكتور البدلي كان بحاجة إلى أن يتعمق في دراسة هذا القسم قبل أن يوضح آراءه بصفة عامَّةٍ عن الرِّحلة كلها توضيحًا لا أَتَجَنَّى على الدكتور حين أصفه بأنه لا ينطبق على الواقع.

١ – المظاهر الصناعية والعمرانية في قلب نجد: قال الدكتور البدلي: فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد مالم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين – المقدمة ص ١٣ –.

لنستعرض نص كلام الرحالة فيما ترجمه الدكتور نفسه – ص ١٦٢ – منذ خروجه من الطائف حتى بلوغه الأحساء، ليتبيَّنَ في استعراضنا أن الرحالة وصفَ ما مر به باعتباره جُزْءًا من الصحراء محفوفًا بالمخاطر، خاليًا من العمران، فضلًا عن المظاهر الصناعية والنشاط التجاري الذي لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين– كما عبر الدكتور البدليَ–.

لقد خرج من الطائف فكان أول ما مر به الحصن الذي دعاه (المطار) وقال: إنه يبعد عن الطائف أحد عشر فرسخًا.

وهنا لم يشر الرحالة إلى أي أثر للعمران في هذا الحصن، بخلاف غيره من العلماء ممن وجه إليهم الدكتور البدلي تهمة إبراز تلك الأجزاء من الجزيرة في صورة من التخلف، وأنه لا عهد لها بأيِّ درجة من الاستقرار المفضي إلى أي نوع من أنواع الحضارة.

لقد وصف عرَّامُ بن الأصبغ السلميُّ في رسالته عن تهامة، وصف قرية (مُطَارٍ) بأنه من قرى الطائف كثيرة الزرع والموز، وذكر البكري في «معجم ما استعجم» ما يدل على عمران مُطَار، فنقل أنَّ في مطار أَبَدَ الدَهْرِ نخلًا مُرْطِبًا ونخلًا مُصْرِمًا ونخلًا مُبْسِرًا، ونخلًا يُلَقَّحُ.

وقال الرحالة بأنه وصل بعد رحيله من مُطار إلى موضع يقال له (الثريا) رأى فيه نخلًا كثيرًا وشيئًا من الزراعة وتسقى أشجار النخيل والمزارع من بئر عليه سانية.

والدكتور المعرب لم يعرف القارئ بالثريا هذه، وهي فيما ظهر لي (تُربَةَ) ورد الاسم محرفًا، وتُرَبَة أسفل وادي أَبِيدة، وواديها من أخصب الأودية وأكثرها مياهًا، ونخلًا، ومياهه ظاهرة على وجه الأرض إلى عهد قريب.

وتُرَبَةُ هذه التي أصبحت الآن مدينةً لها ذكر كثير في معجمات الأمكنة وفي كتب التاريخ، وورد فيها المثل (عرف بَطْنِي بَطْنَ تُرَبَة) وإليها سارت سَرِيَّةُ بقيادة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في عهد الرسول - ﷺ -.

ويرى بعض الباحثين أن المقصود في كلام ناصر خسرو منهل الثريا الواقع في الهضب، هضب الدواسر كما في كتاب «عالية نجد» أحد أقسام «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، وما أرى هذا صحيحًا، فليس على منهل الثريا من النخل ولا من الزراعة ما ينطبق عليه وصف الرحالة، ثم إنه قال: إن هذا المكان يبعد عن الطائف خمسة وعشرين فرسَخًا (٢٥ × ٣ = ٧٥ ميلًا) بينما الثريا التي في الهضب تبعد مسافة أكثر من مئتي ميل عن الطائف.

لم يصف ناصر خُسرو تُربَة بتقدم صناعي ولا عمراني، بل اكتفى بوصف الموضع بكثرة السرقة وانتشار الحروب، وأن الأمر فيه فوضى، كلُّ أعرابيٍّ يرى نفسه حاكمًا لا سلطان لأحد عليه.

ثم ذكر الرحالة الموضع الذي وصل إليه بعد مغادرته ما سماه الثريا (تربة) وسمَّاه (الجزع)، وقال: وفي هذا الحصن قليل من الزراعة وطائفة من النخيل. ولم يزد على ذالك

ولا يوجد في تلك الجهة التي مرّ بها الرحالة من المواضع المذكورة ما يطلق عليه هذا الاسم فيما أعلم. وما أراه قصد إلا (الخرمة) ولا استبعد تحريف هذا الاسم بـ (الجزع)، فالخرمة تقع في طريق المتجه إلى الأفلاج بَعْدَ تُرَبَةَ، وقد مكث ناصر خسرو في هذا الموضع خمسة عشر يومًا يبحث عَمَّنْ يواصل معه رحلته لئلا يتعرض للنهب وما هو أسوأ منه.

ثم ذكر أنه مرَّ بحصن بني نُسَير، وهذا الحصن من الأمكنة المجهولة، ولا استبعد أن يكون في وادي رَنْيَةَ، إذ الرجل الذي نقله منه على ما ذكر شيخ قبيلة من الأعراب تسمى بني سواد.

وقد يكون المقصود ببني سواد عشيرة السُّوَدَة من قبيلة سُبَيْعٍ سكان بلدة رَنْيَةَ حتى هذا العهد.

ثم ذكر تنقله من يد خفير إلى يد خفيرٍ آخر، كالسلعة في هذه البوادي الموحشة التي قال: إنه لا شيء فيها سوى هذه الأعلاف الهزيلة التي تتغذَّى عليها الإبل لتصبح الإبلُ بدورها غِذَاءً لهاؤلاء الأعراب.

فأين مظاهر العمران والحضارة التي وصفها ناصر خسرو في رحلته؟

ثم ذكر وصوله إلى الأفلاج بعد جهد ومشقة ومعاناة أهوال وسَمَّى الموضع (فَلَج) ووصف الأفلاج بأنها واحة كبيرة ولكنه عندما وصلها كانت أشبه بِأَطْلَالٍ، خربتها العصبيات القبلية، ولم يبق عامِرًا من هذه الواحة سوى قدر نصف فرسخ في ميل واحد.

وذكر أن فيها أربعة عشر حِصْنًا يمتهنُ أهلُ كل حصن العبث في الأرض فسادًا- كذا قال!!- وأشار إلى وجود أربعة عيون وذكر أنه لم يَرَ البقر في هذه الصحراء، ووصف الزراعة في الواحة بأنها ليست كثيرة، فالفلاحون يزرعون القمح ليصنعوا منه ما يأكلون، ووصف تَمْرَ الأفلاج بالجودة، وقال عن السكان: إنهم في غايةِ الفقر والمسكنة، وعلى درجة كبيرة من الجُوعِ والْعُرْيِ. وشيوع الأُمِّيَّة بينهم، ولا قيمة للكتاب لديهم - ص ١٦٥ وما بعدها.

ومن الأفلاج وصل إلى اليمامة، إذْ رافق قافلة تحمل الجلود إلى الأحساء، وهذه الجلود تجلب من اليمن إلى الأفلاج، فيبيعها تجار الأفلاج على تجار اليمامة الذين يتولون نقلها إلى الأحساء.

أما وصفه لليمامة فلا يَعْدو ذكر المسجد العظيم في المدينة المحاطة بسور حصين وفي خارج السور سوق فيه كل أنواع الصناع.

أترى الدكتور البدلي اتخذ من كلمة (كل أنواع الصناع) ما اعتبره أساسًا

ليصف ما أبرزه الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد؟ ولم يلاحظ أن مدينة تُعَدُّ قاعدة بلاد نجد من أقدم العصور لا يستغرب أن تضمَّ أنواع الصناع.

ووصف ناصر خسرو اليمامة بأنها وفيرة المياهِ حيث تنتشر القنوات وتكثر أشجار النخيل وعندما يكثر التمر فيها يباع الألْفُ مَنٍّ بدينار.

ما تقدم هو مجمل ما ذكر ناصر خسرو عن المواضع التي مَرَّ بها في قلب نجد، وللقارئ أن يُقَارِن بينه وبين كلام الدكتور البدلي.

تبقى الإشارة إلى أنَّ المواضع التي مرّ بها ناصر خسرو في رحلته ووصفها وصفًا أثار إعجاب الأستاذ الدكتور البدلي إثارةً حملته على أن يُنْحِيَ باللائمة على المؤرخين المسلمين الذين بخسوا ذلك الجزءَ حَقَّه، مما ينبغي أن يوصف به من التقدم العمراني والحضاري.

إنَّ هذه المواضع لقيت من اهتمام بعض المتقدمين وعنايتهم ما يبرز بعضها بصورة هي في صحتها وحسنها أوضح وأكمل مما صورها هذا الرحالة.

فالأفلاج مَهْدُ حضارةٍ قديم، بقيت آثارها إلى أوائل القرن الرابع الهجري، حيث نجد في «صفة جزيرة العرب» للهمداني فصلًا خاصًا في وصف هذه البلاد، وما تتمتع به من تقدم زراعي وعمراني، قلَّ أنْ نَجِدَ مثله لغيرها من أجزاء بلاد العرب الأخرى باستثناء اليمن.

وكانت تلك البلاد معمورة منذ قدم العصور.

أما ماجاء في رحلة ناصر خسرو - ص ١٦٥ - من قوله: ويقول سكان هذه الواحة نحن أصحاب الرسيم الذين جاء ذكرهم في القرآن، إنهم قوم جهلاء غلاظ الأكباد. فيحسن الوقوف عنده حيث لم يُشِرِ المعرب الكريم إلى معنى (الرسيم) ولم يدرك أن صواب الكلمة (الرَّسّ) اسم أُمَّة من الأمم مذكورة في القرآن الكريم في آيتين هما: **﴿وعادًا وَثمُودَا وأَصْحَابَ الرَّسِّ وقُرُونًا بَيْن ذَلِكَ**

كَثِيرًا﴾ - سورة الفرقان الآية ٣٨ - وقوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾** - سورة ق الآية ١٢ -.

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرَّسِّ هاؤلاء، وهناك من يرى أنهم أهل الأفلاج، وقد ذكر هذا إمام المفسرين ابنُ جَرِير في تفسيره فيما رواه عن عكرمة، وعلى هذا فقول أهل الأفلاج: إنهم أصحاب الرَّسِّ له أَصْلٌ، وليسوا كما وصفهم ناصر خسرو بالجهل وغلظ الأكباد.

نماذج من أغلاط الرحالة في الترجمة الحديثة:

ليس في استطاعتي حصر ما في هذه الرحلة من أخطاء، ومعلومات مشوشة مضطربة لا تُطابِقُ الحقيقة، لأنني لا أُحْسِنُ اللغة الفارسية، ولكن الترجمة التي قام بها الدكتور البدلي وخاصة ما يتعلق منها بالبلاد العربية تحوي من ذالك ما يُسْتَكْثَرُ ويستغرب، بالنسبة لأنَّ المعرب الكريم من أهل هذه البلاد، وعلى درجة من الثقافة والعلم تمكنه من إدراك كثير منها، وتحتم عليه إزاء ذالك إيضاح ما تدعو الحاجة إلى إيضاحه. وأكتفي بإيراد أمثلة موجزة منها:

١- ص ١٢١: (وتقع قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب) و ص: ١٢٢: (ومكة تقع شرق المدينة).

هاتان الجملتان متناقضتان، فما دامت مكة تقع شرق المدينة، فينبغي أن يكون اتجاه أهل المدينة غربًا - والقول بأن قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب يفهم منه أن المدينة تقع شمال مكة.

فكيف هذا؟

٢- ص ١٢٢: (وعلى بعد منزلتين من المدينة رأينا جبلًا ذا مضايق شبيهة بالوديان، ويسمى المكان ذُو الحليفة، وهي ميقات حاج الشام ومصر والمغرب).

من المعروف أنَّ ذا الحُلَيْفَةِ هو ميقات أهل المدينة، وهو واقع في العقيق المجاور لها، وقد بلغه عمران المدينة الآن، ويعرف الآن بآبار علي.

أما ميقات حـاج الشام ومصر والمغرب فهـو الذي يبعد عن المدينـة مسافة تزيد على مرحلتين، واسمه الجُحْفَة، ولايـزال الموقع معروفًا على مقربة من بلدة رابغ، على نحو خمسة عشر كيلًا منها في الجنوب الغربي.

فمن أين أتى وصـف ذِي الحليفـة بكـونـه ميقـات حـاج الشـام ومصـر والمغرب؟ يظهر أنَّ هـذا من خطإِ المعرب، إذ في ترجمة الـدكتور الخشاب وضع الاسم صحيحًـا، كمـا ورد الاسم فـي الـرحلـة الفـارسيـة التي طبعت محققة في إيران صحيحًا - ص ١٠٣ -.

ولا استبعـد أن يكـون وَضْعُ الاسم الخطأ من قبيـل سبق القلم من الـدكتـور البدلـي، إذْ هو من أهل هـذه البلاد العارفيـن بمواقيت الإحرام، ولاشـك أنه يعرف الفرق بين الميقاتين ذي الحُلَيفة والجُحْفة.

وفي ترجمة الدكتور الخشاب (٦٧) حـاشية على (الجُحْفة) فيها إشارة إلى سيل الجُحَاف الذي وقـع سنة ثمانين من الهجرة، وهـذه الحاشية لا تنطبق على (الجحفة) التي كانت معروفـة قبل ذالك السيل، منذ العهد الجاهلي، ثم لمـا هـاجـر الرسـول ﷺ من مكـة إلى المـدينـة دعـا الله أن ينقل حُمَّى المدينـة إلى الجُحْفَة، وقد وَقَّتَهـا رسول الله ﷺ لأهل الشام، ممـا يدل على وجودها قبل سنة ثمانين من الهجرة.

ويلاحظ أنـه ورد في ترجمة الدكتـور الخشاب كلام يتعلق بالجحفـة لم يرد في ترجمة الدكتور البدلي.

٣- ص: ١٢٢: لما وصف ناصر خسرو مـا وقع في الحجاز من شدة الفقر قال: (وفي هذه السنة (٤٤٠) جاء إلى مصر من الحجـاز خمسة وثلاثون شخصًا، فأكرمهم السلطان). ثم ذكر أنهم عادوا إلى بلادهم بعد هطول الغيث.

عندمـا تَحْدثُ الفاقةُ ويشتـدُّ الفقر في قطر من الأقطـار فإنَّ من يغادره إلى الأمكنة التـي يمكن أن يوجـد فيها الغوث والعـون لا يقتصر على مثـل هذا العدد القليل (٣٥ شخصًا).

والـواقع أنَّ الـذين غـادروا الحجـاز في تلك السنـة على مـاجـاء في أصل الرحلة وفي تـرجمتها العربية الأولى خمسة وثلاثون ألفًـا، فلعل كلمة (الفا) سقطت سهوًا من المعرب، أو تطبيعًا في المطبوعة.

٤- ص: ١٢٤: ذكـر الرحـالة أنَّ قـومًـا من خراسـان حجُّـوا عن طريق الشـام ومصر، قـال: (ووصلوا إلى المدينة عن طـريق البحر). وفي ترجمة الـدكتور الخشاب - ص ٦٨ -: (فبلغـوا المدينـة في سفينة). ومن هنـا يتضح خطأ مـاجاء في الأصل الفـارسي وفي الترجمتين، فـالمدينـة لا يُوصل إليهـا عن طريق البحـر، وإنما يوصل إلى ميناء الجَـارِ الواقع غرب المدينـة بما يقرب من مسيرة ثلاثة أيام تقطع على ظهور الإبل قديمًا.

٥- ص: ١٣٥: (وتقع مدينـة جدة على سـاحل البحر الأحمـر، وعدد سكـانها نحوا (؟) من خمسة آلاف نسمة، وهي تقع إلى الشمال من البحر).

ومعروف أن جدة تقع شرق البحر لا شماله.

٦- ص ١٣٥: (إذا خرجْتَ مـن جدة واتجهت جنوبًـا وصلت إلى اليمن وإلى مدينة صعدة).

ومعروف أنَّ صعـدة لا تقع جنوب جدة، وقـد كرر مثل هـذا الخطأ حين عَدَّ مدينة صعدة من مُدُن تِهامة على ما سيأتي:

٧- ص: ١٤٠ و ١٤٢: (ويقال إنَّ أَحَدَ أُمراء مدينـة عدن ويسمى ابن شاهدل اكتشف عين مـاء غـزيرة تحـت الأرض فأمر بـإجرائهـا إلى مكـة) و(يحكم تهامة مملوك حبشي من مماليك عدن المسمى شاهدل).

(شاهـدل) هذا الـذي تكرر اسمـه ليس معروفًـا فيما اطلعت عليـه من كتب التاريخ، وأمراء عدن معروفون إلى زمن المؤلف – منتصف القرن الخامس – وهم في ذالك العهد من موالي بني زيـاد، ومن أشهرهم الحسين بن سَلَامة، الذي لـه مآثـر كثيرة عمـرانية في طـريق الحج وفي مكـة وفي عرفـات، وهو الـذي ينطبق عليه قـول المـؤلف: (وقد أوصل ابن شـاددل الـذي كان أميـرًا لعدن المـاء إلى جبل الرحمة من مكـان بعيد، وقد بنى هذا الأميـر فوق جبل الـرحمـة طاقًـا مـربعًـا كبيـرًا) تـرجمة الخشـاب – وقـد نص الخـزرجي في «العسجد المسبوك» – ص ١٠٧ نسخة مكتبة الحـرم المخطوطة – أنَّ الذي بنى فوق جبل عـرفات هـو الحسين بن سلامة، مـولى أمير عـدن إسحاق بن إبراهيم بن ز ياد، وهـو عَبْدٌ حبشي يُنْسَبُ إلى أُمِّهِ، وقد حكم بعـد وفاة سيده من سنـة ٣٧١ إلى سنـة ٤٠٢، وقيل إلى سنـة ٤٢٦، ولـه مآثـر عظيمـة في الحجاز في حفر الآبار و إصلاح الطرق.

لهذا أرى أن كلمـة (ابن شاهدل) أو (ابن شـاددل) كما في ترجمة الـدكتور الخشاب تحريف كلمة (ابن ز ياد).

٨- ص: ١٤١: (رأيت خارج مكـة بئرًا يقال لها بئـر الزاهد، وبجانبهـا مسجد كبير وماء هذه البئر عذب).

كنت ظننت أنَّ كلمـة الـزاهـد – بـالـدال – تطبيع ولكنني رأيت الاسم ورد هكذا في الأصل الفارسي، وفـي النسختين المعربتين، ولاشك أن المقصود هو الـزاهر – بـالراء – الذي لايـزال معروفًا ومنـه كان يجلب المـاء العذب قديمًا إلى مكة، وهو المعروف باسم (الشهداء) أصبح داخل العمران.

٩- ص: ١٤٢: يأتي هذا الـرحالة بتعابيـر ليست معروفة عند متقـدمي العلماء ممن تحـدثـوا عن بلاد العرب فيقـول – ص ١٤١-: (وتُسَمَّى أَرْضُ اليمن

حميـر، وأرض الحجـاز أرض العـرب) وأضـاف: (أرض العـرب تمتـدُّ من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن فيسمى أرض حمير).

لاشك أن اسم حِمْيَرَ كان قبل الإسلام يطلق على قبيلة كان لها نفوذٌ وسيطرة وحكم في بلاد اليمـن، امتدَّ إلى نواحي من بـلاد العرب، ولكن هـذه القبيلة ضعفت وزال حكمهـا ونفوذها قبـل ظهور الإسـلام. ولما ظهر الإسـلام لم يبق من نفوذهـا سوى مجرد ذكرها بـاعتبارها قبيلة من بيـن القبائل المنتشرة في بلاد اليمن، ثم بعـد أن رسخ الإسلام – في تلك البلاد من العهـد النبوي إلى عصـرنا – زال اسم حِمْيَرَ من حيث النفـوذ وأصبحت اليمن من حيث التقسيم الجغرافي جـزءًا من بلاد العرب، التي لا تقتصر على مـا حدده هذا الـرحالـة الـذي لا يعرف شيئًـا عن تلك البـلاد، ولهذا قـال – ص ١٤٢-: (أرض حمير تنقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١ – تِهامة: وفي تهامة مدن كثيرة عامرة بالسكان مثل صَعْدة وزَبِيد وصنعاء).

فقد عَـدَّ صعدة وصنعاء من مدنِ تهـامة، ومعروف موقعهمـا من بلاد اليمن، وأنهما بعيدتان عن تهامة.

٢- ثم عد من الجزء الثانِيَ من تهامة نجدًا، كـذا واعتبار نجدٍ جزء من تهامة مما يدل على أنه تلقف تلك الأسماء فوضع تعريفات لها هي أقرب إلى السذاجة والجهل من أن توصف بأنها (ذو قيمة تاريخية) أو أن تنعت بالجودة.

٣- وعد من الجزءِ الثالث من تهامة نَجْرَان وَعثْر وبيشة، وهذا من الخلط الذي ماكان ينبغي أن يَمُرَّ على الأستاذ المعربَ الكريم بدون أن يلفت نظره.

إذْ نجرانُ وبيشة يفصلهما عن تهامة منطقة الحجاز.

وهنا مـلاحظة هامة جـدًّا، وهي أنني أخشى أن المعرب الدكتـور البدلي لم يكن في تعريبـه لكلام الرحالـة دقيقًا، حين قسم تهامة هـذا التقسيم. ويدلُّ

على هذا أنَّ الدكتور الخشاب أتى بما يخالف هذا ويطابق في كثير من وجوهه ما جرى عليه متقدمو علماء تقويم البلدان، فقد قسم بلاد اليمن - ص ٧٨ - وهي بلاد حمير ثلاثة أقسام: قسم منها يسمى تهامة وهو على الساحل الشرقي لبحر القلزم، والقسم الثاني جبلي يسمى نجدًا، والقسم الثالث ناحية المشرق، وعَدَّ من مدنه نجران وعثر وبيشة.

أمَّا ذكر عَثَّرَ في ناحية المشرق فمن أخطاءِ ناصر خسرو، وكذا عَدُّ صَعْدَةَ وصنعاء من مدن تهامة.

ومهما يكن فإنَّ تقسيم ناصر خسرو لبلاد العرب وللقسم الجنوبي منها في غاية الاضطراب.

١٠- ص: ١٤٦: بعد أن ذكر أنَّ في المسجد الحرام (١٨٤ عمودًا): (ومن بين تلك الأعمدة عمودٌ عند باب الندوة من الرخام الأحمر. ويقال: إنَّ خلفاءَ بغداد اشتروا هذه الأعمدة بوزن ما يباع الذهب) كذا.

ومفهوم هذا الكلام أنَّ جميع أعمدة المسجد الحرام اشْتُرِيَتْ بوزنها ذهبًا، ولكن هذا مع مخالفته للمعقول لا يتفق مع ترجمة الدكتور الخشاب - ص٨٠ -: (ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وُضِعَ عند بابِ الندوة قيل: إنه اشْتُرِي بوزنه ذهبًا، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف مَنٍّ).

وقد أوضح الدكتور الخشاب في آخر ترجمته عند ذكر المقاييس والموازين أنَّ المن يساوي أربعين سِيرًا والسِّيرُ خمسة عشر مثقالًا.

١١- ص: ١٤٦: أورد الرحالة أسماء أبواب المسجد الحرام في عهده، ذكر من بينها باب الفسانين، واستشكل المعرب هذا الاسم فوضع بجواره علامة استفهام كما فعل قبله الدكتور يحيى الخشاب.

وصواب هذا الاسم باب السُّفْيانِيِّينَ، نسبة إلى بني سفيان بن عبدالأسد كما أوضح ذلك الأزرقي في كتاب «أخبار مكة» - ج ٢/ ٧١.

وذكر ص: ١٤٧: من أبواب الحرم باب (السطوي) مجاورًا لباب الصفا من جهة الغرب.

ولاشك أنَّ هذا الاسم غير صحيح، ولم أرَ فيما اطلعتُ عليه من الكتب المتعلقة بتاريخ مكة ذكرًا لهذا الاسم، ولكن ورد في رسالة في وصف مكة مخطوطة في (مكتبة دير الاسكوريال) في أسبانية ومؤلفها من أهل القرن الرابع الهجري، وقد نشرتْ في مجلة «**العرب**» - س ٨ ص ٣٢٤/ ٣٥٧ - جاء في تلك الرسالة في ذكر أبواب المسجد الحرام ما ملخصه: وفي الشق الذي إلى جانب الوادي وأبي قبيس ستة بواب: البقَّالِيْنَ ثم باب الحنَّاطِين، ثم باب الغزَّالِيْن ثم باب الشطوين ثم باب الصفا. انتهى. فما سماه الرحالة الفارسي (السطوي) ورد في تلك الرسالة (الشطوين) وقد يكون محرفًا أيضًا، ولا استبعد أن يكون منسوبًا إلى أحد أصحاب الحِرَف، كالأبواب التي قبله. ويُلاحظ أنَّ أسماء أبواب المسجد لم تثبت على حالةٍ، بل كثيرًا ما تغيرت بتغير الأزمان.

وذكر من أبواب المسجد الحرام باب (عروة). وكذا ورد في ترجمة الدكتور الخشاب.

وصواب هذا الاسم باب الحَزورة باسم سوق مكة القديم الذي ورد أنَّ رسول الله ﷺ وقف فيه وقال - يعني مكة -: «**والله إنَّكِ لخير أرضِ الله، وأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منكِ ما خرجت**» كتاب «القِرَى لقاصد أم القرى» - ص ٥٩٨.

وذكر الفاسي في «شفاء الغرام» أن الاسم (حزورة) حُرِّفَ إلى عَزْوَرَة.

١٢- ص: ١٤٨: (وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعًا وعرضها ستة عشر ذراعًا).

وفي ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٨١-: (والكعبة في وسط ساحة

المسجد، وهي مستطيلٌ طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثون ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب ست عشرة ذراعًا).

هكذا اختلفت الترجمتان، فأيهما أصوب؟

كانَ على المترجِمَيْنِ الفاضلين أن يرجعا إلى الكتب المؤلفة في الموضوع ليثبتا الصواب وأن لا يَعْتمدَا على رحَّالَةٍ كثيرًا ما يورد معلومات لا تقوم على أساس من الصحة.

لقد أوضح الأزرقي وغيره من مؤرخي مكَّة كلَّ ما يتعلق بالكعبة ومن ذالك قياس طولها وعرضها، جاء في «أخبار مكة» - ١/ ٢٨٩ - باب ذرع البيت من الخارج: (طولها في السماء سبعة وعشرون ذراعًا، وذَرْعُ طول وجه الكعبة من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعًا، وذرع دُبُرِهَا من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمسة وعشرون ذراعًا، وذرع شِقِّها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعًا، وذرع شِقِّها الذي فيه الحِجْرُ من الركن الشامي إلى الركن الغربي أحدٌ وعشرون ذراعًا) انتهى. والذراع هنا ذراع اليد، وقد أطال تقي الدين الفاسي في «شفاء الغرام» ١/ ١٠٧ وما بعدها الكلام في الموضوع مما يفهم منه أنَّ القياس تقريبي.

ومما تقدم يتضح أنَّ الكعبة - شرفها الله - أقرب ما تكون إلى التربيع، لا كما ورد في الترجمتين، ولعلَّ الخطأ فيهما راجع إلى وصف الرحالة الفارسي.

١٣- ص: ١٥٣: عن سدنة البيت: (وهم من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة ابن طلحة بن عبدالدار).

مع أن الاسم لم يرد في ترجمة الدكتور الخشاب، حيث اقتصر فيها على القول - ص ٨٦-: (امتازت قبيلة من العرب تسمى بني شيبة بحفظ مفتاح باب

الكعبة)- إلا أنَّ نسب عثمان الوارد في ترجمة الدكتور البدلي غير صحيح، وصوابه: عثمان بن طلحة بن عبدالله بن عبد العُزَّى بن عثمان بن عبدالدار. انظر «الإصابة» رقم ٥٤٤٠ وغيرهما ممن ترجم الرجل. أمَّا شَيْبَةُ فهو ابن عثمان بن أبي طلحة بن عبدالله بن عبدالعزى، كما في «نسب قريش» - ٢٥٢ -.

١٤- ص: ١٥٩: تكرر في هذه الصفحة اسم أمير عدن (شاهدل) وكذا في ص ١٦٠ ففي الأولى: ذكر أنه أمر بإحداث أحواض للماء في جبل الرحمة. وفي الثانية: ذكر أنه بنى فوق ذالك الجبل. وتقدمت الإشارة إلى أن صواب هذا الاسم فيما يظهر: الحسين بن سلامة مولى بني زياد.

١٥- ص: ١٦٤: (وصلنا إلى مكان جبلي تكثر فيه المنعطفات).

وفي ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٩٠-: (وبلغنا مكانًا في وسط أرض ملؤها الصخور يسمى سربا، رأيت به جبالًا كل منها كالقبة).

لم ترد تسمية الموضع في ترجمة الدكتور البدلي. ويحسن التنبيه على أن ما ورد في تعليق الدكتور الخشاب مما نقل عن (شيفر) من قوله: تسمى هذه الجبال بجبل الطويق. هذا ليس بصحيح، فجبل طويق يقع بقرب الأفلاج، ممتدًّا إلى منطقة الزلفي، والظاهر أن هذه الجبال هي جبال الهضب، ولعل اسم سربا محرفًا عن الثريا اسم منهل في تلك الجبال.

١٦- ص: ١٦٥: في الكلام عن الفَلَجِ وأَنَّ أهله يقولون: نحن أصحاب الرسيم وتقدم القول بأن الصواب: أصحابَ الرَّسِّ. ودعت المناسبة لذكر الاسم مرة أخرى لأنه ورد في ترجمة الدكتور الخشاب - ص ٩٠ - محرفًا (الرقيم)، والرقيم موضع آخر، وهو مذكور في القرآن أيضًا، ولكن النص الفارسي - كما هو في أصح طبعة لكتاب «سفر نامه» تحقيق دبير سياقي ص ١٠٦ - ورد الرسيم.

١٧ – ص: ١٦٧ : (وحكام اليمامة من العلويين).

كان حكام اليمامة من منتصف القرن الثالث الهجري من بني الأخيضر العلويين، أبناء يوسف الأخَيْضر بن إبراهيم بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، على ما ذكر ابن خلدون في تاريخه «العبر» – ٤/ ٩٨ – والجنابي في «البحر الزاخر» وابن عِنَبَة في «عمدة الطالب» وغيرهم من المؤرخين.

أما ما نقله الدكتور الخشاب في هامش ترجمته – ص ٩٢ – من أنهم من عائلة طباطبا ورأسهم هو الإمام يحيى الهادي، فهذا غير صحيح.

١٨ – ص: ١٦٨ : في وصف عيون الأحساء: (وعلى كل العيون سواقي ترفع الماء تسقي المزارع).

عيون الأحساء تجري في السواقي بدون أن يُرْفَعَ ماؤُهَا، لأنها تفيض على وجه الأرض، ويلاحظ الاختلاف بين ما ورد هنا وما ورد في ترجمة الدكتور الخشاب – ص ٩٢–: (وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كلٌّ منها لإدارة خمس سواق).

ولكن النص الفارسي هو: (وجشما هي آب عظيم است وزآن شهركه هريك بنك آسيا كرد باشد وهما اين آب) – ص ١٢٣.

وذكر الدكتور نقولا زيادة في كتابه «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» أن معنى الجملة أنَّ جريان الماء يكفي لإدارة خمس طواحين لقوته، وأما القول بأنَّ العين الواحدة يجري منها خمسة سواقٍ، فهذا لا ينطبق على الواقع، لأن بعض العيون يجري منها من السواقي المتفرعة ما يزيد على العشرة، ومن المجاري الأصلية ما يبلغ السبعة، كعين أم سبعة التي أدركناها منذ عهْدٍ ليس ببعيد. وما أسرع ما ضعفت مياه تلك العيون منذ النصف

الأخير من القرن الماضي حين استنبطت المياه من جوف الأرض بالآلات الحديثة، فانخفض مستوى مياه العيون بسرعة، وأكثرها غار منها الماء.

لعل في هذه النماذج المقدمة ما يوضح الحاجة إلى وجود ترجمة صحيحة لهذه الرحلة، مع عناية بدراسة ما ورد فيها مما يتعلق بتاريخ بلادنا وبذكر الأمكنة الواردة فيها، لتصبح الاستفادة منها تامة.

أما الجانب الثالث مما يتعلق بهذه الترجمة الجديدة:

فقد يتساهل به بعض المعنيين بنشر كتب التراث، ولكن ظروف العصر ومتطلباته أَبْرَزَتْ شدة الحاجة إليه. إنه وَضْعُ فهارس مفصلة للكتاب المنشور، لأنَّ أيَّ قارئٍ في عصرنا الحاضر ليس في استطاعته أن يستوعب قراءة الكتاب، باستثناء المعنيين بتتبع جميع ما فيه من معلومات، لهذا كان من أَهَمِّ ما يُعْنى به ناشرو هذا العصر تقريب مباحث الكتاب ومحتوياته بوضع فهارس مفصلة لها. وكان من أولى من اهتَمَّ بذالك المعنيون بالنشر في الجامعات فَقَلَّ أن يصدُر كتاب عنها إلا وقد استوفى ناشروه ما يلزم له من فهارس مفصلة شاملة.

وأذكر أنَّ إحدى دور النشر في بلادنا (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) نشرتْ رحلة معربة لسائحة بريطانية هي الليدي آن بلانت، فكان مما لوحظ على طريقة النشر لتلك الرحلة عدمُ إيرادِ فهارس مفصلة لها، وكان ممن لاحظ ذالك أستاذٌ جليل من أساتذة جامعة الملك سعود التي أَصْدَرَتْ ترجمة الدكتور البدليِّ لرحلة ناصر خسرو، فقد قال ذالك الأستاذ وهو الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري ما ملخصه:

١ – هناك أماكن وشخصيات لا أشك في أنَّ القارئ قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يعرف عنها أكثر من مجرد ذكر اسمها، دون تعريف بها.

٢- كما أنَّ هناك حوادث كان يمكن أَنْ يستفادَ من تاريخ المنطقة التي حدثت فيها لتوضيحها. وأضاف الدكتور الأنصاريُّ: هذه وظيفة المترجم إن كان عليمًا بهذه الأشياء، وإلا فهي وظيفة المشرف على طبع الكتاب وإخراجه.

وقال الدكتور الأنصاري: ورغم أهمية الكتاب فإنه يحتاج إلى جانب ما ذكرناه إلى مجموعة من الفهارس، فهو يحتاج إلى فهرس للأماكن وفهرس آخر لأسماء الأعلام - إلخ - «**العرب**» ٢/ ٤٥٥.

هذا ليس رأي الأستاذ الأنصاري وحده بل هو أمر يوشك أن يتفق عليه جميع المعنيين بشؤون النشر والمختصين به من الباحثين.

وترجمة الدكتور البدلي برزت خالية من ذالك مع أن رحلة ناصر خسرو قد خُدمَت في نشراتها الأولى بوضع فهارس مفصلة ما كان على المعرب الكريم الدكتور البدلي أو على المشرفين على نشر ترجمته إلا نقل تلك الفهارس ووضع أرقام المطبوعة الجديدة بالنسبة إلى ما ورد فيها من أعلام.

وأراني بعد هذه الكلمة المفصلة عن هذه الترجمة الجديدة لا أجد غضاضةً في أن أقول: بأننا نتطلع إلى الدكتور البدلي لكي يقدم لنا ترجمة خيرًا من تلك الترجمة التي لا أرى الدكتور الخشاب مبالغًا حين وصفها: بأنها تحوي هنوات ليست هينات - مجلة «اليمامة» عَ ٨٦٣ في ٧ ذي القعدة ١٤٠٥ ص ٥٤ -.

كما نتطلع إلى ما تنشره جامعاتنا تطلع مَنْ يرى في تلك الجامعات ويود ويحرص على أن تبلغ خير ما يمكن أن تبلغه جامعة تسعى لتقريب العلم، وتسهيل طرقه بمختلف الوسائل، ومن ذالك السير في منشوراتها على الطرق الحديثة للنشر التي تتلاءم مع روح العصر، وما يتطلبه من حفاظ على الوقت، وسهولة ويسر للوصول إلى المعرفة من أقصر سبلها. والله الموفق.

[ثم اطلع الدكتور يحيى الخشاب على ما كتبت، حين زرته في منزله في (المعادي) إحدى ضواحي القاهرة، قبل وفاته - رحمه الله - اطلع هو وزوجته الدكتورة سهير القلماوي فكتب هذا التعليق الذي نشر في مجلة «اليمامة» في ٧/ ١١/ ١٤٠٥ ص ٥٤].

قَرأتُ مقدمة هذه الترجمة حين تفضل صديق كريم بإعارتي إياها، ووجدتُ أن الدكتور البدلي يقول: إنَّ ترجمة الخشاب لسفرنامه ترجمة عن الفرنسية، وأن ترجمته هو هي أول ترجمة لسفرنامه عن الفارسية. والحقُّ أنِّي لم أَعْبأ بهذا القول الذي يؤيده صاحبه بأنه تَتَبَّع ترجمتي فانتهى إلى هذه النتيجة.

وجاء شهر رمضان المبارك فوقعتْ ترجمة الدكتور البدلي في يدي فرأيتُ أن استوضح قول الدكتور البدلي وقَصْدهُ من هذا التتبع وانتهاءه إلى هذه النتيجة.

كنت أتَمنَّى أن يكون الدكتور البدلي قد قرأ التصدير الذي كتبه أستاذي عبدالوهاب عزام - رحمه الله - أستاذ اللغة الفارسية وآدابها الذي علمني حتى نلت درجة الماجستير سنة ١٣٥٢هـ (١٩٣٣)؛ والذي كان أول مدير لجامعة الرياض، والذي قال في تقديمه لترجمتي عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م: (ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية يحيى الخشاب، وعلق عليه تعليقات مفيدة، وقدم له مقدمة قيمة في تاريخ الشاعر وعصره وكتابه. وقرر معهد اللغات الشرقية نشره فكان أول منشوراته، ولعله فاتحة مباركة، وحلقة في سلسلة متصلة من المؤلفات القيمة ينشرها المعهد من بعد بتوفيق الله) ثم كتب يقول: (ونشر هذا الكتاب بالعربية اليوم أمنية طال انتظارها: ورِبْحٌ محقَّقٌ لقراء العربية عامة والمصريين خاصة).

وليت الدكتور البدلي قرأ ما قلته في مقدمتي للترجمة:

(وبعد فإني أشكر أستاذي الجليل عبدالوهاب عزام الذي أتاح لهذا الكتاب أن ينشر باللغة العربية فهو الذي أشار عليّ بترجمة الفصل الخاص بمصر من «سفرنامه» كملحق لبحث الماجستير سنة ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، وهو الذي أشار

بعد ذالك بنقل الكتاب كله إلى اللغة العربية، وتفضل بمراجعته، ثم عمل على أن يكون من مطبوعات كلية الآداب وأول مطبوعات معهد اللغات الشرقية بها).

وليت الدكتور البدلي أدرك حقيقةً – لستُ أدري كيف خَفِيَتْ عليه – هي أن أستاذ اللغة الفارسية وآدابها حين يترجم إلى العربية نصًّا فارسيًّا يترجمه عن اللغة التي تخصص فيها وليس عن لغة أخرى مهما تكن معرفته بهذه اللغة.

وليت الدكتور البدلي أمعن النظر في هذه الترجمة التي يقول إنها عن الفرنسية، وليته قرأ ما فيها من تصويبات وحواشي مأخوذة من النص الذي نشره وقدم له م. غني زادة سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م)، وهو النص الذي يقول الدكتور البدلي إنه ترجم عنه.

وليت الدكتور البدلي قرأ ما كتبه دبير سياقي في مقدمته لسفرنامه حيث قال: إنَّ «سفر نامه» طبع اثنتي عشرة مرة. وطلاب العلم يعرفون أنَّ الكتاب الذي يطبع اثنتي عشرة مرة جدير بأن يترجم إلى اللغة العربية مَرَّاتٍ، ولا ضَيْرَ مطلقًا في أن يترجم الدكتور البدليُّ كتاب «سفر نامه» مرة ثانية، وأن يترجمه غيره مرة ثالثة.

ولكن:-

الترجمة ليست أمرًا سهلًا، وإذا كان علماءُ العرب القدامى قد نقلوا إلى العربية تراثَ الفرس الذي نقرأه في كتب ابن المقفَّع وابن قُتيبة وابن عبد ربه والطبريِّ والبيروني وابن سينا وغيرهم، فإنَّ نقلهم كان علميًّا أمينًا دقيقًا، حتى أن المنصفين من علماء فارس يحمدون للعرب حفظهم لتراث بلدهم بأن نقلوه إلى العربية نقلًا علميًّا أمينًا دقيقًا مما أتاح لكثير منهم إعادة هذا التراث إلى اللغة الفارسية نقلًا عن اللغة العربية.

وكنا نحن – مدرسة عزام – نهدف إلى أن نُثري المكتبة العربية بما كتب بالفارسية وخاصة في الناحيتين التاريخية والأدبية. وبدأ عزام بـ «الشاهنامة» ثم

أكملنا – نحن مدرسته – تاريخنا الإسلامي وأدبنا العربي فكانت: «سفرنامه» لناصر خسرو و «المقالات الأربع» لنظامي عروضي، و «راحة الصدور» للراوندي، و «تاريخ البيهقي» لأبي الفضل، و «جامع التواريخ» لرشيد الدين و«شرفنامة» للبدليسي و «المثنوي» لجلال الدين الرومي و «الروضة» لسعدى وغيرها كثير. ودرجنا على أن يكون للكتاب مترجم ومراجع، ومسؤولية المراجع لا تقل عن مسؤولية المترجم، فإن عليه استدراك ما فات المترجم من الدقّة والتحقيق وحسن التقديم.

وما الرأي في مترجم يسهو فيترك بعض الجمل، ويؤثر السلامة فلا يدقق في مقابلة النصوص، ولا يجشم نفسه النظر لحواشي الكتاب الذي يقول إنه يترجمه؟!! ويجره هذا إلى أن يضع (ده) بدلًا من (دو) والفرق بين العشرة والاثنين كبير ولكنه لا يبالي، ثم إنه لا يقلق نفسه بقراءة من سبقوه فلا يطلع على جدول المقاييس في آخر الترجمة العربية ولا يري بأسًا في أن يجعل المتر عوضًا عن الذراع والرطل عوضًا عن المنّ. وكثيرًا ما تأخذه العزّة فيكتب من عنده بأسلوب خطابيٍّ ما ليس في النص الذي يترجم منه، ولا في أي نص غيره ولا هو مما يقتضيه المقام.

شهد الله أني لم أَقْصُدْ نقد ترجمة الدكتور البدلي ولكنِّي تصفحتها في عدة أماكن فكنت أراني مضطرًا إلى الرجوع إلى ترجمتي، وجدتُّ أن الدكتور البدليَّ غير ملتزم بالنص – والترجمة مشروطة بالإلتزام مع حق النَّقد في الحواشي – إنه يكتب مفسرًا لا مترجمًا لنص، ولم يرجع إلى حواشي غني زادة، ولا إلى حواشي ترجمتي، ولم يثبت رجوعه إلى أي مصدر عربي أو غير عربي ليبين مقابلة النصوص، ولم يقرأ كتابًا عن ناصر خسرو، ولم يعرف أن من كتبه مثلًا «خوان الإخوان» الذي نشره المعهد الفرنسي في القاهرة سنة ١٣٦٠هـ – (١٩٤١م) لم يبال الدكتور البدلي بضرورة الإلمام بما ظهر من مؤلفات ناصر

خسرو ولا بما كتب عنه، وهذا أسلوب يتجافى مع أصول العلم والتعليم أيضًا.

إنني أرجو أَنْ يراجع الدكتور البدليُّ نفسه وأن يعيد الترجمة وفقًا للنَّص، ويلحق بها ما تقرره الأصول العلمية من تحقيقات، وتصويبات، ومقارنات، وإبداء رأي، بحيث تصبح ترجمة علمية، أمينة، دقيقة، ثم أرجو أن يعهد بهذه الترجمة إلى مراجع ثَبْتٍ، يراجعها ويجيز نشرها.

ولا أريد أن أقول: إنَّ في كل صفحة مما قرأت من ترجمة الدكتور البدلي هنات وهنات ليست هيِّنات. وإنما أقتصر على مثالين أذكرهما مع ذكر الصفحات عنده ثم عندي (طبعة بيروت) ثم عند م. غني زادة في النص الفارسي:

المثال الأول: قياس المسجد الأقصى:

ترجمة الدكتور البدلي	ترجمة الخشاب	النص الفارسي.
٥٧ وما بعدها	٥٨ وما بعدها	٣٢ وما بعدها.

المثال الثاني: وصف المسجد الحرام والكعبة:

١٤٥ وما بعدها	١٢٦ وما بعدها	١٠٣ وما بعدها.

وأخيرًا فقد كنت أرجو أن تكون الترجمة الثانية لسفرنامه ترجمة دقيقة علمية أمينة فيها تصويب لما فاتني، من خطإٍ في ترجمة كلمة، أو سهو عن تحقيق اسم بلد، اقتداء بهذه التصويبات القيمة التي أدخلها - أو أدخل بعضها - الناشر اللبناني للطبعة الثانية نقلًا عن المقال القيم الذي نشره الأستاذ الجليل الشيخ حمد الجاسر في مجلة «المنهل» نقدًا لترجمتي العربية.

والله المستعان،

يحيى الخشاب

٢٤ رمضان ١٤٠٥

شارع وادي النيل - المعادي- القاهرة. مصر

«الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية»

(١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)

أتاح لي الأستاذ الكريم الدكتور فهد بن عبدالله السَّماري، المشرف على (دارة الملك عبدالعزيز) مناسبة طيبة، إذ أتحفني بكتاب لطيف الحجم، طريف الموضوع، من إصدارات الدارة هذا العام، بعنوان «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» لرحالة ياباني يدعى (ايجيرو ناكانو) ترجمة سيدة يظهر من اسمها أنها يابانية (سارة تاكاهاشي)، وكانت الرحلة وقد كُتِبَتْ باللغة اليابانية، ونشرت حلقات في إحدى المجلات اليابانية، ثم أُفردت في كتاب صدر في اليابان سنة ١٣٦٠هـ (سبتمبر ١٩٤١م).

كان كاتب الرحلة قدم مع الوزير الياباني المفوض في السفارة اليابانية في القاهرة، استجابة لدعوة من الشيخ حافظ وهبة - سفير الملك عبدالعزيز رحمه الله في بريطانيا - تقديرًا لما قدمته الحكومة اليابانية من مساعدة في إنشاء مسجد طوكيو عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) وَتُعَدُّ هذه أول زيارة رسمية يقوم بها مسؤولون في الخارجية اليابانية إلى المملكة العربية السعودية، وقد رأتِ الدارة أَنَّ نشر مثل هذه الرحلة ودراستها، يساعد في استكمال الصورة التي ترسمها الرحلات المتعلقة بالجزيرة للرحالة الأوربيين، وهي مع ذالك تتناول فترة تاريخية مهمة، إذ تسجل وقائع زيارة تلك البعثة اليابانية الرسمية إلى المملكة، ومقابلة الملك عبدالعزيز - رحمه الله -.

وَكَاتِب الرحلة - على ما يقول الدكتور فهد في مقدمتها - صاحب تجربة في البلاد العربية، ذو اطلاع على الثقافة العربية، إذ سجل يوميات رحلته بأسلوب أدبي رائع، ويضاف إلى هذا كما يقول الدكتور فهد: أن الرحلة تقدم وجهة نظر أخرى تختلف عن وجهات النظر الأوربية السائدة عن المنطقة، كما

خسرو ولا بما كتب عنه، وهذا أسلوب يتجافى مع أصول العلم والتعليم أيضًا.

إنني أرجو أَنْ يراجع الدكتور البدليُّ نفسه وأن يعيد الترجمة وفقًا للنَّص، ويلحق بها ما تقرره الأصول العلمية من تحقيقات، وتصويبات، ومقارنات، وإبداء رأي، بحيث تصبح ترجمة علمية، أمينة، دقيقة، ثم أرجو أن يعهد بهذه الترجمة إلى مراجع ثَبْتٍ، يراجعها ويجيز نشرها.

ولا أريد أن أقول: إنَّ في كل صفحة مما قرأت من ترجمة الدكتور البدلي هنات وهنات ليست هيِّنات. وإنما أقتصر على مثالين أذكرهما مع ذكر الصفحات عنده ثم عندي (طبعة بيروت) ثم عند م. غني زادة في النص الفارسي:

المثال الأول: قياس المسجد الأقصى:

ترجمة الدكتور البدلي	ترجمة الخشاب	النص الفارسي.
٥٧ وما بعدها	٥٨ وما بعدها	٣٢ وما بعدها.

المثال الثاني: وصف المسجد الحرام والكعبة:

١٤٥ وما بعدها	١٢٦ وما بعدها	١٠٣ وما بعدها.

وأخيرًا فقد كنت أرجو أن تكون الترجمة الثانية لسفرنامه ترجمة دقيقة علمية أمينة فيها تصويب لما فاتني، من خطإٍ في ترجمة كلمة، أو سهو عن تحقيق اسم بلد، اقتداء بهذه التصويبات القيمة التي أدخلها - أو أدخل بعضها - الناشر اللبناني للطبعة الثانية نقلًا عن المقال القيم الذي نشره الأستاذ الجليل الشيخ حمد الجاسر في مجلة «المنهل» نقدًا لترجمتي العربية.

والله المستعان،

يحيى الخشاب

٢٤ رمضان ١٤٠٥

شارع وادي النيل - المعادي- القاهرة. مصر

«الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية»

(١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)

أتاح لي الأستاذ الكريم الدكتور فهد بن عبدالله السَّمَاري، المشرف على (دارة الملك عبدالعزيز) مناسبة طيبة، إذ أتحفني بكتاب لطيف الحجم، طريف الموضوع، من إصدارات الدارة هذا العام، بعنوان «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» لرحالة ياباني يدعى (ايجيرو ناكانو) ترجمة سيدة يظهر من اسمها أنها يابانية (سارة تاكاهاشي)، وكانت الرحلة وقد كُتِبَتْ باللغة اليابانية، ونشرت حلقات في إحدى المجلات اليابانية، ثم أُفردت في كتاب صدر في اليابان سنة ١٣٦٠هـ (سبتمبر ١٩٤١م).

كان كاتب الرحلة قدم مع الوزير الياباني المفوض في السفارة اليابانية في القاهرة، استجابة لدعوة من الشيخ حافظ وهبة - سفير الملك عبدالعزيز رحمه الله في بريطانيا - تقديرًا لما قدمته الحكومة اليابانية من مساعدة في إنشاء مسجد طوكيو عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) وَتُعَدُّ هذه أول زيارة رسمية يقوم بها مسؤولون في الخارجية اليابانية إلى المملكة العربية السعودية، وقد رأتِ الدارة أَنَّ نشر مثل هذه الرحلة ودراستها، يساعد في استكمال الصورة التي ترسمها الرحلات المتعلقة بالجزيرة للرحالة الأوربيين، وهي مع ذالك تتناول فترة تاريخية مهمة، إذ تسجل وقائع زيارة تلك البعثة اليابانية الرسمية إلى المملكة، ومقابلة الملك عبدالعزيز - رحمه الله -.

وَكَاتِب الرحلة - على ما يقول الدكتور فهد في مقدمتها - صاحب تجربة في البلاد العربية، ذو اطلاع على الثقافة العربية، إذ سجل يوميات رحلته بأسلوب أدبي رائع، ويضاف إلى هذا كما يقول الدكتور فهد: أن الرحلة تقدم وجهة نظر أخرى تختلف عن وجهات النظر الأوربية السائدة عن المنطقة، كما

تحوي عددًا كبيرًا من الصور (الفوتوغرافية) التي التقطها المؤلف أثناء الرحلة، وإن لم تَبْدُ واضحة لنقلها عن نسخة الكتاب الأصلية المطبوعة باللغة اليابانية.

وقد طبعت هذه الرحلة على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، وتقع في ١٦٤ من الصفحات، بما فيها الفهارس والصور.

لقد استهواني أسلوب الرحلة القصصي، فاسترسلت في القراءة، حتى أكملتها في جلسة واحدة، إذ كثرة الصور قللت ما في الصفحات الأخرى من الكلام، وطلاوة الأسلوب مِمَّا يذهب السأم والملل عن القارئ، فيمضي الوقت دون أن يشعر، وقد زُيِّنت كثير من الصفحات بتعليقات يبدو أنها من عمل الأستاذ الدكتور فهد - وإن لم يشر إلى ذالك في مقدمته - وهذه التعليقات إما بإضافة ما يوضح بعض العبارات، وإما بتصحيح بعض أَخطاءٍ وقعتْ في أصل الرحلة.

لم يلفت نظري سوى اهتمام مثقف ياباني بتدوين ما شاهده، وما مرَّ به أثناء رحلته من جدة إلى الرياض، في عهد لم تكن الطرق مُعَبَّدة، ولم تكن جميع وسائل التنقل متوفرةً ومهيَّئَة لكل أحد، ومع ذالك فهذا الرحالة الكريم مع زيارته لكثير من أقطار العالم، ومشاهدة مايتصف به أكثرها من جمال ومتعة، إلَّا أنه وهو يجوب تلك الصحراء الواسعة مع ما يعتريه في كثير من الأحيان من التعب، ونوبات المرض التي تدفعه لاستعمال بعض الأدوية، إنه مع كل ذالك يحس القارئ ما يبديه من شعور عاطفي نحو هذه المَهَامِهِ والصحاري التي يقطعها، فيصف الغداء الذي تناوله في الصباح في (السَّيل الكبير) بقوله: كان هذا الطعام من ألذ ما أكلته في حياتي.

ويقول عند اجتياز صحراء (رُكْبَة): إنه سافر مرة إلى الصحراء في مصر، فشعر بعظمة الطبيعة، لكن شعوره هنا مختلف يقول: فأنا أشهد بأن الطبيعة هنا قد جاوزت حدود الوصف، شعرت بالعظمة الإلهية، فلا شَيءَ ولا أحدَ غيرنا هنا.

ويضيف في موضع آخر: لم أكن أَشعر أبدًا بالملل، لا أدري لماذا؟ ربما لأنني أُحِبُّ الصحراء، وأعشق هذه الطبيعة الخلَّابة، وأُحاول أن أفهم الإسلام، هذا الدين الذي نبت وسط هذه البيئة[1]. ويضيف: هكذا ولد الإسلام وسط هذه الظروف الصعبة، فنشأ قويًّا صلبًا.

أدع للقارئ الكريم أن يستمتع كما استمتعت بقراءة الرحلة كما يهوى.

لقد أتاح لي الدكتور فهد - من خلال ما قرأتُ - مجالًا لتناول جوانب تتعلق (بدارة الملك عبدالعزيز - رحمه الله -).

أول هذه الجوانب: أن الدارة منذ أن أنشئت، تُعَدُّ أَحَدَ مراكز الدراسة والبحث، لا بما تضمُّهُ من مصادر تاريخية من مؤلفات ووثائق وغيرها، لا تتوفر إلَّا في هذا المركز، مما يسهل لكل معنيٍّ بأي جانب من جوانبتاريخنا، أن يرجع إليه، وأن يستفيد منه، وأن يجد من العاملين في هذه الدارة مَنْ يستقبله استقبال السرور به، المهتم بشؤونه، المساعد له فيما يرغب المساعدة فيه. أقول هذا عن تجربة وخبرة.

يضاف إلى ذالك: ما تُقَدِّمُ للباحثين من مطبوعاتها المحققة، مما يُعَدُّ مصدرًا موثوقًا به، مما يتعلق بتأريخ هذه البلاد.

ولهذا فإن تلك المنشورات تحتل لدى الباحثين منزلة رفيعة من الثقة، والاعتماد على ما فيها.

من هنا لا أرى غضاضة في أن أبدي ملاحظات يسيرة عرضت لي أثناء تلك القراءة السريعة في هذه الرحلة، وهي وإن كانت تتعلق بأمور قد تبدو غير مهمة لدى بعض الباحثين، إلَّا أن ورودها في كتاب من منشورات الدارة، يبدي مالها من أهمية.

(١) «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» - ص ٢٨ -.

الأمر الأول: تحديد موقع عكاظ:

عندما مَرَّ مؤلف الرحلة على بلدة (السَّيْل الكبير) قال بعنوان: (أولمبيا العرب.. بقايا عكاظ.. السيل) وقال في الحديث عن قرية السيل[1]: (يمكن أن أرى قرية صغيرة هناك عبر الوادي، ذالك موقع سوق عكاظ قبل الإسلام، الذي يقام كل عام، فيجتمع فيه العرب ينشدن الأشعار، ويتفاخرون)، واسترسل في الكلام عن أصحاب المعلّقات، حيث قرأها على شيخه الدكتور طه حسين، الذي درس على يديه الأدب الجاهلي، والحياة في البادية، وحياة العرب في الجاهلية، وذكر أنه تأثر كثيرًا بهذا الشعر الجاهلي الرائع.

من المعروف أن سوق عكاظ يقع على مقربة من (الطائف) في الناحية الشمالية الشرقية منه، حيث تنداح الأرض الواسعة المتصلة بصحراء (رُكْبَة)، بحيث تكون ملائمة لاجتماع القبائل في ذالك السوق، وهذا من الأمور التي نص عليها قدماء المؤرخين الذين حددوا الموضع، وأصبح الآن من الأمور الثابتة.

أما القول: بأنه في (السيل الكبير) فهذا غير صحيح، ولعل أول من قال به، وقرأته مسجلًا، هو الأستاذ خير الدين الزركلي في رحلته «ما رأيت وماسمعت» ثم جاء بعده الدكتور محمد حسين هيكل باشا، فحاول أن يؤيد هذا في كتابه «في منزل الوحي» ولكنه قال: بأنه لم يكن لديه سند علمي على هذا، ولكن الزركلي - رحمه الله - رجع عن هذا القول حين اطلع على البحث الذي كتبته ونشر بعنوان (موقع عكاظ)[2]، ولا أرى الأمر يدعو إلى التوسع في البحث في هذا الموضوع.

وكان من المناسب أن يُنَبَّهَ على هذا الخطإ الذي وقع فيه الرحالة الكريم، من

(١) «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» - ص ١٩ -.

(٢) مجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق - رمضان ١٣٧٠ ومجلة «العرب» س ٣ ص ١١٣٨ وما بعدها.

القول: بأن السيل هو موقع عكاظ، إذ كتاب يصدر عن هذا الصرح العلمي من صروح البحث والدراسة ينبغي أن تصحح الهفوات التي تقع فيه عند نشره.

(مرأة) بلد امرئ القيس التميمي وليس امرأ القيس الشاعر:

كان الشيخ يوسف ياسين - رحمه الله - حين مَرَّ ببلدة (مرأة)[1] قد تأثر قبل ذالك بما قرأ من نسبتها إلى امرئ القيس في قول ذي الرُّمَّة الشاعر: (وقد سُمِّيَتْ باسم امرئ القيس قَرْيَةٌ). فتخيل أن امرأ القيس هذا هو الشاعر، ودَوَّن هذا في رحلته التي سجل فيها مسير الملك عبدالعزيز - رحمه الله - من الرياض إلى مكة المكرمة قبل ستين عامًا وقد نشرت رحلة الشيخ يوسف ياسين في جريدة «أم القرى» ثم طبعت منفصلة بعيد ذالك[2]، بعد وفاة يوسف ياسين.

وأصبح هذا الخطأ متداولًا، وقد أوضحت ما وقع في الرحلة المذكورة من أخطاءٍ جغرافية، ثم بعد ذالك عندما زار الأستاذ فؤاد شاكر الرياض سنة ١٣٦٤هـ - كما أظن - وإن لاحظ ذالك الخطأ، إلَّا أنه وقع في خطإٍ آخر في رحلته التي دعاها «رحلة الربيع» أوضحته في مقال آخر لي كما أوضحت ان اسم امرئ القيس يطلق على كثيرين من الشعراء وغيرهم، وإلى أنَّ نسبة تلك البلدة إلى امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم، فسكانها وسكان بعض القرى المجاورة لها هم بنو تميم من بني امرئ القيس وغيرهم، وأوضحت أن ذا الرُّمَّة الشاعر كان يهاجِي أحدهم، وهو هِشام المَرَئِيُّ، كما ذكر ذالك قدماء علماء الأدب كصاحب «الأغاني» وغيره.

ولعل الرحالة الياباني سمع من بعض مرافقه ما دونه في رحلته حيث قال[3]:

(١) هذا أصل الاسم، ويسهله العامة في النطق بحذف الهمزة (مَرَاة).

(٢) انظر الملاحظات على هذه الرحلة: «العرب» س ٣٢ ص ٧٥٥.

(٣) «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» - ص ٦١ -.

(وفي هذا المكان ولد امرؤ القيس شاعر الجاهلية في عصر ما قبل الإسلام، لم أكن أعرف هذه الحقيقة.. إلى أن قال-: وهذه القرية وتلك الطبيعة الخلابة أعادت لذاكرتي بل جددت ذكرياتي بما عبر عنه امرؤ القيس في أشعاره ودغدغت أحاسيسي ومشاعري. - وقال في موضع آخر-: ياله من مكان!! هذا المكان مسقط رأس امرئ القيس مكان رائع)!.

ولا عتب على هذا السائح الذي يجهل الكثير عن هذه البلاد أن يقول مثل هذا فهو وان درس شعر المعلقات على شيخه الدكتور طه حسين في مصر، إلَّا أن تحديد مواضع الجزيرة مما يجهله الدكتور هو وغيره من علماء هذا العصر، ممن ليس من أهل هذه البلاد.

من هنا كان جديرًا من المشرفين على نشر الكتاب التنبيه على هذا الخطإ، فكتاب يصدر عن هذا المركز العلمي الموثوق بما ينشر من مؤلفات، ينبغي أن يكون من باب أَوْلَى، مِمَّا يعنى عناية تامة بما يتعلق بتاريخ هذه البلاد وأدبها وجغرافية بلادها.

ليست (العيينة) بلدة مسيلمة:

لعل الرحالة الكريم لديه تصور بأن (وادي حنيفة) هو بلاد مسيلمة، ومن هنا فحينما مَرَّ ببلدة (العيينة) قال في وصفها: هنا العيينة، وهي بلدة مشهورة تعرف بأنها بلدة مسيلمة الكذاب، وسمعنا عن قصة مسيلمة، وأنا أعرفها لأنني درست التاريخ أيضًا في جامعة القاهرة[1].

الوادي الذي كان يعرف قديمًا باسم (عِرض بني حنيفة) يَحْوي قرى فيها سكان كثيرون، ومسيلمة كان من قرية في أعلى الوادي، تقع غرب بلدة العيينة كانت تدعى (الهدَّار) ولعل موقعها فيما كان يعرف الآن باسم (الهُدَيْدِير) أحد روافد الوادي.

(١) «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» ص ٦٧.

أما بلدة (العيينة) فهي قرية أخرى، يبدو أنها كانت متصلة ببلدة (أباض)[1] التي هي أشهر من (الهدار) والتي درست وتحدثت عنها في كتاب «ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد» ومدينة (أُبَاض) تقع غرب (العُيينة) التي لا استبعد أن تكون إحدى محلات تلك المدينة، وقد ذهب مسيلمة وجهلت بلدته، وإن كانت في الوادي، ومن الخطإ أن تنسب هذه القرية التي لا صلة لسكانها بمسيلمة الذي مضى وهو وسكان قريته بخيرهم وشرهم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

وجانب آخر من الجوانب التي كنت أتمنى أن يُعْنَى بها هذا المركز، لاسيما أن من يتولى الإشراف عليه من خيرة شبابنا المثقف الواعي، ذي الغيرة القوية على كل ماله صلة بلغتنا الكريمة لغة «القرآن الكريم» في قواعد تقويمها ورسم كلماتها صحيحة.

ما أكثر ما يوجه بعض المثقفين إلى (مجمع اللغة العربية) النقد، ووصفه بالتقصير، وعدم مجاراة سير الحياة، من حيث الحفاظ على اللغة العربية، ولكن كثيرًا من هاؤلاء الذين يَصِمُوْنَ ذالك المجمع بالتقصير والضعف - وإن كانوا على جانب من الحق في بعض ذالك - إلَّا أن مما يؤسف أنهم يجهلون كثيرًا من قراراته، أو يتجاهلون بعضها، مِمَّا لو جرى العمل به لأسدى لِلُّغة يَدًا جُلَّى.

ومثالٌ قد يُعَدُّ يسيرًا: هو أنك قَلَّ أن تسمع من ينطق بكلمة (مئة) نطقًا صحيحًا حتى من كثير من المثقفين، وسبب ذالك صورة كتابتها المتوارثة من عهد قديم، فعلماء قواعد الرسم وإن نصوا على أن نوعين من الكتابة لا يقاس عليها كتابة المصحف العثماني، وكتابة العروضيين، عند تقطيع الشعر، ولكن كتابة كلمة (مئة) لا تزال ترسم بهذه الصورة (ماءة) فتقرأ ملحونة، وقد أصدر

(١) كانت أُباض قاعدة هذه البلاد في عشر الستين من القرن الأول الهجري.

(مجمع اللغة) قرارًا عن تسهيل قواعد الإملاء ومنها: (قواعد ضبط الهمزة وتنظيم كتابتها) كما أقرها المجمع في الدورة السادسة والأربعين في سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) وقد جرى إبلاغ ذالك القرار لجميع المحافل العلمية كوزارات المعارف والثقافة، ومراكز البحث وغيرها، وكان مما قَرَّرَ كتابة (مئة) على ياء مثل (فئة) و (رئة) أي بحذف الألف، والتزام ذالك، مع وصل كلمة (مئة) بثلاث إلى تسع مئة).

وكنت أتمنى لو أن المشرفين على نشر هذا الكتاب لاحظوا السير على ما قرره المجمع مما ورد في صفحات الرحلة: (١٤/ ٢٥/ ٤٤/ ٥٤/ ٦٥/ ٦٦/ ٦٧) لأنني أنظر إلى الدارة كما ينظر إليها كل معني بتراثنا وتاريخنا بمنزلة من السمو والرفعة جديرة بأن نُعَلِّق عليها آمالًا واسعة.

وقفات قصيرة للاستيضاح أو الإيضاح:

لعل إعجابي بأسلوب هذه الرحلة، هو مَاحَدَا بي لمذاكرة إخواني في الدارة، حولها في أمور قد لا تكون ذات قيمة من الناحية العلمية، إلَّا أنها من قبيل استكمال الاستفادة التامة مما ورد فيها.

حول وضوح الصور في الرحلة:

تُعَدُّ ما تحويه الرحلة من صور لكثير مما شاهد كاتبها في عهد يعد متقدمًا هو سنة ١٣٥٨هـ (١٩٣٩م) إلا أنها بدت باهتة، وقد أوضح سبب هذا الأستاذ الكريم الدكتور فهد السماري في المقدمة حيث قال: (بأن مما تضيفه هذه الرحلة عن المنطقة وجود عدد كبير من الصور الفوتوغرافية التي التقطها المؤلف، ويعود السبب في عدم وضوحها إلى إنتاجها من نسخة الكتاب الأصلية باللغة اليابانية لعدم توافر الأصول الفوتوغرافية للصور). كذا قال الأستاذ الكريم، ولكن أَلَيْس من الممكن العثور على أصول تلك الصور؟ التي

ليس من المستبعد أن تكون باقية، وأن يكون لدى الدارة من السعة والإمكان ما يهيئ لها الوسائل للحصول عليها، وبذالك تضيف إلى ماتحويه من نوادر الوثائق التاريخية المتعلقة بهذه البلاد مصدرًا ذا أهمية.

عبدالسلام غالي:

تكرر في الرحلة ذكر عبدالسلام غير معرَّف، إلَّا أن كاتبها لا يذكره إلَّا موصوفًا بصفات من النبل والشهامة، ترغب القارئ أن يعرف شيئًا عنه، وكل ما ورد في التعريف به هو قوله بعد سياق الحديث عن(الجعرانة) من الناحية التاريخية[1]: (كل هذا يشرحه لنا عبدالسلام الذي تولى الترجمة أو الشرح بالعربية الفصحى، وهو مصري تخرج في جامعة الأزهر، ثم ارتحل إلى مكة واستقر بها، وهو يدير فندق مكة، ويثق فيه الملك كثيرًا، وهو رجل ذكي جدًّا ومهذب، ويعمل أيضًا مراسلًا صحفيًّا للصحف المصرية، وكان يعرف جيدًا كيف يتعامل مع أمثالنا).

أَلَيْس في هذا الثناء المستطاب ما يدعو لمحاولة معرفة هذا الرجل؟!

إنه عبدالسلام غالي أحد الأساتذة الذين ندبوا للتعليم في هذه البلاد، مع أول بعثة من المدرسين قدموا من مصر حين كان الشيخ حافظ وهبة مشرفًا على التعليم في أول عهده سنة ١٣٤٧هـ، ثم بعد ذالك استقر في مكة وأصبح معدودًا من أهل هذه البلاد لنيله (الجنسية) وكان قد تولى إدارة أول فندق أنشئ فيها بعد فندق مصر التابع لشركة مصر للملاحة البحرية، وهو الذي أشار إليه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه «في منزل الوحي» ولم يجتمع به ولم يسمه.

لقد عرفت الشيخ عبدالسلام غالي – رحمه الله – كما عرفه غيري حين كان يسكن منزلًا مجاورًا للحرم، وفيه مكان مطل على المسجد الشريف، مهيأ

(١) «الرحلة اليابانية إلى الجزيرة العربية» – ص ١٣ –.

لصلاة الجمعة حيث كان كثير من علية القوم يجتمعون لدى الشيخ عبدالسلام في أوقات صلاة الجمعة وغيرها فيشاهـدون من كرم خلاله ولطف معشره وسمو أدبه مـا يزيدهم تعلقًـا ومحبةً له، بحيـث اكتسب صداقة كثيـر منهم، وأذكر من مشـاهير هـاؤلاء الشيخ عبدالله بن خشـلان، وكـان رئيس هيئة الأمـر بالمعـروف بمكـة، والشيخ محمد بن عبيكـان، فضـلًا عن عـددٍ من العلماء وطلبـة العلم، وللشيخ عبـدالسلام ابن كنت أقـرأ له كثيـرًا من الشعـر، غير أنني لم أسمع عنـه شيئًا في الفترة الأخيرة.

المسافة بين السيل وبين مكة:

بعد أن تحـدث الرحالـةعن قرية السيـل، وأن فيها نحو مئـة بيت يعيش فيها ٣٠٠ نسمة،أضاف[1]: (ويقع هذا المكان على بعد ١٩٠ كيلًا من جدة، و ٤٠ كيلًا من مكة).

والـواقع أن المسافـة بين قـرية السيل وبين مكـة في عهـدنا الحـاضر، بعـد إصلاح الطريق وتعبيده تقارب ضعف هذه المسافة.

سُعَيِّد الفيصل لا سعد الفيصل:

في الكـلام على بلدة الدوادمـي قال[2]: جاء الأميـر سَعْد الفيصـل، وتكرر الاسم أيضًـا، وصـواب الاسم (سُعَيِّـد الفيصل) تصغيـر سَعْـد، وهـو من خـدم الملك عبـدالعزيز المشهـورين، ومن مـوالي أسرتـه الكريمـة وكان أميـرًا لبلدة الدوادمي وما يتبعهـا من القرى، في تلك السنة، وأذكر أنني أنـا والأستاذ عبدالله الخيال - رحمـه الله - حين مررنا بهذه البلـدة في شهر رمضان سنـة ١٣٥٨هـ، كان سُعَيِّد هو الأمير والرجل معروف.

(١) «الرحلة اليابانية» - ص ٢١ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٤٨ -.

منطقة هضبة نجد:

قال[1]: (وصلنـا إلى (خُفّ) حيث تقع صحراء النفـود، في جهـة الشرق منهـا، وهي رمال نـاعمة جدًّا، ولهـذا فلا توجـد نباتـات على الإطلاق، والصحراء قـاحلة، وهي تمتـد من وادي السرحـان حتى جبل شَمَّـر، ويسمون هـذه الصحراء، صحـراء (خُفّ) وهناك صحراء أخـرى شبيهة بها هي صحراء الربع الخـالي. وصحراء النفود تعني منطقة هضبة نجد، والمكان الذي وصلنا إليه الآن هو جزء من صحراء النفود).

كأن هذا الـرحالة تَـوَهَّم أن نجدًا كلها صحراء قـاحلة، ولهذا قـال في الكلام على بلدة (مراة)[2]: (غير أنني لم أكن أعرف هذه الواحة في صحراء النفود).

من المناسب إيضـاح خطإ ما تـوهمه الرحـالة، وأن النفود مـاهو سـوى جزء يسير من منطقة نجد الواسعة العريضة ذات الواحات الكثيرة الخصبة.

أشجار التين:

وصف واحة مراة الخضراء قائلًا[3]: (وكانت السيارة تنطلق على طريق تحف بـه أشجار التين القصيـرة، كان عـدد هـذه الأشجار كبيـرًا جدًّا). إلى أن قـال: (وهذا يعني أننا كنا قـريبين من الواحة، ومن مسافة بعيدة شاهدنـا قرية (مرات) تحيط بها أشجـار النخيل، حتى الآن لا أزال أتذكـر ذالك المنظر الـرائع، منظر الواحـة، رمال صفراء، وشمس تسطع أشعتهـا بقوة، وأشجـار التين القصيرة، ثم الآلاف من أشجار النخيل).

لاشك أن الرحـالة رأى أشجارًا أخرى غيـر التين، فهذه المسافـة التي قطعها لم تكن معمورة بالزراعة، لينتشر فيها التين بتلك الصفة.

(١) «الرحلة اليابانية» - ص ٥١ -.

(٢) نفس المصدر - ص ٦٣ -.

(٣) نفس المصدر - ص ٥٨ -.

موقف العلماء من أجهزة المذياع:

في الكـلام وهـو في الجُبَيْلَـة قـال[١]: (ولكنني الآن حين استمع إلى إذاعـة القدس ينتابني شعور غريب، ويمكنني الآن أن أفهم مـاحدث منذ عشر سنوات من العلماء في مكـة، العلماء الذين استمعـوا إلى إذاعة مصر لأول مرة، فقـاموا بتحطيم أجهزة الراديو، لأنهم ظنوا بأن ما يصدر عنه هو صوت الشيطان).

لا أعرف من أين استقى الرحالة الكريم هذا القول، فآلة المذياع انتشرت في مكة وفي مدن من الجزيرة قبل ذالك الـوقت، بحيث أصبحت مألوفة وقد يكون هناك من بعض المنتسبين إلى طلبة العلم من استنكـرها قبل ذالك الوقت، كما أشار إلى ذالك الشيخ حافظ وهبة في كتابـه «جزيرة العرب في القرن العشرين» ولكن لم يحدث من علماء مكة تحطيم أجهزة المذياع فيما أعلم.

لم يكن (المصمك) مقراً للحكم في عـهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله -:

قال[٢]: (ومرت سيـارتنا بجوار قصر المصمك). إلى أن قـال: (وداخل هذا القصـر توجـد الآن سلطة نجـد، والأمير سعـود ولي العهد يقيم هنـا أيضًا، كمـا توجد في القصر أيضًا الشعبة السياسية، ومقر الوزارات المختلفة).

وورد في الحـاشيـة تنبيه نصـه: (لم تكن في ذالك الـوقت وزارات بـالمعنى الـذي تدل عليـه الكلمة، بل إدارات تـتولى شـؤون الدولـة المختلفة، وإنشـاء الوزارات تم بعد قيام الرحالة برحلته بزمن) انتهى.

وكان ينبغي التنبيه أيضًـا على أن القصر لم يكن مقرًّا لسلطـة نجد، ولا لولي العهد، ولا للشعبة السياسية. فهذه كلها كانت في قصر الحكم المعروف.

---

(١) «الرحلة اليابانية» - ص ٦٩ -.
(٢) نفس المصدر - ص ١٠٦ -.

كلمات يسيرة:

مع الاهتمام بمراجعة الترجمة من الناحية اللغوية، إلَّا أن هناك كلمات يسيرة لعلها من أثر التطبيع (أي الأخطاء المطبعية) مثل:

١- (لو حركنا الفنجان في يدنا مرتين أو ثلاث)[١]. والصواب: (أو ثلاثًا).

٢- (لأن النبي محمد ﷺ)[٢]. والصواب: (محمدًا).

٣- (أشعة الشمس الحارقة)[٣]. والصواب: (المحرقة).

٤- (شـاهدنـا القمح وأشجـار الطلح وحنظل)[٤]. والصواب: (والحنظل) أو (حنظلًا).

٥- (مرآب للطائرات)[٥]، وقد وضع على الهمزة مد. والصواب: (مرأب) بدون مد الهمـزة، وكثيرًا ما وقع هذا الخطأ عنـد ذكر هذا الاسم، وهـو اسم موضع من رأب أي أصلح.

لقـد اتخذت ممـا تقدم وسيلـة لمذاكـرة إخـوتي في الدارة معبـرًا عن مبلغ تقديري لأي جهد يبذلونه في سبيل الاهتمام بتاريخ أمتهم وبلادهم.

ومـا أراني وإن كنت تعرضـت لأمور يسيـرة تجـاوزت ما قصـدت في سبيل ذالك، ولهم من رحابة الصدر والثقة بحسن القصد ماهو مؤمل ومعروف.

* * *

---

(١) «الرحلة اليابانية» - ص ١٢ -.
(٢) نفس المصدر - ص ١٣ -.
(٣) نفس المصدر - ص ٣٥ -.
(٤) نفس المصدر - ص ٤٠ -.
(٥) نفس المصدر - ص ١٢٤ -.

شيخ المستشرقين جبْريلِّي

(١٣٢٢هـ / ١٤١٧)

كنت أُصيخُ ليلة الجمعة الثالث من شهر شعبان ١٤١٧هـ (١٣/ ١٢/ ١٩٩٦م) لاستماع المذياع، فوقع في سمعي نبأُ وفاةِ شيخ المستشرقين (فرانشيسكو جبريلِّي) الإيطالي، استرعى سمعي الاسم، فليست هذه المرة الأولى التي أسمعه، فتذكرت أنني قد اجتمعت بالرجل، واستقبلني استقبالًا كريمًا حين زرت مدينة (رومة) أفلا يجدر أن أُقابل هذا النبأ بكلمة وفاء؟، وما أقلها بالنسبة لعالم جليل أحسن استقبالي، وازددت بمعرفتي إِيَّاه ما أنا بحاجة إلى استزادته من علم ومعرفة!!

لقد كان الأستاذ جبريَلِّي واسع الاطلاع على التاريخ العربي الإسلامي، بجميع فروعه، وكان من ذوي الاختصاص في الآداب الشرقية، كالعربية والفارسية والتركية، كما كان شديدَ الإعجاب بالبطل العظيم صلاح الدين الأيوبي، الذي حَرَّرَ بيت المقدس، وذا تقدير له، ولحنكته السياسية، وما يتصف به من سماحة الأخلاق وسموها أثناء كفاحه حتى مع أشد أعدائه.

وكان من أبرز تلامذة الأستاذ (كَارْلُو نِلِّينو ١٢٨٨/ ١٣٥٧) المستشرق المشهور، الذي كانت محاضراته في الجامعة المصرية في أول إنشائها عن «علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» كانت محاضراته هذه من أهم المصادر في موضوعها، وقد عُرِّبَت وطبعت في (رومة) في أربعة أجزاء، ودرَّس في كلية الآداب في تِلْكَ الجامعة تاريخ اليمن، وقام بتدريس تاريخ الإسلام في جامعة (رومة)، وابنته الأستاذة (ماريا نِلِّينو)[١] مستشرقة معروفة متخصصة في الأدب العربي، وقد جمعت «شعر النابغة الجعدي» ولها أبحاث

(١) توفيت منذ بضع سنين.

في ذالك الأدب، وقد زارت مدينة جدة سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) واجتمعت بالشيخ محمد حسين نصيف، وأثنت على مكتبته.

أما الأستاذ جبريلي فله مؤلفات معروفة وأبحاث واسعة عن الإسلام، وعن العرب والعروبة في الماضي والحاضر، وله دراسات قيمة ذات صلة بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، ومن مؤلفاته «تاريخ الحضارة الإسلامية» وغيره.

ومن الخطإِ أن ننظر إلى جميع تلك المؤلفات والأبحاث له أو لأمثاله من المستشرقين نظرة تتطابق مع جميع ما نتوقعه ونعتقده ونجده فيما بين أيدينا من مؤلفات علمائنا، ولكننا ينبغي أن نعترف للمحسن بإحسانه فنقبله منه، وندع ما سوى ذالك مع محاولة إصلاحه متى وجدنا إلى ذالك سبيلًا، فزماننا كما قال أبو الطيب:

إنَّـا لفـي زمنٍ تَـرْكُ القبيـح بـه ... من أكثر النـاس إحسـانٌ وإفْضَـالُ

لقد اجتمعت بهذا المستشرق الكبير في أول شهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٠هـ (تشرين أول ١٩٦٠) حين قدمت (رومة) في تلك الفترة من الزمن، فكان مما زرت من معالمها (معهد الشرق للدراسات الإسلامية والعربية)، ثم دعتني الأستاذة (ماريا نِلِّينو) لحفلة تعارف في هذا المعهد، فاجتمعت مع عدد من علماء الاستشراق، كان شيخهم إذ ذاك الأستاذ (دِلَّافيدا)[١] وعمره يقارب الثمانين عامًا، وهو من المختصين بمعرفة أنساب العرب، وكتب عنها في «دائرة المعارف الإسلامية» التي وضعها المستشرقون،[٢] وكان يبدو في صحة جيدة، وقد أخبرني عن تاريخ مولده، وأردف قائلًا: حينما قمت بوضع «فهرس مكتبة الفاتيكان» كنت أجد في تراجم العلماء أنهم من أطول الناس أعمارًا، وقرأت

(١) انظر عنه مجلة «العرب» - س ٢ ص ٣٧٦ -.

(٢) عُرِّب من هذه الدائرة ١٥ مجلدًا، إلى حرف العين.

كتاب «المعمَّرين» للسِّجِسْتاني فوجدت الأعمار فيه تبلغ المئات من السنين، وأنا لا أريد المئات - قالها مازحًا - ولكنني أريد عمرًا طويلًا وصحة جيدة.

وجرى بيني وبينه بحث مطول عن كتب الأنساب ذكرت خلاصته في رحلاتي[1] وأشار إلى أنه قرأ بعض ما كتبته في مجلة «المجمع العلمي العربي» في الموضوع، وذكر لي أن من نوادر المخطوطات في مكتبة الفاتيكان الجزء الثاني من «قصص الأنبياء» تأليف عمارة بن وَثِيْمَة، فقلت: ولكن كتب قصص الأنبياء - كما يعرف الأستاذ، فأجاب: صحيح، صحيح، ولكن شهرة وَثِيمة - وهو صاحب كتاب «الرِّدَّة» - تجعل لمؤلف ابنه قيمةً، من حيث القدم، وكيفية نشوء تدوين كتب القصص.

وممن اجتمعت بهم في ذالك العهد الأستاذ (جيوفياني أومان)، الأستاذ المساعد في جامعة نابلي، وقد أخبرني بأن المعهد يقوم بإعداد كتاب الإدريسي في الجغرافيا للنشر،[2] وأنه يقوم بتحقيق الكتاب، بعد أن جمع المعهد من أصول مخطوطاته، تسع نسخ، وتحدثنا في الموضوع، وممن اجتمعت به أيضًا الأستاذ جبريَلّي.

أرادت سفارتنا في هذه البلاد أن ترد الجميل لهذه النخبة من العلماء الذين عبروا عن إكرام بلادنا ممثلًا في حسن استقبال أحد مثقفيه، فكان أن دعتهم لحفلة غداء في يوم الخميس، وكان من بين المدعوين الأستاذ جبريلي، وكان أستاذ الأدب العربي إذ ذاك في جامعة (رومة)، ومعاونه هو شاب مستشرق زَلَّ عني اسمه.

كان جبريلي إذ ذاك في الخامسة والستين، وكان يتحدث العربية بطلاقة وبدون لُكْنَةٍ وكان من أكثر الحاضرين مرحًا وانشراحًا، وهو عضو مراسل

(١) «رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث» - ص ٢٧٣-.

(٢) «نزهة المستشاق في اختراق الآفاق» وقد كمل طبعه في طباعة حسنة في تسعة أجزاء، في صفحات متسلسلة بلغت ١٠٩٠ طبع سنة ١٩٨٤م، من القطع الكبير بفهارسه المفصلة.

لـ(المجمع العلمي العربي) بدمشق، و (مجمع اللغة العربية) في القاهرة، وقد حدثني عن مؤسسة الأمير المستشرق الإيطالي (كايتاني)[1] التي هي الآن قسم من مكتبة (المجمع العلمي الإيطالي) ورغبني في زيارتها، وكنت عزمت على السفر غدًا - أي في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى - ولكن لترغيبه لي قررت ألَّا أُغادر هذه المدينة، قبل زيارة تلك المكتبة.

وفي صباح ذالك اليوم اتصلت هاتفيًّا بالأستاذ وأخبرته برغبتي بزيارة تلك المكتبة، وقد قال لي: إذا قررت زيارتها فأنا أُحب أن أكون معك لأرشدك إلى مخطوطاتها.

لعل أجمل ما شاهدته في المكتبات التي زرتها في (أوروبة) قاعة الفهارس والمطالعة في (المتحف البريطاني) وحسن ترتيب الكتب وتجليدها في (المجمع العلمي الإيطالي) وفيه قسم يحوي (مؤسسة كايتاني للأبحاث عن تاريخ الإسلام وحضارته) في حجرتين واسعتين، وشاهدت فيهما سيدتين، استقبلتني إحداهما بالسلام باللغة العربية، ثم قدمها إليَّ الأستاذ جبريَلّي قائلًا: هذه الأستاذة (وِتْشَا وِلي رِيْرِي) أستاذة الأدب العربي في (جامعة نابلي) فقلت لها بعد أن رددت التحية عليها: أنا لم أستطع معرفة اسمك، لغرابة الكلمات

(١) هذه المؤسسة منسوبة إلى الأمير (ليون كايتناني ١٢٨٦/ ١٣٤٥هـ) وهو كما جاء في «الأعلام» للأستاذ الزركلي أمير إيطالي من أسرة عريقة معروفة في رومة منذ عشرة قرون. وقد درس هذا الأمير اللغات حتى أتقن العربية والفارسية وتخرج في جامعة رومة، وقام برحلات إلى الهند وإيران والشام، وأَلَّف بالإيطالية كتاب «حوليات الإسلام» في التاريخ طبع منه ثمانية مجلدات، محلاة بالرسوم والخرائط المفصلة، انتهى فيها إلى سنة ٤٠ للهجرة، وكان يرجو أن يفسح في أجله ليكمل تاريخ القرن الأول للإسلام في ٢٥ مجلدًا، وجمع جذاذات لتراجم عدد كبير من علماء المسلمين وأدبائهم في الأندلس، ونشر باللغة العربية كتاب «تجارب الأمم» تأليف مسكويه، مصدرًا بمقدمات مفيدة ومذيلًا بفهارس ضافية، وجمع مكتبة عربية عظيمة أضيفت إلى (المجمع العلمي الإيطالي) في حجرتين متصلتين به، يطلق عليهما اسم (مؤسسة كايتاني للدراسات الإسلامية) وقد وضع الأستاذ جبريلي فهرسًا لهذه المكتبة في مجلد لطيف.

الإيطالية على سمعي، فقالت: يعرفني العلماء العرب باسم (لُورا) وأنا لست مسلمة، ولكنني أَلَّفْتُ كتـاب «محاسن الإسـلام» وأَلَّفْتُ كتاب «النحـو العربي» وكانت تتكلم اللغة العربية الفصحى بطلاقة وسرعة ووضوح[١].

أشار الأستاذ جِبـريَلِّي إلى كتب مصفوفة في ثلاثة رفوف في أحـد الصّوَانات (الدواليب) قائلًا: هذه اشتريت من اليمن بواسطة أحد التجار الإيطاليين، وهي غير مذكورة في الفهرس المطبوع، وهو فهرس يقع في كراسة لطيفة، وضعه الأستاذ جبريَلِّي بالإيطالية.

بدأت أنبش تلك الكتب واحدًا واحدًا، والأستاذة (لورا) تساعدني بتقديم الكتاب عندما تراني أريد إعادة ما بيدي إلى مكانه، بعد أن تسألني: هل هذا الكتاب غريب أو نادر؟! وعندما أذكر لها اسم المؤلف تفتح كتاب (بروكلمان) وتقرأ ماكتب عنه، وقد أُظْهِر لها جهلي عندما أطالع بعض المخطوطات، بالمؤلف أو عصره، فتوضح لي ما أجهله من ذالك. ومن ذالك كتاب «رسائل السيوطي» الذي قلت: إنه قَيِّمٌ. فردَّت قائلة ما معناه. أغلب ماكتب السيوطي منقول.

وقد ذكرت ما وقع عليه نظري من تلك الكتب في الرحلة، وكان لمرشدتي بعض الآراء الصائبة تتعلق بالكتب التي أشرت إليها.

كان الأستاذ جبريلي معي تلك الأثناء منشرح الصدر مرحًا يكرر لي قوله: إن مثل هذه الزيارات العابرة لا تمكن الباحث من الاستفادة التامة، ويرغبني في

(١) هي الدكتورة (لورا فيشيا فاغليري) أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية في جامعة نابلي. نشر كتابها باللغة الإيطالية المرة الأولى سنة ١٩٢٥ في رومة، ونشر باللغة الإنجليزية في نيويورك سنة ١٩٥٧م، وقدطبع باللغة العربية في بيروت سنة ١٩٦٠م باسم «دفاع عن الإسلام».

البقاء فترة أطول، وفي أن أزور معه (جامعة رومة) وأتحدث إلى بعض طلابه، ويحضر لي شيئًا من مؤلفاته وأبحاثه.

حقًّا لقد خرجت من عنده، وكنت أتمنى لو أن لدي من الوقت ما يمكنني من البقاء للاستفادة من علمه، ومن أدبه، ثم لما مررت بمدينة رومة في شعبان سنة ١٣٨٥هـ، اتصلت بالأستاذة (ماريا نِلِّينو)، فأخبرتني أن الأستاذ جبريَلِّي ليس في (رومة)، كما أخبرتني بأن (دِلاَّفيدا) طريح الفراش، وأنه لا يقابل أحدًا، لاشتداد مرضه، الذي توفي فيه، وبعد سنوات علمت بوفاة (ماريا).

* * *

الخاتمة

كنت أود أنني تناولت في هذا الكتاب رحلات أخرى عربت ونشرت، ومن بينها ما أشرفت على نشره كرحلة (الليدي آن بلنت Lady Anne Blunt): «الحج إلى نجد Pilgrimage To Nejd» التي عُرِّب قسم منها ونشر باسم «رحلة إلى نجد»، وكذا رحلة الفلندي جورج أوغست فالين Yrjo Aukusti Wallim التي نشرت معربة باسم «صور من شمالي جزيرة العرب» عربها الأستاذ سمير سليم شبلي، وما كتبه الرحالة بوركهارت Burckhart بعنوان «ملاحظات عن البدو والوهابيين Notes on The Bedouins and Wahabys» وقد عَرَّب الدكتور عبدالله الصالح العثيمين القسم الأخير منه وتحدثت عنه في أول هذا الكتاب.

أما القسم الأول منه الذي يتعلق بالحديث عن القبائل العربية التي تقطن الصحراء السورية كقبيلة عنزة، وعن حياة البدو وعاداتهم وتقاليدهم، فقد عُرِّب حديثًا، ونشر بصورة سيئة وخاصة من حيث التعريب - كنت أود الحديث عن هذه الرحلات إلَّا أن عدم اطمئناني أن ما قدم منها للقراء مُعَرَّبًا لم يكن بصورة تبعث على الثقة والتأكد من الصحة تمكنان من الاستفادة منها، وذالك لظروف خاصة لا داعي لتفصيلها.

وقد وجه صاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبدالعزيز أمير منطقة حايل بجمع ما عُرِف عن هذه المنطقة في رحلات الغربيين، وجاء هذا في مجلد ضخم زادت صفحاته على (٧٥٠) صفحة مُصَدَّرًا بمقدمة عن جغرافية هذه المنطقة وتاريخها، وخاتمة عن حالتها اليوم وعن الأسرة الرَّشِيدية.

أما الرحالون الذين ضم الكتاب وصف مشاهداتهم فعددهم اثنا عشر من مشاهيرهم: (فالين Wallin) و (بلجريف Palgrave) و (كارلو جرماني Carlo Guarmani) و (داوتي Doughty) و (آن بلنت Anne Blunt) و (شارلز هوبر Charles Huber) وغيرهم.

وكنت قد أبديت لسمو الأمير الحاجة إلى تعريب هذا الكتاب، فأفضل ووعد بذالك وأمل أن يتحقق هذا الوعد، ليستفاد من الكتاب في أوسع مجال، وليجد القراء من مصادر تلك الرحلات ما يستفيدون منه بثقة واطمئنان. والله الموفق،،

الفهارس العامة

١- الأعلام

٢- الأسر والجماعات والقبائل

٣- الكتب والصحف والمجلات

٤- المواضع